

الجواب الصحيح لمَن بَدَّلَ دِينَ الْمَسِيحِ

لشيخ الإسلام أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحلِيم
ابن تيمية الحرّاف
المتوفى سنة ٧٢٨ هـ

تحقيق وتعليق

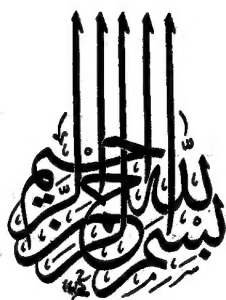
د. علي بن حسن بن ناصر

د. حمدان بن محمد الحمدان

د. عبد العزيز بن إبراهيم العسكر

المجلد الثاني

دار العاصمة
للنشر والتوزيع



الْجَوَابُ الصَّحِيحُ
لِمَنْ بَدَّلَ دِينَ الْمَسِيحِ

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية

١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م

وزارة الثقافة

المملكة العربية السعودية

الرياض - ص ب ٤٢٥٠٧ - اليمن البريدي ١١٥٥١

هاتف ٤٩١٥١٥٤ - ٤٩٣٣٣١٨ - فاكس ٤٩١٥١٥٤

فصل

وإما أن لا^(١) يقرأوا برسالته إلى العرب ولا غيرهم، بل قالوا فيه ما كان يقوله مشركو العرب من أنه شاعر، أو ساحر، أو مفتر كاذب، ونحو ذلك. فيقال لهم على هذا التقدير: فدليلكم أيضاً باطل، ولا يجوز أن تحتجوا بتقدير تكذيبكم لمحمد - صلى الله عليه وسلم - بشيء من كلام الأنبياء قبله، سواء صدقتم محمداً^(٢) - صلى الله عليه وسلم - في جميع ما يقوله أو في بعضه، أو كذبتموه فدليلكم باطل، فيلزم بطلان دينكم على كل تقدير، وما ثبت بطلانه على كل تقدير، فهو باطل في نفس الأمر، فيثبت أنه باطل في نفس الأمر، وذلك أنكم إذا كذبتم محمداً لم يبقَ لكم طريق تعلمون به صدق غيره من الأنبياء، فيمتنع مع تكذيبه القول بصدق غيره، بل من اعتقد كذبه وصدق غيره، لم يكن عالماً بصدق غيره بل يكون مصداقاً لهم بغير علم: وإذا لم يكن عالماً بصدقهم لم يجز احتجازه قط بأقوالهم بل ذلك قول منه بلا علم، ومحااجة فيما^(٣) لا علم له بها، فإن الدلائل الدالة على صدق محمد - صلى الله عليه وسلم - أعظم وأكثر من الدلائل الدالة على صدق موسى وعيسى، ومعجزاته أعظم من معجزات غيره، والكتاب الذي أرسل به أشرف من الكتاب الذي بعث به غيره، والشرعة التي جاء بها

(١) في س، ك، ط (وأما إن لم).

(٢) في أ (محمد)، وصححناه من سائر النسخ.

(٣) سقطت (فيما) من أ وألحقناها من سائر النسخ.

أكمل من شريعة موسى وعيسى - عليهما^(١) السلام - وأمته أكمل في جميع الفضائل من أمة هذا وهذا. ولا يوجد في التوراة والإنجيل علم نافع وعمل صالح إلا وهو في القرآن أو^(٢) مثله أو منه، وفي^(٣) القرآن من العلم النافع والعمل الصالح ما لا يوجد مثله في التوراة والإنجيل، فما من مطعن من مطاعن أعداء الأنبياء يطعن به على محمد - صلى الله عليه وسلم - إلا ويمكن توجيه ذلك الطعن وأعظم منه على موسى وعيسى .

وهذه جملة مبسطة في موضع آخر لم نبسطها^(٤) هنا، لأن جواب كلامهم لا يحتاج إلى ذلك، فيمتنع الإقرار بنبوة موسى وعيسى - عليهما السلام - مع التكذيب بنبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - ولا يفعل ذلك إلا من هو من أجهل الناس وأضلهم، أو من أعظمهم عناداً واتباعاً لهواه، وذلك أن^(٥) هؤلاء القوم احتجوا بما نقلوه عن الأنبياء، ولم يذكروا الأدلة الدالة على صدقهم^(٦)، بل أخذوا ذلك مسلماً وطلبوا أن يحتجوا بما نقلوه عن الأنبياء قبله، وبما نقلوه عنه على صحة دينهم،

(١) في س، ك (عليه).

(٢) سقطت (أو) من ط .

(٣) سقطت من س (الواو).

(٤) تحدث بالتفصيل عن هذا في الجزء الثالث والرابع من هذا الكتاب .

(٥) سقطت جملة (وذلك أن) من أ وزدناها من سائر النسخ .

(٦) تحدث الشيخ رحمه الله في الجزء الثالث من الكتاب عن هذه المسألة بالتفصيل

وبين أن فيمن ذكره أهل الكتاب على أنه نبي ليس بنبي عند المسلمين كملixa، وعاموص وأن من ثبت عند المسلمين نبوته كموسى وعيسى وداود، وسليمان، لم يثبت عند المسلمين أنهم قالوا جميع ما ذكره من الكلام وأن جمهور المسلمين لا يعلمون نبوة أحد من الأنبياء قبل محمد - صلى الله عليه وسلم - إلا بإخبار محمد بنبوتهم . . . إلخ ما ذكره من الحجج القوية في هذا .

وهذه حجة داحضة سواء صدقوه أو كذبوه، فإن صدقوه بطل دينهم وإن كذبوه بطل دينهم، فإنهم إن صدقوه فقد علم أنه دعاهم وجميع أهل الأرض إلى الإيمان به وطاعته، كما دعا المسيح وموسى وغيرهما من الرسل وأنه أبطل ما هم عليه من الاتحاد وغيره، وكفرهم في غير موضع، ولهذا كان مجرد التصديق بأن محمداً رسول الله ولو إلى العرب يوجب^(١) بطلان دين النصارى واليهود وكل دين يخالف دينه. فإن من كان رسولاً لله فإنه لا يكذب على الله، ومحمد^(٢) - صلى الله عليه وسلم - قد علم منه أنه دعا النصارى واليهود إلى الإيمان به وطاعته كما دعا غيرهم، وأنه كفر من لم يؤمن به ووعد النار، وهذا متواتر عنه تواتراً^(٣) تعلمه العامة والخاصة وفي القرآن من ذلك ما يكثر ذكره، كما قال - تعالى - :

﴿لَمَ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۖ (١) رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ۖ (٢) فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ۖ (٣) وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۖ (٤) وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ خُفِيَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ۖ (٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ۖ (٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ۖ (٧) جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ۖ (٨)﴾

(١) في أ (فوجب)، والصواب ما أثبتناه من سائر النسخ.

(٢) في ط (ومحمد رسول الله).

(٣) في أ، س، ك (التواتر)، وصححناه من ط.

(٤) سورة البينة كلها.

وقال - تعالى - :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ أَسْلَمُوا وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا أَلْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْعِلْمُ بَغْيًا يَبِينُهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعْنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا أَلْكِتَابَ وَالْأُمِّيَّةَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ ۞ .

وقد ذكر كفر اليهود والنصارى في غير (٣) موضع ، كقوله
- تعالى - عن النصارى :

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ۞ ... ﴿٣﴾ .

وقال - تعالى - أيضاً :

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي لَكُمْ أَسْرَؤِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَحْدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ

(١) سورة آل عمران: الآيات ١٨ - ٢٠ .

(٢) سقطت (غير) من ط .

(٣) سورة المائدة: الآية ١٧ .

وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ بُنِيتُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَتَاهِلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ (١)

وقال - تعالى - :

﴿ يَتَاهِلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٧٤﴾ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿٧٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٧٦﴾ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ فَدَجَّاهُكُمْ بُرْهَنَ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴿٧٧﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا ﴿٧٨﴾ (٢)

وقال - تعالى - :

(١) سورة المائدة: الآيات ٧٢ - ٧٧ .

(٢) سورة النساء الآيات ١٧١ - ١٧٥ .

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِيُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَالَهُمْ اللَّهُ أَفَنُؤْفِكُونَ ﴿٣٥﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣٦﴾﴾ (١).

وقال - تعالى - :

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ۖ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٣٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَأْمَرْتَنِي بِهِ أَنْ آعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مِمَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ (٢).

فقد قال - تعالى - :

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ...﴾ (٣).

في الموضعين .

وقال تعالى :

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ...﴾ (٤).

وقال - تعالى - : ﴿... وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ...﴾ (٥).

(١) سورة التوبة: الآيتان ٣٠ - ٣١.

(٢) سورة المائدة: الآيتان ١١٦، ١١٧.

(٣) سورة المائدة: الآية ١٧، وتكررت في المائدة نفسها رقم ٧٢.

(٤) سورة النساء: الآية ١٧١.

(٥) سورة المائدة: الآية ٧٣.

وقال - تعالى - :

﴿... وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ...﴾^(١).

والنصارى قالت الأقوال الثلاثة، فذكر الله عنهم هذه الأقوال^(٢) لكن من الناس من يظن أن هذا قول طائفة منهم، وهذا قول طائفة منهم.

كما ذكره طائفة من المفسرين^(٣)، كابن جرير الطبري^(٤) والثعلبي^(*) وغيرهما ثم تارة يحكون عن اليعقوبية^(٥): أن عيسى هو الله،

(١) سورة التوبة: الآية ٣٠.

(٢) في الجملة من قوله: (والنصارى إلى قوله - الأقوال) تقديم وتأخير في س، ك، ط لا يضر.

(٣) ورد كلام قبل هذه الجملة في نسختي ك، ط. وهو كلام زائد ومرتبك لا مكان له قد أخل بالمعنى وقد سقط من أ، ومن س. ونصه: «وقولهم ثالث ثلاثة قول النسطورية. وقولهم: إنه ابن الله قول الملكانية، ومنهم من يقول قوله: إن الله هو المسيح بن مريم قول اليعقوبية وقولهم والآية وروح القدس، وظن ابن جرير الطبري أن هذه الطوائف كانوا قبل اليعقوبية والنسطورية والملكية».

(٤) انظر: تفسير ابن جرير - رحمه الله - ٢٠٢/٦ (مجلد ٤) عند آية المائدة: ٧٣. وانظر: ٤٨٠/١٠ - ٤٨١، ط دار المعارف بمصر، وانظر: تفسير القرطبي ٢٤٩/٦ - ٢٥٠، ط دار الكتاب العربي.

(*) الثعلبي هو: أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي أبو إسحاق: مفسر من أهل نيسابور، له اشتغال بالتاريخ من كتبه «الكشف والبيان في تفسير القرآن» مخطوط، وقد ذكر الذهبي صاحب كتاب التفسير والمفسرون ٢٢٩/١ أنه يوجد منه نسخة غير كاملة في مكتبة الأزهر برقم (١٣١) ٥٥٦١، ويعرف بتفسير الثعلبي توفي رحمه الله سنة ٤٢٧ هـ.

انظر: البداية والنهاية ٤٠/١٢؛ وإنباه الرواة ١١٩/١؛ والأعلام ٢١٢/١.

(٥) اليعقوبية: نسبة إلى يعقوب البرذعاني، وكان راهباً بالقسطنطينية.

وعن النسطورية^(١): أنه ابن الله، وعن المريوسية^(٢): أنه ثالث ثلاثة، وتارة يحكون عن النسطورية: أنه ثالث ثلاثة، وعن الملكية^(٣): أنه الله، ويفسرون قولهم: ثالث ثلاثة بالآب والابن، وروح القدس.

والصواب: أن هذه الأقوال جميعها قول طوائف النصراني المشهورة: الملكية واليعقوبية والنسطورية، فإن هذه الطوائف كلها تقول بالأقانيم الثلاثة: الآب والابن وروح القدس، فتقول: إن الله ثالث ثلاثة، وتقول عن المسيح: إنه الله، وتقول إنه ابن الله، وهم متفقون على اتحاد اللاهوت^(٤) والناسوت^(٥) وأن المتحد هو الكلمة، وهم متفقون على عقيدة إيمانهم التي تتضمن ذلك، وهو قولهم: «نؤمن بإله واحد أب ضابط الكل، خالق السموات والأرض، كل ما يرى وما لا يرى، ورب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الآب

(١) النسطورية: نسبة إلى نسطور، وسبق بيان مذهبهم في قسم الدراسة.

(٢) المريوسية: لعلها منسوبة إلى «بريموس» من القرن الثاني الميلادي ولد بالإسكندرية، وانتخب بطريركاً، وكان واعظاً، يقيم الأساقفة والقساوسة، ومكث اثني عشر عاماً، وكانت وفاته سنة ١٢١م كما ذكر النصراني. انظر تاريخ الكنيسة القبطية تأليف منسي القمص ص ٣٤، (ط ٣)، القاهرة الحديثة ١٩٨٢م).

(٣) الملكية: هي المسيحية الرسمية وهي أسبق من النسطورية واليعقوبية، وتنسب إلى ملوك النصراني، وقيل إلى ملكا، الذي ظهر بأرض الروم واستولى عليها، ومذهبهم أن الله ثالث ثلاثة تعالى الله عن قولهم.

انظر: الفصل لابن حزم ٤٨/١؛ والملل والنحل ٢٢٢/١؛ والمغني للقاضي عبد الجبار ٨٤/٥؛ وتاريخ ابن البطريق ص ٢٠١، ونشأت الفكر الفلسفي في الإسلام ٩٥/١.

(٤) اللاهوت: تعني الجانب الإلهي من عيسى في معتقد النصراني.

(٥) الناسوت: يعنون به الجانب البشري من عيسى.

قبل كل الدهور، نور من نور إله حق من إله حق مولود غير مخلوق»^(١).

وأما قوله - تعالى - :

﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ...﴾.

وقوله :

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ...﴾.

فقد فسروه^(٢) بالثلاث المشهور عنهم، المذكور في أمانتهم، ومن الناس من يقول: إن الله هو المسيح ابن مريم قول اليعقوبية، وقولهم^(٣): ثالث ثلاثة هو قول النصارى الذين يقولون بالآب والابن^(٤) والروح القدس^(٥) وهم^(٦) قد جعلوا الله فيها ثالث ثلاثة، وسموا كل واحد من الثلاثة بالإله والرب، وقد فسره طائفة بجعلهم عيسى وأمه إلهين يعبدان من دون الله.

قال السدي^(٧) في قوله - تعالى - :

(١) سبقت الإشارة إلى قانون الأمانة عند الطائفتين الرئيسيتين: الكاثوليك، والأرثوذكس والمقارنة بين النصوص.

(٢) في أ (فسره) وصححناه من سائر النسخ.

(٣) سقطت (وقولهم) من أ وزدناها من سائر النسخ.

(٤) سقطت (الابن) من أ وزدناها من سائر النسخ.

(٥) سقطت (والروح القدس) من أ، ك، ط وزدناها من س.

(٦) في س زيادة جملة لا مكان لها، نصها: «وظن ابن جرير الطبري أن هذه الطوائف كانوا قبل اليعقوبية والنسطورية والملكية» حيث سبقت الإشارة إليها.

(٧) أخرجه ابن جرير في تفسيره ٢٠٢/٦ - ٢٠٣ (مجلد ٤)، قال ابن كثير بعد أن ساق تفسير السدي: «وهذا القول هو الأظهر والله أعلم». تفسير ابن كثير ٨١/٢ عند آية المائدة: ٨٣.

والسدي هو: إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير، تابعي، حجازي الأصل، =

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّكَ اللَّهُ تَالِثُ ثَلَاثَةٍ...﴾.

قال: قالت النصارى: إن الله هو المسيح وأمه. فذلك قوله:

﴿... أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ...﴾.

وقد قيل قول^(١) ثالث أغرب من ذلك عن أبي صخر^(٢)، قال:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّكَ اللَّهُ تَالِثُ ثَلَاثَةٍ...﴾.

قال: هو قول اليهود عزيز^(٣) ابن الله، وقول النصارى المسيح

ابن الله، فجعلوا الله ثالث ثلاثة، وهذا ضعيف، وقد ذكر سعيد بن

البطريق^(٤) في أخبار النصارى أن منهم طائفة - يقال لهم

= صاحب التفسير، والمغازي والسير. قال الحافظ ابن حجر: صدوق يهم، ورمي بالتشيع، مات سنة ١٢٧هـ، وقيل: سنة ١٢٨هـ.

انظر: تقريب التهذيب ٧١/١ (٥٣١)؛ وتهذيب التهذيب ٣١٣/١؛ والأعلام للزركلي ٣١٧/١؛ والخلاصة للخزرجي، ص ٣٥.

(١) في ك (قولاً).

(٢) ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره ٨١/٢؛ وعزاه لابن أبي حاتم بسنده، عن أبي صخر... وذكره قال الحافظ ابن كثير: «وهذا قول غريب في تفسير الآية أن المراد بذلك طائفتا اليهود والنصارى، والصحيح أنها أنزلت في النصارى خاصة قاله مجاهد وغير واحد». انتهى كلامه رحمه الله.

وأبو صخر، لعله: حميد بن زياد أبو صخر بن أبي المخارق الخراط، مدني سكن مصر، قال ابن حجر: «صدوق يهم من السادسة مات سنة ١٨٩هـ».

انظر: تقريب التهذيب ٢٠٢/١ (٥٩٤)؛ وتهذيب التهذيب ٤١/٣.

(٣) عزيز بن جروة، ويقال بن سوري، ويقال بن سروخا. من نسل هارون بن عمران. قال الحافظ بن كثير: والمشهور أن عزيزاً نبياً من أنبياء بني إسرائيل، وأنه كان فيما بين داود، وسليمان، وبين زكريا، ويحيى.

انظر: ترجمة له في البداية والنهاية ٤٦/٢؛ وتمة المختصر لابن الوردي ٤٦/١؛ ورجال الكتاب المقدس للياس مقار ٢٩٧/٢.

(٤) سعيد بن البطريق: طبيب مؤرخ، من أهل مصر، ولد بالفسطاط، وأقيم بطريقاً في =

المريميون^(١) - يقولون: إن مريم إله وإن عيسى إله.

وأما الأول فمتوجه، فإن النصارى المتفقين على الأمانة، كلهم يقولون: إن الله ثالث ثلاثة، والله - تعالى - قد نهاهم عن أن يقولوا ذلك، فقال - تعالى - :

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ
إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أُلْقِيَتْهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ
فَتَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ أَنْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ...﴾ (٢).

فذكر - سبحانه - في هذه الآية التثليث والاتحاد ونهاهم عنهما،
وبيّن أن المسيح إنما هو رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه.
وقال:

﴿فَتَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

ثم قال:

﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ أَنْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ...﴾.

الإسكندرية سنة ٣٢١هـ، من مؤلفاته كتاب «نظم الجواهر» في التاريخ، وهو مطبوع.

انظر في ترجمته: طبقات الأطباء ٨٦/٢، والأعلام للزركلي ٩٢/٣.

(١) في أ، س، ك (المريسية) وفي ط (المرسية)، وكلها خطأ، وما أثبتته من تاريخ ابن البطريق حيث ورد ما نصه: «فمنهم من كان يقول: إن المسيح وأمه الهان من دون الله وهم البربرانية، ويسمون المريميين».

انظر: ص ١٢٦ من كتابه نظم الجواهر (ط الأباء اليسوعيين).
قلت: وهم منسوبون إلى مريم لزعمهم بأنها إله، كما ورد في مذهبهم.

(٢) سورة النساء: الآية ١٧١.

لم^(١) يذكر هنا أمه . وقوله - تعالى - :
﴿وَكَلَّمَتْهُ وَالْقَهَّاءَ إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحَ مَنَّةٍ﴾ .

قال معمر^(٢) عن قتادة^(٣) : «وكلّمته ألقاها إلى مريم هو^(٤) قوله :
كن فكان .

وكذلك قال قتادة : «ليس الكلمة صار عيسى ، ولكن بالكلمة صار
عيسى»^(٥) .

وكذلك قال الإمام أحمد^(٦) في مصنفه الذي صنّفه في كتابه في الرد
على الجهمية ، وذكره عنه الخلال^(٧) والقاضي أبو يعلى^(٨) . قال أحمد :

-
- (١) في ط (ولم) .
(٢) معمر بن راشد الأزدي (مولا هم) ، ثقة ، ثبت ، فاضل من كبار الطبقة السابعة ، مات
سنة ١٥٤ هـ . وهو ابن ثمان وخمسين سنة .
انظر : تقريب التهذيب ٢/٢٦٦ (١٢٨٤) ؛ وتهذيب التهذيب ١٠/٢٤٣ ؛ وميزان
الاعتدال ٤/١٥٤ .
(٣) قتادة : سبقت ترجمته .
(٤) في ط (وهو) .
(٥) أخرجه الإمام ابن جرير في تفسيره ٦/٢٥ (مجلد ٤) ، قال : حدثنا الحسن بن
يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة : وذكره وانظر تفسير
ابن كثير ١/٥٩٠ عند آية ١٧١ من سورة النساء .
(٦) في ك ، ط (أحمد بن حنبل) .
(٧) الخلال : أحمد بن هارون أبو بكر الخلال : مفسر عالم بالحديث واللغة من كبار
الحنابلة ، من أهل بغداد ، جامع علم أحمد ومرتب كما قال الذهبي ، من كتبه تفسير
الغريب ، وطبقات أصحاب ابن حنبل ، والسنة ، والعلل وغيرها .
توفي - رحمه الله - سنة ٣١١ هـ .
انظر ترجمته في : طبقات الحنابلة ٢/١٢ ؛ والبداية والنهاية ١١/١٤٨ ؛ وتذكرة
الحفاظ ٣/٧٨٥ ؛ ومناقب الإمام أحمد ٦١٨ ؛ وابن قدامة وأثاره الأصولية للدكتور
السعيد ١/٤٦ - ٤٧ ؛ والأعلام ١/٢٠٦ .
(٨) سبقت ترجمته .

ثم إن الجهم ادعى أمراً فقال: إِنَّا وجدنا في كتاب الله آية تدل على أن القرآن مخلوق. قلنا: أي آية؟ قال: قول الله:

﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ...﴾^(١).

فقلنا: إن الله منعكم الفهم في القرآن، عيسى - عليه السلام - تجري عليه ألفاظ لا تجري على القرآن، لأن عيسى * يجري عليه نسمة *^(٢) ومولود وطفل وصبي وغلام يأكل ويشرب^(٣) وهو يخاطب بالأمر والنهي، يجري عليه الوعد والوعيد، هو من ذرية نوح، ومن ذرية إبراهيم، ولا يحل لنا أن نقول في القرآن ما نقول في عيسى، هل سمعتم الله يقول في القرآن ما قال عيسى؟ ولكن المعنى في قوله - جل ثناؤه - :

﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْفَنَهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ...﴾.

فالكلمة التي ألقاها إلى مريم حين قال له: كن فكان عيسى^(٤) بـ «كن» وليس عيسى هو الكن، ولكن بالكن كان، فالكن من الله قوله^(٥): وليس الكن مخلوقاً، وكذبت النصارى والجهمية على الله في أمر عيسى، وذلك أن الجهمية قالوا: عيسى روح الله وكلمته؛ لأن الكلمة مخلوقة.

(١) سورة النساء: الآية ١٧١، وفي س وط (ألقاها إلى مريم).

(٢) مابين النجمتين ساقط من أ وزدناه من س، ك، ط وفي س (تسمية) بدل (نسمة).

(٣) في كتاب الرد على الزنادقة والجهمية: «لأنه يسميه مولوداً وطفلاً وصبيّاً وغلماً يأكل ويشرب» ص ١٢٤.

(٤) في أ (فكان) مكررة وهو خلاف النسخ الأخرى وخلاف ما جاء في كتاب الرد على الزنادقة ص ١٢٤.

(٥) في كتاب الرد ص ١٢٤ (قول).

و^(١) قالت النصارى: روح الله من ذات الله، وكلمة الله^(٢) من ذات الله، كما يقال: هذه^(٣) الخرقه من هذا الثوب. وقلنا نحن: إن عيسى بالكلمة كان، وليس عيسى هو الكلمة.

قال أحمد^(٤): — وأما قوله — جلُّ ثناؤه — :
﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾.

يقول من أمره كان الروح فيه كقوله:

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾...^(٥).

يقول^(٦) من أمره، وتفسير روح الله إنما معناها أنها روح بكلمة الله خلقهم الله^(٧)، كما يقال: عبد الله وسماء الله^(٨)، وفي نسخة روح يملكها الله خلقها الله^(٩).

وقال الشعبي^(١٠) في قوله — تعالى — :

-
- (١) سقطت الواو من ط وهي ثابتة في سائر النسخ وفي الرد على الزنادقة، ص ١٢٤.
 - (٢) في (الرد) «وكلمته من ذات الله».
 - (٣) في الرد: (إن هذه).
 - (٤) سقطت (قال أحمد) من س.
 - (٥) سورة الجاثية: الآية ١٣.
 - (٦) في ك، ط (يقول) بالمثلثة التحتية.
 - (٧) في أ، س، ك (خلقياً) وصححته من ط ومن الرد: ص ١٢٥.
 - (٨) في الرد: (عبد الله وسماء الله وأرض الله) ص ١٢٥.
 - (٩) ورد النص الذي نقله الشيخ بتصريف يسير في كتاب «الرد على الزنادقة والجهمية»، للإمام أحمد في ص ١٢٣ - ١٢٥، تحقيق الدكتور عبد الرحمن عميرة، نشر دار اللواء.

(١٠) هو عامر بن شراحيل الشعبي بفتح المعجمة من شعب همدان، وكنيته أبو عمرو، ولد سنة عشرين للهجرة، وهو من التابعين، اشتهر بكثرة علمه وسعة حلمه، كان =

﴿...وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ...﴾.

الكلمة حين قال له: كن فكان عيسى بـ «كن» وليس عيسى هو الكن، ولكن بالكن كان^(١).

وقال ليث^(٢) عن مجاهد^(٣): روح منه. قال: رسول منه^(٤) يريد مجاهد قوله:

﴿فَازْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾^(٥) قَالَتْ إِنْ أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿٦﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ...﴾^(٥).

= حافظاً، تقياً، فقيهاً، شاعراً، ثقة، مشهوراً، نقل عنه قوله: ما كتبت سوداء في بيضاء، ولا حدثني رجل بحديث إلا حفظته، ولا حدثني رجل بحديث فأحببت أن يعيده عليّ، له مراسيل صحيحة، مات رحمه الله سنة تسع ومائة ١٠٩ هـ. انظر ترجمته في: تهذيب التهذيب ٦٥/٥ - ٦٩؛ وتقريبه ٣٨٧/١؛ والبداية والنهاية ٢٣٠/٩.

(١) بحث عن هذا الأثر من طريق الشعبي في كتب التفسير بالمأثور: تفسير ابن جرير وابن أبي حاتم، والدرر المشور، وغيرها فلم أقف عليه، وإنما جاء بتفسير قتادة وسبق تخريجه.

(٢) هوليث بن أبي سليم بن زعيم القرشي مولا هم أحد العلماء والنساک، قال ابن حجر صدوق، اختلط أخيراً، ولم يتميز حديثه فترك... مات سنة ثمان وأربعين ومائة هجرية. وقيل: سنة (١٤٣) هجرية.

انظر: تقريب التهذيب ١٣٨/٢ (٩)؛ وتهذيب التهذيب ٤٦٥/٨ - ٤٦٨؛ وميزان الاعتدال للذهبي ٤٢٠/٣ (٦٩٩٧). والخلاصة للخزرجي ص ٣٢٣.

(٣) سبقت ترجمة مجاهد.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم عن ليث، عن مجاهد، في تفسير آية النساء: ١٧٣ في الجزء الثاني من تفسيره ورقة ٢٠٤، آخر الجزء، مخطوط بمكتبات جامعة الإمام، رقم الفيلم (٢٦٧٦).

(٥) سورة مريم: الآيات ١٧ - ١٩.

والمعنى أن عيسى خلق من الروح وهو جبريل روح القدس، سمي روحاً كما سمي كلمة؛ لأنه خلق بالكلمة والنصارى يقولون في أمانتهم: تجسد من مريم ومن^(١) روح القدس؛ لأنه كذلك^(٢) في الكتب المتقدمة، لكن ظنوا أن روح القدس هو صفة لله^(٣) وجعلوها حياته وقدرته وهو رب، وهذا غلط منهم فإنه لم يسم أحد من الأنبياء حياة الله ولا قدرته ولا شيئاً من صفاته روح القدس، بل روح القدس في غير موضع من كلام الأنبياء - عليهم السلام - يراد بها ما ينزله الله على قلوب الأنبياء، كالوحي، والهدى، والتأييد ويراد بها الملك، وهكذا في تفسير ابن السائب^(٤) عن أبي صالح^(٥) عن ابن عباس: أن عيسى بن مريم استقبل رهطاً من اليهود، فلما رأوه قالوا: قد جاء الساحر ابن الساحرة، والفاعل ابن الفاعلة، فقفوه وأمه، فلما سمع عيسى ذلك

(١) سقطت (ومن) من أ وزدناها من سائر النسخ.

(٢) في ك، ط (لأنه جاء كذلك).

(٣) في أ (الله).

(٤) محمد بن السائب الكلبي، الكوفي، المفسر، النسابة، الأخباري. كان سبياً من أصحاب ابن سبأ، قال ابن معين: ليس بثقة، وقال الدارقطني وجماعة: متروك وقال الجوزجاني وغيره: كذاب صنف كتاباً في تفسير القرآن وسئل الإمام أحمد هل يحل النظر في تفسيره؟ فقال: لا. وقال الذهبي لا يحل ذكره في الكتب فكيف الاحتجاج به. مات سنة ١٤٦هـ.

انظر: ميزان الاعتدال ٣/٥٥٦؛ وتهذيب التهذيب ٩/١٧٨؛ والأعلام ٦/١٣٣.

(٥) أبو صالح: باذام، بالذال المعجمة، ويقال: باذان: مولى أم هانئ بنت أبي طالب. تابعي وهو ضعيف مدلس كما قال ابن حجر، وقال ابن معين: إذا روى عنه الكلبي فليس بشيء.

انظر ترجمته في ميزان الاعتدال ١/٢٩٦؛ وتهذيب التهذيب ١/٤١٦؛ وتقريبه ٩٣/١ (٢).

قال: اللهم أنت ربي، وأنا من روحك خرجت، وبكلمتك خلقتني^(١)، ولم أتهم من تلقاء نفسي^(٢). وذكر تمام الحديث.

وقد قال - تعالى - :

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾^(٣).

وقال - تعالى - : ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا...﴾^(٤).

فهذا يوافق قوله - تعالى - :

﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾^(٥) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾^(٦) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ...﴾^(٧).

والمقصود هنا: أنهم سواء صدقوا محمداً أو كذبوه، فإنه يلزم بطلان دينهم على التقديرين، فإنه إن كان نبياً صادقاً، فقد بلغ عن الله

(١) في أ (خلقت).

(٢) هذه الطريق عن ابن عباس من أضعف الطرق؛ لأن الكلبي ضعيف ومتهم بالكذب وأبا صالح ضعيف مدلس، قال السيوطي في الاتقان ٢/٢٤٢ «وأوهى طرقه طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، فإن انضم إلى ذلك رواية محمد بن مروان السدي الصغير فهي سلسلة الكذب»، وقال في الدر المنثور ٦/٢٢٣ «وقد مرض الكلبي مرة فقال لأصحابه في مرضه: كل شيء حدثكم عن أبي صالح كذب». قلت: ولم أجد من خرج هذه القصة وقد بحثت في التفاسير، وفي كتب النصارى وفي كتب الآثار وفي تفسير ابن عباس فلم أعثر عليها، والله أعلم.

(٣) سورة الأنبياء: الآية ٩١.

(٤) سورة التحريم: الآية ١٢.

(٥) سورة مريم: الآيات ١٧ - ١٩.

في هذا الكتاب كفر النصارى في غير موضع، ودعاهم إلى الإيمان به، وأمر بجهادهم، فمن علم أنه نبي ولو إلى طائفة معينة، يجب^(١) تصديقه في كل ما أخبر به، وقد أخبر بكفر النصارى وضلالهم، وإذا^(٢) ثبت هذا لم يغن عنهم الاحتجاج بشيء من الكتب والمعقول، بل يعلم من حيث الجملة أن كل ما يحتجون به على صحة دينهم فهو باطل، وإن لم يبين فساد حججهم على التفصيل؛ لأن الأنبياء لا يقولون إلا حقاً، كما أن المسيح - عليه السلام - لما حكم بكفر من كذبه من اليهود، كان كل ما يحتج به اليهود على خلاف ذلك باطلاً، فكل ما عارض قول النبي - صلى الله عليه وسلم^(٣) - المعصوم فهو باطل، وإن كذبوا محمداً^(٤) تكذيباً عاماً مطلقاً وقالوا: ليس هو نبي أصلاً، ولا أرسل إلى أحد لا إلى العرب ولا إلى غيرهم بل كان كذاباً^(٥)، امتنع مع هذا أن يصدقوا بنبوة غيره؛ فإن الطريق الذي يعلم به نبوة موسى وعيسى يعلم به نبوة محمد بطريق الأولى^(٦)، فإذا قالوا: علمت نبوة موسى والمسيح بالمعجزات وعرفت المعجزات بالنقل المتواتر إلينا. قيل لهم: معجزات محمد - صلى الله عليه وسلم^(٧) - أعظم، وتواترها أبلغ، والكتاب الذي جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - أكمل، وأتمه أفضل، وشرائع دينه أحسن، وموسى جاء بالعدل وعيسى جاء بتكميلها بالفضل، وهو

(١) في ك، ط (فيجب).

(٢) في ك، ط (فإذا).

(٣) سقطت الجملة الدعائية من س، ك.

(٤) سقطت (محمداً) من أ وفيها (وإن كذبوه).

(٥) في ك، ط (من الكذابين).

(٦) في ط (الأرض) بدل (الأولى) وهو خطأ واضح.

(٧) أضفنا جملة الدعاء من ط.

— صَلَّى الله عليه وسلّم — قد جمع في شريعته بين^(١) العدل والفضل.

فإن ساغ لقائل أن يقول: هو مع هذا كاذب مفتر، كان على هذا التقدير الباطل غيره أولى أن يقال فيه ذلك^(٢). فيطّل بتكذيبهم محمداً — صَلَّى الله عليه وسلّم — جميع ما معهم من النبوات إذ^(٣) حكم أحد الشيثيين حكم مثله، فكيف بما هو أولى منه؟ فلو قال قائل: إن هارون ويوشع^(٤) وداوود وسليمان كانوا أنبياء وموسى لم يكن نبياً. أو أن داوود وسليمان ويوشع كانوا أنبياء والمسيح لم يكن نبياً. أو قال ما تقوله السامرة^(٥): أن يوشع كان نبياً ومن بعده كداوود وسليمان والمسيح لم يكونوا أنبياء. أو قال ما يقوله اليهود: إن داوود وسليمان

(١) سقطت (بين) من أ، وفي س (به) وألحقناها من ك، ط.

(٢) سقطت (ذلك) من أ وزدناها من سائر النسخ.

(٣) في ط (إذا) وهو خطأ.

(٤) يوشع بن نون بن افرائيم بن يوسف، ولد بمصر، وخرج مع موسى إلى البحر لما سار ببني إسرائيل، ومتفق على نبوته عند أهل الكتاب، فإن السامرة لا يقرون بنبوة أحد بعد موسى إلا يوشع، لأنه مصرح به في التوراة، ويكفرون بما وراءه وهو الحق من ربهم.

انظر البداية والنهاية ٣١٩/١؛ وحسن المحاضرة للسيوطي ٥٣/١.

(٥) السامرة: طائفة من اليهود اختلفوا عن سائر اليهود بأنهم آمنوا بموسى، وهارون، ويوشع — عليه السلام — وأنكروا نبوة من بعدهم إلا نبياً واحداً يأتي من بعد موسى، وقد اختلفوا في تعيينه، ولهم تورا غير التي بأيدي سائر اليهود (التوراة السامرية) ولهم زيادة تكشف عن باقي اليهود، وقبلتهم جبل يقال له (غريزيم)، ويقولون أن مدينة القدس هي نابلس، وتبعد ثمانية عشر ميلاً عن بيت المقدس، ولا يعرفون حرمة لبيت المقدس، ولغتهم غير لغة اليهود، قالوا والتوراة كانت بلسانهم وهي قريبة من العبرانية فنقلت إلى السامرية.

انظر: الملل والنحل للشهرستاني ٢١٨/١؛ والفصل لابن حزم ٩٩/١؛ وتفسير ابن جرير ٦٦/٢؛ والقرطبي ٢٨٥/٧؛ وزاد المسير ٢٦١/٣.

وأشعيا^(١) وحبقوق^(٢) ومليخا^(٣) وعاموص^(٤) ودانيال^(٥) كانوا أنبياء،

(١) في أ، س (وأشعيا)، وفي ط (وشيعا)، وصوابه ما أثبتناه من ك (أشعيا). حيث ورد في التوراة التي بين يدي القوم كذلك وفي التراث الإسرائيلي، للدكتور صابر طعيمه ص ١٧٢ أنه «أشعيا بن أموص»، ومعنى الاسم: (خلاص يهوه) أو خلاص الرب.

قال الدكتور صابر «ومع أن أشعيا من أشهر أنبياء العهد القديم إلا أنه لم يعرف عنه إلا القليل من سيرته، وفي مقدمات أسفار هوشع، وعاموص، وميخا ما يدل على أن هؤلاء كانوا معاصرين لأشعيا... إلخ ما ذكر حيث أفاض في الحديث عنه وعن سفره الذي اختلف فيه اليهود والنصارى.

وانظر الكتاب المقدس عندهم ص ٩٩٢ من العهد القديم، ورجال الكتاب المقدس للقس إلياس مقار (ط: دار الثقافة) ٣٣٩/٢.

(٢) حبقوق: معناه في التراث الإسرائيلي (المعاقب) ويزعمون أنه كان كيعقوب يصارع الله بالصلاة، ويقرون أنه كان لاوياً، من سبط لاوي بن يعقوب. وله سفره المسمى باسمه ويتألف من ثلاثة إصحاحات.

انظر العهد القديم ص ١٣٢٩؛ والتراث الإسرائيلي، للدكتور صابر طعيمه ص ٢٤٩.

(٣) مليخا أو ملاخي. يذكر الدكتور صابر في التراث الإسرائيلي ص ٢٦٣ «أنه لا توجد دراسات حول ملاخي تفصح عن شخصيته، وسلسلة نسب آبائه، كذلك في كل كتابات العهد القديم لا يعثر على أثر يذكر من قريب أو بعيد، وملاخي لعلها اختصار لكلمة «ملاخيا» التي تعبر في العبرية عند شراح التراث عن ملاك الرب أو مرسل الرب.

وانظر سفره في العهد القديم ص ١٣٥٤، وله ترجمة في رجال الكتاب المقدس للياس مقار ٥٧١/٢.

(٤) عاموص: أحد أنبياء بني إسرائيل، ولد كما في سفره في قرية (تقوع) الواقعة في جنوب (أورشليم)، كان راعياً للغنم كما ورد في سفره. ويذكر الدكتور طعيمه أن ظهوره كان في أيام الملك (يربعام الثاني) ملك إسرائيل. ويتكون سفر عاموص من تسعة إصحاحات.

انظر العهد القديم ص ١٣٠٣؛ والتراث الإسرائيلي ص ٢٢٨؛ ورجال الكتاب المقدس للياس مقار ٤٦٣/٢.

(٥) دانيال: من سبط يهوذا، ويمتد نسبه إلى عائلة داوود بن يسي، ويعني اسمه في =

والمسيح بن مريم لم يكن نبياً، كان هذا قولاً متناقضاً معلوم البطلان، فإن الذين نفى هؤلاء عنهم النبوة أحق بالنبوة وأكمل نبوة ممن أثبتوها له. ودلائل نبوة الأكمل أفضل^(١) فكيف يجوز إثبات النبوة للنبي المفضول دون الفاضل؟ وصار هذا كما لو قال قائل أن زفر^(٢) وابن القاسم^(٣) والمزني^(٤)

العبرية (الله ديانى أوقاضى)، عاش عصر المحنة الكبرى التي تعرض لها شعب يهوذا وقد أسر في غزو بابل، وهو الذي فسر حلم ملك بابل عن التمثال العظيم كما ورد في سفر دانيال.

انظر العهد القديم ص ١٢٦٠؛ والتراث الإسرائيلى ص ٢١١ وورد شيء من إخباره في البداية والنهاية ٤٠/٢؛ ووردت ترجمته في رجال الكتاب المقدس للياس مقار ٤٠٣/٢.

(١) في أ، س (الأفضل أكمل) وما أثبتناه أولى بسياق الجملة.

(٢) في س (رقم) وهو خطأ.

وزفر هو ابن الهذيل بن قيس العنبري من تميم. فقيه كبير من أصحاب أبي حنيفة ولي قضاء البصرة، وهو أحد العشرة الذين دونوا الكتب. وقد جمع بين العلم والعبادة مات - رحمه الله - سنة ١٥٨هـ وكانت ولادته سنة ١١٠هـ.

انظر شذرات الذهب ٢٤٣/١؛ والعبر ٢٢٩/١؛ والانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء ص ١٧٣ - ١٧٤؛ والأعلام ٤٥/٣.

(٣) هو عبد الرحمن بن القاسم المصري، ولد سنة ١٣٢هـ تفقه بالإمام مالك، وصحبه عشرين سنة، وهو صاحب المدونة طبعت في ستة عشر جزءاً، رواها عن الإمام مالك قال في الانتقاء روايته صحيحة قليلة الخطأ مات بمصر سنة ١٩١هـ. - رحمه الله -

انظر: وفيات الأعيان ١٢٩/٣؛ وحسن المحاضرة ٣٠٣/١؛ والعبر ٣٠٧/١ والانتقاء ص ٥٠ والأعلام ٣٢٣/٣.

(٤) هو إسماعيل بن يحيى المزني، من مزينة قبيلة من مضر، صاحب الإمام الشافعي، كان عالماً زاهداً مجتهداً محجاً. صنف كتباً كثيرة في مذهب الشافعي منها الجامع الكبير؛ والجامع الصغير ومختصر المختصر، وغيرها كانت ولادته سنة ١٧٥هـ ووفاته سنة ٢٦٤هـ.

والأثرم^(١) كانوا فقهاء، وأبا حنيفة ومالكاً والشافعي وأحمد، لم يكونوا فقهاء، أو قال: إن الأخفش^(٢) وابن الأنباري^(٣) والمبرد^(٤) كانوا نحاة،

= انظر: وفيات الأعيان ٢١٧/١؛ وطبقات السبكي ٩٣/٢؛ والانتقاء ص ١١٠؛ والأعلام للزركلي ٣٢٩/١.

(١) هو أحمد بن محمد بن هانئ الطائي، أبو بكر الأثرم، من حفاظ الحديث، أخذ عن الإمام أحمد وآخرين، له كتاب في علل الحديث، وآخر في السنن، وناسخ الحديث ومنسوخه، توفي - رحمه الله - سنة ٢٦١ هـ.

انظر ترجمته في تذكرة الحفاظ ٥٧٠/٢؛ وتاريخ بغداد ١١٠/٥؛ ومناقب الإمام أحمد بن حنبل لابن الجوزي ص ٦١٢؛ والأعلام للزركلي ٢٠٥/١.

(٢) الأخفش: أبو الحسن سعيد بن مسعدة المجاشعي البصري، المعروف بالأخفش الأوسط لقب به لصغر عينيه مع سوء بصرهما. نحوي من علماء البصرة، متكلم حاذق، صحب الخليل قبل صحبته لسيويته، له تصانيف كثيرة في النحو وغيره، أضاف في العروض بحر الخبب توفي - رحمه الله - سنة ٢١٥ هـ.

انظر: طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ص ٧٤ - ٧٦؛ ومراتب النحويين ص ١١١؛ وبغية الوعاة ص ٤٣٦؛ وأنباه الرواة على أنباء النحاة ٣٦/٢.

(٣) أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري، ولد في الأنبار سنة ٢٧١ هـ، من أعلم أهل زمانه بالأدب، واللغة، كان حافظاً للشعر، والأخبار. كان يحفظ ثلاثمائة ألف بيت شاهد، وكان ثقة صدوقاً، له تصانيف في اللغة، وعلوم القرآن وغريب الحديث وغيرها توفي سنة ٣٢٨ هـ ببغداد.

انظر: طبقات النحويين ص ١٧١؛ وأنباه الرواة ٢٠١/٣؛ والأعلام ٢٢٦/٧.

(٤) أبو العباس محمد بن يزيد الأزدي، المبرد بفتح الراء المشددة عند الأكثر وبعضهم يكسر كما قال الزبيدي ولد سنة ٢١٠ هـ. بالبصرة، وهو إمام في الأدب والعربية ببغداد في زمنه، له تصانيف منها الكامل، وإعراب القرآن، وغيرهما توفي ببغداد سنة ٢٨٦ هـ.

انظر: طبقات النحويين ص ١٠٨ - ١٢٠؛ ومراتب النحويين ص ١٣٥؛ وأنباه الرواة ٢٤١/٣.

والخليل^(١) وسيبويه^(٢) والفراء^(٣) لم يكونوا نحاة. أوقال: إن صاحب الملكي والمسيحي^(٤) ونحوهما من كتب الطب كانوا أطباء، وبقراط^(٥)

-
- (١) الخليل بن أحمد الفراهيدي، أبو عبد الرحمن من فراهيد حي من الأزد باليمن ولد سنة ١٠٠هـ إمام اللغة والأدب، وواضع علم العروض، وشيخ سيبويه، كان شاعراً، وذكياً وورعاً زاهداً له تصانيف كثيرة منها (العين) في اللغة، ومعاني الحروف، والعروض، وغيرها. توفي - رحمه الله - سنة ١٧٠هـ .
انظر: طبقات النحويين واللغويين ص ٤٣ - ٤٧؛ ومراتب النحويين ص ٥٤ - ٧٢؛ وأنباه الرواة على أبناء النحاة ٣٤١/١؛ والأعلام ٣٦٣/٢.
- (٢) سيبويه: عمرو بن عثمان بن قنبر مولى بني الحارث بن كعب ومعنى سيبويه راثية التفاح وهي كلمة فارسية، ولد سنة ١٤٨هـ إمام النحاة، واعلم الناس بالنحو بعد الخليل كما قال البغوي، ألف كتابه في النحو فكان فريداً في بابيه توفي - رحمه الله - بالأهواز، وقيل بشيراز سنة ١٨٠هـ .
انظر ترجمته في مراتب النحويين ص ١٠٦؛ وطبقات النحويين ص ٦٦ - ٧٤؛ وأنباه الرواة ٣٤٦/٢؛ والأعلام ٢٥٢/٥.
- (٣) الفراء: يحيى بن زياد، الدليمي مولى بني أسد، أبو زكريا ولد سنة ١٤٤هـ، لقب بالفراء لأنه كان يفري الكلام. إمام الكوفيين، وأعلمهم بالنحو، واللغة، وفنون الأدب، كان يقال له أمير المؤمنين في النحو، كان فقيهاً، متكلماً، يميل إلى الاعتزال، له تصانيف كثيرة في النحو واللغة، توفي سنة ٢٠٧هـ . في طريق مكة.
انظر وفيات الأعيان ١٧٦/٦؛ وطبقات النحويين ص ١٤٣؛ ومراتب النحويين ص ١٣٩؛ والأعلام ١٤٥/٨.
- (٤) صاحب الملكي لم أقف عليه، أما المسيحي فهكذا ورد في جميع النسخ، ولعل المقصود المسيحي بضم الميم وفتح السين المهملة وكسر الباء الموحدة المشددة في آخره حاء مهملة واسمه عز الملك محمد بن عبد الله، أمير مؤرخ مات سنة ٤٢٠هـ، كما في وفيات الأعيان ٣٧٧/٤ ولكنه يرد أشكال، وهو أن الشيخ ساقه في معرض الأطباء، وهذا مؤرخ فلا نستطيع الجزم به ولم أقف على غير هذا الاسم.
- (٥) بقراط بن أبراقلس. فيلسوف مشهور من فلاسفة اليونان، وطبيب من أطبائهم له في الطب تأليف عديدة كما ذكر القفطي، كان في زمان أردشير من ملوك الفرس.
انظر ترجمته في أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ص ٦٤.

وجالينوس^(١) ونحوهما لم يكونوا أطباء. أو قال: إن كوشيار^(٢) والخرقي^(٣) ونحوهما كانوا يعرفون علم الهيئة، وبطليموس^(٤) ونحوه لم يكن لهم^(٥) علم بالهيئة.

ومن قال: إن داوود وسليمان ومليخا وعاموص ودانيال كانوا أنبياء، ومحمد بن عبد الله لم يكن نبياً. فتناقضه أظهر، وفساد قوله أبين من هذا جميعه، بل وكذلك من قال: إن موسى وعيسى^(٦) رسولان والتوراة والإنجيل كتابان منزلان من عند الله، ومحمد^(٧) ليس برسول، والقرآن

(١) جالينوس. حكيم فيلسوف، طيب بارع، وعالم بالطبيعات والهندسة، كان بعد المسيح — عليه السلام — بنحو مائتي سنة، له تصانيف عديدة. انظر: أخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٨٥؛ وتتممة المختصر لابن الوردي ١٢١/١.

(٢) كوشيار بن لبان الجيلي، أبو الحسن، مهندس، من علماء الهيئة، صنف مجمل الأصول في أحكام النجوم؛ والزيج الجامع، أو البالغ في حساب الكواكب. توفي سنة ٣٥٠ هـ.

انظر ذيل كشف الظنون ٩٦٨/٢؛ والأعلام للزركلي ٢٣٦/٥.

(٣) هو محمد بن أحمد الحنفي، الخرقى، نسبة إلى (خرق) من قرى مرو، فلكي رياضي، ولد سنة ٤٦٩ هـ، وتوفي سنة ٥٣٣ هـ، من آثاره: التبصرة في الهيئة، الرسالة الشاملة في الحساب، ومنتهى الإدراك في تقسيم الأفلاك.

انظر كشف الظنون ص ٣٣٨؛ وهدية العارفين ٨٨/٢؛ ومعجم المؤلفين ٢٣٨/٨.

(٤) بطليموس القلودي. صاحب كتاب المجسطي وغيره، إمام في الرياض، وعالم في النجوم، وقد شرح كتابه «المجسطي» جماعة من علماء الفلك وكلهم عالية على بطليموس وأول من عني بكتابه وترجمه إلى العربية يحيى بن خالد بن برمك.

انظر: أخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٦٧؛ وتاريخ الحكماء ص ٩٥؛ وتاريخ ابن الوردي ١٢١/١. وذكر فيه أنه كان في زمان الروم هو وجالينوس.

(٥) في س، ك، ط (له).

(٦) في أ، س (عيسى وموسى).

(٧) في ك، ط (ومحمداً) وكلا الأمرين له وجه.

لم ينزل من الله، فبطلان قوله في غاية الظهور والبيان لمن تدبر ما جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - ، وما جاء به من قبله، وتدبر كتابه والكتب التي قبله، وآيات نبوته وآيات نبوة هؤلاء، وشرائع دينه وشرائع دين هؤلاء، وهذه الجملة مفصلة مشروحة في غير هذا الموضع^(١). لكن المقصود هنا: التنبيه على مجامع جوابهم، وهؤلاء القوم لم يأتوا بدليل واحد يدل على صدق من احتجوا به من الأنبياء، فلو ناظرهم من يكذب بهؤلاء الأنبياء كلهم من المشركين والملاحدة لم يكن فيما ذكره حجة لهم، ولا حجة لهم أيضاً على المسلمين الذين يقرون بنبوة هؤلاء؛ فإن جمهور المسلمين إنما عرفوا صدق هؤلاء الأنبياء بإخبار محمد أنهم أنبياء، فيمتنع أن يصدقوا بالفرع مع القدح في الأصل الذي به علموا صدقهم.

وأيضاً فالطريق الذي به علمت نبوة هؤلاء بما ثبت من معجزاتهم وأخبارهم، فكذلك تعلم نبوة محمد^(٢) بما ثبت من معجزاته وأخباره بطريق الأولى، فيمتنع أن يصدق أحد من المسلمين بنبوة واحد من هؤلاء مع تكذيبه لمحمد في كلمة مما جاء به.



(١) سيتحدث عن هذا بالتفصيل في الجزء الثالث من هذا الكتاب.

(٢) سقطت (محمد) من ط.

فصل (١)

ومما ينبغي أن^(٢) يعلم: أن كثيراً من النصارى إنما يعتمدون في النبوات على بشارة الأنبياء بمن يأتي بعدهم، فيقولون: المسيح - عليه السلام - بشرت به الأنبياء قبله، بخلاف محمد - صلى الله عليه وسلم - فإنه لم يشر به نبي، وجواب هؤلاء من وجهين:

الرد على
النصارى في
زعمهم أن
محمداً
- صلى الله
عليه وسلم -
لم يشر به

أحدهما: أن يقال: بل البشارة بمحمد - صلى الله عليه وسلم - في الكتب المتقدمة أعظم من البشارة بالمسيح - صلى الله عليه وسلم -^(٣)، وكما أن اليهود يتأولون البشارة بالمسيح على أنه ليس هو عيسى بن مريم بل هو آخر ينتظرونه، وهم في الحقيقة إنما ينتظرون المسيح الدجال، فإنه الذي يتبعه اليهود، ويخرج معه سبعون ألف مطيلس من يهود أصبهان^(٤) ويقتلهم المسلمون معه حتى يقول الشجر

(١) سقطت كلمة (فصل) من أ، وأثبتناه من س، ك، ط .

(٢) سقطت (ينبغي أن) من س .

(٣) في ك، ط (عليه السلام) .

(٤) روى مسلم في صحيحه عن أنس: أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «يتبع الدجال من يهود أصبهان سبعون ألفاً عليهم الطيالة». رواه مسلم في كتاب الفتن باب في بقية من أحاديث الدجال ٢٢٦٦/٤ (٢٩٤٤)، ورواه أحمد بنحوه في مسند أنس ٢٢٤/٣، وروى ابن ماجه من حديث أبي إمامة الباهلي يرفعه «أن مع الدجال سبعين ألف يهودي كلهم ذو سيف محلى، وساج» ١٣٦١/٢، والطيالة جمع طيلسان: أعجمي معرب أصله تالسان، والطيلسان الأسود.

انظر: القاموس ٢٢٦/٢ فصل الطاء باب السين، وجاء في المصباح المنير ٥١٣/٢ «والطيلسان من لباس العجم». اهـ .

والحجر: يا مسلم هذا يهودي ورائي تعال فاقتله^(١). كما ثبت ذلك في الصحيح عن النبي - صلى الله عليه وسلم - ، وثبت أيضاً في الصحيح عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «ينزل عيسى بن مريم من السماء على المنارة البيضاء شرقي دمشق، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويقتل مسيح الهدى عيسى بن مريم مسيح الضلالة الأعور الدجال على بضع عشرة خطوة من باب لد»^(٢)؛ ليتبين

(١) روى البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب قتال اليهود ٢٣٢/٣، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «تقاتلون اليهود حتى يختبئ أحدهم وراء الحجر فيقول: يا عبد الله، هذا يهودي ورائي فاقتله». وروى من حديث أبي هريرة يرفعه بلفظ يا مسلم... إلخ، وروى مسلم من حديث ابن عمر بأسانيد متعددة في الفتن، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل... إلخ ٢٢٣٨/٤.

انظر: سنن الترمذي، كتاب الفتن، باب ما جاء في علامة الدجال ٥٠٨/٤؛ وابن ماجه، في الفتن ١٣٦٢/٢؛ ومسند أحمد ٦٧/٢، ١٣١.

(٢) رواه البخاري من حديث أبي هريرة في كتاب المظالم، باب كسر الصليب وقتل الخنزير ١٠٧/٣؛ وفي كتاب الأنبياء، باب نزول عيسى بن مريم - عليه السلام - . ونصه عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها» الحديث. ورواه مسلم في الإيمان، باب نزول عيسى بن مريم حاكماً بشريعة نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - ١٣٥/١؛ والترمذي في الفتن ٥٠٦/٤؛ وأبو داود في الملاحم ٤٩٨/٤، حديث رقم (٤٣٢٤)؛ وابن ماجه في الفتن ١٣٦٣/٢؛ والحميدي في مسنده ٤٦٨/٢؛ وأحمد ٢٤٠/٢. وليس في هذه الأحاديث ذكر نزوله على المنارة البيضاء شرقي دمشق، ولا ذكر قتله عند باب اللد. ولكن هذه الجملة وردت في أحاديث أخرى فقد وردت في الحديث الطويل الذي فيه خروج الدجال، رواه مسلم من حديث النواس بن سمعان في الفتن، باب ذكر الدجال وصفته ٢٢٥٣/٤ (٢١٣٧)؛ ورواه ابن ماجه في الفتن ١٣٥٧/٢ (٤٠٧٥).

للناس أن البشر لا يكون إلهاً، فيقتل من ادعى فيه أنه الله وهو بريء مما ادعى فيه لمن ادعى في نفسه أنه الله وهو دجال كذاب، فهكذا البشارات بمحمد - صلى الله عليه وسلم - في الكتب المتقدمة، وقد يتأولها بعض أهل الكتاب على غير تأويلها، كما قد بسط في موضع آخر، فإن بسط الكلام في ذكر محمد - صلى الله عليه وسلم - في الكتب التي بأيدي أهل الكتاب له موضع آخر^(١).

الجواب الثاني: أن يقال: ليس من شرط النبي أن يشر به من تقدمه، كما أن موسى كان رسولاً إلى فرعون، ولم يتقدم لفرعون به بشارة، وكذلك الخليل - عليه السلام - أرسل إلى نمرود^(٢)، ولم يتقدم به بشارة نبي إليه، وكذلك نوح وهود وصالح وشعيب ولوط لم يتقدم هؤلاء^(٣) بشارة إلى قومهم بهم^(٤) مع كونهم أنبياء صادقين؛ فإن دلائل نبوة النبي لا تنحصر في أخبار من تقدمه، بل دلائل النبوة منها المعجزات ومنها غير المعجزات كما قد بسط في موضع آخر^(٥)، وهؤلاء النصاري إنما مستند دينهم في التثليث والاتحاد وغير ذلك هو السمع وهو دعواهم أن الكتب الإلهية جاءت بذلك، ليس مستندهم فيه العقل، فإذا تبين أنهم مع تكذيبهم بمحمد - صلى الله عليه وسلم - يمتنع أن

= وانظر رياض الصالحين، كتاب المنثورات والملح ص ٧٩٥.

(١) سيتحدث عن هذا بالتفصيل في نهاية الجزء الثالث ويستمر في حديثه عن هذه المسألة إلى بداية الجزء الرابع من هذا الكتاب.

(٢) سبقت ترجمته.

(٣) في ك، ط (لم يتقدم بواحد من هؤلاء).

(٤) في س (فيهم) بدل (بهم).

(٥) سيتحدث المؤلف - رحمه الله - بالتفصيل عن هذه المسألة في كتابه هذا الجواب

الصحيح في الجزء الرابع.

ثبت نبوة غيره امتنع استدلالهم بالسمعيات، وأما العقليات فإن تشبثوا ببعضها فهم معترفون بأن حجتهم فيها ضعيفة، وأنها على نقيض مذهبهم أدل منها على مذهبهم، وسنبين - إن شاء الله تعالى^(١) - أن لا حجة لهم في سمع ولا عقل، بل ذلك كله حجة عليهم.

وأما تمثيلهم الكتاب بالوثيقة التي كتب الوفاء في ظهرها فتمثيل باطل غير مطابق؛ لأن الإقرار بالوفاء إقرار بسقوط الدين ولا مناقضة بين ثبوت الدين أولاً وسقوطه آخرًا بالوفاء، بل أمكن مع هذا دعواه، وأما من يذكر أنه رسول الله فلا يمكن أن يقر بأنه رسول الله في بعض ما أنبأ به عن الله دون بعض، ولا يمكن اتباع بعض كتابه الذي ذكر أنه منزل من عند الله دون بعض، فإنه إن كان صادقاً في قوله: إنه رسول الله، كان معصوماً في ما يخبر به عن الله، لا يجوز أن يكذب في شيء منه لا عمداً ولا خطأ، ووجب اتباع الكتاب الذي جاء به من عند الله ولم يمكن رد شيء مما ذكر أنه جاء به من الله، وإن كان كاذباً في كلمة واحدة مما أخبر به عن الله، فهو من الكاذبين المفتريين، فلا يجوز أن يحتج بشيء من دينهم ولا دين غيرهم بمجرد إخباره عن الله، بل ولا بمجرد خبره وقوله^(٢) وإن لم يذكر أنه خبر عن الله، كما لا يجوز مثل ذلك في سائر من عرف أنه كاذب في قوله: إني رسول الله، كمسيلمة الحنفي، والأسود^(٣) العنسي، وطليحة الأسدي^(٤)، والحارث الدمشقي^(٥)، وبابا

(١) سقطت (تعالى) من ك، ط.

(٢) في أ (أنه)، وصححناه من س، ط.

(٣) سقطت الواو من ط.

(٤) سبقت ترجمة الأسود، وطليحة، ومسيلمة.

(٥) هو الحارث بن سعيد. متنبئ كذاب من أهل دمشق، وله أتباع يعرفون بالحارثية.

كان مولى لأحد القرشيين، ونشأ متعبداً زاهداً ثم ادعى النبوة، ثم لبس على الناس =

الرومي^(١) وأمثالهم من الكذابين .

والواحد من المسلمين ، وإن كان الله لا يؤاخذة بالنسيان والخطأ ، بل والرسول أيضاً وإن لم يكن يؤاخذ^(٢) بالنسيان والخطأ في غير ما يبلغه عن الله عند السلف والأئمة وجمهور المسلمين ، لكن ما يبلغه عن الله لا يجوز أن يستقر فيه خطأ ، فإنه لو جاز^(٣) أن يبلغ عن الله ما لم يقله^(٤) ويستقر ذلك ويأخذ الناس عنه معتقدين أن الله قاله — ولم يقله الله — كان هذا مناقضاً لمقصود الرسالة ولم يكن رسولاً لله في ذلك ، بل كان كاذباً في ذلك وإن لم يتعمده^(٥) ، وإذا بلغ عن الله ما لم يقله وصدق في ذلك ، كان قد صدق من قال على الله غير الحق ، ومن تقول عليه ما لم يقله ، وإن لم يكن متعمداً ويمتنع في مثل هذا أن يصدقه الله في كل ما يخبر به عنه أو أن يقيم له من الآيات والبراهين ما يدل على صدقه في كل ما يخبر به عنه مع أن الأمر ليس كذلك ، ومن قامت البراهين والآيات على صدقه فيما يبلغه عن الله كان صادقاً في كل ما يخبر به عن الله ، لا يجوز أن يكون في خبره عن الله شيء من الكذب لا عمداً ولا خطأ ، وهذا مما اتفق عليه جميع الناس^(٦) من المسلمين واليهود والنصارى

= بما يظهر لهم من أوهام وضلالات . ذكر المؤرخون منها أنه يأتي إلى رخامة المسجد فينقرها بيده فتسبح ، يطعمهم فاكهة الصيف في الشتاء وغير ذلك من الأوهام حتى تبعه خلق كثير فتنوا به ووصل خبره إلى عبد الملك بن مروان لكنه لم يدركه حيث اختفى في بيت المقدس فأرسل من احتال عليه حتى أتى به فصلبه وقتله .
انظر : ميزان الاعتدال ٤٣٤/١ (١٦٢١) ؛ والأعلام للزركلي ١٥٥/٢ . وانظر : تلييس إبليس لابن الجوزي ص ٣٧٧ «وقد حكى جملاً كثيرة من مخاريقه وأباطيله» .

(١) بابا الرومي . لم أقف له على ترجمة .

(٢) في س ، ط (مؤاخذاً) .

(٥) في ط (يعتمده) .

(٣) سقطت (لو) من س .

(٦) سقطت (جميع الناس) من س .

(٤) في س ، ك (يقله الله) .

وغيرهم لم يتنازعوا أنه لا يجوز أن يستقر في خبره عن الله خطأ، وإنما تنازعوا هل يجوز أن يقع من الغلط ما يستدركه ويبيّنه، فلا ينافي مقصود الرسالة كما نقل من ذكر «تلك الغرائيق العلى، وأن شفاعتها لترتجى»^(١)، هذا فيه قولان للناس: منهم من

(١) رواها ابن جرير في التفسير ١٣١/١٧، مجلد (٧)، ط دار الفكر. تفسير آيات سورة الحج: ٥٢ - ٥٤ من طرق متعددة ولكنها كلها مرسلة، ورواها في التاريخ ٣٣٨/٢، ورواها ابن سعد في الطبقات ٢٠٥/١؛ والبيهقي في دلائل النبوة ٥٩/٢ باب الهجرة الأولى إلى الحبشة... إلخ، وقد ذكر كثير من المفسرين قصة الغرائيق وما كان من رجوع كثير من المهاجرين إلى أرض الحبشة ظناً منهم أن مشركي قريش قد أسلموا. لكنها كما قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله - : «من طرق كلها مرسلة، ولم أرها مسندة».

تفسير ابن كثير ٢٢٩/٣ عند آية ٥٢: من سورة الحج. وقد عزاها ابن كثير إلى ابن أبي حاتم، وابن جرير، والبزار، وابن إسحاق في السيرة، والبغوي في تفسيره وقال الإمام الشوكاني في تفسيره ٦٦٣/٣ بعد سياق الروايات: (والحاصل أن جميع الروايات في هذا الباب إما مرسلة أو منقطعة لا تقوم الحجة بشيء منها). أما الحافظ ابن حجر - رحمه الله - فقد ساق الروايات في فتح الباري ٣٣٣/٨ تفسير سورة الحج، ونقل أقوال العلماء الذين أنكروها ثم تعقبهم بقوله: «... فإن الطرق إذا كثرت وتباينت مخارجها دل ذلك على أن لها أصلاً، وقد ذكرت أن ثلاثة أسانيد منها على شرط الصحيح، وهي مراسيل يحتج بمثلها من يحتج بالمرسل، وكذا من لا يحتج به، لاعتضاد بعضها ببعض. وإذا تقرر ذلك تعين تأويل ما وقع فيها مما يستنكر وهو قوله ألقى الشيطان... فإن ذلك لا يجوز حمله على ظاهره لأنه يستحيل عليه - صلى الله عليه وسلم - أن يزيد في القرآن عمداً ما ليس منه، وكذا سهواً إذا كان مغايراً لما جاء به من التوحيد لمكان عصمته، وقد سلك العلماء في ذلك مسالك فقليل: جرى ذلك على لسانه حين أصابته سنة وهو لا يشعر فلما علم بذلك أحكم الله آياته... وقيل: إن المشركين كانوا إذا ذكروا آلهتهم وصفوهم بذلك فعلق ذلك بحفظه - صلى الله عليه وسلم - فجرى على لسانه لما ذكرهم سهواً... وقيل: لعله قالها توبيخاً للكفار... ثم ذكر غير ذلك في كلام طويل فانظره، وانظر القصة في السيرة النبوية للذهبي ص ١١٢؛ وعيون الأثر ١/١٢١؛ =

يمنع^(١) ذلك أيضاً وطعن في وقوع ذلك. ومن هؤلاء من قال: إنهم سمعوا ما لم يقله فكان الخطأ في سمعهم والشیطان ألقى في سمعهم.

ومن جوز ذلك قال: إذا حصل البيان ونسخ ما ألقى الشيطان لم يكن في ذلك محذور، وكان ذلك دليلاً على صدقه وأمانته وديانته، وأنه غير متبع هواه ولا مصر على غير الحق، كفعل طالب الرئاسة المصر على خطئه.

وإذا كان نسخ ما جزم^(٢) بأن الله أنزله لا محذور فيه، فنسخ مثل هذا أولى أن لا يكون فيه محذور، واستدل على ذلك بقوله:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ وَلَا نَنْبِيَّ إِلَّا إِذَا تَمَتَّيَ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَتَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾.

= وشرح المواهب اللدنية ١/ ٢٨٠ - ٢٨٦ وغيرها، ولعل القول بعدم صحة القصة أقرب إلى الصواب، وأما إذا كان للمسألة أصل كما ذكر الحافظ ابن حجر فإني أجزم بأن ذلك من الشيطان حيث أوقع في مسامع القوم ذلك فتوهموا أنه صدر من الرسول - عليه الصلاة والسلام - وهذا هو اللائق برسولنا - صلى الله عليه وسلم - المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى والله - تعالى - أعلم.

الفرنيق: بضم الغين المعجمة، وفتح النون طائر من طير الماء الطويل العنق، كما قال في مختار الصحاح ص ٤٧٢.

(١) في س، ط (منع).

(٢) في س زيادة لفظ الجلالة بعد (جزم)، فالعبارة كذا (ما جزم الله بأن الله).

(٣) سورة الحج: الآيات ٥٢ - ٥٤.

وعلى كل قول فالناس متفقون على أن من أرسله الله وأقام الآيات على صدقه فيما يبلغه عن الله : لم يكن ما يبلغه عنه إلا حقاً. وإلا كانت الآيات الدالة على صدقه دلت على صدق من ليس بصادق، وبطلان مدلول الأدلة اليقينية ممتنع.

والصدق الذي هو مدلول آيات الأنبياء وبراهينهم هو أن يكون خبره عن الله مطابقاً لمخبره^(١)، لا يخالفه عمداً ولا خطأ، ولو قال قائل: أنا لا^(٢) أسمى الخطأ كذباً، أو قال: إن المخطيء لا إثم عليه في خطئه^(٣).

قيل له: هذا لا ينفع هنا؛ فإن الآيات دلت على أن الله أرسله ليبلغ عنه رسالاته والله لا يرسل من يعلم أنه يخبر عنه بخلاف ما قال له، كما لا يجوز إرسال من يتعمد عليه الكذب، بل الواحد من الناس لا يرسل من يعلم أنه يبلغ خلاف ما أرسله به، ولو علم أنه يقول عليه ما لم يقل وأرسله مع ذلك، لكان جاهلاً سفيهاً، ليس بعليم حكيم، فكيف يجوز ذلك على أعلم العالمين، وأحكم الحاكمين؟

وأيضاً: فإن الآيات والبراهين دلت على صدقه في كل ما يبلغه عن الله، وأن الله مصدقه في كل ما يبلغه عنه، فيمتنع أن لا يكون صادقاً في شيء من ذلك، ويمتنع أن يصدق الله في كل ذلك من لا يصدق في كل ذلك، فإن تصديق من لا يصدق كذب، والكذب ممتنع على الله. وإذا تبين أن من ذكر أنه رسول الله إما أن يكون رسولاً صادقاً في

(١) في س (لخبره).

(٢) في أ، س (ألا)، وصحناه من ط (أنا لا).

(٣) في ط (خطابه).

جميع ما يبلغه فيمتنع مع هذا تناقض أخباره؛ لأنها كلها صادقة، وإما أن يكون غير صادق ولو في كلمة فلا يكون رسولاً لله، فلا يحتاج بشيء مما يخبر به عن الله كان تمثيل من ذكر أنه رسول الله بالمقر باستيفاء وثيقته تمثيلاً باطلاً؛ فإن صاحب الوثيقة الذي أقر بوفائها بعد، كانت له حجة ثم استوفاه.

ومن ذكر أنه رسول الله إما صادق، وإما كاذب، وعلى التقديرين لا يجوز أن يحتاج ببعض كلامه دون بعض^(١)، وإذا قال القائل: مقصودي أبين^(٢) أنه متناقض، وأن نفس كلامه يبين أنه لم يرسل إلينا، وأن ديننا حق، كما أن نفس كلام الذي كان له الحق هو المقر بالوفاء، قيل: إن كان كلامه متناقضاً فليس برسول، وحينئذٍ فلا يجوز لك^(٣) أن تحتج بشيء مما بلغه عن الله، بخلاف المقر بالوفاء، فإن إقراره مقبول على نفسه، فإنه شاهد على نفسه بالوفاء وإقرار المقر على نفسه^(٤)، وشهادته على نفسه مقبولة، ولو كان كافراً وفاسقاً، بخلاف شهادته وخبره عن الله^(٥).

فمن شبه إقرار المقر على نفسه بقول الذي يقول: إنه رسول الله، دل ذلك على غاية جهله بالقياس والاعتبار والتمثيل. فإن^(٦) إقرار المقر

(١) سقطت الواو من س.

(٢) في ط (أن أبين).

(٣) في أ (ذلك)، وصححناه من سائر النسخ.

(٤) سقطت جملة (بالوفاء وإقرار المقر على نفسه) من ط، وهي في سائر النسخ.

(٥) في س، ط جملة زائدة هذا نصها «بخلاف شهادته على الله أن الله أرسله إذا كذب

في كلمة واحدة لم يكن الله أرسله فلا يقبل شيء من شهادته وخبره عن الله».

(٦) سقط من النسخة ك بعد تنبيه الناسخ على سقوطه النص من قوله: «وأما تمثيلهم

الكتاب بالوثيقة التي كتب الوفاء في ظهرها فتمثيل والتمثيل» ص ١١١ في =

على نفسه حجة عليه ولو كان فاسقاً معروفاً بالكذب، ليس هو مثل شهادة الإنسان على غيره. فإن شهادته على غيره لا تقبل إذا كان معروفاً بالكذب، فكيف بمن شهد على الله بأن الله أرسله؟ فالمقر على نفسه يمكن قبول إقراره على نفسه ولا يقبل دعواه على غيره، وكذلك الشاهد قد تقبل شهادته فيما ليس هو خصماً فيه، ولا تقبل شهادته بما ادعاه.

وأما من يقول: إنه رسول الله، فلا يمكن أن يصدق في بعض ما يخبر به عن الله ويكذب في بعض، بل إن كان كاذباً في كلمة واحدة، فليس هو رسولاً لله، فلا يحتج بكلامه، وإن قدر أن الكلام في نفسه صدق لكن نسبته إلى الله أن الله أرسله به وأوحاه لا يكون صادقاً فيه إذا كذب في كلمة واحدة؛ لأن الله لا يرسل كاذباً.

وإن لم يكن كاذباً في كلمة واحدة وجب تصديقه في كل ما يخبر به، فلا يمكن تصديقه في بعض ما يخبر به عن الله دون بعض، بخلاف المقر والشاهد.

وإن كان المقصود: بيان تناقضه، كان هذا احتجاجاً على أنه ليس برسول، فلا ينفعهم ذلك، مع أنه تبين أنه ليس بمتناقض.

وإن كان المقصود: إلزام المسلمين به، فقد بينا أنه لا يلزمهم^(١) من وجوه متعددة، فهذا بيان أنهم^(٢) لا يجوز لهم الاحتجاج بشيء من كلام محمد - صلى الله عليه وسلم - سواء صدقوه أو كذبوه.

= المخطوطة إلى قوله: «فإن إقرار المقر على نفسه حجة عليه ولو كان فاسقاً معروفاً بالكذب» ص ١١٤ من نفس المخطوطة ولا توجد الصحيفتان ص ١١٢، ١١٣ في نفس النسخة.

(١) في ك، ط (يلزمه).

(٢) في ط (أنه).

ثم يقال لهم ثانياً: في^(١) الجواب عن التمثيل بالوثيقة: إن الإقرار بالاستيفاء يناقض استيفاء الحق، وأما القرآن الذي جاء به محمد – صلى الله عليه وسلم –^(٢)، فليس في إخباره بأنه أرسل إلى قريش، ثم إلى العرب، ما يناقض إخباره بأنه أرسل إلى جميع الناس: أهل^(٣) الكتاب، وغيرهم.

كما أنه ليس في إخباره أنه أرسل إلى بني إسرائيل ومخاطبة^(٤) الله لهم بقوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ما يمنعه^(٥) أن يكون مرسلًا إلى اليهود من غير بني إسرائيل وإلى النصاري والمشركين، وهو^(٦) لم يقل قط: إني^(٧) لم أرسل إلا إلى العرب، ولا قال ما يدل على هذا بل ثبت عنه بالنقل المتواتر أنه قال: إنه مرسل إلى جميع الجن والإنس، إلى أهل الكتاب وغيرهم، ولو قدر أنه قال: إنه لم يرسل إلا إلى العرب، ثم قال: إني أرسلت إلى أهل الكتاب، لكان قد أرسل إلى أهل الكتاب بعد إرساله إلى العرب، كما قال:

﴿قُلْ لَا آجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ...﴾^(٨).

(١) في ك، ط (فالجواب).

(٢) في س جاءت الجملة هكذا (وأما محمد – صلى الله عليه وسلم –).

(٣) في أ (وأهل) والواو زائدة لا مكان لها.

(٤) في س (ويخاطبه).

(٥) في س، ك، ط (ما يمنع)، وقد ورد هذا الخطاب في سورة البقرة: الآيات ٤٠،

٤٧، ١٢٢، وسورة طه: الآية ٨٠.

(٦) في س (ولم يقل قط)، وفي ك، ط (وهو أنه لم يقل قط).

(٧) في س (أن) بدل (أني).

(٨) سورة الأنعام: الآية ١٤٥.

وقال أيضاً:

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِزْيِرِ... ﴾^(١).

ثم إنه بعد هذا حرم الله أشياء فلم يكن بين^(٢) نفي تحريمها في الزمن الأول، وإثبات تحريمها في الزمن الثاني منافاة.

ولكن يظهر^(٣) الدين إذا أوجب شيئاً ثم نسخ إيجابه كما نسخ إيجاب الصدقة بين يدي النجوى^(٤)، ففي مثل هذا يتمسك بالنص الناسخ دون المنسوخ، كما يتمسك بالإقرار بالوفاء بالناسخ للإقرار^(٥) بالدين.



(١) سورة النحل: الآية ١١٥.

(٢) في س (من) بدل (بين).

(٣) في ك، ط (نظير).

(٤) قال المفسرون في تفسير قوله - تعالى - : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ...﴾ [الآية ١٢ من سورة المجادلة]. قال المفسرون: نهوا عن مناجاة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى يتصدقوا، فلم يناجِه إلا علي - رضي الله عنه - قدم ديناراً فتصدق به، ثم نزلت الرخصة في ذلك، ونسخت لقوله - تعالى - : ﴿وَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ...﴾ [الآية ١٣ من سورة المجادلة].

انظر: أسباب النزول للواحدي ص ٣٠٨؛ والناسخ والمنسوخ لأبي القاسم هبة الله بن سلامة ص ٢٩٨ - ٣٠١، (هامش الكتاب السابق) (ط عالم الكتب، بيروت)؛ ولباب النقول للسيوطي ص ٢٠٧؛ وسنن الترمذي كتاب التفسير ٤٠٦/٥ - ٤٠٧ (٣٣٠٠)، وقد روى القصة عن الإمام علي - رضي الله عنه - وحسنها مع الغرابة والله أعلم.

(٥) في س (بالإقرار) وهو خطأ.

فصل

إبطال استدلال
النصارى على
صحة دينهم
بما جاء عن
الأنبياء السابقين

وقد ذكرنا^(١) أنه لا يجوز أن يحتجوا بشيء من القرآن، وما نقل
عن محمد - صلى الله عليه وسلم^(٢) - إلا مع التصديق برسالته، وأنه
مع التكذيب برسالته لا يمكن الإقرار بنبوة غيره، ولا الاحتجاج بشيء
من كلام الأنبياء، فتكذيبهم يستلزم بطلان دينهم، فإذا ثبت نبوة غيره
ثبتت نبوته، وذلك يستلزم بطلان دينهم، فكان صحة دليلهم يستلزم
بطلان المدلول وفساد المدلول يستلزم فساد الدليل؛ فإن الدليل ملزوم
للمدلول عليه، وإذا تحقق الملزوم تحقق اللازم^(٣)، وإذا انتفى اللازم
انتفى الملزوم، فإذا ثبت^(٤) الدليل ثبت المدلول عليه، وإذا فسد المدلول
عليه لزم فساد الدليل؛ فإن الباطل لا يقوم عليه دليل صحيح.

فإن كان محمد - صلى الله عليه وسلم - رسول الله لزم بطلان
دينهم، وإذا بطل دينهم لم يجز أن يقوم دليل صحيح على صحته،
وإن^(٥) لم يكن رسول الله لم يجز الاستدلال بقوله فثبت أن استدلالهم
بقوله باطل على التقديرين.

(١) في ط (ذكر).

(٢) في أ (صلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم).

(٣) في س (الملازم).

(٤) في س (صح).

(٥) في ك، ط (وإذا).

ونحن نذكر هنا: أنه لا يجوز استدلالهم بقول أحد من الأنبياء أو الرسل على صحة دينهم، وأيضاً فإن الذين احتجوا بقولهم: مثل موسى وداود والمسيح وغيرهم، إما أن يكونوا عرفوا أنهم أنبياء بدليل على نبوتهم، كالأستدلال بآياتهم وبراهينهم التي تسمى بالمعجزات، وإما أن يكونوا قد اعتقدوا ذلك بلا علم ولا دليل، وإما أن يكونوا احتجوا بذلك على المسلمين؛ لأنهم يسلمون نبوة^(١) هؤلاء وعلى كل تقدير لا يصح استدلالهم بقولهم.

أما على^(٢) الأول؛ فلأنه: أي طريق ثبتت بها^(٣) نبوة واحد من هؤلاء الأنبياء - عليهم السلام -، فإنه ثبت نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - بمثلها وأعظم منها، وحينئذ فإن لم يقرؤا بنبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - مع أن كل دليل يدل على نبوة موسى وداود وعيسى وغيرهم، يدل على نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم -، لزم أن يكونوا قد نقضوا دليلهم فجعلوه قائماً مع انتفاء مدلوله، وإذا انتقض الدليل بطلت دلالته، فإنه إنما يدل إذا كان مستلزماً للمدلول.

فإذا كان تارة يوجد مع المدلول وتارة لا يوجد، لم يكن مستلزماً له فلا يكون دليلاً؛ فإن من جعل المعجزات دليلاً على نبوة نبي، وقال: المعجزة هي الفعل الخارق للعادة، المقرون بالتحدي، السالم من المعارضة، ونحو ذلك مما يذكر في هذا المقام وجعلوا ذلك دليلاً على نبوة موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء.

قيل له: إن كان هذا دليلاً، فهو دليل على نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم -، وإن لم يكن دليلاً لم يكن دليلاً على نبوة موسى عليه السلام.

(١) في ط (نبوة).

(٢) سقطت (على) من أ، وزدناها من سائر النسخ.

(٣) في ك (ثبت بها) وفي ط (ثبت به)، وما أثبتناه من أ، س.

وعيسى ؛ فإنه قد ثبت عن محمد - صلى الله عليه وسلم - من المعجزات ما لم يثبت مثله عن غيره ، ونقل معجزاته متواتر أعظم من نقل معجزات عيسى وغيره ، فيمتنع التصديق بآياته مع التكذيب بآيات محمد - صلى الله عليه وسلم - .

وإن قالوا معجزات محمد - صلى الله عليه وسلم - لم تتواتر^(١) عندنا . قيل : ليس من شرط التواتر أن يتواتر^(٢) عند طائفة معينة ، بل هذا كما يقول المشركون والمجوس وغيرهم لم يتواتر عندنا معجزات^(٣) موسى والمسيح - عليهما السلام - ، وإنما تتواتر أخبار كل إنسان^(٤) عند من رأى المشاهدين له أو رأى من رآهم وهلم جراً .

ومعلوم : أن أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - الذين رأوه ونقلوا معجزاته أضعاف أصحاب المسيح - عليه السلام - ، والتابعون الذين نقلوا ذلك عن الصحابة كذلك فيلزم من التصديق بمعجزات المسيح - عليه السلام - التصديق بمعجزات محمد - صلى الله عليه وسلم - ، ومن التكذيب بمعجزات محمد التكذيب بمعجزات المسيح .

وإن قالوا عرفت نبوة المسيح ببشارات الأنبياء قبله . قيل : وفي الكتب المتقدمة من البشارات بمحمد - صلى الله عليه وسلم - مثل ما فيها من البشارات بالمسيح وأكثر كما سيأتي بعضها إن شاء الله تعالى^(٥) .

(١) في ط (توافر) .

(٢) في ط (تواتر) بالمشناة الفوقية .

(٣) سقطت (معجزات) من أ ، وزدناها من سائر النسخ .

(٤) في هامش ك ، ط (عند كل من) .

(٥) سقطت جملة (كما سيأتي بعضها إن شاء الله تعالى) من أ ، وزدناها من سائر النسخ .

وإن تأولوا^(١) تلك البشارات بمحمد - صلى الله عليه وسلم - بما يمنع دلالتها. قيل لهم: واليهود يتأولون بشارات المسيح بما يمنع دلالتها على المسيح.

فإذا قالوا: تلك التأويلات باطلة من وجوه معروفة، بين لهم أن هذه باطلة أيضاً بمثل تلك الوجوه وأقوى. فما من جنس من الأدلة يدل على نبوة موسى والمسيح، إلا ودلالته على نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم^(٢) - أقوى وأكثر فيلزم من ثبوت نبوة موسى والمسيح ثبوت نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم^(٣) - ، ومن الطعن في نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - الطعن في نبوة موسى والمسيح.

وإن قالوا: إن المسيح إله. قيل لهم: ثبوت كونه إلهاً - لو كان ممكناً - أبعد من ثبوت كونه رسولاً، فكيف إذا كان ممتنعاً؟

وذلك أنه ليس معهم ما يدل على إلهيته إلا ما ينقلونه من أقوال الأنبياء، أو الخوارق، والخوارق لا تدل على الإلهية فإن الأنبياء ما زالوا يأتون بالآيات الخارقة للعادة ولم تدل على إلهية أحد منهم.

وأما أقوال الأنبياء - عليهم السلام - فلا ريب أن دلالتها على رسالته ورسالة محمد - صلى الله عليه وسلم - أظهر من دلالتها على إلهية المسيح، فيمتنع الاحتجاج بها على إلهية المسيح دون رسالة محمد - صلى الله عليه وسلم^(٤) - ورسالة المسيح، ومتى ثبت أن

(١) في س (قاولوا) وهو تصحيف ظاهر.

(٢) سقطت الجملة الدعائية من س، ك، ط.

(٣) سقطت الجملة الدعائية من س، ك، ط.

(٤) سقطت الجملة الدعائية من س، ك، ط.

محمداً رسول الله بطلت^(١) إلهية المسيح، فإنه كفر من قال: إنه الله أو ابن الله بل وكذلك متى ثبت أن المسيح رسول الله بطل كونه إلهاً، فإن كونه هو الله مع كونه رسول الله متناقض.

إبطال دعوى
النصارى
إلهية المسيح
- عليه السلام

وقولهم: إنه إله بلاهوته، ورسول بناسوته، كلام باطل من وجوه:
منها: أن الذي كان يكلم الناس، إما أن يكون هو الله أو هو رسول الله، فإن كان هو الله، بطل كونه^(٢) رسول الله، وإن كان^(٣) رسول الله، بطل كونه^(٤) هو الله.

ولهذا لما كان الذي كلم موسى - عليه السلام - من الشجرة هو الله لم تنطق الكتب بأنه رسول الله، وهذا وارد بأي وجه فسروا الاتحاد؛ فإنه من المعلوم أن الناس كانوا يسمعون من المسيح كلاماً بصوته المعروف، وصوته لم يختلف^(٥) ولا حاله عند الكلام تغيرت، كما يختلف الإنسان وحاله عند الكلام إذا حل^(٦) فيه الجني، وإذا فارقه الجني، فإن الجني إذا تكلم على لسان المصروع ظهر الفرق بين ذلك المصروع وبين غيره من الناس، بل^(٧) اختلف حال المصروع وحال كلامه وسمع منه من الكلام ما يعلم يقيناً أنه لا يعرفه وغاب عقله بحيث

(١) في ط (يطلب).

(٢) في س، ك (بكل لونه) وهو تصحيف بين، وقد صححت في هامش ك.

(٣) في ط (وإن كان هو رسول الله).

(٤) في س، ك (بكل لونه) وهو تصحيف بين، وقد صححت في هامش ك.

(٥) في ط (لم يختلف عليهم).

(٦) في ط (دخل).

(٧) جملة (ظهر الفرق بين ذلك المصروع وبين غيره من الناس بل) ساقطة من س وهي

في سائر النسخ.

يظهر ذلك للحاضرين واختلف صوته ونغمته، فكيف بمن يكون رب العالمين هو الحال فيه المتحد به المتكلم بكلامه؟.

فإنه لا بد أن يكون بين كلامه وصوته وكلام سائر البشر وصوتهم من الفرق أعظم من الفرق الذي بين المصروع وغير المصروع بما لا نسبة بينهما.

يبين هذا: أن موسى لما سمع كلامه سمع صوتاً خارقاً للعادة مخالفاً لما يعهد من الأصوات، ورأى من الآيات الخارقة والعجائب ما يبين أن ذلك الذي سمعه^(١) لا يقدر على التكلم به إلا الله، وأما المسيح فلم يكن بين كلامه وصوته مع^(٢) طول عمره، وكلام سائر الناس فرق يدل على أنه نبي فضلاً عن أن يدل على أنه إله، وإنما علم أنه نبي بأدلة منفصلة ولم يكن حاله يختلف مع أنهم يقولون: أن الاتحاد ملازم له من حين خلق ناسوته في بطن أمه مريم وإلى الأبد لا يفارق اللاهوت لذلك الناسوت أبداً وحينئذ فمن المعلوم أن خطابه للناس إن كان خطاب رب العالمين لم يكن هو رسوله، وإن كان خطاب رسوله لم يكن ذلك صوت رب العالمين.

الوجه الثاني: أن^(٣) خطابه خطاب رسول ونبي، كما ثبت ذلك عنه في عامة المواضع^(٤).

(١) في ط (نسمعه).

(٢) سقطت (مع) من س، ك، ط.

(٣) في أ (أنه) وصححناه من سائر النسخ.

(٤) النصوص في أناجيلهم التي تصرح بذلك كثيرة انظر على سبيل المثال إنجيل متى إصحاح ١٥ / فقرة ٢٤، وإنجيل برنابا ص ٥٣ / الفصل ١٥، تحقيق سيف الله أحمد فاضل (ط. - دار القلم الكويت). وأعمال الرسل إصحاح ١٠ / فقرة ٣٧، وقد تحدث الدكتور محمد مجدي مرجان في كتابه المسيح إنسان أم إله «عن هذه =

الثالث: أن مصير الشيطان شيئاً واحداً مع بقائهما على حالهما بدون الاستحالة والاختلاط ممتنع في صريح العقل، وإنما المعقول مع الاتحاد أن يستحيلا ويختلطاً كالماء مع الخمر واللبن، فإنهما إذا صار شيئاً واحداً، استحالا واختلطاً.

الرابع: أنه مع الاتحاد يصير الشيطان شيئاً واحداً، فيكون الإله هو الرسول والرسول هو الإله؛ إذ هذا هو هذا، وإن كان الإله غير الرسول، فهما شيان ومهما مثلوا به قولهم كتشبيهم ذلك بالنار في الحديد والروح في البدن، فإنه يدل على فساد قولهم، فإن الحديد متى طرق أو وضع في الماء، كان ذلك مصيباً للنار، وكذلك البدن إذا جاع أو صلب وتألم، كان ذلك الألم مصيباً للروح، فيلزم أن يكون رب العالمين قد أصابه ألم الجوع والعطش، وكذلك الضرب والصلب على قولهم وهذا شر من قول اليهود: أنه فقير وأنه بخيل^(١)، وأنه مسه اللغوب^(٢).



= القضية وأبطل دعواهم الإلهية في عيسى - عليه السلام - ويقع هذا الكتاب في مائتين وإحدى وثلاثين صفحة من القطع الصغير (نشر دار النهضة العربية بالقاهرة)، كذلك ألف الغزالي كتاباً بعنوان الرد الجميل لإلهية عيسى بصريح الإنجيل، حققه الدكتور محمد الشراقوي (نشر دار أمية، الرياض) انظر: ص ١٤٧، ص ١٧١. وانظر: كتاب مقامع هامات الصلبان لأبي عبيدة الخزرجي بتحقيق د. محمد شامة ص ٢١٦. (١) في ط (إنه بخيل).

(٢) قول اليهود بأن الله فقير، ونسبة اللغوب أي التعب إلى الله بعد خلق الخلق نزلت بسببه آيات من سورة آل عمران: الآية ١٨١: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ...﴾ الآية. وقوله - تعالى - في سورة ق: الآية ٣٨: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾. وانظر: في أسباب النزول لباب النقول للسيوطي ص ٥٥، ص ٢٠٥ (طبعة الحلبي - الطبعة الثانية). ، وأسباب النزول للواحي ص ٩٨، ص ٢٩٧.

فصل

وإن كان مقصودهم الاحتجاج بذلك على المسلمين . قيل لهم :
أولاً : هذه حجة جدلية ، فما مستندكم فيما بينكم وبين الله في
تصديق شخص وتكذيب آخر ، مع أن دلالة الصدق فيهما واحدة ، بل
هي في الذي كذبتموه أظهر؟ فإن كانت حقاً لزم تصديق من كذبتموه
وفسد دينكم . وإن كانت باطلة ، بطل استدلالكم بها على دينكم ، فثبت
أنهم مع تكذيب محمد - صلى الله عليه وسلم - لا يستقيم لهم
الاستدلال بكلام أحد من الأنبياء - عليهم السلام - .

وقيل لهم ثانياً : المسلمون إنما عرفوا صدق هؤلاء الأنبياء بما
دلهم على صدق محمد - صلى الله عليه وسلم - فإن لم يكن محمد
صادقاً لم يعرفوا صدق هؤلاء فيبطل دليلكم ، وإن كان صادقاً بطل دين
النصارى فيبطل دليل صحته فثبت بطلان دليلهم على كل تقدير .

وقيل لهم ثالثاً : المسلمون لم يصدقوا نبوة أحد من هؤلاء إلا مع
نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - ، وإن قيل أنهم عرفوا ذلك بطريق
آخر ، فإن الدليل الذي يدل على صدق واحد منهم يدل على صدق
محمد بطريق الأولى ، فلا يمكنهم تصديق نبي^(١) مع تكذيب محمد
صلى الله عليه وسلم :

(١) في أ (موسى) وفي ط (شئ) .

وقيل لهم رابعاً: هم إنما يصدقون موسى^(١) وعيسى اللذين بشرا
بمحمد - صلى الله عليه وسلم - ، فإن كانا قد بشرا به^(٢) فثبت^(٣)
نبوته، وإن لم يكونا بشرا به، فهم لا يؤمنون إلا بالمبشرين به، وبالتوراة
والإنجيل اللذين^(٤) هو مكتوب فيهما.

فإن قدر عدم ذلك فهم لا يسلمون وجود موسى وعيسى وتوراة
وإنجيل منزلين من الله ليس فيهما ذكره صلى الله عليه وسلم .

وإن قالوا: نحن صدقنا هؤلاء الأنبياء بلا علم لنا بصدقهم وطريق
يدل على صدقهم؛ لأن هذا دين آبائنا وجدناهم يعظمون هؤلاء ويقولون
هم أنبياء، فاتبعنا آباءنا في ذلك من غير علم، وهذا هو الواقع من
أكثرهم. قيل: فإذا كان هذا قولكم في الأنبياء وفيما شهدوا به - إن
كانوا شهدوا - فيلزم أن لا يكونوا عالمين به، بل متبعين فيه لآبائهم بغير
علم بطريق الأولى، وبهذا يحصل المقصود، وهو أن ما أنتم عليه من
اعتقاد دين النصرانية لا علم لكم ولا دليل لكم على صحته، بل أنتم فيه
متبعون لآبائكم كاتباع اليهود والمشركين لآبائهم.

ولا ريب أن هذا حال النصارى، ولهذا سماهم الله ضاللاً في
قوله:

﴿... وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا
عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾^(٥).

(١) في ط (بموسى).

(٢) سقطت (به) من أ، ك وزدناها من س، ط.

(٣) في ط (فثبت).

(٤) في أ، س، ك (التي) وصححناه من ط.

(٥) سورة المائدة: الآية ٧٧.

وقال - تعالى - :

﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۚ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ...﴾ (١).

وقال - تعالى - :

﴿...وَالَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ...﴾ (٢).

وقال - تعالى - :

﴿وَالَّذِينَ أُورِثُوا الْكُتُبَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَرِيحٌ﴾ (٣).

ولهذا كان النصراني معروفين بالجهل والضلال، كما أن اليهود معروفون^(٤) بالظلم والقسوة والعناد، فتبين بما ذكرناه أنه لا يمكنهم مع تكذيب محمد - صلى الله عليه وسلم - في كلمة واحدة الاحتجاج بقول واحد^(٥) من الأنبياء على شيء من دينهم ولا دين غيرهم.

● ● ●

(١) سورة الكهف: الآيتان ٤، ٥.

(٢) سورة النساء: الآية ١٥٧.

(٣) سورة الشورى: الآية ١٤.

(٤) في أ، س، ك (معروفين) وهو خطأ.

(٥) في س، ك، ط (أحد).

فصل

وأما كون القرآن أنزل باللسان العربي وحده فعنه أجوبة:

أحدها: أن يقال: والتوراة إنما أنزلت باللسان العبري وحده، وموسى - عليه السلام - لم يكن يتكلم إلا بالعبرية، وكذلك المسيح لم يكن يتكلم بالتوراة والإنجيل وغيرهما إلا بالعبرية، وكذلك^(١) سائر الكتب لا ينزلها الله إلا بلسان واحد: بلسان الذي أنزلت عليه ولسان قومه الذين يخاطبهم أولاً، ثم بعد ذلك تبليغ الكتب وكلام الأنبياء لسائر الأمم^(٢): إما بأن يترجم لمن لا يعرف لسان ذلك الكتاب، وإما بأن يتعلم الناس لسان ذلك الكتاب فيعرفون معانيه، وإما بأن يبين للمرسل^(٣) إليه معاني ما أرسل به الرسول إليه بلسانه وإن لم يعرف سائر ما أرسل به.

وقد أخبر الله في القرآن ما قالته الرسل لقومهم، وما^(٤) قالوا لهم

ردّ دعوى
النصارى
خصوصية
الإسلام لكون
كتابه باللسان
العربي

(١) في أ، ك، ط زيادة (ثم).

(٢) لعل الشيخ يقصد هنا بتبليغ الكتب وكلام الأنبياء لسائر الأمم الإعلام دون الدعوة، وإلا فإنه ليست هناك رسالة عامة في دعوتها إلا رسالة الإسلام.

(٣) في س، ك، ط (المرسل).

(٤) سقطت (ما) من أ.

— وأكثرهم لم يكونوا عرباً — ، وأنزله^(١) الله باللسان العربي ، وحيث أن
 فإن شرط التكليف تمكن العباد من فهم ما أرسل به الرسول إليهم ،
 وذلك يحصل بأن يرسل بلسان يعرف به مراده ثم جميع الناس متمكنون
 من معرفة مراده بأن يعرفوا ذلك اللسان أو يعرفوا معنى الكتاب بترجمة
 من يترجم معناه ، وهذا مقدور للعباد ، ومن لم يمكنه فهم كلام الرسول
 إلا بتعلم اللغة التي أرسل بها ، وجب عليه ذلك ؛ فإن ما لا يتم الواجب
 إلا به فهو واجب * بخلاف ما لا يتم الوجوب إلا به . فإنه ليس
 بواجب *^(٢) ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، لا في الأصل ولا في
 التمام . فلا نحتاج أن نقول ما لا يتم الواجب إلا به ، — وكان مقدوراً
 للمكلف — فهو واجب ؛ فإن ما ليس مقدوراً عليه لا يكلف به العباد ، بل
 وقد يكون مقدوراً عليه ولا يكلفون به .

فلما كانت الاستطاعة شرطاً في وجوب الحج لم يجب^(٣)
 تحصيل الاستطاعة بخلاف قطع المسافات^(٤) ، فإنه ليس شرطاً في
 الوجوب ؛ فلهذا يجب الحج على الإنسان^(٥) من المسافة البعيدة
 والقريبة إذا كان مستطيعاً .

وجمهور الناس لا يعرفون معاني الكتب الإلهية : التوراة والإنجيل
 والقرآن إلا بمن يبينها^(٦) ويفسرها لهم ، وإن كانوا يعرفون اللغة ، فهؤلاء
 يجب عليهم طلب علم ما يعرفون به ما أمرهم الله به ونهاهم عنه ، وهذا

(١) في أ ، س ، ك (وأنزل) .

(٢) ما بين النجمتين ساقط من أ وزدناه من سائر النسخ .

(٣) مكان هذه الكلمة في أ (يحصره) .

(٤) في س ، ك ، ط (المسافة) .

(٥) في س ، ك ، ط (فلهذا يجب على الإنسان الحج) .

(٦) في ط (أو) .

هو طلب العلم المفروض على الخلق، وكذلك ما بينه الرسول - صَلَّى الله عليه وسلّم - من معاني الكتاب الذي أنزله الله عليه يجب على الخلق طلب علم ذلك ممن يعرفه، إذا كان معرفة ذلك لا تحصل بمجرد اللسان.

كما يروى عن ابن عباس - رضي الله عنهما^(١) - أنه قال: تفسير القرآن على أربعة أوجه: تفسير تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله - تبارك وتعالى - ، فمن ادعى علمه فهو كاذب^(٢).

والله - تعالى - قال:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ...﴾^(٣).

لم يقل: وما أرسلنا من رسول إلا إلى قومه، لكن لم يرسله إلا بلسان قومه الذين خاطبهم أولاً ليبين لقومه، فإذا بين^(٤) لقومه^(٥) ما أراد حصول بذلك المقصود لهم ولغيرهم؛ فإن قومه الذين بلغ إليهم أولاً يمكنهم أن

(١) سقطت (رضي الله عنهما) من أ وزدناها من سائر النسخ.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٧/٢ عند آية: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات...﴾ الآية من سورة آل عمران: الآية ٧، وعزاه السيوطي إلى ابن المنذر من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس وذكره... قلت: وسبقت ترجمة الكلبي، وأبي صالح. وخلاصة القول فيهما أن الكلبي متهم بالكذب ورمي بالرفض، وأبو صالح باذام ضعيف مدلس.

انظر تقريب التهذيب (الكلبي) ١٦٣/٢؛ (وأبو صالح) ٩٣/١؛ وهذه الطريق من أضعف الطرق عن ابن عباس وتقدم الكلام عليها، وما ذكره السيوطي - رحمه الله - في شأنها في الدر المنثور، والاتقان.

(٣) سورة إبراهيم: الآية ٤.

(٤) في أ (تبين).

(٥) سقطت (لقومه) من أ وزدناها من سائر النسخ.

يبلغوا عنه اللفظ، ويمكنهم أن ينقلوا عنه المعنى لمن لا يعرف اللغة، ويمكن غيرهم أن يتعلم منهم لسانه فيعرف مراده، فالحجة تقوم على الخلق ويحصل لهم الهدى بمن^(١) ينقل عن الرسول: تارة المعنى، وتارة اللفظ؛ ولهذا يجوز نقل حديثه بالمعنى، والقرآن يجوز^(٢) ترجمة معانيه لمن لا يعرف العربية باتفاق العلماء^(٣).

(١) في أ (ثم) بدل (بمن).

(٢) في ك، ط (تجوز) بالمشاة الفوقية.

(٣) ذكر العلماء أن الترجمة على أربعة أنواع، ثلاثة منها جائزة، والرابع محال ومحرم شرعاً وهي:

١ - ترجمة القرآن بمعنى تبليغ ألفاظه، فالرسول - صلى الله عليه وسلم - كان يقرأ القرآن ويسمعه للغير، وكذلك أتباعه من بعده، بل وعدم القيام. بهذا كتمان للعلم، وهذا محرم شرعاً، قال - تعالى - : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى...﴾ الآية.

٢ - ترجمة القرآن بمعنى تفسيره بلغته العربية، ودليله قوله - تعالى - أمراً نبيه : ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ...﴾ الآية. ولقد بينه الرسول - صلى الله عليه وسلم - وسار على نهجه الصحابة والتابعون ومن بعدهم إلى يومنا هذا.

٣ - ترجمة القرآن بمعنى تفسيره بلغة أجنبية، وهذا ما يجري مجرى تفسيره بلسان عربي، وكلاهما توضيح وبيان لما استطاع من المعاني والمقاصد لا لجميع المقاصد.

٤ - ترجمة القرآن بمعنى نقله إلى لغة أخرى، وهي التعبير عن معاني ألفاظه العربية ومقاصدها بألفاظ غير عربية مع الوفاء بجميع هذه المعاني والمقاصد، وهذه الترجمة الحرفية تخرج القرآن عن أن يكون قرآناً، ولا يقال فيها أنها كلام الله، فلا يشك عاقل في أنها حرام، كما لا تخفى آثارها السيئة على أمة الإسلام، بل قد يصل الأمر إلى كتاب الله وهذا خطر كبير، وشر عظيم. وقد انجر الحكم إلى قراءة الترجمة، والصلاة بها فاتفت كلمة الفقهاء على منع ذلك، وحرمة. بل وبطلان الصلاة به لأنه ليس كلام الله.

راجع في هذه المسألة: مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني ٢٧/٢ فما بعدها؛ =

وجوز بعضهم أن يقرأ بغير العربية عند العجز عن قراءته بالعربية وبعضهم^(١) جوزه مطلقاً، وجمهور العلماء منعوا أن يقرأ بغير العربية وإن جاز أن يترجم للتفهم^(٢) بغير العربية، كما يجوز تفسيره وبيان معانيه. وإن كان التفسير ليس قرآناً متلوّاً وكذلك الترجمة، وقد قال النبي – صَلَّى الله عليه وسلّم – : «نضر الله امرءاً سمع منا حديثاً فبلغه إلى من لم يسمعه، فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»^(٣).

= ومباحث في علوم القرآن للشيخ مناع القطان ص ٣١٢ فما بعدها؛ والبرهان في علوم القرآن للزركشي ٤٦٤/١؛ ونقض المنطق لابن تيمية ص ٩٧ – ٩٩؛ والمغني لابن قدامة ٥٢٦/١؛ والمدونة في الفقه المالكي ٦٢/١؛ والمجموع في الفقه الشافعي ٣٧٩/٣.

(١) في ط (بعضهم) وقد علق في أ، فوق هذه الكلمة بقوله (كأبي حنيفة).

(٢) في س، ك، ط (للتفهم).

(٣) رواه أبوداود في كتاب العلم، باب فضل نشر العلم من حديث زيد بن ثابت – رضي الله عنه – بلفظ، قال: سمعت رسول الله – صَلَّى الله عليه وسلّم – يقول: نَضَرَ اللَّهُ امرءاً سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه، قرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه. سنن أبي داود ٦٨/٤ – ٦٩ (٣٦٦٠)، والترمذي في كتاب العلم، باب الحث على تبليغ السماع ٣٣/٥ – ٣٤ (٢٦٥٦)، وقال (حديث حسن). ثم ذكر في الباب عن ابن مسعود، ومعاذ، وجبير بن مطعم وأبي الدرداء، وأنس؛ وأخرجه ابن ماجه من حديث عباد الأنصاري، عن زيد ابن ثابت في المقدمة ٨٤/١ (٢٣٠) باب من بلغ علماً، وأخرجه من حديث جبير بن مطعم بنحوه في المقدمة ٨٥/١ (٢٣١)؛ وأخرجه في المناسك، باب الخطبة يوم النحر ١٠١٥/٢ (٣٠٥٦). ورواه أحمد من حديث أنس ٢٢٥/٣ وفيه زيادة؛ ورواه من حديث جبير بن مطعم ٨٠/٤، ٨٢؛ والدارمي ٧٦/١؛ باب الاقتداء بالعلماء؛ والإمام الشافعي في الرسالة ص ٤٠١ (١١٠٢).

وانظر: مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة للسيوطي ص ١٦ (رقم ١٧) ثم قال – رحمه الله – هذا الحديث متواتر. وقد أحصى المحقق بدر البدر طرق الحديث عن خمسة عشر صحابياً في تعليقه، ونبه إلى أن هناك اختلافاً في بعض ألفاظ

وقال أيضاً في الحديث الصحيح : «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل غيث أصاب أرضاً، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها طائفة أمسكت الماء، فنفع الله به الناس فزرعوا وسقوا، وكانت منها طائفة إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من تفقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به من الهدى والعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»^(١).

فدعا النبي - صلى الله عليه وسلم - لمن يبلغ حديثه وإن لم يتفقه^(٢) فيه وقال : «رب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه».

وقد كان^(٣) العارفون باللغة العربية حين بعث الله محمداً - صلى الله عليه وسلم - إنما يوجدون في جزيرة العرب وما والاها، كأرض الحجاز واليمن وبعض الشام والعراق، ثم انتشر فصار أكثر الساكنين في وسط المعمورة العربية، حتى اليهود والنصارى الموجودون في وسط الأرض يتكلمون بالعربية، كما يتكلم بها أكثر^(٤) المسلمين بل

الحديث في بعض الطرق. انظر: مفتاح الجنة للسيوطي بتحقيق بدر البدر (ط مؤسسة الخليج بالكويت) ص ١٦ - ١٨.

(١) رواه البخاري في كتاب العلم؛ باب فضل من علم وعلم ٢٨/١ من حديث أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - ؛ مسلم في الفضائل، باب بيان مثل ما بعث النبي - صلى الله عليه وسلم - من الهدى والعلم ١٧٨٧/٤ ؛ أحمد في مسند أبي موسى الأشعري ٣٩٩/٤.

(٢) سقطت (فيه) من س، ك، ط.

(٣) في أ، س، ك (كانت).

(٤) سقطت (أكثر) من أ، وفي س، ك (أكثر المسلمون).

كثير من اليهود والنصارى يتكلمون بالعربية أجود مما يتكلم بها كثير من المسلمين .

وقد انتشرت هذه اللغة أكثر مما انتشرت سائر اللغات حتى أن الكتب القديمة من كتب أهل الكتاب، ومن كتب الفرس والهند، واليونان، والقبط^(١) وغيرهم عربت بهذه اللغة.

ومعرفة الكتب المصنفة بالعربية والكلام العربي أيسر على جمهور الناس من معرفة الكتب المصنفة بغير العربية؛ فإن اللسان العبري^(٢)، والسرياني^(٣)، والرومي^(٤)، والقبطي^(٥)، وغيرها وإن عرفه طائفة من الناس، فالذين يعرفون اللسان العربي أكثر ممن يعرف لساناً من هذه الألسنة.

وأيضاً فمعرفة ما أمر الله عباده أمراً عاماً هو مما نقله الأمة عن نبيها^(٦) — صلى الله عليه وسلم — نقلاً متواتراً، وأجمعت عليه مثل الأمر

(١) سقطت (القبط) من أ.

(٢) في جميع النسخ (العربي) وهو خطأ واضح صححناه من هامش ك، ط والعبري بكسر العين المهملة، ويقال العبراني: لغة اليهود.

انظر القاموس المحيط ٨٣/٢، (فصل العين، باب الراء).

(٣) السرياني هو لسان السريان، وهم أمة قديمة، قيل: تكلم آدم وبنوه بالسرياني، وملتهم ملة الصابئين، ويذكرون أنهم أخذوا دينهم عن شيث وإدريس، ولهم كتاب يسمونه صحف شيث، والله أعلم.

انظر: تاريخ ابن الوردي ١١٣/١.

(٤) اللسان الرومي هو لسان الروم، وسبق في أول الكتاب التعريف بالروم.

(٥) القبطي هو لسان الأقباط، وهم من ولد حام، أهل ملك بديار مصر منهم الفراعنة، وهم ملوكهم، وكانوا سالفاً صابئة ذوي هياكل وأصنام، ومنهم علماء بالفلسفة.

انظر: تاريخ ابن الوردي ١١٦/١؛ والبداية والنهاية ٢٣٧/١ عند حديثه عن فرعون الذي أرسل إليه موسى — عليه السلام —.

(٦) في ط (نبيها محمد) وسقطت كلمة (محمد) من نسخة ك.

بشهادة أن^(١) لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأنه أرسل إلى جميع الناس: أميهم وغير أميهم، وإقام الصلوات الخمس، وإيتاء الزكاة، وصيام شهر رمضان، * وحج البيت العتيق من استطاع إليه سبيلاً*^(٢) وإيجاب الصدق وتحريم الفواحش والظلم، والأمر بالإيمان بالله وملائكته، وكتبه، ورسله والبعث بعد الموت هو ما يعرفه المسلمون معرفة عامة، ولا يحتاج الإنسان في معرفة ذلك إلى أن يحفظ القرآن، بل يمكن الإنسان^(٣) معرفة ما أمر الله به على لسان رسوله وإن لم يعرف اللغة العربية، ويكفيه أن يقرأ فاتحة الكتاب وسوراً معها يصلي بهن، وكثير من الفرس، والروم، والترك، والهند، والحبشة، والبربر وغيرهم لا يعرفون أن يتكلموا بالعربية الكلام المعتاد، وقد أسلموا وصاروا من أولياء الله المتقين، ومنهم من يحفظ القرآن كله وإذا كلم الناس لا يستطيع أن يكلمهم إلا بلسانه لا بالعربية، وإذا خوطب بالعربية لم يفقه ما قيل له.

الوجه الثاني: أن المسيح — عليه السلام — كان لسانه عبرياً، وكذلك ألسنة الحواريين الذين اتبعوه أولاً، ثم إنه أرسلهم إلى الأمم يخاطبونهم ويترجمون لهم ما قاله المسيح — عليه السلام —، فإن قالوا: إن رسل المسيح حولت ألسنتهم إلى ألسنة من أرسل إليهم.

قيل: هذا منقول في رسل المسيح، وفي رسل محمد — صلى الله عليه وسلم^(٤) — الذين أرسلهم إلى الأمم، ولا ريب أن رسل رسل الله،

(١) سقطت (أن) من أ.

(٢) سقط ما بين النجمتين من أ، س.

(٣) في ط (للإنسان).

(٤) في س (عليهم) وفي ك و ط (عليهما).

كرسل محمد - صَلَّى الله عليه وسلّم - والمسيح - عليه السلام^(١) - إلى الأمم، لا بد أن يعرفوا لسان من أرسلهم الرسول إليهم، أو أن يكون عند أولئك من يفهم لسانهم ولسان الرسول ليترجم لهم، فإذا لم يكن عند من أرسل المسيح إليهم من يعرف بالعربية، فلا بد أن يكون رسوله ينطق بلسانهم.

وكذلك رسل النبي - صَلَّى الله عليه وسلّم - الذين أرسلهم إلى الأمم؛ فإن النبي - صَلَّى الله عليه وسلّم - لما رجع من الحديبية أرسل رسله إلى أهل الأرض، فبعث إلى ملوك العرب باليمن، والحجاز، والشام، والعراق، وأرسل إلى ملوك النصارى بالشام ومصر: قبضهم، ورومهم، وعبرهم^(٢)، وغيرهم، وأرسل إلى الفرس المجوس: ملوك العراق وخراسان.

قال محمد بن سعد في الطبقات: ذكر بعثة^(٣) رسول الله - صَلَّى الله عليه وسلّم - الرسل بكتبه إلى الملوك وغيرهم يدعوهم، وذكر ما كتب به رسول الله - صَلَّى الله عليه وسلّم - لناس من العرب وغيرهم. ثم قال: أخبرنا محمد بن عمر^(٤) الأسلمي قال: حدثني معمر^(٥)

(١) في س ك، ط (كرسل محمد والمسيح عليهما الصلاة والسلام).

(٢) في ط (وعروهم) وزاد في ط (وعبرهم).

(٣) في ط (بعث).

(٤) في ط (عمرو) وهو خطأ وما أثبتناه من أ، س، هامش ك ومن الطبقات ٢٥٨/١ وسبقت ترجمته.

(٥) في ط زيادة (محمد بن) وهو خطأ ومعمر بن راشد هو أبو عروة الأزدي مولاهم عالم اليمن، اثنى عليه الإمام أحمد توفي سنة ١٥٣ هـ. وقد وثقه الذهبي غير أنه ذكر أن له أوهاماً معروفة، وقال ابن حجر ثقة ثبت فاضل.

انظر ترجمته في: الكاشف للذهبي ١٦٤/٣ (٥٦٦٢)؛ وميزان الاعتدال ٤/١٥٤؛ تقريب التهذيب ٢٦٦/٢ (١٢٨٤).

بن راشد، ومحمد بن عبد الله^(١)، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله^(٢)، عن ابن عباس قال: وعن الواقدي: حدثنا أبو بكر بن عبد الله بن أبي سبرة^(٣)، عن المسور بن رفاعة^(٤)، وحدثنا عبد الحميد بن جعفر^(٥) عن أبيه^(٦) عن جدته^(٧)

(١) محمد بن عبد الله بن مسلم بن أخي الزهري، روى عن عمه الزهري، لينة ابن معين ووثقه أبو داود، وقال بن حجر صدوق له أو هام مات سنة ١٥٧ هـ. وقيل ١٥٢.

انظر: الكاشف للذهبي ٦٥/٣؛ وميزان الاعتدال ٥٩٢/٣؛ وتقريب التهذيب ١٨٠/٢؛ وتهذيب التهذيب ٢٧٨/٩؛ والخلاصة للخزرجي ص ٣٤٦.

(٢) عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي، أحد فقهاء المدينة، تابعي ثقة فقيه ثبت، مات سنة ٩٤ هـ.

انظر: تهذيب التهذيب ٢٣/٧؛ وتقريب التهذيب ٥٣٥/١؛ والخلاصة للخزرجي ص ٢٥١.

(٣) في أ (قيسه) وما أثبتته من سائر النسخ، ومن الطبقات وهو الصواب، وأبو بكر بن عبد الله بن محمد بن أبي سبرة (بفتح السين المهملة، وسكون الموحدة) القرشي قال ابن حجر رموه بالوضع، مات سنة ١٦٢ هـ.

انظر تقريب التهذيب ٣٩٧/٢ (٥١)؛ والخلاصة للخزرجي ص ٤٤٤؛ وتهذيب التهذيب ٢٧/١٢.

(٤) المسور بن رفاعة بن أبي مالك القرظي قال الحافظ ابن حجر: مقبول من الرابعة. انظر ترجمته في تقريب التهذيب ٢٤٩/٢؛ وتهذيب التهذيب ١٥٠/١٠؛ والخلاصة للخزرجي ص ٣٧٧.

(٥) عبد الحميد بن جعفر بن عبد الله بن الحكم الأنصاري، صدوق، رمى بالقدر ربما وهم، مات سنة ١٥٣ هـ.

انظر: تهذيب التهذيب ١١١/٦، ١١٢؛ وتقريبه ٤٦٧/١؛ والخلاصة للخزرجي ص ٢٢١.

(٦) جعفر بن عبد الله بن الحكم الأنصاري، والد عبد الحميد، ثقة من الثامنة. انظر: تقريب التهذيب ١٣١/١ (٨٥)؛ وتهذيب التهذيب ٩٩/٢؛ والخلاصة ص ٦٣.

(٧) حصل هنا إسقاط بعض رجال السند. حيث ورد في طبقات ابن سعد ٢٥٨/١ =

الشفاء^(١)، وحدثنا أبو بكر(*) بن عبد الله ابن أبي سبرة^(٢)، عن محمد بن يوسف^(٣)، عن السائب بن يزيد^(٤)، عن العلاء بن الحضرمي^(٥)، وحدثنا ابن محمد^(٦) الأنصاري، عن جعفر بن عمرو (بن جعفر بن

كالآتي: «وحدثنا عبد الحميد بن جعفر، عن أبيه. قال وحدثنا عمر بن سليمان بن أبي حثمة، عن أبي بكر بن سليمان بن أبي حثمة، عن جدته الشفاء» اهـ . قلت فعلى هذا: الشفاء جدة أبي بكر بن سليمان بن أبي حثمة كما سيأتي في الترجمة وهو الصحيح .

(١) الشفاء بنت عبد الله بن عبد شمس بن خلف، العدوية، القرشية، صحابية، لها أحاديث وقد روى عنها ابنها سليمان بن أبي حثمة وابن ابنها أبو بكر قيل اسمها ليلى، وغلب عليها الشفاء أسلمت قبل الهجرة، وهي من المهاجرات الأول. انظر ترجمتها في: تهذيب التهذيب ٤٢٨/١٢؛ وتقريبه ٦٠٢/٢؛ والخلاصة للخزرجي ص ٤٩٢.

(*) أبو بكر بن سليمان بن أبي حثمة، ثقة عارف بالنسب، قال في الخلاصة: روى عن جدته الشفاء. انظر ترجمته في: الخلاصة للخزرجي ص ٤٤٤؛ وتقريب التهذيب ٣٩٧/٢ (٤٣).

عمر بن سليمان بن أبي حثمة العدوي (الذي وجدته عثمان، ولم أقف على عمر) مقبول روى عن جدته الشفاء.

انظر ترجمته في تهذيب التهذيب ١٢٠/٧؛ وتقريبه ٩/٢؛ والخلاصة للخزرجي ص ٢٥٩.

(٢) في أ (قيسرة) وهو خطأ، وسبقت ترجمته رقم (٧).

(٣) محمد بن يوسف بن عبد الله الكندي، المدني، الأعرج، ثقة ثبت مات سنة ١٤٠هـ تقريباً. انظر: ترجمته في تهذيب التهذيب ٥٣٤/٩؛ وتقريبه ٢٢١/٢؛ والخلاصة للخزرجي ص ٣٦٥.

(٤) السائب بن يزيد بن سعيد الكندي، صحابي صغير كما قال ابن حجر، وله أحاديث قليلة، مات سنة ٩١هـ وهو آخر من مات بالمدينة من الصحابة.

انظر ترجمته في: تهذيب التهذيب ٤٥٠/٣؛ وتقريبه ٢٨٣/١؛ والخلاصة للخزرجي ص ١٣٢.

(٥) سبقت ترجمة العلاء بن الحضرمي، وهو صحابي جليل.

(٦) في الطبقات ٢٥٨/١ (معاذ بن محمد الأنصاري) بن معاذ، مقبول من الطبقة =

عمرو^(١) بن أمية الضمري^(٢)، عن أهله، عن عمرو^(٣) بن أمية الضمري دخل حديث بعضهم في حديث بعض قالوا: إن رسول الله - صَلَّى الله عليه وسلّم - لما رجع من الحديبية في ذي الحجة سنة ست أرسل إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام. وكتب إليهم كتباً فقل: يا رسول الله، إن الملوك لا يقرأون كتاباً إلا مختوماً، فاتخذ رسول الله - صَلَّى الله عليه وسلّم - يومئذ خاتماً من فضة، فصه منه، نقشه ثلاثة أسطر: محمد رسول الله، وختم به الكتب، فخرج ستة نفر منهم في يوم واحد، وذلك في المحرم سنة سبع، وأصبح كل واحد منهم يتكلم بلسان القوم الذين بعثه إليهم.

الثامنة، وقال الذهبي، ذكره ابن حبان في الثقات. ولم أجد تاريخ وفاته. انظر ترجمته في: تهذيب التهذيب ١٩٣/١٠؛ وتقريبه ٢٩٧/٢؛ وميزان الاعتدال ١٣٢/٤ والخلاصة للخزرجي ص ٣٨٠.

(١) ما بين القوسين ساقط من نسخة أ وزدناه من سائر النسخ، ومن الطبقات ٢٥٨/١ وهو المدني، أخو عبد الملك بن مروان من الرضاعة من كبار التابعين، مات في خلافة الوليد، ويذكر ابن حجر في تهذيب التهذيب ما نصه: «روى إبراهيم بن إسماعيل بن مجمع، عن جعفر بن عمرو بن أمية الضمري، عن أبيه، عن جده حديثاً فقال ابن المدني في العلل: جعفر بن عمرو بن أمية الضمري، هذا ليس هو جعفر بن عمرو بن أمية لصلبه بل هو جعفر بن عمرو بن فلان بن عمرو بن أمية... قال ابن حجر وهذا غاية في التحقيق...».

انظر: تهذيب التهذيب ١٠٠/٢؛ وتقريبه ١٣١/١؛ والخلاصة للخزرجي ص ٦٣.

(٢) عمرو بن أمية الضمري، صحابي مشهور، روى عن النبي - صَلَّى الله عليه وسلّم - وعنه أولاده وغيرهم، أسلم بعد أحد، كان شجاعاً له إقدام، وبعثه النبي - صَلَّى الله عليه وسلّم - في أمور مهمة، مات بالمدينة في خلافة معاوية - رضي الله عنه -.

انظر: تهذيب التهذيب ٦/٨؛ وتقريبه ٦٥/٢؛ والخلاصة للخزرجي ص ٢٨٧.

(٣) في أ (عمر) وهو خطأ.

أرسل النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى هرقل^(١): دحية بن خليفة الكلبي^(٢)، و^(٣) إلى المقوقس^(٤) صاحب مصر والاسكندرية حاطب بن أبي بلتعة^(٥)، وإلى كسرى^(٦): عبد الله بن حذافة السهمي^(٧)، وأرسل إلى الحارث ابن أبي شمر الغساني^(٨) - وكان نصرانياً بظاهر دمشق - فبعث إليه شجاع بن وهب^(٩) الأسدي، وأرسل إلى غير هؤلاء^(١٠).

وقال أيضاً: أخبرنا الهيثم بن عدي^(١١) قال: أخبرنا دلهم بن

(١) سبقت ترجمته.

(٢) سبقت ترجمته.

(٣) سقطت الواو من س.

(٤) سبقت ترجمته.

(٥) سبقت ترجمته.

(٦) سبقت ترجمته.

(٧) سبقت ترجمته.

(٨) الحارث بن أبي شمر الغساني. من أمراء غسان في أطراف الشام، كانت إقامته بغوطة دمشق، وأدرك الإسلام فأرسل إليه النبي - صلى الله عليه وسلم - كتاباً مع شجاع بن وهب، ومات في عام الفتح.

انظر: في ترجمته أعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين لابن طولون ص ٣٢؛ والأعلام للزركلي ١٥٥/٢.

(٩) في ط (ذهب) وهو خطأ، وشجاع بن وهب يقال ابن أبي وهب بن ربيعة الأسدي، من المهاجرين الأولين، أسلم قديماً، وهاجر إلى الحبشة، الهجرة الثانية، وشهد بدرأ، والمشاهد كلها، استشهد يوم اليمامة وهو ابن بضع وأربعين سنة - رضي الله عنه -.

انظر في ترجمته: الإصابة لابن حجر ١٣٧/٢؛ والاستيعاب لابن عبد البر هامش الإصابة ١٥٧/٢ - ١٥٨.

(١٠) ورد هذا مفصلاً في طبقات ابن سعد ٢٥٨/١ - ٢٩١.

وقد ساق عدة طرق مدارها كلها على الواقدي، وهو متروك مع سعة علمه كما قال أهل الجرح والتعديل، وسبقت ترجمته.

(١١) الهيثم بن عدي الطائي المنبجي، الكوفي، نقل الذهبي وابن حجر عن البخاري =

صالح^(١) وأبو بكر الهذلي^(٢) عن عبد الله بن بريدة بن الحصيب الأسلمي^(٣) قال: وحدثنا محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان والزهري^(٤)، وحدثنا الحسن بن عمار^(٥)، عن فراس^(٦)، عن الشعبي^(٧) دخل حديث بعضهم في حديث بعض: أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال لأصحابه: «أتوني»^(٨) بأجمعكم بالغداة، وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا صلى الفجر يجلس في مصلاه قليلاً^(٩) يسبح ويدعو، ثم التفت إليهم فبعث عدة إلى عدة، وقال

وابن معين وأبسي داود وغيرهم أنه كذاب وليس بثقة، وقال الذهبي كان أخبارياً علامة. مات سنة ٢٠٧ هـ.

انظر: ميزان الاعتدال ٣٢٤/٤ (٩٣١١)؛ ولسان الميزان ٢٠٩/٦ (٧٤٠).

(١) دلهم بن صالح الكندي، الكوفي. ضعيف من الطبقة السادسة ولم أفق على تاريخ وفاته. انظر ترجمته في: تهذيب التهذيب ٢١٢/٣؛ وتقريب التهذيب ٢٣٦/١ (٦٠)؛ وميزان الاعتدال ٢٨/٢.

(٢) أبو بكر الهذلي. قيل اسمه سلمى بضم المهملة ابن عبد الله، وقيل روح كما ذكر ابن حجر وقال عنه أخباري متروك الحديث مات سنة ١٦٧ هـ.

انظر: تقريب التهذيب ٤٠١/٢ (٩٤)؛ وتهذيب التهذيب ٤٥/١٢.

(٣) عبد الله بن بريدة بن الحصيب الأسلمي، أبو سهل المروزي، قاضيا ثقة مات سنة ١٠٥ هـ. وقيل ١١٥ هـ. انظر: تقريب التهذيب ٤٠٣/١ (٢٠٣)؛ وتهذيب التهذيب ١٥٧/٥.

(٤) محمد بن إسحاق، ويزيد بن رومان، والزهري سبقت ترجمتهم.

(٥) الحسن بن عمار البجلي، مولاهم قاضي بغداد متروك مات سنة ١٥٣ هـ.

انظر: تقريب التهذيب ١٦٩/١ (٢٩٨)؛ وتهذيب التهذيب ٣٠٤/٢ - ٣٠٨.

(٦) فراس في ط (فراش) بالشين المعجمة وهو خطأ. وفراس بكسر أوله وبسین مهملة ابن يحيى الهمداني، صدوق ربما وهم مات سنة ١٢٩ هـ.

انظر: تقريب التهذيب ١٠٨/٢ (١٢)؛ وتهذيب التهذيب ٢٥٩/٨.

(٧) سبقت ترجمته.

(٨) في الطبقات ٢٦٤/١ (وافوني) والمعنى واحد.

(٩) في ط (ليلاً) وهو تصحيف.

— صَلَّى الله عليه وسلّم^(١) — : «انصحو الله في أمر عباده، فإن من أخبر عن شيء من أمور المسلمين، ثم لم ينصح، حرم الله عليه الجنة، انطلقوا ولا تصنعوا كما صنعت رسل عيسى بن مريم، فإنهم أتوا القريب وتركوا البعيد فأصبحوا — يعني الرسل — وكل منهم يعرف بلسان القوم الذين أرسل إليهم» وذكر ذلك النبي^(٢) — صَلَّى الله عليه وسلّم — فقال: «هذا أعظم ما كان من حق الله — عز وجل — عليهم^(٣) في أمر عباده».

الوجه الثالث: أن النصارى فيهم عرب كثير من^(٤) زمن النبي — صَلَّى الله عليه وسلّم — وكل من يفهم اللسان العربي، فإنه يمكن فهمه للقرآن، وإن كان أصل لسانه فارسياً أو رومياً أو تركياً أو هندياً أو قبطياً، وهؤلاء الذين أرسلوا هذا الكتاب من علماء النصارى قد قرأوا المصحف وفهموا منه ما فهموا وهم يفهمونه بالعربية واحتجوا بآيات من القرآن، فكيف يسوغ لهم مع هذا أن يقولوا: كيف تقوم الحجة علينا بكتاب لم نفهمه؟.

الوجه الرابع: أن حكم أهل الكتاب في ذلك حكم المشركين، ومعلوم^(٥) أن المشركين فيهم عرب وفيهم عجم — ترك وهند وغيرهما —

(١) في س (وقال صَلَّى الله عليه وسلّم لهم).

(٢) في ط (لنبي).

(٣) سقطت (عليهم) من أ وقد نقل الشيخ هذا النص من الطبقات لابن سعد ٢٦٤/١ بتصرف يسير، وسنده (متروك) لأن فيه الهيثم بن عدي (كذاب)، ودلهم بن صالح (ضعيف)، وأبو بكر الهذلي متروك الحديث، والحسن بن عمارة متروك أيضاً، والمتروك من أسوأ أنواع الضعيف كما قال المحدثون.

(٤) في ط (في).

(٥) سقطت الواو من ط.

فكما أن جميع المشركين كمشركي العرب، وكذلك جميع أهل الكتاب كأهل الكتاب من العرب وفي اليهود والنصارى ممن يعرف بلسان^(١) العرب من لا يحصيه إلا الله - عز وجل - .

الوجه الخامس: أنه ليس فهم كل آية من القرآن فرضاً على كل مسلم، وإنما يجب على المسلم أن يعلم ما أمره الله به^(٢)، وما نهاه عنه بأي عبارة كانت، و^(٣) هذا ممكن لجميع الأمم، ولهذا دخل في الإسلام جميع أصناف العجم من الفرس، والترك، والهند، والصقالبة^(٤)، والبربر، ومن هؤلاء من يعلم اللسان العربي، ومنهم من يعلم ما فرض الله عليه الترجمة، وقد قدمنا أنه يجوز ترجمة القرآن في غير الصلاة والتعبير^(٥)، كما يجوز تفسيره باتفاق المسلمين، وإنما تنازعوا هل يقرأ بغير العربية تلاوة كما يقرأ في الصلاة^(٦)؟ فجمهور العلماء منعوا من ذلك، وحينئذ فإذا قرأ الأعجمي فاتحة الكتاب وسورتين معها

(١) في ط (لسان).

(٢) (الله به) سقطت من أ.

(٣) سقطت الواو من ط.

(٤) الصقالبة: من ولد صقلب، ويتسبون إلى يافث، كانوا قبل أن تغلبهم الروم منبسطين ما بين بحر الروم، والبحر المحيط، وهم عشرة أصناف ولكل صنف منهم ملك.

انظر: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر لأبي عبد الله الأنصاري ص ٢٥٩. وسبق التعريف بالأمم التي ورد ذكرها مع الصقالبة.

(٥) التعبير هو التفسير، ومنه عبر الرؤيا يعبرها عبراً وعبارة، وعبرها فسرهما، وأخبر بما يؤول إليه أمرها. . والعابر الذي ينظر في الكتاب فيعبره أي: «يعتبر بعضه ببعض حتى يقع فهمه عليه».

انظر: لسان العرب ٥٢٩/٤؛ والقاموس المحيط ٨٣/٢ (فصل العين، باب الراء).

(٦) تقدم الكلام على هذه المسألة، والتي قبلها، وسبق التعليق عليهما في موضعه.

بالعربية أجزاءه، وكذلك التشهد وغيره من الذكر المأمور به وهذا أمر يسير
أيسر من أكثر الواجبات، فكيف يمتنع أن يأمر الله - تبارك وتعالى -
عباده بذلك؟.

وأما جمل ما أمر به الرسول - صلى الله عليه وسلم - من
الصلاة، والزكاة، والصوم^(١)، والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة،
وصلة الرحم، وما حرمه الله^(٢) من الشرك والفواحش والظلم وغير ذلك،
فهذا مما يمكن أن يعرفه كل واحد^(٣) بتعريف من يعرفه، إما باللسان
العربي، وإما بلسان آخر لا يتوقف تعريف ذلك على لسان العرب.



(١) سقطت (والصوم) من أ، س، ك.

(٢) سقط لفظ الجلالة من س.

(٣) في س، ك، ط (أحد).

فصل

وأما قوله - تعالى - : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (١).

وقوله :

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَعَجَبٌ وَسَعْيًا عَرَبِيًّا ... ﴾ (٢).

دفع ما يؤهم
الخصوصية
لكون القرآن
عربياً

وقوله : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ... ﴾ (٣).

فهذا يتضمن إنعام الله (٤) على عباده، لأن اللسان العربي أكمل الألسنة وأحسنها بياناً للمعاني، فنزول الكتاب به أعظم نعمة على الخلق من نزوله بغيره، وهو إنما خوطب به أولاً العرب ليفهموه، ثم من يعلم لغتهم يفهمه كما فهموه، ثم من لم يعلم لغتهم ترجمه له من عرف لغتهم، وكان إقامة الحجة به على العرب أولاً والإنعام به عليهم أولاً لمعرفةهم بمعانيه قبل أن يعرفه غيرهم.

قال - تعالى - :

﴿ فَإِنَّمَا يَسْتَرْثِيهِ لِسَانُكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (٥).

(١) سورة يوسف: الآية ٢.

(٢) سورة فصلت: الآية ٤٤.

(٣) سورة الزخرف: الآية ٣.

(٤) في س، ك، ط (إنعام الله به).

(٥) سورة الدخان: الآية ٥٨.

وقال :

﴿فَإِنَّمَا يَسْتَرْزَنُهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا﴾^(١).

واللد جمع الألد، وهو الأعوج في المناظرة الذي يروغ عن الحق، كما قال النبي - صَلَّى الله عليه وسلّم - : «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم»^(٢)، وأما قوله - تعالى - :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ...﴾^(٣).

فهو كما قال - تعالى - وقوم محمد - صَلَّى الله عليه وسلّم - هم قريش، وبلسانهم أرسل، وهو - سبحانه - لم يقل : وما أرسلنا من رسول إلا إلى قومه، بل الرسول يبعثه الله إلى قومه وغير قومه، كما تقول النصراني : أنه بعث المسيح - عليه السلام - ، والحواريين^(٤) إلى غير بني إسرائيل، وليسوا من قومه، فكذلك^(٥) بعث محمدًا^(٦) - صَلَّى الله عليه وسلّم - إلى قومه وغير قومه. ولكن إنما يبعث بلسان^(٧) قومه، ليبين لهم ثم يحصل البيان لغيرهم بتوسط البيان لهم : اما بلغتهم،

(١) سورة مريم : الآية ٩٧.

(٢) رواه البخاري من حديث عائشة - رضي الله عنها - في التفسير، تفسير سورة البقرة ١٥٩/٥، ورواه في المظالم، باب قول الله - تعالى - وهو ألد الخصم ١٠١/٣ ورواه مسلم في العلم، باب في الألد الخصم ٢٠٥٤/٤ (٢٦٦٨)، ورواه الترمذي في التفسير، تفسير سورة البقرة ٢١٤/٥ (٢٩٧٦)، ورواه النسائي في كتاب آداب القضاة، باب الألد الخصم ٢٤٧/٨، ورواه أحمد في مسند عائشة - رضي الله عنها - ٥٥/٦، ٦٣، ٢٠٥.

(٣) سورة إبراهيم : الآية ٤.

(٤) في س (أو الحواريين) وفي ط (أو الحواريون) وسقطت من ك.

(٥) في س، ك، ط (وكذلك).

(٦) في س، ك، ط (محمد).

(٧) في س (بلساني).

ولسانهم، وإما بالترجمة لهم ولو لم يتبين^(١) لقومه أولاً لم يحصل مقصود الرسالة لا لهم ولا لغيرهم، وإذا تبين لقومه أولاً حصل البيان لهم ولغيرهم بتوسطهم، * وقومه إليهم بعث أولاً ولهم دعا أولاً، وأنذر أولاً*^(٢)، وليس في هذا أنه لم يرسل إلى غيرهم، لكن إذا تبين لقومه لكونه بلسانهم، أمكن بعد هذا أن يعرفه غير قومه: إما بتعلمه بلسانهم، وإما بتعريف بلسان يفهم به، والرجل يكتب كتاب علم في طب أو نحو أو حساب بلسان قومه ثم يترجم ذلك الكتاب، وينقل إلى لغات أخرى ويتنفع به أقوام آخرون، كما ترجمت كتب الطب والحساب، التي صنف^(٣) بغير العربي وانتفع بها العرب، وعرفوا مراد أصحابها، وإن كان المصنف لها أولاً إنما صنفها بلسان قومه، وإذا كان هذا في بيان الأمور التي لا تتعلق^(٤) بها سعادة الآخرة، والنجاة من عذاب الله فكيف يمتنع في العلوم التي تتعلق^(٥) بها سعادة الآخرة والنجاة من العذاب أن ينقل من لسان إلى لسان حتى يفهم أهل اللسان الثاني بها ما أراده بها المتكلم بها أولاً باللسان الأول.

وأبناء فارس المسلمون لما كان لهم من عناية بهذا، ترجموا مصاحف كثيرة، فيكتبونها بالعربي، ويكتبون الترجمة بالفارسية، وكانوا قبل الإسلام أبعد عن المسلمين من الروم والنصارى، فإذا كان الفرس المجوس قد وصل إليهم معاني القرآن بالعربي وترجمته فكيف لا يصل إلى أهل الكتاب وهم أقرب إلى المسلمين منهم؟ وعامة الأصول التي

(١) في ط (يبين).

(٢) ما بين النجمتين ساقط من أ وزدناه من هامش س، وهامش ك، ط.

(٣) في ك، ط (صنعت).

(٤) في ط (تعلق) بالمشاة الفوقية.

(٥) في ط (تعلق) بالمشاة الفوقية.

يذكرها القرآن عندهم شواهدا ونظائرها في التوراة، والإنجيل، والزبور، وغير ذلك من النبوات، بل كل من تدبر نبوات^(١) الأنبياء وتدبر القرآن جزم يقيناً^(٢) بأن محمداً^(٣) رسول الله حقاً. وأن موسى رسول الله صدقاً، لما يرى من تصادق الكتابين: التوراة والقرآن مع العلم بأن موسى — عليه السلام — لم يأخذ عن محمد — صلى الله عليه وسلم — وأن محمداً — صلى الله عليه وسلم — لم يأخذ عن موسى، فإن محمداً — صلى الله عليه وسلم — باتفاق أهل المعرفة بحاله^(٤) كان أمياً، من قوم أميين، مقيماً بمكة، ولم يكن عندهم من يحفظ التوراة والإنجيل^(٥)، ولا الزبور، ومحمد — صلى الله عليه وسلم — لم يخرج من بين ظهرانيهم ولم يسافر قط إلاّ سفرتين: إلى الشام خرج مرة مع عمه أبي طالب قبل الاحتلام، ولم يكن يفارقه، ومرة أخرى مع ميسرة^(٦) في تجارته، وكان ابن بضع وعشرين سنة مع رفقة كانوا يعرفون جميع أحواله ولم يجتمع قط بعالم أخذ عنه شيئاً، لا من علماء اليهود ولا النصارى ولا من غيرهم، لا بحيرى ولا غيره^(٧)، ولكن كان بحيرى الراهب لما رآه عرفه لما كان عنده من ذكره ونعته، فأخبر أهله بذلك، وأمرهم بحفظه من اليهود ولم يتعلم لا من بحيرى ولا من غيره كلمة واحدة، وسنين — إن

(١) في ط (نبوات). (٢) في ط (يقينياً).

(٣) في أ (محمد) وما أثبتناه من سائر النسخ هو الصواب.

(٤) سقطت (بحاله) من أ وزدناه من س، ك، ط.

(٥) في س، ك، ط (ولا الإنجيل).

(٦) ميسرة: غلام خديجة — رضي الله عنها — قال الحافظ ابن حجر: «ذكر في السيرة وكان رفيق النبي — صلى الله عليه وسلم — في تجارة خديجة قبل أن يتزوجها، وحكى بعض أدلة نبوته، وترجم له ابن عساكر، ولم أقف على رواية صريحة بأنه بقي إلى البعثة فكتبته على الاحتمال». اهـ انظر: الإصابة في تمييز الصحابة ٤٤٩/٣ (٨٢٨٦).

(٧) في أ (ولا يحبر ولا غيره) وفي س (لا يحبر أو لا غيره) وما أثبتناه من ك، ط.

شاء الله - الدلائل الكثيرة على أنه لم يأخذ عن أحد^(١) من أهل الكتاب كلمة واحدة، وقصة بحيرى مذكورة ذكرها أرباب السير وأصحاب المسانيد والسنن.

قال الحافظ أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي في جامعه^(٢): حدثنا الفضل أبو العباس البغدادي^(٣)، قال: حدثنا عبد الرحمن بن غزوان أبو نوح^(٤) أنا يونس بن أبي إسحاق^(٥) عن أبي بكر بن أبي موسى الأشعري^(٦) عن أبيه^(٧) قال: خرج أبو طالب

(١) سقطت (عن أحد) من أوزدناها من سائر النسخ.

(٢) ٥٩٠/٥ - ٥٩١ وسيأتي تخريجه والترمذي هو أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، من أئمة علماء الحديث وحفاظه من أهل ترمذ (على نهر جيحون) تتلمذ للبخاري وقام برحلات كثيرة، وكان يضرب به المثل في الحفظ، عمى في آخر عمره. له تصنيف منها الجامع الكبير (سنن الترمذي)، والعلل، والشمال النبوية، والتاريخ. كان مولده سنة ٢٠٩. ووفاته سنة ٢٧٩هـ.

انظر: تهذيب التهذيب ٣٨٧/٩، وتذكرة الحفاظ ٦٣٣/٢ (٦٥٨) والأعلام ٣٢٢/٦.

(٣) الفضل بن سهل الأعرج أبو العباس البغدادي، من خراسان، صدوق مات سنة ٢٥٥هـ. انظر: تقريب التهذيب ١١٠/٢ (٣٧)، والخلاصة للخزرجي ص ٣٠٩.

(٤) عبد الرحمن بن غزوان (بمعجمه مفتوحة وزاي ساكنة) الضبي أبو نوح، المعروف بقراد (بضم القاف وتخفيف الراء) ثقة له أفراد، مات سنة ١٨٧هـ.

انظر: تقريب التهذيب ٤٩٤/١ (١٠٧٥)، والخلاصة للخزرجي ص ٢٣٣ وتهذيب التهذيب ١٨٥/٦.

(٥) يونس بن أبي إسحاق السبعي، أبو إسرائيل الكوفي، صدوق يهم قليلاً مات سنة ١٥٢هـ. على الصحيح.

انظر: تقريب التهذيب ٣٨٤/٢ (٤٧١)، والخلاصة للخزرجي ص ٤٤٠.

(٦) اسمه عمرو أو عامر، اشتهر بكنيته، ثقة مات سنة ١٠٦هـ. وكان أسن من أخيه أبي بردة.

انظر: تقريب التهذيب ٤٠٠/٢ (٧٤)، والخلاصة للخزرجي ص ٤٤٥.

(٧) سبقت ترجمة أبي موسى الأشعري الصحابي الجليل - رضي الله عنه - .

إلى الشام وخرج معه النبي - صَلَّى الله عليه وسلّم - في أشياخ من قريش: فلما أشرفوا على الراهب هبطوا، فحلوا رحالهم فخرج إليهم الراهب، وكانوا قبل ذلك يمرون به فلا يخرج إليهم ولا يلتفت، قال: فهم يحلون رحالهم فجعل يتخللهم الراهب حتى جاء فأخذ بيد رسول الله - صَلَّى الله عليه وسلّم - فقال: هذا سيد العالمين، هذا رسول رب العالمين، يبعثه الله رحمة للعالمين، فقال له أشياخ من قريش: ما علمك؟ فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلا خرّ ساجداً^(١)، ولا يسجدن^(٢) إلا لنبي وإني^(٣) أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف^(٤) كتفه مثل التفاحة ثم رجع فصنع لهم طعاماً، فلما أتاهاهم به - وكان هو في رعية الإبل - فقال: أرسلوا إليه فأقبل وعليه غمامة تظله، فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء الشجرة، فلما جلس مال فيء الشجرة عليه، فقال: انظروا إلى فيء الشجرة مال عليه. قال فبينما هو قائم عليهم يناشدهم أن لا يذهبوا به إلى الروم، فإن الروم أن رأوه عرفوه بالصفة فيقتلونه، فالتفت فإذا بسبعة قد أقبلوا من الروم، فاستقبلهم الراهب فقال: ما جاء بكم؟ قالوا: جئنا لأن^(٥) هذا النبي خارج في هذا الشهر فلم يبق طريق إلا بعث إليه بأناس وإنا قد أخبرنا خبره بطريقك هذه.

(١) في ط (ساجد).

(٢) في ط (يسجدون).

(٣) في أ (وأنه).

(٤) الغرضوف بوزن عصفور: مالان من اللحم، قاله الفارابي، وبعضهم يقول كل مالان من العظم، وقد يقال غضروف بتقديم الضاد على الراء لغة على القلب.

انظر: المصباح المنير: ٦٠٩/٢.

(٥) في أ، س، ك (أن).

فقال: أفأريتم أمراً أراد الله أن يقضيه هل يستطيع أحد من الناس رده؟ قالوا: لا. قال: فتابعوه وأقاموا معه. قال: أنشدكم الله يا معشر العرب أيكم وليه؟ فقال أبو طالب: أنا. فلم يزل يناشده حتى رده أبو طالب وزوده الراهب من الكعك والزيت^(١).

قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ورواه البيهقي في كتاب دلائل النبوة^(٢) من حديث العباس بن محمد عن قراد^(٣) بن نوح. وقال العباس: لم يحدث به — يعني بهذا الإسناد — غير قراد وسمعه يحيى وأحمد من^(٤) قراد.

قال البيهقي^(٥): أراد أنه لم يحدث بهذا الإسناد سوى هؤلاء، فأما القصة فهي عند أهل المغازي مشهورة.

(١) رواه الترمذي في كتاب المناقب، باب ما جاء في بدء نبوة النبي — صلى الله عليه وسلم — ٥٩٠/٥ — ٥٩١ (حديث رقم ٣٦٢٠). ورواه ابن جرير الطبري في تاريخه ٢٧٨/٢، والحاكم في كتاب التاريخ ٦١٥/٢ — ٦١٦ وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبي بقوله «أظنه موضوعاً فبعضه باطل» انظر: التلخيص (حاشية المستدرک) ٦١٥/٢ ورواه البيهقي في دلائل النبوة ٣٠٧/١ — ٣١٢، باب ما جاء في خروج النبي — صلى الله عليه وسلم — مع أبي طالب حين أراد الخروج إلى الشام تاجراً... إلخ وساقه الحافظ الذهبي في كتابه السيرة النبوية ص ٢٦ — ٣٠ تحت عنوان (سفره مع عمه — ان صح) ثم قال: تفرد به قراد واسمه عبد الرحمن بن غزوان، ثقة احتج به البخاري والنسائي ورواه الناس عن قراد، وحسنه الترمذي. ثم قال — رحمه الله — وهو حديث منكر جداً، ثم ذكر الألفاظ المنكرة في الحديث، ثم ساق للقصة شواهد عند أصحاب السير وذكرها.

(٢) انظر: ٣٠٧/١، ٣١٢.

(٣) في س (براد) وهو خطأ.

(٤) في ط (بن) وهو خطأ.

(٥) انظر: دلائل النبوة ٣٠٩/١.

وقال^(١) ابن سعد^(٢) في الطبقات: حدثنا محمد بن عمر قال: حدثني محمد بن صالح^(٣) وعبد الله بن جعفر^(٤) وإبراهيم بن إسماعيل بن أبي حبيبة^(٥) عن داود بن الحصين^(٦) قال لما بلغ رسول الله - صَلَّى الله عليه وسلَّم - اثني عشرة^(٧) سنة خرج به أبو طالب إلى الشام في العير التي خرج فيها للتجارة، فنزلوا بالراهب

(١) في ط (قال).

(٢) في أ، س، ك (سعيد) وهو خطأ. وسبقت ترجمة ابن سعد، والواقدي.

(٣) محمد بن صالح بن دينار التمار المدني قال ابن سعد، كان جيد العقل، قد لقي الناس، وعلم العلم والمغازي، وقال ابن حجر صدوق يخطئ مات سنة ١٦٨هـ. انظر: تهذيب التهذيب ٩/٢٢٥، وتقريبه ٢/١٧٠ (٣١٢)، والخلاصة للخزرجي ص ٣٤١.

(٤) عبد الله بن جعفر بن عبد الرحمن بن المسور بن مخزومة، المدني قال ابن حجر ليس به بأس مات سنة ١٧٠هـ، وعمره بضع وسبعون سنة. انظر: ترجمته في تهذيب التهذيب ٥/١٧١ - ١٧٣، وتقريبه ١/٤٠٦ (٢٢٩)، وميزان الاعتدال ٢/٤٠٣.

(٥) إبراهيم بن إسماعيل بن أبي حبيبة الأشهلي، المدني أبو إسماعيل، قال ابن حجر ضعيف من السابعة، وفي ميزان الاعتدال للذهبي قال البخاري عنده مناكير مات سنة ١٦٥هـ.

انظر: تهذيب التهذيب ١/١٠٤ (٨٠)، وميزان الاعتدال ١/١٩ (٣٦)، وتقريب التهذيب ١/٣١.

(٦) داود بن الحصين الأموي، أبو سليمان المدني، محدث مشهور، وثقه ابن معين وغيره. قال الحافظ ابن حجر ثقة إلا في عكرمة، ورمي برأي الخوارج مات سنة ١٣٥هـ.

انظر: تهذيب التهذيب ٣/١٨١، وتقريبه ١/٢٣١ (٥)، وميزان الاعتدال للذهبي ٢/٦٠٥ (٢٦٠٠)، والخلاصة للخزرجي ص ١٠٩.

وإسناد القصة ضعيف فيه إبراهيم بن أبي حبيبة وهو ضعيف والواقدي متروك وهو منقطع من هذا الطريق وسبق تخريجها وسيأتي زيادة بيان لها.

(٧) في أ، س، ك (عش).

بحيرى فقال بحيرى لأبي طالب في النبي - صلى الله عليه وسلم - ما قال، وأمره أن يحتفظ به فرده أبو طالب معه إلى مكة، وشب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مع أبي طالب يكلؤه الله ويحفظه ويحوطه من أمور الجاهلية ومعايبها لما يريد به من كرامته حتى بلغ أن كان رجلاً أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقاً، وأكرمهم مخالطة، وأعظمهم حلماً وأمانة، وأصدقهم حديثاً، وأبعدهم من الفحش والأذى فما^(١) رؤي ملاحياً ولا ممارياً أحداً حتى سماه قومه الأمين لما جمع فيه من الأمور الصالحة^(٢).

وقال ابن الجوزي: خرج أبو طالب إلى الشام ومعه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو ابن اثني^(٣) عشرة^(٤) سنة وشهرين وعشرة أيام^(٥) فنزل الركب ببصرى وبها راهب - يقال له بحيرى^(٦) - في صومعة له. وكان ذا علمٍ بالنصرانية، ولم يزل في تلك الصومعة راهبٍ تنتهي إليه علم النصرانية صاغراً عن كابر وفيها كتب يدرسونها، وكان كثيراً ما^(٧) يمر الركب فلا يكلمهم^(٨) حتى إذا كان في ذلك العام نزلوا منزلاً قريباً من الصومعة، فصنع لهم الراهب طعاماً ودعاهم. وإنما حمّله على ذلك لشيء^(٩) رآه فلما رأى بحيرى ذلك نزل من صومعته وأمر بذلك الطعام فحضر وأرسل إلى القوم فقال: يا معشر قريش. أحب أن

(١) في ك، ط (مما رؤي) وفي الطبقات ١٢١/١ (وما رؤي).

(٢) انظر: طبقات ابن سعد ١٢٠/١ - ١٢١ بتصرف.

(٣) في جميع النسخ (اثني) وما أثبتناه من الوفا بأحوال المصطفى ١٣١/١.

(٤) في أ (عشر).

(٥) جملة (وشهرين وعشرة أيام) ليست في الوفا بأحوال المصطفى.

(٦) سبقت ترجمته.

(٧) في أ، س، ك (مما).

(٨) في ط (يكلمه).

(٩) في ط (شيء).

تحضروا طعامي ولا يتخلف منكم أحد، فقال: وهذا شيء تكرموني^(١)، فلما حضروا عنده جعل يلاحظ النبي - صَلَّى الله عليه وسلّم - لحظاً شديداً، وينظر إلى جسده، وجعل أبو طالب يخاف عليه من الراهب، ثم قال الراهب لأبي طالب: أرجع بابن أخيك، فإنه كائن له شأن عظيم، فإننا نجد صفته في كتبنا ويروونه^(٢) عن آبائنا. فلما فرغوا من التجارة رجع به أبو طالب سريعاً إلى مكة، فما خرج بعدها به أبو طالب خوفاً عليه^(٣).

هذا مع أن في القرآن من الرد على أهل الكتاب في بعض ما حرفوه مثل دعواهم أن المسيح - عليه السلام - صلب. وقول بعضهم: أنه إله. وقول بعضهم: أنه ساحر. وطعنهم على سليمان - عليه السلام - وقولهم: أنه كان ساحراً وأمثال ذلك ما^(٤) يبين أنه لم يأخذ عنهم.

وفي القرآن من قصص الأنبياء - عليه السلام - ما لا يوجد في التوراة والإنجيل^(٥) مثل قصة هود وصالح وشعيب وغير ذلك.

(١) في ط (تكرموني به).

(٢) في س، ك، ط (ويروونه).

(٣) انظر: الوفا بأحوال المصطفى لابن الجوزي ١٣١/١ - ١٣٤ باب في ذكر خروج رسول الله - صَلَّى الله عليه وسلّم - إلى الشام مع عمه أبي طالب ولقائه بحيرى (ط. السعادة بمصر). تحقيق - مصطفى عبد الواحد.

وذكر ابن الجوزي القصة مختصرة في كتابه - تلقيح فهم أهل الأثر ص ١٣ (ط. النموذجية بمصر). وقال البيهقي عن هذه القصة (هي عند أهل المغازي مشهورة. انظر: دلائل النبوة ٣٠٩/١. وأما الذهبي فقد قال هو حديث منكر جداً (السيرة النبوية للذهبي ص ٢٨)، وسبق مزيد تخريج لهذه القصة.

(٤) في ط (مما).

(٥) في س، ك (ولا الإنجيل) وفي ط (ولا في الإنجيل).

وفي القرآن من ذكر المعاد وتفصيله وصفة الجنة والنار والنعيم والعذاب ما لا يوجد مثله في التوراة والإنجيل، بل التوراة ليس فيها تصريح بذكر المعاد وعامة ما فيها من الوعد والوعيد، فهو في الدنيا كالوعد بالرزق والنصر، والعاقبة، والوعيد بالقحط والأمراض، والأعداء. وإن كان ذكر المعاد موجوداً^(١) في غير التوراة من النبوات، ولهذا كان أهل الكتاب يقرون بالمعاد، وقيام القيامة^(٢) الكبرى، وقد قيل: إن ذلك مذكور في التوراة أيضاً، لكن لم يبسط كما بسط في غير التوراة^(٣).



(١) في أ (موجود) وهو خطأ.

(٢) في س (النصرانية) وهو تحريف ظاهر.

(٣) الراجع عدم التصريح بالثواب والعقاب، أما المعاد فقد ورد ذكره وإن لم يصرح به فيها. وقد أورد ابن كمونة اليهودي في كتابه «تنقيح الأبحاث للملل الثلاث» ص ٤٠ - ٤٣ من جملة الاعتراضات على التوراة عدم تصريحها بالثواب والعقاب الآخرين، وعندما دافع عن ذلك لم ينفه، وإنما قال - وهو منهزم أما هذا الاعتراض - «إن خلو التوراة من التصريح بذلك لا يضر إذا كان قد أنزل على موسى - عليه السلام - وخاطب به بني إسرائيل، واستفاض منهم، فإن قيل فلم لم يكتبه في التوراة مصرحاً؟ قيل إن الأمور الإلهية لا يجوز المعارضة فيها ثم ولا السؤال عنها، فلربما يكون لذلك حكمة لا نعرفها... إلخ كلامه.

ونحن نقول: إن خلو التوراة الموجودة من هذا الأصل العظيم من أبلغ الأدلة على تحريفها، وأنها ليست التوراة الأصلية التي أنزلت على موسى، وإذا ثبت هذا فلإنها ليست من الأمور الإلهية، وتسقط دعواه عدم جواز الاعتراض بل يبقى الاعتراض قائماً ومعه غيره من الاعتراضات الكثيرة التي تحط من قدر هذه الكتب المحرفة، وتضعف قيمتها، وتفقد الثقة بها مطلقاً.

وانظر: سلسلة مقارنة الأديان للدكتور شلبي (اليهودية) ص ١٩٨ - ٢٠٠ تحت عنوان الآخرة والبعث.

فصل

فإن قالوا: إن الكتب التي عندنا من^(١) التوراة والإنجيل وغيرهما ترجمها لنا الحواريون، وهم عندنا رسل معصومون، و^(٢)ترجموها لجميع الأمم بخلاف القرآن فإنه إنما يترجمه من ليس بمعصوم، فعن هذا أجوبة:

ردّة زعم
النصارى
عصمة
الحواريين
المتترجمين
للإنجيل

أحدها: أن هذا كذب بَيِّن فإن من العرب من النصارى من لا يحصي عدده إلا الله - تعالى - ، وكان فيهم نصارى كثيرون تنصروا قبل مبعث محمد - صَلَّى الله عليه وسلّم - ، وكان فيهم قوم على دين المسيح الذي لم يبدل وهم مؤمنون من أهل الجنة، كسائر من كان على دين المسيح - عليه السلام - ، فإن كل من كان على دين المسيح الذي لم يبدل قبل مبعث محمد - صَلَّى الله عليه وسلّم - ، فإنه مؤمن مسلم من أهل الجنة .

ومع هذا فليس على وجه الأرض توراة ولا إنجيل معرب من عهد الحواريين، بل التوراة العبرية تنقل من اللسان العبري أو غيره إلى العربية، وكذلك الإنجيل ينقل من اللسان الرومي، أو السرياني،

(١) في س (في).

(٢) سقطت الواو من ط .

أو اليوناني^(١) أو غيرها^(٢) إلى اللغة^(٣) العربية، فلو كان عند كل أمة من الأمم توراة وإنجيل ونوبات بلسانهم، لكان نصارى العرب أحق بهذا من نصارى الحبشة والصقالبة والهند^(٤)، فإنهم جيران البيت المقدس، وهم بنو إسماعيل — عليه السلام — والأنجيل عندهم أربعة، وهم يدعون أن كل واحد كتبها بلسان، كتبت بلسان العبري^(٥)، والرومي، واليوناني، مع أن في بعض الأنجيل ما ليس في بعض. مثل قولهم: «عمدوا الناس باسم الأب، والابن وروح القدس»^(٦) الذي جعلوه أصل دينهم. وهذا إنما هو قوله في إنجيل متى، وإذا كان كل واحد من الأربعة كتب إنجيلاً بلسانه، لم يكن هناك إنجيل واحد^(٧) أصلي ترجع إليه الأنجيل كلها، ثم هم^(٨) (مع) هذا يدعون أنها ترجمت باثنين وسبعين لساناً. وهذا فيه من الكذب والتناقض أمور سننبّه — إن شاء الله — على بعضها، لكن غاية ما يدعون أنه ترجم باثنين وسبعين لساناً، ومعلوم أن الألسنة الموجودة في بني آدم في جميع المعمورة في زماننا وقبل^(٩) زماننا أكثر من هذا، كما يعرفه من عرف أحوال العالم، بل اللسان الواحد كالعربي، والفارسي، والتركي، جنس تحته أنواع مختلفة لا يفهم بعضهم لسان

(١) في س (والسرياني أو غير اليوناني وغيرها)، وفي أ، ك (أو السرياني أو غيرها إلى العربية أو اليوناني).

(٢) في أ، ك (أو غيره).

(٣) سقطت (اللغة) من أ، س، ك.

(٤) سبق التعريف بهذه الأمم.

(٥) في أ، س (العربي)، وصححناه من ك، ط.

(٦) إنجيل متى الإصحاح الثامن والعشرون: ص ١٩.

(٧) سقطت (واحد) من ك.

(٨) في ط (إنهم).

(٩) في ط (وقيل).

بعض إلا أن يتعلمه منهم^(١)، والعرب أقرب الأمم إلى بني إسحاق: بني إسرائيل^(٢)، والعيص فإنهم بنو إسماعيل وجيرانهم، فإن أهل الحجاز جيران الشام، ومكة لم تزل تحج إليها العرب، ولم يكن قط عند العرب تورا ولا إنجيل عربيان من عهد المسيح – عليه السلام –، بل ولا كان بمكة لا تورا ولا إنجيل، لا معرب ولا غير معرب، ولهذا قال – تعالى – :

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّنْ نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ...﴾^(٣).

فكيف يدعي أن التورا، والإنجيل ترجمهما^(٤) الحواريون لكل قوم من جميع^(٥) بني آدم شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً بلسان يفهمونه به، وهل يقول هذا إلا من هو من أكذب الناس وأجهلهم؟

الوجه الثاني: أن يقال ترجمة الكلام من لغة إلى لغة لا تحتاج إلى معصوم بل هذا أمر تعلمه الأمم، فكل من عرف اللسانين أمكنه الترجمة ويحصل العلم بذلك إذا كان المترجمون كثيرين متفرقين

(١) لعل الشيخ يقصد اختلاف اللهجات التي في اللغة الواحدة بحيث تجعل أبناءها يحتاجون إلى تفهيم بعض كلماتها، أما اللسان كله فإنه غير مراد هنا.

(٢) إسرائيل لقب على نبي الله يعقوب – عليه السلام – وهي كلمة عبرية مركبة من إسرا وإيل ومعنى إسرا: عبد، ومعنى إيل: الله، فمعناها إذن عبد الله.

وانظر ترجمته – عليه السلام – : في البداية والنهاية ١/ ١٩٤؛ وابن الوردى ٢٨/ ١؛ وقصص الأنبياء لعبد الوهاب نجار ص ١١٩.

والعيص هو أخو يعقوب الأكبر، هو الذي تناسل منه الروم، والعيص ويعقوب ابنا إسحاق بن إبراهيم – عليهما السلام –.

وجاءت ترجمته في البداية والنهاية ١/ ١٩٤؛ وابن الوردى ٢٨/ ١.

(٣) سورة القصص: الآية ٤٦.

(٤) في ط (ترجمهما).

(٥) سقطت (جميع) من ك.

لا يتواطؤون على الكذب، و^(١) بقرائن تقتزن بخبر أحدهم وبغير ذلك، وهذا موجود معلوم، بل إذا ترجمه اثنان كل منهما لا يعرف ما يقوله الآخر ولم^(٢) يتواطؤوا حصل بذلك المقصود في الغالب، وهم يذكرون أن التوراة ترجمها اثنان وسبعون حبراً من اليهود، ولم يكونوا معصومين، وأن^(٣) الملك فرقهم لثلاثا يتواطؤوا على الكذب، واتفقوا على ترجمة واحدة، وهذا كان بعد الخراب الأول، فهكذا يمكن ترجمة غير التوراة.

وهذه التوراة في زماننا والإنجيل والزبور يترجم باللغة العربية، ويعرف المقصود به بلا ريب، فكيف بالقرآن الذي يفهم أهله معناه ويفسرونه ويترجمونه أكمل وأحسن مما يترجم أهل التوراة والإنجيل، التوراة والإنجيل؟

الوجه الثالث: أن دعوى العصمة في كل واحد من الحواريين وأنهم رسل الله بمنزلة إبراهيم وموسى - عليهما السلام - دعوى ممنوعة وهي باطلة، وإنما هم رسل المسيح - عليه السلام - بمنزلة رسل موسى ورسول إبراهيم ورسول محمد - صلى الله عليه وسلم - ، وأكثر النصارى أو كثير منهم^(٥) أو كلهم يقولون: هم رسل الله وليسوا بأنبياء، وكل من ليس بنبي، فليس برسول الله وليس بمعصوم، و^(٦) إن كانت له خوارق عادات، كأولياء الله من المسلمين وغيرهم؛ فإنه وإن كانت لهم كرامات من الخوارق، فليسوا بمعصومين من الخطأ،

(١) سقطت الواو من ط .

(٢) سقطت (الواو) من ك، ط .

(٣) في س (فإن).

(٤) في أ (عليه).

(٥) في أ (أو أكثرهم).

(٦) سقطت (الواو) من ط .

والخوارق التي تجري على يدي^(١) غير الأنبياء، لا تدل على أن أصحابها أولياء الله عند أكثر العلماء، فضلاً عن كونهم معصومين، فإن ولي الله من يموت على الإيمان * ومجرد الخارق لا يدل على أنه يموت على الإيمان^(٢) * بل قد يتغير عن ذلك الحال، وإذا قطعنا بأن الرجل ولي الله كمن أخبر النبي بأنه من أهل الجنة، فلا يجب^(٣) الإيمان بكل ما يقوله إن لم يوافق ما قالته الأنبياء بخلاف الأنبياء - عليهم السلام - فإنهم معصومون لا يجوز أن يستقر فيما يبلغونه خطأ، ولهذا أوجب الله الإيمان بهم، ومن كفر بواحد منهم فهو كافر، ومن يسب واحداً منهم، وجب قتله في شرع الإسلام، كما قال - تعالى - :

﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (١٣٦) فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنُ بِهِ فَقَدْ أَهْتَدُوا وَإِنْ لَوَلَوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿ (٤) .

وقال - تعالى - :

﴿ ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ۚ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ۚ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ (٥) .

(١) في ط (أيدي).

(٢) ما بين النجمتين ساقط من أ، ك، وزدناه من س، ط، وفي ط (الخوارق) بدل (الخارق).

(٣) من قوله (والخوارق التي تجري على يدي ... إلى : قوله فلا يجب الإيمان) ساقط كله من نسخة ك، أي حوالي أربعة أسطر.

(٤) سورة البقرة: الآيتان ١٣٦، ١٣٧ .

(٥) سورة البقرة: الآية ٢٨٥ .

وهذا مبسوط في موضع آخر^(١).



(١) ألف الشيخ - رحمه الله - كتاباً عظيماً في هذا الموضوع وما يدور حوله تحت عنوان «الصارم المسلول على شاتم الرسول» ويقع في قرابة ستمائة صفحة (طبعة/ مجلس دائرة المعارف/ حيدر أباد، سنة ١٣٢٢هـ).

وانظر من هذا الكتاب صفحات ٤، ٢٨، ١١٦، ١٢٤، ٥٧٠ فما بعدها بين أن من سب النبي - صلى الله عليه وسلم - من مسلم أو كافر فإنه يجب قتله قال - رحمه الله - : «هذا مذهب عليه عامة أهل العلم، قال ابن المنذر: أجمع عامة أهل العلم على أن حد من سب النبي - صلى الله عليه وسلم - القتل، وممن قاله: مالك، والليث، وأحمد، وإسحاق، وهو مذهب الشافعي. وقال الخطابي: لا أعلم أحداً اختلف في وجوب قتله...».

وقد ساق - رحمه الله - الآيات الدالة على كفر الشاتم وقتله، وذكر أن الساب أعظم جرماً من المرتد، وذلك أن جماعة ارتدوا على عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - ثم دعوا إلى التوبة، وعرضت عليهم حتى تابوا فقبلت توبتهم. أما الذين شتموا فقد أهدرت دماؤهم، ولم تقبل توبتهم ثم ذكر من قتلوا أو امر بقتلهم كابن أبي سرح، وابن خطل، والحويرث بن معبد، وغيرهم. وكذلك حكم سب سائر الأنبياء كحكم سب نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - لأن الإيمان بهم واجب عموماً، وواجب خصوصاً بمن قصه الله علينا في كتابه، وسبهم كفر، ورده إن كان من مسلم، ومحاربه إن كان من ذمي. قال - رحمه الله - : «وما أعلم أحداً فرق بينهما، وإن كان أكثر كلام الفقهاء، إنما فيه ذكر من سب نبينا، فإنما ذلك لمسيس الحاجة إليه...».

انظر الصارم المسلول ص ١١٦، وغيرها.

وانظر في هذه المسألة: المحلى لابن حزم ٤٠٩/١١؛ وحاشية الروض المربع ٤٠١/٧؛ والعدة شرح العمدة ص ٥٧٩؛ والكافي ١٠٩١/٢؛ والمقنع لابن قدامة ١٥٣/٤.

فصل

وأما قولهم: لا يلزمنا اتباعه؛ لأننا نحن قد أتانا رسل من قبله خاطبونا بألستنا وأنذرونا بديننا الذي نحن متمسكون به يومنا هذا وسلموا إلينا التوراة والإنجيل بلغتنا على ما يشهد لهما الكتاب الذي أتى به هذا الرجل^(١) حيث يقول في سورة إبراهيم:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ...﴾^(٢).

وقال في سورة^(٣) النحل:

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا...﴾^(٤).

فالجواب عنه من وجوه:

أحدها: أن إثبات رسول من قبله إليكم لا يمنع إتيان رسول ثان، فإن بني إسرائيل قد بعث الله إليهم موسى — عليه السلام — وكانوا على شريعة التوراة، ثم بعث الله — تبارك وتعالى — إليهم المسيح — عليه السلام — ووجب^(٥) عليهم الإيمان به ومن لم يؤمن به كان كافراً وإن قال

الرد على
زعمهم
الاستغناء
برسل الله
إليهم عن
رسالة محمد
— صلى الله
عليه وسلم —

(١) سقطت (الرجل) من س، ك، ط.

(٢) سورة إبراهيم: الآية ٤.

(٣) سقطت (سورة) من أ، س، ك.

(٤) سورة النحل: الآية ٣٦.

(٥) في س، ك (وجب) وفي ط (فوجب).

إني متمسك بالكتاب الذي أنزل إليّ.

فكذلك إذا أرسل الله رسولاً بعد المسيح وجب الإيمان به ومن لم يؤمن به كان كافراً، كما أن من لم يؤمن بالمسيح من بني إسرائيل كان كافراً.

وبنوا إسرائيل أكثر اختصاصاً بموسى والتوراة من الروم وغيرهم، فالمسيح والإنجيل فإنهم كانوا عبرانيين والتوراة عبرانية^(١).

الوجه الثاني: دعواهم أنهم متمسكون في هذا الوقت بالدين الذي نقله الحواريون عن المسيح – عليه السلام – كذب ظاهر، بل هم عامة ما هم عليه من الدين: عقائده وشرائعه، كالأمانة، والصلاة إلى المشرق، واتخاذ الصور والتماثيل في الكنائس، واتخاذها وسائط، والاستشفاع بأصحابها، وجعل الأعياد بأسمائهم، وبناء الكنائس على أسمائهم، واستحلال الخنزير، وترك الختان والرهبانية، وجعل الصيام في الربيع، وجعله خمسين يوماً، والصلوات والقرايين والناموس^(٢)

(١) هكذا جاءت هذه الجملة في جميع النسخ، وأرى أن فيها اضطراباً، وصحتها هكذا: (فالمسيح والإنجيل كانا عبرانيين، والتوراة عبرانية).

(٢) يطلق الناموس على صاحب السر، وقد يقيد بصاحب سر الخير، والجاسوس صاحب سر الشر، والأول قول الجمهور كما قال ابن حجر، وفي المعاجم اللغوية كذلك، ويقال للحاذق ومن يلطف مدخله، وجبريل – صلى الله عليه وسلم – وقد اشتهرت هذه الكلمة عند اليهود والنصارى، ويعنون بها الشريعة، انظر: إنجيل متى الإصحاح الخامس / فقرة ١٧؛ ويوحنا ١٧/١؛ وسفر الخروج ١٩/١٦؛ ويقسمه القس برسوم شحاته في كتابه (الخلاص) ص ٧٣ إلى ثلاثة أقسام: الناموس الأدبي، والناموس المدني، والناموس الطقسي ثم قال أي: الوصايا، والأحكام، والفرائض، وفي الكتاب حديث واسع عن الناموس فانظره بطبعة دار نوبار. وانظر: في المعنى الأول فتح الباري ١/٢٤؛ وتفسير غريب الحديث ص ٢٤٦؛ والقاموس المحيط ٥٦/٢.

لم ينقله الحواريون عن المسيح ولا هو موجود لا في التوراة ولا في الإنجيل، وإنما هم متمسكون بقليل مما جاءت به الأنبياء، وأما كفرياتهم وبدعهم فكثيرة جداً لم^(١) ينقل أحد عن المسيح والحواريين أنهم أمروهم أن يقولوا ما يقولونه في صلاتهم السحرية^(٢): «تعالوا بنا

(١) في ط (ولم).

(٢) صلواتهم تنقسم إلى سبع صلوات منها صلاة السحر كما ذكر كاتبهم الآب متى المسكين في كتابه «التسبحة اليومية ومزامير السواعي» ص ٧٣، أما القس فايز فارس فيقسمها في كتابه «حقائق أساسية في الإيمان المسيحي» ص ٢٠٠ - ٢٠٢ إلى ثلاثة أنواع:

١ - الصلاة السرية: وتعني ساعات الاختلاء مع الله.

٢ - الصلاة العائلية: رب الأسرة مع أفراد أسرته يجتمعون كل يوم لقراءة كتاب.

٣ - الصلاة الجمهورية: يقوم بها البعض في اجتماعات العبادة العمومية نيابة عن جمهور العابدين.

ويبدو أن الأول تحديد لأوقاتها - عندهم - والثاني بيان لأنواعها، ولم أجد النصوص التي ذكرها المؤلف - رحمه الله - بنصها ولكني وجدتها بمعناها في كتاب «الرؤية الأرثوذكسية لوالدة الإله» لمجموعة من مؤلفيهم ص ٤١ تحت عنوان الصلوات اليومية، وذكروا أنها تتضمن أناشيد وابتهالات عدة موجهة إلى والدة الإله... ومنها: «أيها السيدة العذراء النقية عروس الله... إلخ»، ومنها: «أيها المجيدة المباركة والدة الإله الدائمة البتولية مريم قدمي صلاتنا إلى ابنك وآلهنا متوسلة إليه لكي يخلص نفوسنا»، قالوا وهذه من صلاة النوم الصغرى ثم ذكروا أناشيد وابتهالات أخرى ص ٤٢ «الكتاب المذكور» وانظر كتبهم التي تحدثت عن ذلك ومنها الخلاصة الشهية في أخص العقائد والتعاليم الأرثوذكسية لأفلاطون، تعريب الخوري يوحنا ص ٢٠٠ - ٢١٦ (ط. كرم بيروت)، وكتاب (أو من حوار من الباب المملوكي) للمطران أغناطيوس ص ١٠٥ من منشورات النور، بيروت.

فانظر مدى ما وصلوا إليه من الكفر والإشراك بالله، والحكم على هذه النصوص، وعلى أصحابها لا يحتاج إلى كبير فطنة، وعظيم ذكاء، فالأمر واضح جلي فنسأل الله العافية والسلامة من الزيغ والضلال.

ملاحظة: الكتب التي أشرت إليها موجودة بين يدي وسأشير إلى طبعاتها في الفهارس إن شاء الله.

نسجد للمسيح إلهنا»، وفي الصلاة الثانية والثالثة: «يا والدة الإله مريم العذراء افتحي لنا أبواب الرحمة».

الوجه الثالث: قولهم أنهم سلموا إليهم^(١) التوراة والإنجيل بلغاتهم إنما يستقيم إن كان صحيحاً في بعض النصارى لا في جميعهم، فإن العرب من النصارى وغير العرب لم يسلم أحد إليهم توراة ولا^(٢) إنجيلاً بلسانهم، وهذا أمر معروف ولا توجد^(٣) قط توراة ولا إنجيل معرب من زمن الحواريين، وإنما عربت في الأزمان المتأخرة فإذا كانت النصارى من العرب تقوم^(٤) عليهم الحجة قبل محمد - صلى الله عليه وسلم - بكتاب نزل بغير لسانهم ثم عرب لهم، فكيف لا تقوم على الروم وغيرهم الحجة بكتاب نزل بغير لسانهم ثم ترجم بلسانهم؟.

الوجه الرابع: أن يقال: الأمة إذا غيرت دين رسولها الذي أرسل إليها وبدلته أرسل الله إليها من يدعوها إلى الدين الذي يحبه الله ويرضاه، كما أن بني إسرائيل لما غيروا دين موسى وبدلوه، بعث الله إليهم وإلى غيرهم المسيح بالدين الذي يحبه ويرضاه^(٥)، وكذلك النصارى لما بدلوا دين المسيح وغيروه، بعث الله إليهم وإلى غيرهم محمداً - صلى الله عليه وسلم - بالدين الذي يحبه ويرضاه.

وقد ثبت في الصحيح عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم: عربهم وعجمهم إلا بقايا

(١) في ك (إلينا).

(٢) سقطت (لا) من أ، س، ك، وزدناها من ط.

(٣) في ك، ط (يوجد) بالمشناة التحتية.

(٤) في س (من تقوم).

(٥) في ك، ط (يحبه الله).

من أهل الكتاب»^(١) .

وأولئك البقايا الذين كانوا^(٢) متمسكين بدين المسيح قبل مبعث محمد - صَلَّى الله عليه وسلَّم - كانوا على دين الله - عز وجل - ، وأما من حين بعث محمد - صَلَّى الله عليه وسلَّم - فمن لم يؤمن به فهو من أهل النار، كما قال - صَلَّى الله عليه وسلَّم - في الحديث الصحيح : «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولا يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار»^(٣) .

الوجه الخامس : أن يقال : دعواهم أن الرسل سلموا إليهم التوراة والإنجيل وسائر النبوات باثنين وسبعين لساناً ، وأنها باقية إلى اليوم على لفظ واحد دعوى يعلم أن قائلها يتكلم بلا علم بل مفتر كذاب^(٤) ، وذلك أن هذا يقتضي أنه الآن في الأرض هذه الكتب باثنين وسبعين لساناً كلها منقولة عن الحواريين وكلها متفقة غير مختلفة البتة فهذا^(٥) أربع دعاوى : أنها موجودة باثنين وسبعين لساناً ، وأنها متفقة ، وأنها كلها منقولة عن الحواريين ، الرابعة أنهم معصومون .

فيقال : من الذي منكم لو قدر أن هذه الكتب التي باثنين

(١) هذا جزء من حديث رواه مسلم عن عياض بن حمار المجاشعي في كتاب الجنة وصفة نعمها ، وأهلها ، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار ٢١٩٧/٤ (رقم ٢٨٦٥) ، ورواه أحمد في مسنده ١٦٢/٤ .

(٢) في س (إن كانوا) .

(٣) رواه مسلم من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - في كتاب الإيمان ، باب وجوب الإيمان برسالة النبي - صَلَّى الله عليه وسلَّم - إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته في الجزء الأول ص ١٣٤ حديث رقم (١٥٣) .

(٤) في س ، ك ، ط (كاذب) .

(٥) في جميع النسخ (فهذا) ، والأولى (فهذه) .

وسبعين لساناً هي عن الحواريين، وهي موجودة اليوم، فمن الذي يمكنه أن يشهد بموافقة بعضها بعضاً؟ وذلك لا يمكن إلا لمن يعلم الاثنين وسبعين لساناً ويكون ما عنده من الكتب يعلم أنها^(١) مأخوذة عن الحواريين ويعلم أن كل نسخة في العالم بهذا اللسان توافق النسخة التي عنده وإلا فلو جمع اثنين وسبعين نسخة باثنين وسبعين لساناً لم يعلم أن كل نسخة من هذه هي المأخوذة عن الحواريين إن قدر أنه أخذ عنهم اثنان وسبعون^(٢) لساناً. * ولا يعلم أن كل نسخة في العالم توافق تلك النسخة^(٣)، فإنه من المعلوم أنه في زماننا وقبل زماننا لم تزل هذه الكتب تنقل من لسان إلى لسان كما يترجم من العبرانية إلى العربية ومن السريانية والرومية واليونانية إلى العربية وغيرها.

وحيثُذ فإذا وجدت نسخة بالعربية لم يعلم أنها مما عربت بعد الحواريين أو هي من المأخوذ عن الحواريين إذا قدر أنه أخذ عنهم نسخة بالعربية ولا يمكن لأحد^(٤) أن يجمع جميع النسخ المعربة ويقابل بينها، بل و^(٥) قد وجدنا النسخ المعربة يخالف بعضها بعضاً في الترجمة مخالفة شديدة تمنع الثقة ببعضها، وقد رأيت أنا بالزبور عدة نسخ معربة بينها من الاختلاف ما لا يكاد ينضبط وما يشهد بأنها مبدلة مغيرة لا يوثق بها، ورأيت من التوراة المعربة من النسخ ما يكذب بكثير من ترجمتها طائفة من أهل الكتاب، فكيف يمكنه أن يجمع جميع النسخ التي بالاثنتين وسبعين لساناً ويقابل بين نسخ كل لسان حتى يكون فيها النسخة

(١) في ك، ط (إنما هي).

(٢) في ك، ط (اثنين وسبعين) والوجهان صحيحان.

(٣) ما بين النجمتين ساقط من أ، س، وزدناه من ك، ط.

(٤) في أ، س (أحداً) وفي ك (أحد)، وما أثبتناه من ط أولى.

(٥) سقطت الواو من ط.

القديمة المأخوذة عن الحواريين؟ ثم يقابل بين نسخ جميع الألسنة ولا يمكن ذلك إلا لمن يكون عارفاً بالاثنيين وسبعين لساناً معرفة تامة، وليس في بني آدم من يقدر على ذلك، ولو قدر وجود ذلك فلم يعرف أن القادر على ذلك فعل ذلك وأخبرنا باتفاقها.

ولو وجد ذلك لكان هذا خبر واحد أو^(١) أن يترجم كل لسان من يعلم صحة ترجمته حتى تنتهي الترجمة إلى لسان واحد كالعربي مثلاً ويعلم حينئذ اتفاقها، وإلا فإذا ترجم هذا الكتاب بلسان أو لسانين أو أكثر وترجم الآخر كذلك لم يعلم اتفاقها إن لم يعلم أن المعنى بهذا اللسان هو المعنى بهذا اللسان وهذا لا يكون إلا ممن يعرف اللسانين أو من يترجم له اللسانين^(٢) باللسان الذي يعرفه.

ومعلوم أن أحداً^(٣) لم يترجم له الاثنان وسبعون لساناً بلسان واحد أو ألسنة يعرفها ولا يعرف أحد باثنين وسبعين لساناً.

وحينئذ فالجزم باتفاق جميع الكتب المكتوبة باثنين وسبعين لساناً أو الجزم بأن نسخ كل لسان متفقة جزم بما لا يعلم صحته لو لم يكن في الأرض اليوم الاثنان وسبعون لساناً منقولة عن الحواريين لم تختلط بالمترجم بعد ذلك، فكيف وأكثر ما بأيدي الناس هو مما ترجم^(٤) بعد ذلك بالعربي وغيره؟.

هذا إذا ثبت أن الحواريين سلموها باثنين وسبعين لساناً وأنها باقية

(١) في ك، ط (وأن يترجم).

(٢) في ك، ط (ترجم له اللسانان)، وفي س (يترجم له اللسانان).

(٣) في أ، س (أحد).

(٤) في ك، ط (يترجم).

إلى اليوم وهذا أمر لا يمكن أحداً^(١) معرفته، فليس اليوم تورا، وإنجيل، ونبوات يشهد لها أحد أنها مترجمة باللسان العربي من عهد الحواريين، بل ولا بأكثر الألسنة، وإلاّ فإذا قدر أن الحواريين سلموها باثنين وسبعين لساناً مع حصول الترجمة بعد ذلك وكثرة المترجمات أمكن وقوع التغيير في بعض المترجمات، وحينئذ فالعلم بأن تلك النسخ القديمة^(٢) لا تتغير فيها لا يمنع وقوع التغيير في بعض ما ترجم بعدها أو في بعض ما نسخ منها^(٣)، ولا سبيل إلى العلم باتفاقها مع كونها باثنين وسبعين لساناً بخلاف القرآن الذي هو بلسان العرب وخط العرب، فإن العلم باتفاق ما يوجد من نسخة ممكن وهو محفوظ في الصدور^(٤) ولا يحتاج إلى حفظ في الكتب فهو منقول بالتواتر لفظاً وخطاً.

الوجه السادس: قولهم وسلموا إلينا التوراة والإنجيل بلساننا على ما يشهد لهما^(٥) الكتاب الذي أتى به هذا الرجل^(٦)، فيقال لهم: ليس في القرآن ما يشهد لكم بأن التوراة والإنجيل سلمت إليكم بلسانكم فاستشهادكم بالقرآن على هذه الدعوى من جنس استشهادكم به على أن دينكم حق.

ومن جنس استشهادكم بالنبوات على ما أحدثتموه وغيرتم به دين

(١) في ط (لأحد).

(٢) سقطت (القديمة) من ك.

(٣) في ك، ط (بعدها).

(٤) سقطت (الواو) من س، ك، ط.

(٥) بياض في أ، وأثبتناه من سائر النسخ.

(٦) سقطت (الرجل) من س، ك، ط.

المسيح — عليه السلام — من التثليث والاتحاد وغير ذلك وقولهم حيث يقول الله :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ...﴾^(١).

وقال^(٢) — تعالى — :

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا...﴾^(٣).

فيقال : لا ريب أن قوم موسى — عليه السلام — هم بنو إسرائيل وبلسانهم نزلت التوراة، وكذلك بنو إسرائيل هم قوم المسيح — عليه السلام — وبلسانهم كان المسيح يتكلم فلم يخاطب أحد^(٤) من الرسلين أحد إلا باللسان العبراني، لم يتكلم أحد منهما لا برومية، ولا سريانية، ولا يونانية، ولا قبطية.

وقوله — تعالى — :

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا...﴾^(٥).

كلام مطلق عام، كقوله :

﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ...﴾^(٦).

ليس في هذا تعرض لكون التوراة والإنجيل سلمت إليهم بالاستتاهم.

الوجه السابع : أن يقال عمدتهم في هذه الحجة أنهم يقولون :

(١) سورة إبراهيم : الآية ٤ .

(٢) في ط (وقوله).

(٣) سورة النحل : الآية ٣٦ .

(٤) في س، ك، ط (واحد).

(٥) سورة النحل : الآية ٣٦ .

(٦) سورة فاطر : الآية ٢٤ .

الحواريون هم عندنا رسل الله كإبراهيم وموسى ، والمسيح عندنا هو الله وهو أرسل إلينا هؤلاء^(١) فيجب أن يكونوا أرسلوا إلينا بلساننا، وأن يكونوا سلموا إلينا التوراة والإنجيل بلساننا.

فيقال لهم : هب أنكم تدعون هذا وتعتقدونه ونحن سنبين^(٢) — إن شاء الله تعالى — أن هذه دعاوى باطلة لكن أنتم في هذا المقام تذكرون أن هذا الكتاب الذي هو القرآن الذي جاء به محمد — صَلَّى الله عليه وسلم — يشهد لكم بذلك وهذا كذب ظاهر على محمد — صَلَّى الله عليه وسلم — وعلى كتابه وأنتم صدرتم كتابكم بأن كتابه يشهد لكم، ونحن نبين كذبكم وافتراءكم عليه سواء أقررتم بنبوته أو لم تقرروا بها: فإنه^(٣) من المعلوم يقيناً أنه لم يشهد للمسيح بأنه الله، بل كفر من قال ذلك، ولا يشهد للحواريين بأنهم رسل أرسلهم الله، بل إنما شهد للحواريين بأنهم قالوا إنا مؤمنون مسلمون وأنهم قالوا نحن أنصار الله كما شهد لمن آمن به بأنهم مؤمنون مسلمون ينصرون الله ورسوله، بل وأنهم أفضل من الحواريين لكون أمته خير الأمم كما قال — تعالى — :

﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ
الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾^(٤).

(١) في س، ك، ط (هؤلاء إلينا).

(٢) سيتحدث المؤلف — رحمه الله — عن هذا في موضعه المناسب من هذا الجزء، وسيبين مدى بطلان هذه الدعوى، بما يثبت أن الحواريين ليسوا رسلاً وإنما هم مبلغون كغيرهم من أصحاب الرسل، وأنه ليس معهم على دعواهم دليل من نقل أو عقل، بل هي دعاوى باطلة، ومزاعم كاذبة.

(٣) في ط (فإن).

(٤) سورة آل عمران: الآية ٥٢.

وقال - تعالى - :

﴿وَإِذْ أُوحِيتُ إِلَى الْخَوَارِجِ أَنْ آمِنُوا بِوَيْرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ
بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ (١).

وقال - تعالى - :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْخَوَارِجِ مَنْ أَنْصَارِي
إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِجُ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَنَّا طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتِ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا
الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَاصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ (٢).

وسياتي الكلام على هذا مبسوطاً ونبين أن الرسل المذكورين في
سورة «يس» ليس هم الخواريين (٣) ولا كانوا رسلاً للمسيح، بل كان هذا
الإرسال قبل المسيح وأهل القرية كذبوا أولئك الرسل فأهلكهم الله كما
قال - تعالى - :

﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ (٤) ٢٨ ٢٩ ٣٠ ٣١ ٣٢ ٣٣ ٣٤ ٣٥ ٣٦ ٣٧ ٣٨ ٣٩ ٤٠ ٤١ ٤٢ ٤٣ ٤٤ ٤٥ ٤٦ ٤٧ ٤٨ ٤٩ ٥٠ ٥١ ٥٢ ٥٣ ٥٤ ٥٥ ٥٦ ٥٧ ٥٨ ٥٩ ٦٠ ٦١ ٦٢ ٦٣ ٦٤ ٦٥ ٦٦ ٦٧ ٦٨ ٦٩ ٧٠ ٧١ ٧٢ ٧٣ ٧٤ ٧٥ ٧٦ ٧٧ ٧٨ ٧٩ ٨٠ ٨١ ٨٢ ٨٣ ٨٤ ٨٥ ٨٦ ٨٧ ٨٨ ٨٩ ٩٠ ٩١ ٩٢ ٩٣ ٩٤ ٩٥ ٩٦ ٩٧ ٩٨ ٩٩ ١٠٠ ١٠١ ١٠٢ ١٠٣ ١٠٤ ١٠٥ ١٠٦ ١٠٧ ١٠٨ ١٠٩ ١١٠ ١١١ ١١٢ ١١٣ ١١٤ ١١٥ ١١٦ ١١٧ ١١٨ ١١٩ ١٢٠ ١٢١ ١٢٢ ١٢٣ ١٢٤ ١٢٥ ١٢٦ ١٢٧ ١٢٨ ١٢٩ ١٣٠ ١٣١ ١٣٢ ١٣٣ ١٣٤ ١٣٥ ١٣٦ ١٣٧ ١٣٨ ١٣٩ ١٤٠ ١٤١ ١٤٢ ١٤٣ ١٤٤ ١٤٥ ١٤٦ ١٤٧ ١٤٨ ١٤٩ ١٥٠ ١٥١ ١٥٢ ١٥٣ ١٥٤ ١٥٥ ١٥٦ ١٥٧ ١٥٨ ١٥٩ ١٦٠ ١٦١ ١٦٢ ١٦٣ ١٦٤ ١٦٥ ١٦٦ ١٦٧ ١٦٨ ١٦٩ ١٧٠ ١٧١ ١٧٢ ١٧٣ ١٧٤ ١٧٥ ١٧٦ ١٧٧ ١٧٨ ١٧٩ ١٨٠ ١٨١ ١٨٢ ١٨٣ ١٨٤ ١٨٥ ١٨٦ ١٨٧ ١٨٨ ١٨٩ ١٩٠ ١٩١ ١٩٢ ١٩٣ ١٩٤ ١٩٥ ١٩٦ ١٩٧ ١٩٨ ١٩٩ ٢٠٠ ٢٠١ ٢٠٢ ٢٠٣ ٢٠٤ ٢٠٥ ٢٠٦ ٢٠٧ ٢٠٨ ٢٠٩ ٢١٠ ٢١١ ٢١٢ ٢١٣ ٢١٤ ٢١٥ ٢١٦ ٢١٧ ٢١٨ ٢١٩ ٢٢٠ ٢٢١ ٢٢٢ ٢٢٣ ٢٢٤ ٢٢٥ ٢٢٦ ٢٢٧ ٢٢٨ ٢٢٩ ٢٣٠ ٢٣١ ٢٣٢ ٢٣٣ ٢٣٤ ٢٣٥ ٢٣٦ ٢٣٧ ٢٣٨ ٢٣٩ ٢٤٠ ٢٤١ ٢٤٢ ٢٤٣ ٢٤٤ ٢٤٥ ٢٤٦ ٢٤٧ ٢٤٨ ٢٤٩ ٢٥٠ ٢٥١ ٢٥٢ ٢٥٣ ٢٥٤ ٢٥٥ ٢٥٦ ٢٥٧ ٢٥٨ ٢٥٩ ٢٦٠ ٢٦١ ٢٦٢ ٢٦٣ ٢٦٤ ٢٦٥ ٢٦٦ ٢٦٧ ٢٦٨ ٢٦٩ ٢٧٠ ٢٧١ ٢٧٢ ٢٧٣ ٢٧٤ ٢٧٥ ٢٧٦ ٢٧٧ ٢٧٨ ٢٧٩ ٢٨٠ ٢٨١ ٢٨٢ ٢٨٣ ٢٨٤ ٢٨٥ ٢٨٦ ٢٨٧ ٢٨٨ ٢٨٩ ٢٩٠ ٢٩١ ٢٩٢ ٢٩٣ ٢٩٤ ٢٩٥ ٢٩٦ ٢٩٧ ٢٩٨ ٢٩٩ ٣٠٠ ٣٠١ ٣٠٢ ٣٠٣ ٣٠٤ ٣٠٥ ٣٠٦ ٣٠٧ ٣٠٨ ٣٠٩ ٣١٠ ٣١١ ٣١٢ ٣١٣ ٣١٤ ٣١٥ ٣١٦ ٣١٧ ٣١٨ ٣١٩ ٣٢٠ ٣٢١ ٣٢٢ ٣٢٣ ٣٢٤ ٣٢٥ ٣٢٦ ٣٢٧ ٣٢٨ ٣٢٩ ٣٣٠ ٣٣١ ٣٣٢ ٣٣٣ ٣٣٤ ٣٣٥ ٣٣٦ ٣٣٧ ٣٣٨ ٣٣٩ ٣٤٠ ٣٤١ ٣٤٢ ٣٤٣ ٣٤٤ ٣٤٥ ٣٤٦ ٣٤٧ ٣٤٨ ٣٤٩ ٣٥٠ ٣٥١ ٣٥٢ ٣٥٣ ٣٥٤ ٣٥٥ ٣٥٦ ٣٥٧ ٣٥٨ ٣٥٩ ٣٦٠ ٣٦١ ٣٦٢ ٣٦٣ ٣٦٤ ٣٦٥ ٣٦٦ ٣٦٧ ٣٦٨ ٣٦٩ ٣٧٠ ٣٧١ ٣٧٢ ٣٧٣ ٣٧٤ ٣٧٥ ٣٧٦ ٣٧٧ ٣٧٨ ٣٧٩ ٣٨٠ ٣٨١ ٣٨٢ ٣٨٣ ٣٨٤ ٣٨٥ ٣٨٦ ٣٨٧ ٣٨٨ ٣٨٩ ٣٩٠ ٣٩١ ٣٩٢ ٣٩٣ ٣٩٤ ٣٩٥ ٣٩٦ ٣٩٧ ٣٩٨ ٣٩٩ ٤٠٠ ٤٠١ ٤٠٢ ٤٠٣ ٤٠٤ ٤٠٥ ٤٠٦ ٤٠٧ ٤٠٨ ٤٠٩ ٤١٠ ٤١١ ٤١٢ ٤١٣ ٤١٤ ٤١٥ ٤١٦ ٤١٧ ٤١٨ ٤١٩ ٤٢٠ ٤٢١ ٤٢٢ ٤٢٣ ٤٢٤ ٤٢٥ ٤٢٦ ٤٢٧ ٤٢٨ ٤٢٩ ٤٣٠ ٤٣١ ٤٣٢ ٤٣٣ ٤٣٤ ٤٣٥ ٤٣٦ ٤٣٧ ٤٣٨ ٤٣٩ ٤٤٠ ٤٤١ ٤٤٢ ٤٤٣ ٤٤٤ ٤٤٥ ٤٤٦ ٤٤٧ ٤٤٨ ٤٤٩ ٤٥٠ ٤٥١ ٤٥٢ ٤٥٣ ٤٥٤ ٤٥٥ ٤٥٦ ٤٥٧ ٤٥٨ ٤٥٩ ٤٦٠ ٤٦١ ٤٦٢ ٤٦٣ ٤٦٤ ٤٦٥ ٤٦٦ ٤٦٧ ٤٦٨ ٤٦٩ ٤٧٠ ٤٧١ ٤٧٢

إلى السماء ولم يعزروا بثالث ولا كان حبيب النجار^(١) موجوداً إذ ذاك^(٢)، وآمن أهل أنطاكية^(٣) بالمسيح - عليه السلام - وهي^(٤) أول مدينة آمنت به كما قد بسط في غير هذا الموضع^(٥).

والمقصود هنا: أن محمداً - صلى الله عليه وسلم - لم يشهد للمسيح بالآلهية^(٦) ولا للحواريين بأنهم رسل الله ولا أنهم سلموا إليهم التوراة والإنجيل بلسانهم ولا بأنهم معصومون وماذكروه من قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ...﴾^(٧).

إنما يتناول رسل الله لا رسل رسل الله بل رسل رسل الله يجوز أن يبلغوا رسالات الرسل بلسان الرسل إذا كان هناك من يترجم لهم ذلك اللسان، وإن لم يكن هناك من يترجم ذلك اللسان كانت رسل الرسل

(١) اسمه حبيب بن مري، ثم قيل: كان نجاراً، وقيل: حبالاً، وقيل: إسكافاً - خرازاً - ، وقيل: قصاراً، وقيل كان يتعبد في غار هناك فאלله أعلم، قال ابن كثير: «وعن ابن عباس: أنه قد أسرع فيه الجذام، وكان كثير الصدقة، قتله قومه، ولهذا قال الله - تعالى - : ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾، يعني لما قتله قومه أدخله الله الجنة، رواه ابن أبي حاتم». انظر: البداية والنهاية ١/٢٣٠؛ وفتح الباري شرح صحيح البخاري ٦/٣٣٧ (كتاب الأنبياء، باب واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية... الآية).

(٢) في س بدل (ذاك) جملة زائدة لا مكان لها هذا نصها: «إذ أنطاكية اثنان من أصحابه بعد رفعه إذ ذاك».

(٣) أنطاكية: بالفتح ثم السكون، والياء مخففة. مدينة هي قسبة العواصم من الثغور الشامية، من أعيان البلاد، وأمهايتها موصوفة بالنزاهة والطيب والفواكه، وبينها وبين حلب يوم وليلة، وبها كانت مملكة الروم. انظر: مراصد الاطلاع ١/١٢٥.

(٤) في أ، س، ك (وهم) وصححناه من ط.

(٥) بسط في ص ٢٤٤ فما بعدها من هذا الجزء.

(٦) في ط (بالوهمية).

(٧) سورة إبراهيم: الآية ٤.

تخاطبهم بلسانهم لكن لا يلزم من هذا أن يكونوا قد كتبوا الكتب الإلهية
بلسانهم بل يكفي أن يقرأوها بلسان الأنبياء - عليهم السلام - ثم
يترجموها بلسان أولئك وهو - سبحانه - قال :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ...﴾^(١).

ولم يقل وما أرسلنا من رسول إلا إلى قومه بل محمد أرسل بلسان
قومه وهم قريش وأرسل إلى قومه وغير قومه كما يذكرون^(٢) ذلك عن
المسيح عليه السلام .



(١) سورة إبراهيم : الآية ٤ .

(٢) في ك، ط (يذكرون هم ذلك).

فصل

وأما قوله - تعالى :

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا...﴾.

فحق^(١). وتمام^(٢) الآية :

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۚ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾^(٣).

وهذا كقوله - تعالى - في الآية الأخرى :

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾^(٤).

وقوله :

﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾^(٥).

- في أصح الأقوال - أي : ولكل قوم داعٍ يدعوهم إلى توحيد الله

(١) سقطت (فحق) من ط .

(٢) في ك ، ط (فتمام) .

(٣) سورة النحل : الآية ٣٦ .

(٤) سورة فاطر : الآية ٢٤ .

(٥) سورة الرعد : الآية ٧ .

وعبادته كما أنت هادٍ أي داعٍ لمن أرسلت إليه، والهادي: بمعنى الداعي المعلم المبلغ لا بمعنى الذي يجعل الهدى في القلوب كقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٥٢﴾ صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ... ﴿٥١﴾.

وقوله: ﴿وَأَمَّا مُؤَدِّهِمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى...﴾ ﴿٥٢﴾.

ومعلوم أن بني إسرائيل كانوا أكثر الأمم أنبياء، بعث إليهم موسى، وبعث إليهم بعده أنبياء كثيرون حتى قيل: إنهم ألف^(٣) نبي وكلهم يأمرون بشريعة التوراة ولا يغيرون منها شيئاً، ثم جاء المسيح بعد ذلك بشريعة أخرى غير فيها بعض شرع التوراة بأمر الله عز وجل.

فإذا كان إرسال موسى والأنبياء بعده إليهم لم يمنع إرسال المسيح إليهم فكيف يمتنع إرسال محمد - صَلَّى الله عليه وسلم - إلى أهل الكتاب من اليهود والنصارى ولهم^(٤) من حين المسيح لم يأتهم رسول من الله كما قال - تعالى - :

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا

(١) سورة الشورى: الآيتان ٥٢ - ٥٣.

(٢) سورة فصلت: الآية ١٧.

(٣) قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله - : في تاريخه البداية والنهاية ١٥٢/٢ : روى البزار قال : حدثنا عمرو بن علي، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا مجالد، عن الشعبي، عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وسلم - : «إني لأخاتم ألف نبي أو أكثر، وإنه ليس منهم نبي إلا وقد أُنذر قومه الدجال، وأنه قد تبين لي فيه ما لم يتبين لأحد منهم، وأنه أعور، وأن ربكم ليس بأعور. ثم قال - رحمه الله - : وهذا إسناد حسن... إلخ. وسيأتي زيادة بيان لعدد الأنبياء وتحديده.

(٤) في ط (وهم).

مَا جَاءَ نَا مِنْ بُشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ .

وهذه (٢) الفترة التي كانت بين المسيح و(٣) محمد - صلوات الله عليهما وسلامه - وهي فيما ذكره غير واحد من العلماء كسلمان الفارسي (٤) وغيره كانت ستمائة سنة وقد قيل : ستمائة سنة (٥) شمسية وهي ستمائة وعشرون أو ثمانية عشر هلالية وذلك أن كل مائة سنة (٦) شمسية تكون مائة وثلاث سنين هلالية . كما قال - تعالى - :
﴿وَلَيْسُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ (٧) .

وهذه التسع وبعض العاشرة، والتاريخ قد تحسب فيه التامة وتحسب فيه الناقصة، فمن قال عشرين حسب الناقصة، ومن قال ثمانية عشر حسب التامة فقط .



-
- (١) سورة المائدة: الآية ١٩ . (٢) سقطت الواو من ط .
(٣) في ط (وبين) وهي منفردة عن سائر النسخ، والصواب عدم تكرار بين إلا إذا كانت الأولى مضافة إلى ضمير فإنها تكرر بين في هذه الحالة كقوله بينه وبين محمد .
(٤) أبو عبد الله سلمان الخير الفارسي، مولى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أصله من فارس كان أبوه دهقان رامهرمز وسيدها وسادن ناراها .
روى أصحاب التراجم قصة إسلامه العجيبة، وتدرجه من دينه إلى النصرانية إلى الإسلام حتى أطلق عليه الباحث عن الحقيقة، وأول مشاهده مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - يوم الخندق، وهو الذي أشار بحفره، ولم يتخلف عن مشهد بعده، فضائله كثيرة، مات - رضي الله عنه - سنة ٣٥هـ في خلافة عثمان - رضي الله عنه - .

انظر: الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ٢/٦٠؛ والاستيعاب: هامش الإصابة ٢/٥٣؛ وتهذيب التهذيب ٤/١٣٧؛ والرياض المستطابة ص ١٠٣ .

(٥) سقطت (سنة) من أ، س، ك وألحقناها من ط .

(٦) سقطت (سنة) من أ، س، ك وألحقناها من ط .

(٧) سورة الكهف: الآية ٢٥ .

فصل

وأما قولهم: نعلم^(١) أن الله عدل وليس من عدله أن يطالب أمة يوم القيامة باتباع إنسان لم يأت إليهم ولا وقفوا له على كتاب بلسانهم ولا من جهة داعٍ من قبله، فيقال الجواب من وجوه:

أحدها: أن هذا الكلام لا يجوز أن يقوله من كتب هذا الكتاب ولا أحد يفهم بالعربية * فإن هؤلاء يفهمون هذا الكتاب بالعربية *^(٢) وقد قرءوه وناظروا بما فيه، وإذا كانوا مع ذلك يفهمون بغير العربية كان ذلك أبلغ في قيام الحجة عليهم، فإنهم يمكنهم فهم ما قال بالعربية وتفهم^(٣) ذلك لقومهم باللسان الآخر.

الثاني^(٤): كما^(٥) أنهم يفهمون ما في كتبهم الرومية، والسريانية والقبطية، وغيرها ويترجمونها للعرب من النصارى بالعربية، فإذا قامت الحجة على عرب النصارى باللسان الرومي فلأن تقوم على الروم باللسان العربي أولى، فإن اللسان العربي أكثر انتشاراً في العالم من اللسان الرومي، والناطقون به بعد ظهور الإسلام أكثر من الناطقين بغيره وهو أكمل بياناً وأتم تفهماً.

(١) في ك، ط (ونعلم).

(٢) ما بين النجمتين ساقط من أ، وزدناه من هامش النسختين س، ك، ومن ط .

(٣) في س، ك (وفهم).

(٤) في ط (الوجه الثاني).

(٥) سقطت (كما) من س، ك، ط .

ردّزعمهم بأن
عَدْلُ الله
يقتضي أن لا
يطلبوا باتباع
إنسان لم يأت
إليهم

وحينئذ فيكون وصول المعاني به إلى غير أهل لسانه أيسر لكمال معناه ولكثرة العارفين به، وهؤلاء علماء النصارى يقرءون كتب الطب والحساب والفلسفة وغير ذلك باللسان العربي مع أن مصنفها كانوا عجماً من رومي ويوناني وغير ذلك، فما المانع أن يقرأ القرآن العربي وتفسيره وحديث النبي - صلى الله عليه وسلم - باللسان العبري؟ مع أنه أخذ عن الرسول بالعربي فهو أولى بأن يعرف به مراد المتكلم به.

الوجه الثالث: أن يقال الناس لهم في عدل الله ثلاثة أقوال، قيل: كل ما يكون مقدوراً فهو عدل، وقيل: العدل منه نظير العدل من عباده، وهما قولان ضعيفان وقيل: من عدله أن يجزي المحسن بحسناته لا^(١) ينقصه شيئاً منها ولا يعاقبه بلا ذنب.

ومعلوم أنه إذا أمر العبد بما يقدر عليه كان جائزاً باتفاق طوائف أهل الملل من المسلمين واليهود والنصارى، وإن كان الفعل مكروهاً للإنسان فإن الجنة حفت بالمكاره وحفت النار بالشهوات، وقد كلفت بنو إسرائيل والنصارى من الأعمال ما هو مكروه لهم وشاق عليهم، فكيف يمتنع أن يأمرهم وينهاهم بلغة يبين بعض المسلمين معناها لهم^(٢) والعرب الذي نزل القرآن بلسانهم طبقوا الأرض، ومنهم نصارى لا يحصون، فكل من عرف بالعربية من النصارى أمكنه فهم ما يقال بالعربي، ومن كان منهم رومياً كان له أسوة من أسلم من سائر طوائف الأعاجم كالفرس، والترك، والهند، والبربر، والحبشة، وغيرهم وهو متمكن من معرفة ما أمره الله^(٣) والعمل به، كما يمكن هؤلاء كلهم، بل

(١) في ط (ولا).

(٢) سقطت (لهم) من أ.

(٣) في ط (أمره الله به).

الروم أقدر على ذلك من غيرهم، فلأي وجه يمتنع أن يأمرهم الله بذلك؟ وما لا يتم الواجب إلا به إذا كان مقدوراً للعبد، فعليه أن يفعله باتفاق أهل الملل: المسلمين، واليهود، والنصارى.

وإنما^(١) تنازع الناس فيه هل يسمى واجباً؟ فقل: يسمى واجباً، وقيل: لا يسمى واجباً، فإن الأمر لم يقصده بالأمر وقد لا يخطر بباله إذا كان الأمر مخلوقاً.

قال هؤلاء^(٢): ولأن الواجب ما يذم تاركه شرعاً، أو يعاقب تاركه شرعاً، أو ما يستحق تاركه الذم^(٣)، أو ما يكون تركه سبباً للذم أو العقاب، وقالوا^(٤): وما لا يتم الواجب إلا به لا يستحق تاركه الذم والعقاب، فإن الحج إذا وجب على شخصين أحدهما بعيد والآخر قريب ولم يفعلاه لم تكن عقوبة البعيد على الترك أعظم من عقوبة القريب، مع أن المسافة التي لا بد لهما من قطعها أكثر.

وكذلك من وجب عليه قضاء دينه من غير احتياج إلى بيع شيء من ماله ليست عقوبته على الترك بأقل من عقوبة من يحتاج إلى بيع مال له ليقضي به دينه.

وفصل الخطاب أن ما لا يتم الواجب إلا به هو من لوازم وجود الواجب، ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنع، فالمأمور به لا يمكن فعله إلا بلوازمه، والمنهي عنه لا يمكن تركه إلا بترك ملزوماته، لكن هذا الملزوم لزوم عقلي أو عادي، فوجوبه وجوب عقلي عادي، لا أن الأمر

(١) في س، ك (وإنما ما)، وفي ط (وإن ما).

(٢) سقطت (هؤلاء) من ط.

(٣) في هامش نسختي س، ك، وفي ط زيادة (أو العقاب).

(٤) في س، ك، ط (قالوا) بدون واو.

نفسه قصد إيجابه والذم والعقاب على تركه.

وتنازع الناس هل يقال ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، سواء كان وجوبه شرعياً أو عقلياً؟ أو يحتاج أن يقال ما لا يتم الواجب إلا به وكان مقدوراً للمكلف فهو واجب؟

فالجمهور أطلقوا العبارة الأولى، وبعض المتأخرين قيدوها بالقدرة^(١) ولا حاجة إلى ذلك. فإن ما لم يكن مقدوراً ينتفي الوجوب مع انتفائه فيكون شرطاً في الوجوب لا في فعل الواجب والجمهور قالوا: ما لا يتم الواجب إلا به فإنه يجب.

والمقصود هنا: أن الله إذا أوجب على العباد شيئاً واحتاج أداء^(٢) الواجب إلى تعلم شيء من العلم كان تعلمه واجباً فإذا كان معرفة العبد لما أمره^(٣) الله به تتوقف على أن يعرف معنى كلام تكلم به بغير لغته وهو قادر على تعلم معنى تلك الألفاظ التي ليست بلغته أو على معرفة ترجمتها بلغته وجب عليه تعلم ذلك.

ولو جاءت رسالة من ملك إلى ملك بغير لسانه، لطلب من يترجم مقصود الملك المرسل ولم يجوز أن يقول: أنت لم تبعث إليّ من يخاطبني بلغتي مع^(٤) قدرته على أن يفهم مراده بالترجمة، فكيف يجوز أن يقال ذلك لرب العالمين؟ ولو أمر به^(٥) بعض الملوك بعض رعاياه وجنوده بلغته وهم قادرون على معرفة ما أمرهم به إما بتعلم لغته وإما

(١) في ط (بالمقدور).

(٢) سقطت (أداء) من ك.

(٣) في أ (أمر).

(٤) في ط (من) بدل (مع).

(٥) سقطت (به) من ك، ط.

بمن يترجم لهم ما قاله لم يكن ذلك ظلماً^(١)، فكيف يكون ظلماً من رب العالمين مع أنه ليس بظلم من المخلوقين؟

ولو وجب لبعض الرعية حق على بعض أو ظلم بعضهم بعضاً لوجب على الملك أن ينصف المظلوم ويرسل إلى الظالم من يأمره بالعدل والإنصاف، ويعاقبه إذا لم ينصف إذا كان الظالم متمكناً من معرفة أمر الملك بالترجمة أو غيرها وهذا هو العدل، ليس العدل أن يترك الناس ظالمين في حق الله وحق عباده والله - تعالى - أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط كما قال - تعالى - :

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ...﴾^(٢).

فليس لأحد ممن أرسل إليه رسول وهو قادر على معرفة ما أرسل به إليه بالترجمة أو^(٣) غير الترجمة أن يمتنع من شرع الله الذي أنزله^(٤)، وهو القسط الذي بعث به رسوله لكون الرسول ليس لغته لغته، مع قدرته على أن يعرف مراده بطرق متعددة.

والناس في مصالح دنياهم يتوسل أحدهم إلى معرفة مراد الآخر بالترجمة وغيرها فيتبايعون، وبينهم ترجمان يبلغ بعضهم عن بعض، ويتراسلون في عمارة بلادهم، وأغراض نفوسهم بالتراجم الذين يترجمون لهم، وأمر الدين أعظم من أمر الدنيا، فكيف لا يتوسلون إلى معرفة مراد بعضهم من بعض؟! وكيف يكون أمر الدنيا أهم من أمر الدين إلا عند من أغفل الله قلبه عن ذكر ربه، واتبع هواه وأعرض عن

(١) في ط (لم يكن ظلماً ذلك). (٣) في أ (و).
(٢) سورة الحديد: الآية ٢٥. (٤) في أ (نزله).

ذكر ربه^(١)، ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم.

قال - تعالى - :

﴿ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾^(٢).

وقال^(٣) - تعالى - :

﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ
وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ
هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾^(٤).

الوجه الرابع : أنه من العجب أن تعد النصارى مثل هذا ظلماً خارجاً عن العدل، وهم قد نسبوا إلى الله من الظلم العظيم على هذا الأصل ما لم ينسبه إليه أحد من الأمم كما سبوه وشتموه، مسبة ما سبه إياها أحد من الأمم فهم من أبعد الأمم عن توحيدهم وتمجيده، وحملده، والثناء عليه؛ وذلك أنهم يزعمون أن آدم لما أكل من الشجرة غضب الرب عليه وعاقبه، وأن تلك العقوبة بقيت في ذريته إلى أن جاء المسيح وصلب، وأنه كانت الذرية في حبس إبليس، فمن مات منهم ذهب روحه إلى جهنم في حبس إبليس حتى قالوا ذلك في الأنبياء: نوح وإبراهيم، وموسى، وداود، وسليمان، وغيرهم.

ومعلوم أن إبراهيم كان أبوه كافراً ولم يؤاخذه الله بذنب أبيه فكيف

(١) سقطت جملة (واتبع هواه وأعرض عن ذكر ربه) من ك.

(٢) سورة النجم: الآية ٢٩، وفي س، ك (ذلك مبلغهم من العلم).

(٣) في ك (قال).

(٤) سورة الكهف: الآية ٢٨. وانظر في سبب نزول هذه الآية في أسباب النزول للواحد ص ٢٢٤، ٢٢٥؛ ولباب النقول للسيوطي ص ٩٩.

يؤاخذ به بذنوب آدم وهو أبوه الأبعد هذا لو قُدِّرَ أن آدم لم يتب، فكيف وقد أخبر الله عنه بالتوبة؟ ثم يزعمون أن الصليب الذي هو من أعظم الذنوب والخطايا به خلص الله آدم وذريته من عذاب الجحيم، وبه عاقب إبليس مع أن إبليس ما زال عاصياً لله مستحقاً للعقاب من حين امتنع من السجود لآدم ووسوس لآدم إلى حين مبعث المسيح والرب قادر على عقوبته، وبنو آدم لا عقوبة عليهم في ذنب أبيهم، فمن كان قولهم مثل هذه الخرافات التي هي مضحك العقلاء، والتي لا تصلح أن تضاف إلى أجهل الملوك وأظلمهم، فكيف يدعون مع هذا أنهم يصفون الله بالعدل، ويجعلون من عدله أنه لا يأمر الإنسان بتعلم ما يقدر على تعلمه، وفيه صلاح معاشه، ومعاده، ويجعلون مثل هذا موجباً لتكذيب كتابه، ورساله، والإصرار على تبديل الكتاب الأول، وتكذيب الكتاب الآخر وعلى أنه يتضمن مخالفة موسى، وعيسى، وسائر الأنبياء والرسل؟

والنصارى يقولون: إن المسيح الذي هو عندهم اللاهوت والناسوت جميعاً إنما مكن^(١) الكفار من صلبه ليحتال بذلك على عقوبة إبليس، قالوا: فأخفى نفسه عن إبليس لئلا يعلم، و^(٢)مكن أعداءه من أخذه وضربه، والبصاق في وجهه، ووضع الشوك على رأسه وصلبه وأظهر الجزع من الموت وصار يقول: يا إلهي لم سلطت أعدائي علي ليخفني^(٣) بذلك عن إبليس، فلا يعرف إبليس أنه الله أو ابن الله ويريد إبليس أن يأخذ روحه إلى الجحيم كما أخذ أرواح نوح، وإبراهيم،

(١) في س (تمكن).

(٢) في ك، ط (قالوا أو أمكن)، وفي س (تمكن).

(٣) في ك، ط (ليخفي).

وموسى وغيرهم من الأنبياء والمؤمنين^(١)، فيحتج عليه الرب، حينئذٍ ويقول: بماذا استحللت يا إبليس أن تأخذ روحي؟ فيقول له إبليس: بخطيئتك، فيقول ناسوتي: لا خطيئة له كنواسيت الأنبياء، فإنه كان لهم خطايا استحقوا بها أن تؤخذ^(٢) أرواحهم إلى جهنم، وأنا لا خطيئة لي.

وقالوا: فلما أقام الله الحجة على إبليس جاز للرب حينئذٍ أن يأخذ إبليس ويعاقبه ويخلص ذرية آدم من إذهابهم إلى الجحيم، وهذا الكلام فيه من الباطل ونسبة الظلم إلى الله ما يطول وصفه، فمن هذا قوله: فقد قدح في علم الرب وحكمته وعدله قدحاً ما قدحه فيه أحد، وذلك من وجوه:

أحدها: أن يقال: إبليس إن كان أخذ الذرية بذنب أبيهم فلا فرق بين ناسوت المسيح وغيره، وإن كان بخطاياهم فَلَمْ يأخذهم بذنب أبيهم، وهم قالوا: إنما أخذهم بذنب آدم.

الثاني: أن يقال من خلق بعد المسيح من الذرية كمن خلق قبله فكيف جاز أن يمكن إبليس من الذرية المتقدمين دون المتأخرين، وكلهم بالنسبة إلى آدم سواء، وهم أيضاً يخطئون أعظم من خطايا الأنبياء المتقدمين، فكيف جاز تمكين^(٣) إبليس من عقوبة الأنبياء المتقدمين، ولم يمكن من عقوبة الكفار والجبابرة الذين كانوا بعد المسيح؟

الوجه الثالث: أن يقال أخذ إبليس لذرية آدم وإدخالهم جهنم: إما أن يكون ظلماً من إبليس، وإما أن يكون عدلاً، فإن كان عدلاً

(١) في س (والمؤمنين).

(٢) في س، ك، ط (تأخذ).

(٣) في أ، س، ك (تمكن).

فلا لوم على إبليس، ولا يجوز أن يحتال عليه ليمتنع من العدل الذي يستحقه بل يجب تمكينه من المتأخرين والمتقدمين^(١).

وإن كان ظلماً فلم لا يمنعه الرب منه قبل المسيح؟

فإن قيل: لم يقدر فقد نسبوه إلى العجز، وإن قيل: قدر على دفع ظلم إبليس ولم يفعله فلا فرق بين دفعه في زمان دون زمان، إن^(٢) جاز ذلك جاز في كل زمان وإن امتنع امتنع في كل زمان.

الوجه الرابع: أن إبليس إن كان معذوراً قبل المسيح فلا حاجة إلى عقوبته ولا ملام^(٣) عليه، وإن لم يكن معذوراً استحق العقوبة ولا حاجة إلى^(٤) أن يحتال عليه بحيلة تقام بها الحجة عليه.

الوجه الخامس: إنه بتقدير أنه لم يقم عليه الحجة^(٥) قبل الصلب فلم يقم عليه حجة^(٦) بالصلب، فإنه يمكنه أن يقول أنا ما علمت أن هذا الناسوت هو ناسوت الرب، وأنت يا رب قد أذنت لي أن آخذ جميع ذرية آدم فأوديهم إلى الجحيم، فهذا واحد منهم، وما علمت أنك أو ابنك اتحد به، ولو علمت ذلك لعظمته فأنا معذور في ذلك فلا يجوز أن تظلمني.

الوجه السادس: أن نقول^(٧) أن إبليس يقول حينئذ: يا رب فهذا

(١) في ك، ط (من المتقدمين والمتأخرين).

(٢) في ك، ط (أو).

(٣) في س، ك، ط (يلام).

(٤) سقطت (إلى) من ك، ط.

(٥) في س، ك، ط (حجة).

(٦) سقطت (حجة) من س، ك، ط.

(٧) (أن نقول) ساقطة من أ، س.

الناسوت الواحد أخطأت في أخذ روحه لكن سائر بني آدم الذين بعده لي أن أحبس أرواحهم في جهنم كما حبست أرواح الذين كانوا قبل المسيح ، إمامبذنب أبيهم ، وإما بخطاياهم أنفسهم وحيثُ فإن كان ما يقوله النصارى حقاً فلا حجة لله على إبليس .

الوجه السابع : أن يقال هب أن آدم أذنب وبنوه أذنبوا بتزيين الشيطان ، فعقوبة^(١) بني آدم على ذنوبهم هي^(٢) إلى الله أو إلى إبليس؟ فهل يقول عاقل أن إبليس له أن يغوي بني آدم بتزيينه لهم ثم له أن يعاقبهم جميعاً بغير إذن من الله في ذلك^(٣) ، وهل هذا القول إلا من^(٤) قول المجوس الثنوية الذين يقولون إن كل ما في العالم من الشر من الذنوب والعقاب وغير ذلك هو من فعل إبليس لم يفعل الله شيئاً من ذلك ، ولا عاقب الله أحداً على ذنب؟

ولا ريب أن هذا القول سرى إلى النصارى من المجوس ، لهذا لا ينقلون هذا القول في كتاب منزل ولا عن أحد من الحواريين ولهذا كان المانوية دينهم مركباً من دين النصارى والمجوس ، وكان رأسهم ماني^(٥) نصرانياً مجوسياً فالنسب بين النصارى والمجوس^(٦) ، بل وسائر المشركين نسب معروف^(٧) .

(١) في س (وعقوبة) .

(٢) في أ ، س (هو) ، وصححناه من ك ، ط .

(٣) في س ، ك ، ط (له في ذلك) .

(٤) في س (من جنس قول) .

(٥) سبقت ترجمته .

(٦) سقطت (المجوس) من ك .

(٧) عقد الشيخ محمد أبوزهرة فصلاً في كتابه (مقارنة الأديان - الديانات القديمة) قارن

فيه بين البوذية والنصرانية ، ويُن أوجه الاتفاق ، والصلة القائمة بينهما من ص ٥٣ - =

الوجه الثامن: أن يقال إبليس عاقب بني آدم وأدخلهم جهنم بإذن الله أو بغير إذنه؟

إن قالوا بإذنه، فلا ذنب له ولا يستحق أن يحتال عليه ليعاقب ويمتنع، وإن كان بغير إذنه فهل جاز في عدل الله أن يمكنه من ذلك أم لم يجز؟ فإن جاز ذلك في زمان جاز في جميع الأزمنة، وإن لم يجز في زمان لم يجز في جميع الأزمنة، فلا فرق بين ما قبل المسيح وما بعده.

الوجه التاسع: أن يقال هل كان الله قادراً^(١) على منع إبليس وعقوبته بدون هذه الحيلة وكان ذلك عدلاً منه لو فعله أم لا؟ فإن كان ذلك مقدوراً له وهو عدل منه لم يحتج أن يحتال على إبليس ولا يصلب نفسه أو ابنه، ثم إن كان هذا العدل واجباً عليه وجب منع إبليس وإن لم يكن واجباً جاز تمكينه في كل زمان فلا فرق بين زمان وزمان.

وإن قيل: لم يكن قادراً على منع إبليس فهو تعجيز للرب عن^(٢) منع إبليس، وهذا من أعظم الكفر باتفاق أهل الملل من جنس قول

٦٨. وهذا يعطينا صورة واضحة على مدى ما وصلت إليه النصرانية من تحريف وصل بها إلى درجة كبيرة من الأوهام والأساطير التي لا يقرها عقل ولا شرع، ويبيّن مدى عبث العابثين، وتحريف المحرفين، وانتحال المبطلين حيث تحولت إلى عقيدة وثنية منافية لملة أينا إبراهيم الخليل - عليه السلام -، وجميع الرسل من قبل ومن بعد، ولذلك يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. وانظر: كتاب أديان الهند الكبرى في سلسلة مقارنة الأديان للدكتور أحمد شلبي، الجزء الرابع ص ٢٠٣، ٢٠٦ - ٢٢٣، وكتاب الشيخ محمد رشيد رضا «عقيدة الصلب والفداء» ص ١٦٣، والمسيح في مصادر العقائد المسيحية لأحمد عبد الوهاب ص ١٢٧.

(١) في أ (قادر)، وصوبناه من سائر النسخ. (٢) في ك، ط (على).

الثنوية الذين يقولون: لم يكن يقدر النور أن يمنع الظلمة^(١) من الشر، ومن جنس قول ديمقراطيس^(٢) والحنانيين^(٣) الذين يقولون: لم يمكن^(٤) واجب الوجود أن^(٥) يمنع النفس من^(٦) ملابسه الهيولي^(٧) بل تعلقت النفس بها بغير اختياره.

الوجه العاشر: أن ما فعله به الكفار اليهود الذين صلبوه^(٨) طاعة لله أو معصية فإن كان طاعة لله: استحق اليهود الذين صلبوه أن يشيهم ويكرمهم على طاعته كما يشيب سائر المطيعين له، والنصارى متفقون على أن أولئك من أعظم الناس إثماً — وهم من شر الخلق — وهم يستحلون من^(٩) دمهم ولعنتهم ما لا يستحلونه من غيرهم، بل

(١) في ك، ط (العالم)، وفي س (الظلم)، وما أثبتناه من أ.

(٢) فيلسوف من فلاسفة اليونان، وحكماهم، وأطبائهم. ولد حوالي ٤٦٠ ق. م، درس الفلسفة وأنشأ جيلاً من تلامذته، وكان ذا مال وثروة، ثم طوف في أنحاء الديار، واستقر به المقام أخيراً في أثينا له تصانيف في الطبيعيات، وعلم الفلك، والسلوك والرياضيات والهندسة.

انظر: كتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ١٢٤ (ط السعادة بمصر)، وكتاب فلاسفة يونانيون من طاليس إلى سقراط للدكتور جعفر آل ياسين ص ١٢٨، ط ٢، ١٩٧٥ م.

(٣) هكذا ورد في جميع النسخ، ولم أقف له على ترجمة، فلعل الاسم محرف والله أعلم.

(٤) في ك، ط (يكن).

(٥) في ك، ط (الذي) بدل (أن).

(٦) في س، ك، ط (عن).

(٧) سبق توضيح معنى الهيولي.

(٨) في س (صلبوه هل كان) وفي ك، ط (صلبوه قد كان).

(٩) سقطت (من) من ط.

يبالغون في طلب اليهود، وعقوبتهم في آخر^(١) صومهم الأيام التي تشبه أيام الصليب، وإن كان أولئك اليهود عصاة لله فهل كان قادراً على منعهم من هذه المعصية أم لا؟ فإن لم يكن قادراً لم يكن قادراً على منع إبليس من ظلم الذرية في الزمن المستقبل وإن كان قادراً على منعهم من المعاصي ولم يمنعهم كان قادراً على منع إبليس بدون هذه الحيلة، وإذا^(٢) كان حسناً منه تمكينهم من هذه المعصية كان حسناً منه تمكين إبليس من ظلم الذرية في الماضي والمستقبل فلا حاجة إلى الحيلة عليه.

واعلم: أن الوجوه الدالة على فساد دين النصارى كثيرة جداً، وكلما تصور العاقل مذهبهم، وتصور لوازمه، تبين له فساده، لكن المقصود هنا بيان تناقضهم في أنهم يقيمون عذر أنفسهم في ترك الإيمان بكتابه ورسوله ودينه لكونه - سبحانه - عدلاً لا يأمر^(٣) الناس بما يعجزون عنه، وهو - سبحانه - لم يأمرهم إلا بما يقدرُونَ عليه وقد نسبوا إليه من الظلم ما لم ينسبه إليه أحد من بني آدم يوضح هذا:

الوجه الحادي عشر: وهو أنه^(٤) إما أن يقال^(٥) في الظلم بقول^(٦) الجهمية المجبرة الذين يقولون يفعل ما يشاء بلا حكمة ولا سبب

(١) زاد في أ هنا جملة سبق الإتيان بها قبل أسطر ولا مكان لها وهي (في آخر رأسهم ماني نصرانياً مجوسياً فالنسب بين النصارى والمجوس بل وسائر المشركين معروف)، ويبدو أن هذا سهو من الناسخ.

(٢) في ك، ط (وإن).

(٣) في س (لا يأمرُونَ).

(٤) سقطت (أنه) من ك، ط.

(٥) في ك، ط (تقول).

(٦) في ك، ط (كما تقول).

ولا مراعاة عدل، وإما أن يقال بقول القدرية أنه يجب عليه العدل الذي يجب على المخلوقين، وإما أن يقال هو عادل منزّه عن الظلم ولكن ليس عدله كعدل المخلوق، فهذه أقوال الناس الثلاثة.

فإن قيل بالأول: جاز أن يسלט إبليس على جميع الذرية بلا ذنب وأن يعاقبهم جميعاً بلا ذنب، ولا حاجة حينئذٍ إلى الحيلة على إبليس.

وإن قيل بالثاني: فمعلوم أن الواحد من الناس لو علم أن بعض مماليكه أمر^(١) غيره بذنب يكرهه السيد ففعله كان العدل منه أن يعاقب الأمر والمأمور جميعاً.

وأما تسليطه للأمر على عقوبة المأمور فليس من العدل وكذلك تسليط الأمر الظالم على جميع ذرية المأمور الذين لم يذنبوا ذنب أبيهم ليس من العدل.

وإن قيل: بل هو استحق أن يستعبد لهم لكون أبيهم أطاعه قيل: فحينئذٍ يستحق أن يأمر الأولين والآخرين فلا يجوز أن يمنع من حقه بالاحتياط عليه.

وإن قيل: إنما يستحق أخذهم خطاياهم، قيل: فله أن يأخذ الأولين والآخرين.

وإن قيل: هو لما طلب أخذ روح ناسوت المسيح منع بهذا الذنب؟ قيل: هذا إن كان ذنباً فهو أخف ذنوبه فإنه لم يعلم أنه^(٢) ناسوت الإله وإذا^(٣) استحق الرجل أن يسترَق أولاد غيره فطلب رجلاً

(١) في ك، ط (أمره).

(٢) سقطت (أنه) من س.

(٣) في ط (فيذا).

ليسترقه لظنه أنه منهم، ولم يكن منهم لم يكن هذا ذنباً يمنع استرقاق
الباقين.

وإن قيل: إن عدل الرب ليس كعدل المخلوقين بل من عدله أن
لا ينقص أحداً من حسناته ولا يعاقبه إلا بذنبه لم يجز حينئذ أن يعاقب
ذرية آدم بذنب أبيهم، ولم يجز أن يعاقب الأنبياء الذين ليس لهم ذنب
إلا ذنب تابوا منه بذنب غيرهم فإن^(١) الأنبياء معصومون أن يقرأوا على
ذنب، فكل من مات منهم مات وليس له ذنب يستحق عليه العقوبة
فكيف يعاقبون بعد الموت بذنب أبيهم إن قدر أنه مات مصرأً على
الذنب مع أن هذا تقدير باطل، ولو قدر أن الأنبياء لهم خطايا
يستحقون بها العقوبة بعد الموت وتسليط إبليس على عقوبتهم مع أن
هذا تقدير باطل، فمن بعد المسيح من غير الأنبياء أولى بذلك، فكيف
يجوز في العدل الذي يوجب التسوية بين^(٢) المتماثلين عقوبة الأنبياء ومنع
عقوبة من هو دونهم بل من^(٣) هو من الكفار؟

الوجه الثاني عشر: أن الرب إذا قصد بهذا دفع ظلم إبليس فهلا
اتحد بناسوت بعض أولاد آدم ليحتال على إبليس فيمنعه من ظلم من
تقدم، فإن المنع من الشر الكثير أولى من المنع من الشر القليل، أترأه
ما كان يعلم أن إبليس يعمل هذا الشر كله؟ فهذا تجهيل له، أو كان
يعرف^(٤) وعجز عن دفعه فهذا تعجيز له، ثم ما الفرق بين زمان وزمان؟
أم كان ترك منعه عدلاً منه فهو عدل في كل زمان؟



(١) في س (وأن) وفي ك، ط (بأن).

(٢) في أ (من)، وما أثبتناه من سائر النسخ هو الصواب.

(٣) سقطت (من) من س. (٤) في ك، ط (يعترف).

فصل

الرد على
النصارى في
دعواهم أن من
في قوله
- تعالى - :
﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ
دِينًا...﴾
تقتضي العرب
وحدهم

وأما تفسيرهم لقوله - تعالى - :
﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ
الْخَسِرِينَ﴾^(١).
بأن مراده قومه كما قالوا.
وأما قوله^(٢) - تعالى - :
﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ
الْخَسِرِينَ﴾.

يريد بحسب مقتضى العدل قومه الذين اتاهم بلغتهم لا غيرهم
ممن لم يأتهم بما جاء فيه^(٣).

فيقال لهم من فسر مراد متكلم : أي متكلم كان بما يعلم الناس
أنه خلاف مراده فهو كاذب مفتر عليه، وإن كان المتكلم من آحاد
العامة، ولو كان المتكلم من المتنبيين الكذابين، فإن من عرف كذبه إذا
تكلم بكلام وعرف مراده به لم يجز أن يكذب عليه، فيقال : أراد كذا

(١) سورة آل عمران : الآية ٨٥.

(٢) من قوله : (وأما قوله - تعالى - إلى آخر الآية / ساقط من س).

(٣) في ط (به).

وكذا فإن الكذب حرام قبيح على كل أحد سواء كان صادقاً أو كاذباً، فكيف بمن يفسر مراد الله ورسوله بما يعلم كل من خبر حاله علماً ضرورياً أنه لم يرد ذلك بل يعلم علماً ضرورياً أنه أراد العموم؟

فإن قوله - تعالى - : ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً﴾ (٢) . . . صيغة عامة، وصيغة «من» الشرطية من أبلغ صيغ العموم كقوله - تعالى - : ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (١) .

ثم إن سياق الكلام يدل على أنه أراد أهل الكتاب وغيرهم، فإن هذا في سورة آل عمران في أثناء مخاطبته لأهل الكتاب ومناظرته للنصارى، فإنها نزلت لما قدم على النبي - صلى الله عليه وسلم - وفد نجران النصارى، وروى أنهم كانوا ستين ركباً، وفيهم السيد، والأبهم، والعاقب، وقصتهم مشهورة معروفة كما تقدم ذكرها (٣) .

وقد قال قبل هذا الكلام بدم دين النصارى الذي (٤) ابتدعوه وغيروا به * دين المسيح ولبسوا الحق الذي بعث به المسيح بالباطل الذي ابتدعوه

(١) سورة الزلزلة: الآيتان ٧، ٨ .

(٢) جاءت هذه الآية: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ﴾ الآية بعد قوله - تعالى - : ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾ الآية ٨٣ من آل عمران، قال ابن عباس - رضي الله عنهما - اختصم أهل الكتابين إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيما اختلفوا بينهم من دين إبراهيم، كل فرقة زعمت أنها أولى بدينه فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - كلا الفريقين برىء من دين إبراهيم فغضبوا، وقالوا والله ما نرضى بقضائك، ولا نأخذ بدينك، فأنزل الله - تعالى - : ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾ .

انظر: أسباب النزول للواحدي ص ٨٢، ٨٣ .

(٣) تقدم ذكرها، وتخريجها من مظانها في أول الكتاب .

(٤) في ط (الذين) .

حتى صار دينهم مركباً من حق وباطل، واختلط أحدهما بالآخر فلا يكاد يوجد معه من يعرف ما نسخه المسيح من شريعة التوراة مما أقره والمسيح قرر أكثر شرع التوراة، وغير المعنى، وعامة النصارى لا يميزون ما قرره مما غيره فلا يعرف دين المسيح* (١).

قال - تعالى - :

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيُنَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ (٧١) وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (٧٢).

فقد بين أن من اتخذ الملائكة والنبيين أرباباً فهو كافر، فمن اتخذ من دونهم أرباباً كان أولى بالكفر، وقد ذكر أن النصارى اتخذوا من هو دونهم أرباباً بقوله - تعالى - :

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٧٣).

ثم قال - تعالى - في سورة (٤) آل عمران :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ

(١) ما بين النجمتين من قوله (دين المسيح ولبسوا به الحق... إلى قوله فلا يعرف دين المسيح) ساقط من أ وبعضه ساقط من ك، وما أثبتناه من نسخة س، ط.

(٢) سورة آل عمران : الآيتان ٧٩، ٨٠.

(٣) سورة التوبة : الآية ٣١.

(٤) سقطت (سورة) من أ، س، ك.

جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لِيُؤْمِنَنَّ بِهِـ وَلِتَنْصُرُنَّهُ قَالَ ءَاَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١﴾ .

قال ابن عباس وغيره من السلف: ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه(*)، والآية تدل على ما قالوا، فإن قوله - تعالى - :

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ : يتناول جميع النبيين .

﴿لَمَّا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لِيُؤْمِنَنَّ بِهِـ وَلِتَنْصُرُنَّهُ...﴾ (٢) .

وهذه اللام الأولى تسمى : اللام الموطئة للقسم، واللام الثانية تسمى : لام جواب القسم، والكلام إذا اجتمع فيه شرط وقسم وقدم القسم سد جواب القسم مسد جواب الشرط، والقسم كقوله - تعالى - :
﴿لَئِنْ أَخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُؤْلُوا لَا ذُبْرْتُمْ لَا يَنْصُرُونَ﴾ (٣) .

ومنه قوله - تعالى - :

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَيْنَاهُمْ فَضْلَهُ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٤) .

(١) سورة آل عمران : الآية ٨١ .

(*) أخرجه ابن جرير بسنده عن ابن عباس، وعن علي بن أبي طالب، وعن عكرمة، وعن السدي . انظر: تفسير ابن جرير الطبري ٣/٢٣٦ - ٢٣٧ (مجلد ٣)؛ وانظر تفسير ابن كثير ١/٢٧٧ - ٢٧٨، تفسير آية ٨١: آل عمران، وفتح القدير للشوكاني ٣٥٦/١ - ٣٥٧ .

(٣) سورة الحشر: الآية ١٢ .

(٤) سورة التوبة: الآية ٧٥ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ٨١ .

وقوله :

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا...﴾ (١).

وقوله :

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَئِنْ أُمِرْتُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا...﴾ (٢).

وقوله :

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ...﴾ (٣).

ومنه قوله :

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ...﴾ (٤).

(وقوله) (٥) :

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ...﴾ (٦).

(وقوله) (٧) :

﴿لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ...﴾ (٨).

وقوله :

﴿لَئِنْ لَمْ يَنْهَ الْأَمْنَفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ...﴾ (٩).

(٣) سورة فاطر: الآية ٤٢.

(٤) سورة لقمان: الآية ٢٥.

(١) سورة الأنعام: الآية ١٠٩.

(٢) سورة النور: الآية ٥٣.

(٥) سقطت (وقوله) من جميع النسخ عدا ط.

(٦) سورة التوبة: الآية ٦٥.

(٧) سقطت (وقوله) من جميع النسخ عدا ط.

(٩) سورة الأحزاب: الآية ٦٠.

(٨) سورة الأعراف: الآية ١٤٩.

وقوله (١):

﴿وَلَيْنَ شِئْنَا لَنُدْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ...﴾ (٢).

وقوله:

﴿...وَأَن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ

أَلِيمٌ﴾ (٣).

وقوله:

﴿وَلَيْنَ لَمْ يَفْعَلْ مَاءَ امْرِئٍ لَّيْسَجَنَّ وَلْيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ...﴾ (٤).

وقوله (٥):

﴿وَلَيْنَ حِجَّتْهُمْ بَيَّاتَةٌ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّا تَعْتَمِلُ الْإِثْمَ مُبْطِلُونَ﴾ (٦).

وقوله:

﴿وَلَيْنَ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولَنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ...﴾ (٧).

وقوله:

﴿وَلَيْنَ أَخْرَجْنَاهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولَنَّ مَا يَحْسِبُهُ...﴾ (٨).

ومثل هذا كثير وحيث لم (٩) يذكر القسم فهو محذوف مراد تقدير

(١) (وقوله) ساقطة من جميع النسخ عدا ط.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٨٦.

(٣) سورة المائدة: الآية ٧٣.

(٤) سورة يوسف: الآية ٣٢.

(٥) في ط (قوله تعالى).

(٦) سورة العنكبوت: الآية ١٠.

(٧) سورة الروم: الآية ٥٨.

(٨) سورة هود: الآية ٨.

(٩) سقطت (لم) من أ، وجاءت الجملة هكذا (وحيث ذكر القسم فهو محذوف مراد وهي لازمة للسياق كما أثبتناها من س، ك، ط.

الكلام - والله - ﴿لَئِنْ أَخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ...﴾ - والله - ﴿... وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ...﴾ (١).

ومن محاسن لغة العرب أنها تحذف من الكلام ما يدل المذكور عليه اختصاراً وإيجازاً، لا سيما فيما يكثر استعماله (٢) كالقسم، (وقوله) (٣):

﴿... لَمَّا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ...﴾ (٤).

هي ما الشرطية والتقدير، أي شيء أعطيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه، ولا تكتفوا بما عندكم عما جاء به ولا يحملنكم ما آتيتكم من كتاب وحكمة على أن تتركوا متابعتهم، بل عليكم أن تؤمنوا به وتنصروه، وإن كان معكم من قبله من كتاب وحكمة فلا يغنيكم (٥) ما آتيتكم عما جاء به فإن ذلك لا ينجيكم من عذاب الله.

فدل ذلك على أنه (٦) من أدرك محمداً من الأنبياء وأتباعهم وإن كان معه كتاب وحكمة فعليه أن يؤمن بمحمد وينصره كما قال:

﴿... لَمَّا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ...﴾ (٧).

(١) سورة الحشر: الآية ١٢.

(٢) في س (استحاله) وهو تصحيف ظاهر.

(٣) سقطت (وقوله) من أ.

(٤) سورة آل عمران: الآية ٨١.

(٥) في س، ط (فلا تستغنوا بما) وسقط من قوله: (فلا يغنيكم) إلى (عذاب الله) من ك.

(٦) في ط (أن).

(٧) سورة آل عمران: الآية ٨١.

وقد أقر الأنبياء بهذا الميثاق وشهد الله عليهم به كما قال

— تعالى — :

﴿...ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا
وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (١).

ثم قال — تعالى — :

﴿فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٢).

ثم قال — تعالى — :

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ
طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (٣).

ثم قال — تعالى — :

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ
وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ
لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (٤).

ثم قال — تعالى — :

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ
الْخٰسِرِينَ﴾ (٥).

(١) سورة آل عمران: الآية ٨١.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٨٢. وسقطت هذه الآية من أ.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٨٣.

(٤) سورة آل عمران: الآية ٨٤.

(٥) سورة آل عمران: الآية ٨٥.

قالت^(١) طائفة من السلف^(٢) : لما أنزل الله هذه الآية قال من قال من اليهود والنصارى نحن مسلمون . فقال - تعالى - :

﴿... وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا...﴾^(٣) .

فقالوا: لا نحج . فقال - تعالى - :

﴿... وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾^(٤) .

فكل من لم ير^(٥) حج البيت واجباً عليه مع الاستطاعة فهو كافر باتفاق المسلمين كما دل عليه القرآن .

واليهود والنصارى لا يرونه واجباً عليهم فهم من الكفار حتى أنه روى في حديث مرفوع إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - : «من ملك زاداً وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج فليمت إن شاء»^(٦) يهودياً وإن شاء نصرانياً»^(٧) .

(١) في أ، س، ك (قال) .

(٢) أخرج ابن جرير بسنده عن عكرمة، قال: لما نزلت: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا...﴾ الآية، قالت اليهود: فنحن مسلمون، قال الله - عز وجل - : لنبيه - صلى الله عليه وسلم - قل لهم إن الله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً، ومن كفر من أهل الملل فإن الله غني عن العالمين .

انظر: تفسير ابن جرير الطبري ٢٤١/٣ (المجلد الثالث) عند آية ٨٥ آل عمران .

(٣) سورة آل عمران: الآية ٩٧ .

(٤) سورة آل عمران: الآية ٩٧ .

(٥) في س، ك (يرا) .

(٦) في ط (إن شاء الله) .

(٧) رواه الترمذي في كتاب الحج، باب التغليظ في ترك الحج ١٧٦/٣ (٨١٢) بسنده عن علي بن أبي طالب يرفعه . ثم قال: وهذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وفي إسناده مقال . وهلال بن عبد الله - أحد رجال السند - مجهول والحوادث يضعف في الحديث، وقد ذكر هذا ابن حجر أيضاً في كتابه تلخيص الحبير ٢٢٢/٢، ثم ذكر عدة طرق كلها ضعيفة، ثم قال: «وله طريق صحيحة إلا =

وهو محفوظ من قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه^(١)، وقد اتفق المسلمون على أن من جحد وجوب * مباني الإسلام الخمس *^(٢): الشهادتين، والصلوات الخمس، والزكاة وصيام شهر رمضان، وحج البيت فإنه كافر. وأيضاً فقد قال - تعالى - في أول السورة^(٣):

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١٨) إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأَسْلَمَ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ يَتَّيْنِتِ اللَّهُ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعْتُ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيَّةَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ (٤).

= أنها موقوفة رواها سعيد بن منصور، والبيهقي عن عمر بن الخطاب . . . ولفظ البيهقي أن عمر قال: ليمت يهودياً أو نصرانياً - يقولها ثلاث مرات - رجل مات ولم يحج، ووجد لذلك سعة، وخليت سبيله. قال الحافظ ابن حجر: «وإذا انضم هذا الموقوف إلى مرسل ابن سابط (وهي إحدى الطرق التي ذكرها في مستهل كلامه عن هذا الحديث) علم أن لهذا الحديث أصلاً، ومحملة على من استحل الترك، وتبين بذلك خطأ من ادعى أنه موضوع، والله أعلم.

وقد: أورده ابن الجوزي في الموضوعات ٢٠٩/٢ - ٢١٠ وذكر طرق الحديث كلها، ونقل أقوال العلماء من أئمة الجرح والتعديل في رجال أسانيد. وانظر سنن البيهقي الكبرى ٣٣٤/٤، وحسن الأثر فيما فيه ضعف واختلاف من حديث وخبر وأثر، لمحمد بن السيد درويش الحوت ص ٢٢٣. قال الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي في تعليقه في سنن الترمذي ١٧٦/٣: «لم يخرج هذا الحديث من أصحاب الكتب الستة سوى الترمذي».

(١) سقطت (رضي الله عنه) من أ، ك، ط.

(٢) سقط ما بين النجمتين من أ، وزدناه من سائر النسخ.

(٣) في س، ط (في أول سورة آل عمران).

(٤) سورة آل عمران: الآيات ١٨ - ٢٠.

فقد أمره^(١) - تعالى - بعد قوله :

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ...﴾^(٢).

أن يقول أسلمت وجهي لله، ومن اتبعن، وأن يقول للذين أوتوا الكتاب: وهم اليهود والنصارى، والأميين، وهم الذين لا كتاب لهم من العرب وغيرهم أسلمتم فالعرب الأميون^(٣) يدخلون في لفظ الأميين باتفاق الناس.

وأما من سواهم: فإما أن يشمله هذا اللفظ أو يدخل في معناه بغيره من الألفاظ المبينة أنه أرسل إلى جميع الناس.

قال - تعالى - :

﴿... فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾^(٤).

فقد أمر أهل الكتاب بالإسلام كما أمر به الأميين وجعلهم إذا أسلموا مهتدين، وإن لم يسلموا فقد قال: إنما عليك البلاغ، أي: تبلغهم رسالات ربك إليهم والله هو الذي يحاسبهم، فدل هذا^(٥) كله على أنه عليه أن يبلغ أهل الكتاب ما أمرهم به من الإسلام كما يبلغ الأميين، وأن الله يحاسبهم على ترك الإسلام كما يحاسب الأميين.

وفي الصحيحين عن النبي - صلى الله عليه وسلم - في الكتاب الذي كتبه إلى هرقل ملك النصارى: «من محمد رسول الله^(٦)» إلى هرقل

(١) في س (أمره الله).

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٩.

(٣) في أ (الأميين) وصحناه من سائر النسخ.

(٤) سورة آل عمران: الآية ٢٠.

(٥) في س، ك، ط (بهذا).

(٦) سقط لفظ الجلالة من ط.

عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين» (١).

و(٢) ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (٣).

وأبلغ من ذلك أن الله - تعالى - أخبر في كتابه أن الإسلام دين الأنبياء كنوح وإبراهيم، ويعقوب، وأتباعهم إلى الحواريين، وهذا تحقيق لقوله - تعالى - :

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ...﴾ (٤).

وإن الدين عند الله الإسلام في كل زمان ومكان.

قال - تعالى - عن نوح أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض :

﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَنْقُومُ إِنْ كَانَ كِبُرُ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بَعَايَتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٥).

فهذا نوح الذي غرق أهل الأرض بدعوته، وجعل جميع الأدميين

(١) سبق تخريج هذا الحديث في أول الكتاب.

(٢) سقطت الواو من ط.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٦٤.

(٤) سورة آل عمران: الآية ٨٥.

(٥) سورة يونس: الآيتان ٧١، ٧٢.

من ذريته يذكر أنه أمر أن يكون^(١) من المسلمين .

وأما الخليل فقال - تعالى - :

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ .

قال - تعالى - :

﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٩﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣٠﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَنْبِيُّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣١﴾﴾ .

فقد أخبر - تعالى - أنه أمر الخليل بالإسلام ، وأنه قال أسلمت لرب العالمين وأن إبراهيم وصى بنيه ، * ويعقوب وصى بنيه *^(٤) أن لا يموتن إلا وهم مسلمون .

وقال - تعالى^(٥) - :

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَتْ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٢﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ .

وقال - تعالى - عن يوسف الصديق بن يعقوب أنه قال :

(١) في أ ، س ، ك (أكون) وصححناه من ط .

(٢) سورة البقرة : الآيتان ١٢٧ ، ١٢٨ .

(٣) سورة البقرة : الآيات ١٣٠ ، ١٣٢ .

(٤) ما بين النجمتين ساقط من أ .

(٥) سقطت (تعالى) من أ ، س . (٦) سورة آل عمران : الآيتان ٦٧ ، ٦٨ .

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقَنِي بِالصَّدِيقِينَ ﴾ (١).

وقال - تعالى - عن موسى :

﴿ وَقَالَ مُوسَى يَقُومُ إِن كُنتُمْ ءَامِنُكُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾ (٢).

وقال عن السحرة الذين آمنوا بموسى :

﴿ قَالُوا لَا ضَرَرَ لَنَا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَاتِنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣).

وقالوا أيضاً (٤) :

﴿ وَمَا نُنْقِمْ مِنْهَا إِلَّا أَنْتَ ءَامِنَّا يَا بَيْتَ رَبِّنَا لِمَ جَاءَ تَنَا رَبَّنَا أَفَرَّغَ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ (٥).

وقال (٦) - تعالى - في قصة سليمان :

﴿ إِنَّمِنْ سُلَيْمَنْ وَإِنَّمِنْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢٣﴾ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَى وَاتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ (٧).

وقال :

﴿ قَالَ يَتَأَيَّهَا الْمَلَأُوا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ (٨).

وقال (٩) :

﴿ . . . وَأَوْتَيْنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ . . . ﴾ (١٠).

(١) سورة يوسف: الآية ١٠١.

(٢) سورة يونس: الآية ٨٤.

(٣) سورة الشعراء: الآيتان ٥٠، ٥١.

(٤) في ك، ط (وقال تعالى).

(٥) سورة الأعراف: الآية ١٢٦.

(٦) سقطت الواو من ط.

(٧) سورة النمل: الآيتان ٣٠، ٣١.

(٨) سورة النمل: الآية ٣٨.

(٩) في ط (وقال تعالى).

(١٠) سورة النمل: الآية ٤٢.

وقال عن^(١) بلقيس التي آمنت بسليمان :
﴿... رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢).
وقال - عن أنبياء بني إسرائيل - :
﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا
لِلَّذِينَ هَادُوا...﴾^(٣).

وقال - تعالى - عن الحواريين :
﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ
بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾^(٤).

* وقال - تعالى - *^(٥) :
﴿رَبَّنَا امْكُتِبْ لَنَا زُكْرًا وَأَنْزِلْ عَلَيْنَا الْكِتَابَ الْمُنِيرَ﴾^(٦).
فهؤلاء الأنبياء^(٧) وأتباعهم . كلهم يذكر^(٨) تعالى أنهم كانوا
مسلمين ، وهذا مما يبين أن قوله - تعالى - :
﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ...﴾^(٩).
وقوله :

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ...﴾^(١٠).
لا يختص بمن بعث إليه محمد - صلى الله عليه وسلم - ، بل

(١) في ط (وقال تعالى).
(٢) سورة النمل : الآية ٤٤ .
(٣) سورة المائدة : الآية ٤٤ .
(٤) سورة المائدة : الآية ١١١ .
(٥) سقط ما بين النجمتين من جميع النسخ وزدناه من ط .
(٦) سورة آل عمران : الآية ٨٥ .
(٧) في ك ، ط (الأنبياء كلهم).
(٨) في ط (يذكر الله).
(٩) سورة آل عمران : الآية ٨٥ .
(١٠) سورة آل عمران : الآية ١٩ .

هو حكم عام في الأولين والآخرين ، ولهذا قال - تعالى - :
﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ
إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾^(١) .

وقال - تعالى - :

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ
قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ
وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٢) .

• • •

(١) سورة النساء : الآية ١٢٥ .

(٢) سورة البقرة : الآيتان ١١١ ، ١١٢ .

فصل

قولهم: ثم وجدنا في هذا الكتاب من تعظيم السيد^(١) المسيح وأمه حيث يقول في سورة الأنبياء^(٢):

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾^(٣).

وقال في سورة آل عمران:

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾^(٤).

مع الشهادات للسيد المسيح بالمعجزات، وأنه حبلت به أمه من غير مباضعة رجل لبشارة ملائكة^(٥) الله لأمه، وأنه تكلم في المهد، وأحيا^(٦) الميت، وأبرأ^(٧) الأكمه، ونقى الأبرص وأنه خلق من الطين كهيئة الطير فنفع فيه فكان طائراً^(٨) بإذن الله. أي: بإذن اللاهوت الذي هو كلمة الله المتحدة في الناسوت، ووجدنا أيضاً في الكتاب أن الله رفعه إليه.

وقال في سورة النساء:

- | | |
|------------------------------------|------------------------|
| (١) سقطت (السيد) من أ. | (٥) في أ، س، ك (ملاك). |
| (٢) في ط زيادة (هذا) بعد الأنبياء. | (٦) في ط (وأحياء). |
| (٣) سورة الأنبياء: الآية ٩١. | (٧) في ط (وإبراء). |
| (٤) سورة آل عمران: الآية ٤٢. | (٨) في ك، ط (طيراً). |

﴿... وَمَا قُلُّوهُ يَفِينَا ﴿١٥٧﴾ بَل رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ...﴾ (١).

وفي سورة آل عمران:

﴿... إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ
الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ...﴾ (٢).

وقال في سورة البقرة:

﴿... وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ...﴾ (٣).

وقال في سورة الحديد:

﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ
الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ
رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ...﴾ (٤).

وقال في سورة آل عمران:

﴿... مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ
يَسْجُدُونَ ﴿١١٢﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ
عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٥).

ثم وجدناه يعظم إنجيلنا (٦).

الجواب: أما تعظيم المسيح وأمه فهو حق، وكذلك مدح من كان

-
- (١) سورة النساء: الآيتان ١٥٧، ١٥٨. (٢) سورة آل عمران: الآية ٥٥. (٣) سورة البقرة: الآية ٨٧. (٤) سورة الحديد: الآية ٢٧. (٥) سورة آل عمران: الآيتان ١١٣، ١١٤. (٦) من أول الفصل إلى هذا الموضع يوافق ورقة (٣) من نص المخطوط الذي وجدناه في المتحف القبطي برقم (١٢٥٤). مع اختلاف يسير في ألفاظه.

على دينه الذي لم يبدل قبل أن يبعث^(١) - صَلَّى الله عليه وسلّم - ،
أو بقي على ذلك إلى أن بعث محمد - صَلَّى الله عليه وسلّم^(٢) - فأمن
به ، فإن هؤلاء مؤمنون مسلمون مهتدون ، وكذلك من كان على دين
موسى الذي لم يبدل إلى أن بعث المسيح فأمن به فهؤلاء مؤمنون
مسلمون مهتدون ، وقد قدمنا أن المسلمين هم عدل متوسطون لا ينحرفون
إلى^(٣) غلو ، ولا إلى تقصير^(٤) .

وأما اليهود والنصارى : فهم على طرفي نقيض ، هؤلاء ينحرفون
إلى جهة ، وهؤلاء إلى الجهة^(٥) التي تقابلها كما ذكرنا تقابلهم في
النسخ ، وكذلك تقابلهم في التحريم ، والتحليل ، والطهارة ، والنجاسة .
فإن اليهود حرمت عليهم الطيبات وهم يبالغون في اجتناب النجاسات

(١) في ك ، ط (انبعث) .

(٢) سقطت جملة (صَلَّى الله عليه وسلّم) من أ ، س .

(٣) في س ، ك ، ط (لا إلى غلو) .

(٤) قال القرافي - رحمه الله - الجواب على هذا من وجوه :

١ - أن تعظيمهما لا نزاع فيه ، ولم تكفر النصارى بالتعظيم ، وإنما كفرت بنسبة
أمور إليهما لا يليق بجلال الربوبية ، ولا بدانة البشرية من الأبوة والبنوة ، والحلول
والاتحاد واتخاذ الصاحبة والأولاد . . .

٢ - أنه إذا اعترف بأن القرآن العظيم ورد بما يعتقد أنه حق فهذا دليل على أن
القرآن الكريم حق ، فإن الباطل لا يؤكد الحق . بل المؤكد للحق حق جزماً فيكون
القرآن الكريم حقاً قطعاً ، وهذا هو سبب إسلام كثير من أجبار اليهود وrehبان
النصارى .

٣ - أن هذا برهان ناطق على رجحان الإسلام على سائر الملل والأديان ، فإنه
مشمول على تعظيم جميع الرسل ، وجميع الكتب المنزلة .

انظر : الأجوبة الفاخرة للقرافي (رسالة ماجستير / تحقيق زميلناد . سالم بن محمد القرني)
القسم الأول ص ١٥٣ .

(٥) في س ، ك (جهة) .

حتى أن الحائض لا يؤاكلونها، ولا يساكنونها^(١)، ولا يجامعونها^(٢)، وكانوا لا يرون إزالة النجاسة من الثوب بل يقرض موضعها، ويستخرجون الدم من العروق إلى غير ذلك من الأضرار، والأغلال التي كانت عليهم.

وأما النصارى: ففي مقابلتهم تجد عامتهم لا يرون شيئاً حراماً، ولا نجساً إلا ما كرهه الإنسان بطبعه، ويصلون مع الجنابة، والحدث، وحمل النجاسات، ويأكلون الخبثات: كالدم، والميتة، ولحم الخنزير، إلا من كره منهم شيئاً فتركه، والمسلمون وسط كما قال - تعالى - فيهم:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾^(٣).

أي: عدلاً خياراً، قال^(٤) - تعالى - :

﴿... وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ

(١) في ك، ط (يشاربونها).

(٢) ذكر السيوطي في لباب النقول ص ٣٥ ما نصه «روى مسلم والترمذي عن أنس أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة منهم لم يؤاكلوها، ولم يجامعوها في البيوت، فسأل أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - فأنزل الله ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ...﴾ الآية فقال اصنعوا كل شيء إلا النكاح.

رواه مسلم في كتاب الحيض، باب في قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ...﴾ الآية. انظر مختصر صحيح مسلم ص ٥٤ حديث رقم (١٧١)؛ ورواه الترمذي في كتاب التفسير حديث رقم (٢٩٧٧) ٢١٤/٥.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٤٣. (٤) في ك، ط (كما قال).

وَيَنْهَيْهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١﴾ .

ولهذا كان من انحرف من المسلمين إلى ^(٢) شبه اليهود والنصارى، مأموراً بترك ذلك الانحراف، واتباع الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً، غير المغضوب عليهم كاليهود، وغير ^(٣) الضالين كالنصارى.

وذلك مثل من يبالغ ^(٤) في اجتناب النجاسات فينجس ما لم ينجسه الله ورسوله، ويحرم ما لم يحرمه الله ورسوله، ويأخذه الوسواس في اجتناب النجاسات، ويحرم طيبات ^(٥) أحلها الله للمسلمين، مثل: من يرى أن القياس أن النجاسة لا تزول لا بماء ولا بغيره، أو يرى أنها وإن زالت فلم يبق ^(٦) لها أثر فالمحل نجس إذا لم تنزل بما يشترطه هو من الماء أو غيره ^(٧)، أو يرى أن الطيبات التي

(١) سورة الأعراف: الآيتان ١٥٦، ١٥٧.

(٢) في أ (كما).

(٣) في ك، ط (ولا).

(٤) في ك، ط (بالغ).

(٥) في ط (الطيبات التي).

(٦) في أ (يبقى).

(٧) مذهب مالك، والشافعي، ومحمد بن الحسن، وزفر، ورواية عن أحمد أن الطهارة

من النجاسة لا تحصل إلا بما يحصل به طهارة الحدث لدخوله في عموم الطهارة

ورجح هذا ابن قدامة في المغني ٩/١؛ والمقنع ٧٩/١.

وذهب أبو حنيفة إلى أنه يجوز إزالة النجاسة بكل مائع طاهر مزيل للعين والأثر

كالخل، وماء الورد، وماء الشجر، وهذه رواية عن الإمام أحمد، واختارها الشيخ

تقي الدين (ابن تيمية) وابن عقيل، قالوا لأن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال:

«إذا ولغ الكلب في إناء أحدهم فليغسله سبعاً» فاطلق الغسل، وتقييده بالماء يحتاج

إلى دليل، ولأنه مائع طاهر مزيل فزالَت النجاسة به.

أحلها الله حرام خبيثة لأنها مستحيلة عن المحرم مع أن الخل حلال، وإن كان قد كان خمرًا باتفاق المسلمين إذا بدا إلى حالته^(١)، أو يرى أن الماء الطيب، والمائعات الطيبة التي ليس فيها أثر من الخبيث حرام لكون الخبيث لا قاهًا، أو^(٢) استهلك فيها مع أنها من الطيبات لا من الخبائث، أو يرى تحريم ما سوى موضع الدم الذي هو أذى، إلى غير ذلك من أقوال قالها بعض العلماء، ولكن غيرهم نازعهم في ذلك واتبع ما دل عليه الكتاب والسنة.

وأعظم من ذلك من يكفر من خالفه من المسلمين، ويرى نجاسة الكفار كما^(٣) عليه كثير من أهل البدع من الرافضة والخوارج وغيرهم، فإذا أكل غيرهم من وعائهم نجسه عندهم، وأما ما يفعله كثير من الناس من غير أن يقوله عالم مثل من يغسل يديه، وثيابه، وحصر بيته بتوهم نجاستها، أو يأمر الحائض إذا طهرت أن تبدل ثيابها الأول أو^(٤) تغسلها، أو يمنع الجنب أن يأكل * أو يشرب حتى يغتسل *^(٥)، فهذا كثير فيمن يشبه اليهود بل يشبه سامرة اليهود^(٦).

وأما من يشبه النصارى: فمثل من يحسن الظن بمن لا يتطهر، ولا

= انظر: المغني ٩/١ - ١٠ والمقنع ٧٩/١ والكافي لابن عبد البر ١٦٢/١ ومجموع الفتاوى ٤٧٤/٢١.

- (١) في أ، س (بد الله بإحالته) وهي جملة مضطربة. (٢) سقطت (أو) من ط.
- (٣) في ك، ط (كما دل عليه)، ولا مكان لكلمة (دل) في هذه الجملة.
- (٤) في س (و). (٥) سقط ما بين النجمتين من أ وزدناه من سائر النسخ.
- (٦) ذكر ابن الجوزي - رحمه الله - جملاً مفيدة - في كتابه القيم تلبس إبليس - فيما يتعلق بتلبس الشيطان على العباد في الوضوء وغيره في ص ١٣٥ - ١٣٧ وأرجع ذلك إلى الجهل وقال: «اعلم أن الباب الأعظم الذي يدخل منه إبليس على الناس هو الجهل، فهو يدخل منه على الجهال بأمان، وأما العالم فلا يدخل عليه إلا مسارقة، وقد لبس إبليس على كثير من المتعبدین بقلة علمهم؛ لأن جمهورهم يشتغل بالتعب، ولم يحكم العلم... إلخ. ما ذكره من كلام مفيد في هذا الباب.

يصلي من المنسوبين إلى الفقر والزهد والعبادة^(١)، مثل من يكون في مواضع الشياطين والنجاسات. كالحمام، والأتاتين^(٢)، والمزابل وهو متلوث^(٣) بالبول والعذرة ويعاشر^(٤) الكلاب ولا يتوضأ ولا يغتسل من الجنابة، بل ولا يصلي أو^(٥) يصلي بلا وضوء، وقد علم بالاضطرار من دين الإسلام أن الصلوات الخمس فرض على كل أحد، وأن الوضوء من الحدث، والاعتسال من الجنابة فرض لا^(٦) يصلي إلا به مع القدرة، ولا^(٧) يتيمم مع القدرة. فمن أنكر وجوب ذلك فهو كافر باتفاق المسلمين.

(١) يشير المؤلف إلى الصوفية الذين ابتدعوا في دين الله، وأحدثوا فيه ما ليس منه، واتبعوا ما رتبته لهم مشائخهم الجهال، الذين رتبوا لهم ترتيبات في المطاعم، وصنفوا مصنفات في رياضة النفوس، وابتدعوا كثيراً من الأقوال والأعمال التي لم يرد بها كتاب ولا سنة ولا إجماع من سلف الأمة، يقول ابن الجوزي - رحمه الله - «وكان أصل تلبس إبليس عليهم أنه صدهم عن العلم، وأراهم أن المقصود العمل، فلما أطفأ مصباح العلم عندهم تخطوا في الظلمات...» وقد مرت الصوفية بمراحل عديدة كان آخرها مرحلة وحدة الوجود التي يطن أصحابها الكفر والإلحاد، ويبيحون المحظورات، بل يجعلونها عبادة يدينون بها ويؤثرونها على الصلوات، أعاذنا الله من الزيغ والضلال.

انظر: تلبس إبليس لابن الجوزي ص ١٦٢؛ ومجموع الفتاوى لابن تيمية ١١/١٩٥؛ وصفوة الصفوة لابن الجوزي ١/٢٥ بتحقيق محمد الفاخوري، ومقدمة ابن خلدون ص ٤٧٣؛ والصلة بين التصوف والتشيع للدكتور مصطفى كامل الشيبسي ص ٣٧٦؛ والتصوف بين الحق والخلق لمحمد فهر شقفه، وهذه هي الصوفية لعبد الرحمن الوكيل.

(٢) الأتاتين: قال في المصباح المنير: ٤/١ «الأتون وزان رسول قال الأزهري هو للحمام والجصاصه وجمعه العرب أتاتين بتاءين نقلا عن الفراء...». وجاء في مختار الصحاح ص ٤ «الأتون بالتشديد الموقد والعامه تخففه وجمعه أتاتين». وانظر القاموس المحيط ٤/١٩٤ / باب النون فصل الهمزة.

(٣) في ط (ملوث). (٦) في ك، ط (ولا).

(٤) في ط (وبياشر). (٥) في ك، ط (أو). (٧) في س، ك، ط (وأن لا).

ومن جعل الزاهد العابد الذي له نوع من الخوارق مثل نوع من الكشف والتصرف الذي يكون من الشياطين^(١)، والجهال يظنون أنه من كرامات أولياء الله إذا لم يكن يصلي الصلوات الخمس ويتوضأ ويغتسل من الجنابة من المؤمنين، أو من أولياء الله فهو كافر باتفاق المسلمين، ومن لم يحرم الخبائث التي حرمها الله ورسوله كالبول والعذرة والدم والميتة ولحم الخنزير والخمر فهو كافر باتفاق المسلمين، ومن جعل مستحل ذلك مع العلم بمخالفته لدين الرسول ولياً لله فهو كافر باتفاق المسلمين، وكذلك فيمن ينتحل الإسلام ويذم أهل الكتاب من يكون منافقاً في الدرك الأسفل من النار، ويكون كثير من اليهود والنصارى أخف عذاباً في الآخرة منه. قال الله^(٢) - تعالى - :

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَهُمْ صَوِيحًا إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾^(٣).

وكذلك المسلمون وأهل السنة في المسلمين وكذلك^(٤) في التوحيد فإن اليهود شبهوا الخالق بالمخلوق فيما يختص بالمخلوق، وهو صفات النقص الذي يجب تنزيه الرب عنها. والنصارى شبهوا المخلوق بالخالق فيما يختص بالخالق، وهو صفات الكمال التي لا يستحقها إلا الله - تبارك تعالى - : فقال من قال من اليهود :

(١) انظر تلبس إبليس لابن الجوزي ص ٣٧٧ ذكر حكايات كثيرة موضوعة في الكرامات، وذكر المخاريق الشيطانية التي لبس بها الحلاج وغيره على كثير من الناس.

(٢) سقط لفظ الجلالة من ك، ط.

(٣) سورة النساء: الآيتان ١٤٥، ١٤٦.

(٤) سقطت (وكذلك) من ك، ط.

﴿... إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾^(١).

وقالوا:

﴿... يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ...﴾^(٢).

وهو بخيل، وقالوا: إنه خلق العالم فتعب فاستراح.

وحكى عن بعضهم أنه قال: بكى على الطوفان حتى رمد وعادته الملائكة، وأنه ناح على بعض من أهلكه من عباده كما ينوح المصاب على ميتة^(٣)، وأمثال ذلك مما يتعالى الله عنه ويتقدس - سبحانه وتعالى - .

وأيضاً فهم يستكبرون عن عبادة الله وطاعة رسله، ويعصون أمره ويتعدون حدوده، ولا يجوزون له أن ينسخ ما شرعه بل يحجرون عليه. والنصارى يصفون المخلوق بما يتصف به الخالق فيجعلونه^(٤) رب

(١) سورة آل عمران: الآية ١٨١.

(٢) سورة المائدة: الآية ٦٤.

(٣) ورد في سفر التكوين: إصحاح ٦: ٦ - ٨ ما نصه «ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض، وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض... إلخ».

وجاء في التلمود - الذي هو كتاب تشريعاتهم وأخلاقهم - أن الله ندم، وحزن بعد خراب هيكل أورشليم. وأنه من ذلك الوقت لم يعد له جلد على اللعب والرقص، كما كان يصنع في الأزمان السالفة. وأول رقصة رقصها مع حواء، أما من بعد تدمير الهيكل فإنه لم ينقطع عن البكاء والنحيب؛ لأنه ارتكب خطيئة ثقيلة، وهو يطوي ثلاثة أرباع الليل منكشماً على ذاته مالتاً الدنيا زئيراً كالأسد الصريع، ثم يصرخ الويل لي لأنني تركت بيتي ينهب، وهيكل يحرق، وأولادي يتشتتون. تعالى الله عما يقوله الظالمون علواً كبيراً.

انظر: كتاب همجية التعاليم الصهيونية ص ٣١.

(٤) في ك، (فجعلوه) وفي أ، س (فيجعلوه).

العالمين خالق كل شيء ومليكه الذي هو بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو - سبحانه - عما يشركون واتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً^(١) وصوروا تماثيل المخلوقات واتخذوهم شفعاء يشفعون لهم عند الله كما فعل^(٢) عباد الأوثان كما قال الله^(٣) - تعالى - :

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَنْتَبِهُونَ اللَّهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ...﴾^(٤).

ولهذا قال - تعالى - :

﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّهُمْ يَنْفَعُونَ﴾^(٥).

وقال - تعالى - :

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ...﴾^(٦).

والمسلمون وسط يصفون الله بما وصف به نفسه، ووصفه به رسله من غير تحريف ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل، يصفونه بصفات الكمال، وينزهونه عن النقائص التي تمتنع على الخالق ولا يتصف بها

(٤) سورة يونس: الآية ١٨.

(١) في ك، ط (أرباباً من دون الله).

(٥) سورة الأنعام: الآية ٥١.

(٢) في س، ك، ط (فعلت).

(٦) سورة السجدة: الآية ٤.

(٣) سقط لفظ الجلالة من ك، ط.

إِلَّا^(١) المخلوق، فيصفونه بالحياة والعلم^(٢) والقدرة، والرحمة والعدل، والإحسان وينزهونه عن الموت. والنوم، والجهل، والعجز، والظلم، والفناء، ويعلمون مع ذلك أنه لا مثيل له في شيء من صفات الكمال فلا أحد يعلم كعلمه، ولا يقدر كقدرته، ولا يرحم كرحمته، ولا يسمع كسمعه ولا يبصر كبصره، ولا يخلق كخلقه، ولا يستوي كاستوائه، ولا يأتي كإتيانه، ولا ينزل كنزوله كما قال - تعالى - :

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٣﴾﴾

ولا يصفون أحداً من المخلوقين بخصائص الخالق - جل جلاله - ، بل كل ما سواه من الملائكة والأنبياء وسائر الخلق فقير إليه عبد له، وهو الصمد الذي يحتاج إليه كل شيء، ويسأله كل أحد، وهو غني بنفسه لا يحتاج إلى أحد في شيء من الأشياء كما قال - تعالى - :

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾

وقال - تعالى - :

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ

(١) سقطت (إلا) من س، ك، ط وهي في أ ولازمة للسياق.

(٢) سقطت لفظة (العلم) من ك، ط.

(٤) سورة مريم: الآيات ٨٨ - ٩٥.

(٣) سورة الإخلاص.

إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ أَنْتَهُمَا خَيْرٌ لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٧١﴾ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدُ اللَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿٧٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١﴾ .

وكذلك هم في المسيح ، فالنصارى يقولون : هو الله ، ويقولون : أيضاً هو (٢) : ابن الله وهو إله تام وإنسان تام ، واليهود يقولون : هو ولد زنا ، وهو ابن يوسف التجار ، * ويقولون عن مريم : إنها بغى بعيسى كما قال - تعالى - : ﴿... وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴾ * (٣) .
ويقولون (٤) هو ساحر كذاب .

وأما المسلمون فيقولون : هو عبد الله ورسوله * وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول وروح منه * (٥) ، وهو وجه في الدنيا والآخرة ، ومن المقربين ، ويصفونه بما وصفه الله به في كتابه لا يغلون فيه غلو النصارى ، ولا يقصرون في حقه تقصير اليهود ، وكذلك قولهم في سائر الأنبياء والمرسلين : وفي أولياء الله . فاليهود قتلوا النبيين والذين يأمرون بالقسط من الناس . والنصارى اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من

(١) سورة النساء : الآيات ١٧١ - ١٧٣ .

(٢) سقطت (هو) من ك ، ط .

(٣) الآية من سورة النساء : ١٥٦ وما بين النجمتين ساقط من أ .

(٤) في س ، ك ، ط (ويقولون عنه) .

(٥) ما بين النجمتين ساقط من أ ، ك وزدناه من س ، ط .

دون الله والمسيح بن مريم، وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو — سبحانه — عما يشركون، ومع هذا فقد شارك النصارى اليهود في نقص حق كثير من الأنبياء فيقولون أن سليمان لم يكن نبياً^(١)، ويقولون: إن الحواريين مثل موسى وإبراهيم، ويقولون: إن من عمل بوصايا الله من غير الأنبياء صار مثل الأنبياء، وكان له أن يشرع شريعة، وبعض اليهود غلوا في العزيز^(٢) حتي قالوا — إنه ابن الله . ولهذا قال نبينا — صلى الله عليه وسلم — في الحديث الصحيح «لا تطروني كما أطرت النصارى»^(٣) عيسى بن مريم فإنما أنا عبد الله فقولوا عبد الله ورسوله»^(٤).

(١) ويرجع ذلك إلى أن كتاب العهد القديم قد خلعوا صوراً مقبلة على أنبياء الله جميعاً، وقد صور النبي الكريم سليمان — عليه السلام — في سفر الملوك الأول في الإصحاح الأول منه بأنه رجل ملك وسياسة صارع (أدونيا بن حجيث) الذي حاول أن يتولى الملك بعد داود — عليه السلام — ، فأخذ سليمان يقتل ويبطش... إلخ ما وصفه به الكاتب كعادتهم في وصف كثير من الأنبياء — عليهم السلام — ، وقبح الله أعداءه وأعداء أنبيائه . وانظر تفصيلاً عن النبي سليمان — عليه السلام — في كتاب التراث الإسرائيلي في العهد القديم وموقف القرآن الكريم منه للدكتور صابر طعيمه ص ٥١٧ — ٥٤٥ ، ص ٧٦٤ حيث تحدث عن النبي سليمان في رؤية العهد القديم، وعنه في عطاء القرآن الكريم .

(٢) في ط (العزيزين) بالزاي المعجمة، وسبقت ترجمته .

(٣) في أ زيادة (المسيح) بعد كلمة النصارى، وليست في الحديث .

(٤) رواه الإمام البخاري في كتاب الأنبياء، باب واذكر في الكتاب مريم، عن ابن عباس أنه سمع عمر — رضي الله عنه — يقول على المنبر: سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول لا تطروني... الحديث في البخاري ١٤٢/٤ ، وأحمد في المسند ٢٣/١ ، ٢٤ ، ٥٥ وفيه بقية خطبة عمر — رضي الله عنه — . والدارمي في السنن، باب قول النبي — صلى الله عليه وسلم — لا تطروني ٣٢٠/٢ كتاب الرقائق؛ والحميدي في مسنده ١٦/١ (٢٧) .

والله - تعالى - ذكر في القرآن في سورة (كهيعص) قصة ابني الخالة يحيى وعيسى . ويحيى يسمونه النصاري يوحنا وهو يوحنا^(١) المعمدانني عندهم فقال - تعالى - بعد أن ذكر قصة يحيى :

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّئٌ وَلَنَجْعَلَنَّكَ ءَايَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَاجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَوَدَّعْنَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهَزَى إِلَيْكِ جِذْعُ النَّخْلَةِ تُسْقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرِينَ مِنْ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَتَّخِذُ هَذِرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْءًا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ

(١) سقطت جملة (وهو يوحنا) من س، ط.

ويوحنا هو يحيى بن زكريا - - عليهما السلام - الذي ورد ذكره في القرآن الكريم: في سورة آل عمران، وفي سورة مريم، وفي سورة الأنبياء، وهو ابن خالة عيسى - عليه السلام - على قول الجمهور، وقد أورد ابن كثير في تاريخه ٥٢/٢ - ٥٥ له ترجمة طويلة، وذكر سبب مقتله، وورد ذكره في كتب العهد الجديد في إنجيل مرقس ٢٠/٦؛ ومتى ١٤/١ - ٢؛ ولوقا الإصحاح الأول منه. وانظر تفصيلاً عنه في: كتاب مستقل للدكتور أحمد السقا بعنوان: يوحنا المعمدان بين الإسلام والنصرانية.

وَأَوْصِنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبِرَّأَبِيَالِدَنِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ (١).

ثم قال الله - تعالى - :

﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ۖ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَأَخْلَفَ الْآخِرَآبُ مِنْ بَيْنِهِمْ قَوْلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾ (٢).

فذكر - سبحانه - قصة مريم والمسيح في هذه السورة المكية التي أنزلها في أول الأمر بمكة في السور التي ذكر فيها أصول الدين المدنية التي يخاطب فيها من اتبع الأنبياء من أهل الكتاب والمؤمنين، لما قدم عليه نصارى نجران فكان فيها الخطاب لأهل الكتاب فقال - تعالى - :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿٣٩﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٤٢﴾ (٣).

* وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « ما من مولود إلا يمسسه الشيطان فيستهل صارخاً من

(١) سورة مريم : الآيات ١٦ - ٣٣ .

(٢) سورة مريم : الآيات ٣٤ - ٣٨ . (٣) سورة آل عمران : الآيات ٣٣ - ٣٦ .

الشیطان إلاً مریم وابنها». ثم يقول أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم (وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) * (١).

قال — تعالى (٢) — :

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَنْمَرِمُ أُنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٣).

ثم ذكر قصة زكريا ويحيى ثم قال :

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ (٣٨) فَدَٰتَهُ الْمَلٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بَيَحْيٰى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذٰلِكَ أَلٰهٌ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّيَ آيَةً قَالَ آيٰتُكَ أَلَّا تَكَلِّمَ النَّاسَ ثَلٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرَمًا وَادَّكُرَ رَبُّكَ كَثِيرًا وَسَيَحْيٰى بِالْعَمِيِّ وَالْإِبْرٰكِرِ ﴿٤١﴾ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلٰٓئِكَةُ يٰنَعْمَ إِنْ اللَّهَ أَصْطَفٰكَ وَطَهَّرَكَ وَاصْطَفٰكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يٰنَعْمَ أَفْنٰى لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَارْكَعِي

(*) ما بين النجمتين ساقط من جميع النسخ عدا نسخة ط.

(١) والحديث: رواه البخاري في كتاب الأنبياء، باب قول الله — تعالى — واذكر في الكتاب مریم إذا انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً ١٣٨/٤؛ ورواه في التفسير، سورة آل عمران، باب وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ١٦٦/٥؛ ورواه مسلم في كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى — عليه السلام — ١٨٣٨/٤ (٢٣٦٦)؛ ورواه أحمد في المسند ٢/٢٣٣، ٢٧٤، ٢٨٨، ٢٩٢؛ وابن جرير الطبري في تفسيره من طرق متعددة من حديث أبي هريرة عند آية ﴿وإني أعيذها بك وذريتها...﴾ الآية ١٦٠/٣ (المجلد الثالث) ط. دار الفكر.

(٢) سقطت جملة (قال تعالى) من أ، س.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٣٧.

مَعَ الرَّكِيِّينَ ﴿٤٣﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ
 أَقْلَمُهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ
 الْمَلَكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ بِبَشَرِكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِهَاً فِي
 الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾
 قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسَّسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى
 أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٨﴾
 وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ
 كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ
 وَأُخْرِى الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً
 لَكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأَجَلَ لَكُمْ
 بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٥٠﴾
 إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴿٥٢﴾ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى
 مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ
 وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا
 مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٤﴾ وَمَكْرُؤًا وَمَكْرًا لِلَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٥٥﴾ إِذْ قَالَ
 اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ارْفُاعَكَ إِلَىٰ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلَ الَّذِينَ
 اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَخَذَكُمْ بَيْنَ يَدَيْكُمْ
 فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلَفُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذَّ بِهِمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا
 وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ
 الْحَكِيمِ ﴿٥٩﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ
 فَيَكُونُ ﴿٦٠﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦١﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ

مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَكُمْ وَأَنفُسَهُمْ
ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلِ لَكَ كَذِيبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ
وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِنْ قَوْلُوا أَفَأَنْ عَالِمُ
بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ
إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا
فَقُولُوا أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي
إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ ؕ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَتَانِمْ
هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ
مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا
وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ .

فهو - سبحانه - قد ذكر قصة مريم والمسيح في هاتين السورتين :
إحداهما : مكية نزلت في أول الأمر مع السور الممهدة لأصول الدين ،
وهي سورة (كهيعص) والثانية : مدنية نزلت بعد أن أمر بالهجرة والجهاد ،
ولهذا تضمنت مناظرة أهل الكتاب ومباهلتهم ، كما نزلت في «براءة»
مجاهدتهم ، فأخبر في السورة (٢) المكية أنها لما انفردت للعبادة
أرسل الله إليها روحه فتمثل لها بشراً سوياً . فقالت :
﴿... إني أعوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ (٣) .

قال أبو وائل : علمت أن المتقي ذو نهيبة (٤) ، أي : تقواه ينهأه عن
الفاحشة . وأنها خافت منه أن يكون قصده الفاحشة ، فقالت : أعوذ

(١) سورة آل عمران : الآيات ٣٨ - ٦٨ .

(٢) سورة مريم : الآية ١٨ .

(٣) في ط (السور) .

(٤) رواه البخاري موقوفاً معجزوماً به في كتاب الأنبياء ، باب واذكر في الكتاب مريم =

بالرحمن منك إن كنت تقياً، أي^(١): تتقي الله، وما يقول بعض الجاهل من أنه كان فيهم رجل فاجر اسمه تقي فهو من نوع الهذيان وهو من الكذب الظاهر الذي لا يقوله إلا جاهل، ثم قال:

﴿... إنما أنا رسول ربك ليهب لك غلاماً زكياً﴾^(٢).

وفي القراءة الأخرى: ﴿لَأَهَبَ لَكَ غُلَامًا زَكِيًّا﴾.

فأخبر هذا الروح الذي تمثل لها^(٣) بشراً سوياً أنه رسول ربها، فدل الكلام على أن هذا الروح عين قائمة بنفسها ليست صفة لغيرها،

١٤٠/٤ بلفظ «قال أبو وائل: علمت مريم أن التقي ذو نهيّة حين قالت إن كنت تقياً». قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٣٤٤/٦ «وصله عبد بن حميد من طريق عاصم، وذكره». ثم بين - رحمه الله - معنى نهيه فقال: وقوله نهية بضم النون، وسكون الهاء، أي: ذو عقل وانتهاء عن فعل القبيح وأغرب من قال أنه اسم رجل يقال له تقي. كان مشهوراً بالفساد فاستعاذت منه» وأخرجه ابن جرير الطبري بسنده عن أبي وائل في تفسيره ٤٧/١٦ (المجلد السابع) وانظر تفسير ابن كثير ١١٥/٣ سورة مريم.

وأبو وائل هو:

شقيق بن سلمة الأسدي، الكوفي أحد سادة التابعين، ثقة مخضرم مات في خلافة عمر بن عبد العزيز وله مائة سنة.

انظر: تقريب التهذيب ٣٥٤/١ (٩٦)؛ وتهذيب التهذيب ٣٦١/٤ - ٣٦٣؛ والخلاصة للخزرجي ص ١٦٧.

(١) سقطت (تقياً أي) من أ، ك، وألحقناها من س، ط.

(٢) سورة مريم: الآية ١٩. وفي ط (لأهب) وهذا مخالف لسائر النسخ والصحيح ذكرها بلفظ (ليهب) لأنه أوردها فيما بعد بلفظ (لأهب) على القراءة الأخرى. وقراءة (ليهب) هي قراءة أبي عمرو، ويعقوب، وورش عن نافع على معنى أرسلني ليهب لك. أما بالهمز (لأهب) فهي قراءة الباقيين.

انظر: فتح القدير للعلامة الشوكاني ٣٢٨/٣؛ والغاية في القراءات العشر للحافظ النيسابوري ص ٢٠٢؛ والتيسير في القراءات السبع لأبي عمرو الداني ص ١٤٨.

(٣) في ط (له).

وأنه رسول من الله ليس صفة من صفات الله ؛ ولهذا قال جماهير العلماء : أنه جبريل — عليه السلام — فإن الله سماه الروح الأمين وسماه روح القدس ، وسماه جبريل ، وهكذا عند أهل الكتاب أنه تجسد من مريم ومن روح القدس ، لكن ضلالهم حيث يظنون أن روح القدس حياة الله وأنه إله يخلق ويرزق ويعبد وليس في شيء من الكتب الإلهية ولا في كلام الأنبياء أن الله سمى صفته القائمة به روح القدس ، ولا سمى كلامه ، ولا شيئاً من صفاته ابناً ، وهذا أحد ما يثبت^(١) به ضلال النصارى ، وأنهم^(٢) حرفوا كلام الأنبياء وتأولوه على غير ما أرادت^(٣) الأنبياء ؛ فإن أصل تثليثهم مبني على ما في أحد الأناجيل^(٤) من أن المسيح — عليه السلام — قال لهم : « عمدوا الناس باسم الآب والإبن وروح القدس ». فيقال لهم : هذا إذا كان قد قاله المسيح ، وليس في لغة المسيح ولا لغة أحد من الأنبياء ، أنهم يسمون صفة الله القائمة به و^(٥) لا كلمته ولا حياته لا^(٦) ابناً ولا روح قدس ، ولا يسمون كلمته ابناً ، ولا يسمونه نفسه ابناً ، ولا روح قدس ، ولكن يوجد فيما ينقلونه عنهم أنهم يصفون^(٧) المصطفى المكرم ابناً ، وهذا موجود في حق المسيح وغيره كما يذكرون أنه قال — تعالى — لإسرائيل : « أنت ابني بكري^(٨) » .

(١) في س ، ك (يتبين) وفي ط (تبين) .

(٢) سقطت (وأنهم) من أ وزدناها من سائر النسخ . (٣) في ط (أرادت به) .

(٤) في إنجيل متى : إصحاح ٢٨ : ١٩ وسبق تخريجها .

(٥) سقطت (الواو) من س ، ك ، ط .

(٦) في أ (ولا) والواو زائدة . (٧) في س ، ك ، ط (يسمون) .

(٨) في سفر الخروج ، الإصحاح ٤ : ٢٢ - ٢٣ « فنقول لفرعون هكذا يقول الرب إسرائيل ابني البكر . . إلخ .

وفي سفر التكوين إصحاح ٤٩ : ٣ « رأو بين أنت بكري ، قوتي وأول قدرتي ، فضل الرفعة ، وفضل العز » .

وفي إرميا إصحاح ٣١ : ٩ « إني صرت ابناً لإسرائيل ، وأفرام هو بكري » .

أي: بني إسرائيل^(١).

وروح القدس. يراد به الروح التي تنزل على الأنبياء كما نزلت على داود وغيره، فإن في كتبهم أن روح القدس كانت في داود وغيره، وأن المسيح قال لهم: «أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم» فسماه أبا للجميع، لم يكن المسيح مخصوصاً عندهم باسم الابن، ولا يوجد عندهم لفظ^(٢) الابن إلا اسماً للمصطفى المكرم^(٣) لا اسماً لشيء من صفات الله^(٤)، ولا في كتب الأنبياء أن صفة الله تولدت منه.

وإذا كان كذلك كان في هذا ما يبين أنه ليس المراد بالابن كلمة الله القديمة الأزلية التي يقولون أنها تولدت من الله عندهم مع كونها أزلية، ولا بروح القدس حياة الله، بل المراد بالابن ناسوت^(٥) المسيح، وبروح القدس ما أنزل عليه من الوحي والملك الذي نزل به فيكون قد أمرهم بالإيمان بالله، وبرسوله، وبما أنزله على رسوله، والملك الذي نزل به^(٦)، وبهذا أمرت الأنبياء كلهم وليس للمسيح خاصة استحق بها أن يكون فيه شيء من اللاهوت، لكن ظهر فيه نور الله وكلام الله وروح الله كما ظهر في غيره من الأنبياء والرسل؛ فإن^(٧) غيره أيضاً فيما

(١) لعل الشيخ يقصد دعوى بني إسرائيل التي ذكرها القرآن عنهم في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ...﴾ الآية ١٨ من سورة المائدة.

(٢) في س (لغة).

(٣) في أ، س، ك (المخلوق) بدل (المصطفى المكرم).

(٤) في ط: بعد لفظ الجلالة جاءت العبارة هكذا (القديمة حتى يكون الابن صفة الله التي تولدت منه) وسقطت الجملة وما قبلها ابتداءً من قوله: (فإن في كتبهم أن روح القدس) من نسخة ك، وما أثبتناه من أ، س.

(٥) في أ (بشر).

(٦) في ط (وبهذا الذي نزل به) بعد جملة (والملك الذي نزل به).

(٧) في س، ك، ط (ومعلوم أن).

ينقلونه عن الأنبياء يسمى إينا وروح القدس حلت فيه، وهذا مبسوط في غير هذا الموضع^(١).

والمقصود هنا: التنبيه على أن كلام الأنبياء — عليهم السلام — يصدق بعضه بعضاً، وأنه ليس مع النصارى لا^(٢) حجة سمعية، ولا عقلية توافق ما ابتدعوه، ولكن فسروا كلام الأنبياء بما لا يدل عليه، وعندهم في الإنجيل أنه قال: «إن الساعة لا يعلمها الملائكة ولا الإبن وإنما يعلمها الأب وحده»^(٣) فبين أن الإبن لا يعلم الساعة فعلم أن الإبن ليس هو القديم الأزلي وإنما هو المحدث الزماني.



(١) سيتحدث المؤلف — رحمه الله — عن هذا بتوسع أكثر في القسم الثاني من هذا الكتاب.

(٢) سقطت (لا) من ط.

(٣) إنجيل متى إصحاح ٢٤ : ٣٦. وسبق تخريجها

فصل (١)

والمضاف إلى الله نوعان: فإن المضاف إما أن يكون صفة لا تقوم بنفسها كالعلم، والقدرة، والكلام، والحياة، وإما أن يكون عيناً قائمة بنفسها.

الفرق بين ما
يُضاف إلى الله
من صفاته،
وما يُضاف إليه
من مملوكاته

فالأول: إضافة صفة كقوله:

﴿... وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ...﴾ (٢).

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (٣).

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً...﴾ (٤).

وقول النبي - صلى الله عليه وسلم - في الحديث الصحيح حديث الاستخارة: «إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك» (٥).

(١) سقطت كلمة (فصل) من أ، وزدناها من س، ك، ط.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٥٥.

(٣) سورة الذاريات: الآية ٥٨.

(٤) سورة فصلت: الآية ١٥.

(٥) تمامه: وأسألك من فضلك العظيم. فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب. اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري أوقال: عاجل أمري وأجله فاقدري لي ويسره لي، ثم بارك لي فيه. وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، أوقال: عاجل أمري =

وقوله - تعالى - : ﴿...وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا...﴾^(١).

وقوله : ﴿...ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ...﴾^(٢).

وقوله : ﴿...ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْنَا...﴾^(٣).

والثاني: إضافة عين، كقوله - تعالى - :

﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ...﴾^(٤).

وقوله : ﴿...نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا...﴾^(٥).

وقوله : ﴿عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ...﴾^(٦).

فالمضاف في الأول: صفة لله قائمة به ليست مخلوقة^(٧) له بائنة^(٨) عنه والمضاف في الثاني: مملوك لله مخلوق له بائن عنه، لكنه مفضل مشرف لما خصه الله به من الصفات التي اقتضت إضافته إلى الله

وآجله، فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ثم أرضني به. قال ويسمي حاجته.

الحديث رواه البخاري من حديث جابر بن عبد الله في كتاب التهجد، باب ما جاء في التطوع مثني مثني ٥١/٢، وفي كتاب الدعوات، باب الدعاء عند الاستخارة ١٦٢/٧، وفي كتاب التوحيد، باب قول الله - تعالى - «قل هو القادر» ١٦٨/٨.

ورواه الترمذي في أبواب الوتر، باب ما جاء في صلاة الاستخارة ٣٤٦/٢ (٤٨٠).

ورواه أبو داود في الصلاة، باب في الاستخارة ١٨٧/٢، ١٨٨ (١٥٣٨)، والنسائي

في النكاح، باب كيف الاستخارة ٨٠/٦، وابن ماجه في إقامة الصلاة، باب ما جاء

في صلاة الاستخارة ٤٤٠/١ (١٣٨٣)، وأحمد في مسند جابر ٣٤٤/٣. وانظر:

فتح الباري ١١/١٥٥، ١٥٩ تجد الكلام عليه هناك.

(١) سورة الأنعام: الآية ١١٥. (٥) سورة الشمس: الآية ١٣.

(٢) سورة الممتحنة: الآية ١٠. (٦) سورة الإنسان: الآية ٦.

(٣) سورة الطلاق: الآية ٥. (٧) في س، ك (مخلوق) وفي ط (مخلوقاً).

(٤) سورة الحج: الآية ٢٦. (٨) في س، ك، ط (بائن).

– تبارك وتعالى – ، كما خص ناقة صالح من بين النوق، وكما خص بيته بمكة من البيوت، و^(١) كما خص عباده الصالحين من بين الخلق، ومن هذا الباب قوله – تعالى – : ﴿... فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا...﴾^(٢).

فإنه وصف هذا الروح بأنه تمثل لها^(٣) بشراً سوياً، وأنها استعازت بالله منه إن كان تقيّاً وأنه قال: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾.

وهذا كله يدل على أنها عين قائمة بنفسها، وهي التي تسمى في اصطلاح النظار جوهرأ، وقد تسمى جسماً إذا كانت مشاراً إليها مع اختلاف الناس في الجسم، هل هو مركب من الجواهر المفردة، أم من المادة والصورة، أم ليس مركباً لا من هذا ولا من هذا؟ وإذا كان الله قد بين أن المضاف هنا ليس من الصفات القائمة بغيرها بل من الأعيان القائمة بنفسها علم أن المضاف مملوك لله مخلوق له، لكن إضافته إلى الله تدل على تخصيص الله له من الاصطفاء والإكرام بما أوجب التخصيص بالإضافة، وقد ذكرت فيما كنت كتبه^(٤) قبل هذا من الرد على النصارى، الكلام في ذلك وغيره وبينت أن المضافات إلى الله نوعان: أعيان، وصفات.

(١) سقطت (الواو) من ط.

(٢) سورة مريم: الآية ١٧.

(٣) سقطت (لها) من أ، س، ك.

(٤) لعله يقصد بذلك ما ورد في مجموع الفتاوى ٢٧٣/١٧ – ٢٨٥ فقد بسط الكلام هناك كما رد على النصارى في مواضع متعددة من هذا القسم (قسم التفسير) الجزء الرابع منه، والشيخ – رحمه الله – يعرض لهذه القضية في مواضع كثيرة من كتبه التي رد فيها على غلاة المبتدعة المنتسبين إلى الإسلام، ويعقد مقارنة بينهم وبين النصارى في هذه القضية وغيرها كما ورد في منهاج السنة النبوية.

فالصفات إذا أضيفت إليه كالعلم والقدرة والكلام والحياة والرضا والغضب ونحو ذلك دلت الإضافة على أنها إضافة وصف له قائم به ليست مخلوقة؛ لأن الصفة لا تقوم بنفسها فلا بد لها من موصوف تقوم به، فإذا أضيفت إليه علم أنها صفة له لكن قد يعبر باسم الصفة عن المفعول بها فيسمى^(١) المقدور قدرة، والمخلوق بالكلمة كلاماً، والمعلوم علماً، والمرحوم به رحمة كقول النبي - صَلَّى الله عليه وسلم - : «إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة»^(٢).
وقوله - تعالى - فيما يروي عنه^(٣) نبيه أنه قال للجنة: (أنت رحمتي أرحم بك من أشياء)^(٤).

(١) في س، ك، ط (يسمى).

(٢) رواه البخاري من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله - صَلَّى الله عليه وسلم - يقول: «إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة، فأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمة، وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة، فلو يعلم الكافر الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة، ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار».

أخرجه في الرقاق، باب الرجاء مع الخوف ١٨٣/٧، ورواه مسلم في التوبة، باب في سعة رحمة الله - تعالى - وأنها سبقت غضبه ٢١٠٨/٤ (٢٧٥٢) بلفظ مقارب، ومن حديث سلمان الفارسي (٢٧٥٣) بنحوه.

وابن ماجه في الزهد، باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة بلفظ مقارب ١٤٣٥/٢، ومن حديث أبي سعيد الخدري بنحوه (٤٢٩٣)، (٤٢٩٤)، وأحمد في مسند سلمان الفارسي ٤٣٩/٥.

(٣) في ط (عن). وهو خطأ.

(٤) هذا قطعة من حديث طويل أخرجه البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - في كتاب التفسير، تفسير سورة ق، باب قوله تعالى: (وتقول هل من مزيد) ٤٨/٦، ورواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء ٢١٨٦/٤ (٣٥)، (٣٦)، والترمذي في كتاب صفة الجنة، باب ما جاء في احتجاج الجنة والنار ٦٩٤/٤ (٢٥٦١)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

ويقال للمطر والسحاب : هذه قدرة قادر، وهذه قدرة عظيمة،
ويقال في الدعاء: غفر الله لك علمه فيك، أي: معلومه.

وأما الأعيان إذا أضيفت إلى الله - تعالى - فإما أن تضاف بالجهة
العامّة التي يشترك فيها المخلوق مثل كونها مخلوقة ومملوكة له
ومقدورة، ونحو ذلك، فهذه إضافة عامة مشتركة كقوله: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ﴾،

وقد يضاف لمعنى يختص بها يميز به المضاف عن غيره مثل:
بيت الله، وناقة الله، وعبد الله، وروح الله، فمن المعلوم اختصاص ناقة
صالح بما تميزت به عن سائر النياق، وكذلك اختصاص الكعبة،
واختصاص العبد الصالح الذي عبد الله وأطاع أمره، وكذلك الروح
المقدسة التي امتازت بما فارقت به غيرها من الأرواح؛ فإن المخلوقات
اشتركت في كونها مخلوقة مملوكة مربوبة لله يجري عليها حكمه وقضاؤه
وقدره، وهذه الإضافة لا اختصاص فيها، ولا فضيلة للمضاف على
غيره.

وامتاز بعضها بأن الله يحبه ويرضاه ويصطفيه ويقربه إليه، ويأمر
به، أو يعظمه ويحبه فهذه الإضافة يختص بها بعض المخلوقات كإضافة
البيت، والناقة، والروح، وعباد الله من هذا الباب^(١).

وقد قال - تعالى - في سورة الأنبياء:

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا

وأحمد في المسند ٢/٢٧٦، ٣١٤، ٤٥٠، ٥٠٧. وفي مسند أبي سعيد الخدري
ولفظه: «وقال للجنة أنت رحمتي وسعت كل شيء»، ٣/١٣، ٧٨، ٧٩.

(١) انظر الأجوبة الفاخرة في الرد على الأسئلة الفاجرة للقرافي ص ١٦١ (رسالة
ماجستير، تحقيق سالم القرني، كلية أصول الدين بالرياض).

وَأَبْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١﴾.

وقال في سورة التحريم:

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا ذِكْرٌ وَإِسْمٌ ﴿١٢﴾﴾ (٢).

فذكر امرأة فرعون (٣) التي ربت موسى بن عمران، وجمعت بينه وبين أمه حتى أرضعته أمه عندها. وذكر مريم أم المسيح التي ولدته وربته فهاتان المرأتان ربنا هذين الرسولين الكريمين، فلما قال هنا: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا﴾، أي: في المرأة، ﴿وفيه﴾، أي: في فرجها من روحنا،

(١) سورة الأنبياء: الآية ٩١.

(٢) سورة التحريم: الآية ١١، ١٢.

(٣) هي آسية بنت مزاحم، آمنت بدعوة موسى - عليه السلام - فعذبها فرعون زوجها أشد العذاب، ولكنها كانت مثلاً يستحق أن يضرب في كتاب الله في الثبات على الطاعة، والصبر في الشدة، والتمسك بدين الله... وهذه المرأة صارت بذلك في جنات النعيم... قال المفسرون استجاب الله لها فبنى لها بيتاً في الجنة، وذلك حينما قالت: ﴿رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة...﴾ الآية، وصدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذ يقول في الحديث الذي رواه أبو موسى الأشعري، كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» أخرجاه في الصحيحين.

وانظر: تفسير ابن جرير الطبري ١١٠/٢٨ (مجلد ١٠)؛ وتفسير القرطبي ٢٠٣/١٨

(مجلد ٩) مطبعة دار الكتاب العربي.

وتفسير ابن كثير ٣٩٣/٤؛ وفتح القدير ٢٥٦/٥؛ وأضواء البيان للشنقيطي ٣٨٢/٨؛

وتيسير الكريم الرحمن لابن سعدي ٤٢٦/٧.

وقال هنا: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ - إلى قوله - ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِیَهَبَ^(١) لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾، دل على أن قوله: روحنا ليس المراد به أنه صفة لله لا الحياة، ولا غيرها، ولا هو رب خالق فلا هو الرب الخالق، ولا صفة الرب الخالق، بل هو روح من الأرواح التي اصطفاهها الله وأكرمها كما تقدم في قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾، وأن الأكثرين على أنه جبريل.

وهذا الأصل الذي ذكرناه من الفرق فيما يضاف إلى الله بين^(٢) صفاته، وبين مملوكاته أصل عظيم ضل فيه كثير من أهل الأرض من أهل الملل كلهم؛ فإن كتب الأنبياء: التوراة، والإنجيل، والقرآن، وغيرها أضافت إلى الله أشياء على هذا الوجه، وأشياء على هذا الوجه: فاختلف الناس في هذه الإضافة، فقالت المعطلة نفاة الصفات من أهل الملل: إن الجميع إضافة ملك وليس لله حياة قائمة به، ولا علم قائم به، ولا قدرة قائمة به، ولا كلام قائم به، ولا حب، ولا بغض ولا غضب، ولا رضى، بل جميع ذلك مخلوق من مخلوقاته.

وهذا أول ما ابتدئته في الإسلام الجهمية وإنما ابتدئته بعد انقراض عصر الصحابة وأكابر التابعين لهم بإحسان وكان مقدمهم رجل يقال له: الجهم بن صفوان^(٣)،

(١) هذه قراءة أبي عمرو ويعقوب وورش عن نافع، أما قراءة الجمهور فهي (لأهب) وسبق بيان ذلك.

(٢) في ك، ط (من).

(٣) هو أبو محرز الجهم بن صفوان السمرقندي الضال المبتدع، رأس الجهمية من أبرز أقواله القول بأن الإيمان هو المعرفة بالقلب وإن أعلن الكفر بلسانه وقوله بنفي الصفات وبالجبر والاضطرار في الأعمال، هلك في زمان صغار التابعين، قتل سنة ١٢٨هـ، وسببه أنه كان يقضي في عسكر الحارث بن شريح الخارج على أمراء =

فنسبت^(١) الجهمية إليه، ونفوا الأسماء والصفات، واتبعهم المعتزلة وغيرهم فنفوا الصفات دون الأسماء، ووافقهم طائفة من الفلاسفة أتباع^(٢) أرسطو.

وقالت الحلولية: بل ما يضاف إلى الله قد يكون^(٣) هو صفة له وإن كان بائناً عنه، بل^(٤) قالوا: هو قديم أزلي، فقالوا: روح الله قديمة أزلية صفة لله، حتى قال كثير منهم: إن أرواح بني آدم قديمة أزلية وصفة لله^(٥)، وقالوا: إن ما يسمعه الناس من أصوات القراء ومداد المصاحف قديم أزلي، وهو صفة لله.

وقال حذاق هؤلاء بل غضبه، ورضاه، وحبه، وبغضه، وإرادته لما يخلقه قديم أزلي، * وهو صفة الله *^(٦) وكلامه الذي سمعه موسى قديم أزلي، وأنه لم يزل راضياً محباً لمن علم أنه يطيعه قبل أن يخلق، ولم يزل غضباناً ساخطاً على من علم أنه يكفر قبل أن يخلق، ولم يزل

= خراسان فقبض عليه نصر بن سيار، فقال له: استيقني، فقال نصر: «لا تقوم علينا مع اليمانية أكثر مما قمت» وأمر بقتله فقتل. انظر: لسان الميزان لابن حجر ١٤٢/٢؛ وميزان الاعتدال ٤٢٦/١؛ والملل والنحل للشهرستاني ١٠٩/١؛ ومقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري ١٢٤/١؛ والفصل في الملل والنحل ٢٠٤/٤؛ والفرق بين الفرق للبغدادى ص ٢١٢؛ ومجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ٣٧٤/٥؛ والبرهان في معرفة عقائد أهل الأديان للسكسكي رسالة ماجستير ص ١٥٥؛ وأصول الدين للبغدادى ص ٣٣٣.

(١) في أ، س (فنسب).

(٢) في س (واتباع).

(٣) ستطت (قد يكون) من أ.

(٤) في أ (قالوا بل).

(٥) صفة لله (ساقط من أ).

(٦) ما بين النجمتين ساقط من أ، ط، وزدناه من س.

ولا يزال قائلاً: يا آدم، يا نوح، يا إبراهيم قبل أن يوجدوا، وبعد موتهم، ولم يزل ولا يزال يقول: يا معشر الجن والإنس، قبل أن يخلقوا وبعد ما يدخلون الجنة والنار.

وأما سلف المسلمين من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وأئمة المسلمين المشهورون بالإمامة فيهم^(١) كالأربعة، وغيرهم، وأهل العلم بالكتاب و^(٢) السنة، فيفرون بين مملوكاته، وبين صفاته، فيعلمون أن العباد مخلوقون، وصفات العباد مخلوقة، وأجسادهم، وأرواحهم، وكلامهم، وأصواتهم^(٣) بالكتب الإلهية وغيرها، ومدادهم، وأوراقهم، والملائكة^(٤)، والأنبياء وغيرها، ويعلمون أن صفات الله القائمة به ليست مخلوقة كعلمه، وقدرته، وكلامه^(٥)، وإرادته، وحياته، وسمعه، وبصره، ورضاه، وغضبه، وحبه وبغضه، بل هو موصوف بما وصف به نفسه وبما وصفته^(٦) به رسله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكيف^(٧) ولا تمثيل، فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه، ووصفه به^(٨) رسله، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه، ولا^(٩) يتأولون كلام الله بغير ما أراده، ولا يمثلون صفات الخالق بصفات المخلوق، بل يعلمون أن الله

(١) في ط (فيها).

(٢) سقطت الواو من ط.

(٣) في ك، ط (وأصواتهم وكلامهم).

(٤) في أ (المكتبة) وفي ك (والأنبياء والملائكة).

(٥) سقطت (وكلامه) من أ، وزدناها من سائر النسخ.

(٦) في ك، ط (وصفه).

(٧) في ط (تكيف).

(٨) في ك، ط (ولا بما وصفه).

(٩) سقطت (لا) من أ، وزدناها من ط وفي س (وسياق كون كلام الله).

— سبحانه — ليس كمثله شيء لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في^(١) أفعاله بل هو موصوف بصفات الكمال، منزّه عن النقائص، وليس له مثل في شيء من صفاته، ويقولون: إنه لم يزل^(٢) ولا يزال موصوفاً بصفات الكمال، لم يزل متكلماً إذا شاء بمشيئته وقدرته، ولم يزل عالماً، ولم يزل قادراً، ولم يزل حياً سميعاً بصيراً، ولم يزل مريداً، فكل كمال لا نقص فيه يمكن اتصافه به فهو موصوف به لم يزل ولا يزال متصفاً بصفات الكمال منعوتاً بنعوت الجلال والإكرام سبحانه وتعالى.

والنصارى من أعظم الناس اضطراباً في هذا الأصل، فتارة: يجعلون كلامه الذي تكلم به كالنوراة والإنجيل مخلوقاً منفصلاً عنه وينفون عنه الصفات، وتارة يجعلون كلمته قديمة أزلية متولدة عنه لم تزل ولا تزال، ثم يقولون هذه الكلمة هي ابنه، ويجعلون هذه الكلمة علمه، أو حكمته ويقولون: إن هذه الكلمة هي إله خالق وهو الذي خلق السموات والأرض وأن^(٣) هذه الكلمة هي المسيح والمسيح إله^(٤) خالق العالم.

ويقولون: مع هذا أن هذه الكلمة ليست هي الأب الذي خلق السموات والأرض فيجعلون كلمته صفة قديمة أزلية، ويجعلونها ابناً له، ويجعلون الصفة إلهاً خالقاً، ويجعلون المسيح هو الإله الخالق، ويقولون مع هذا: هو إله حق من إله حق من جوهر أبيه.

ولهم في كلام الله وصفاته من التناقض والاضطراب، ومخالفة كلام الأنبياء، وتفسيره بغير ما أرادوه^(٥)، ومخالفة صريح المعقول

(١) سقطت (في) من أ، س.

(٢) سقطت (يزل) من ط.

(٣) في ط (ويقولون) بدل (أن).

(٤) سقطت (إله) من أ، س.

(٥) في ط (أرادوه).

وصحيح المنقول ما سنذكر - إن شاء الله ^(١) - منه ما ييسره الله، سبحانه وتعالى ^(٢)، إذ بيان فساد أقوال ^(٣) النصارى بالاستقصاء لا يتسع له هذا الكتاب، ولما قص ^(٤) - تعالى - قصة المسيح قال:

﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمَارُونَ...﴾ ^(٥).

أي: يشكون ويتمارون كتماري اليهود والنصارى.

ثم قال - تعالى - : ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ...﴾ ^(٦).

فاختلف اليهود والنصارى فيه ^(٧)، ثم اختلفت النصارى فيه وصاروا أحزاباً كثيرة جداً، كالنسطورية، واليعقوبية، والملكية، * والبارووية، والمريمانية، والسمياطية. وأمثال هذه الطوائف، كما سنذكر - إن شاء الله - كثيراً من طوائفهم واختلافهم في مجامعهم كما حكى ذلك عنهم أحد أكابرهم سعيد بن البطريق وغيره، فإنه ليس في الأمم أكثر اختلافاً في رب العالمين منهم * ^(٨)، فويل للذين كفروا من هذه الطوائف كلها من مشهد يوم عظيم:

(١) في ك، ط (إن شاء الله تعالى) وسيتناول هذا في مواضع متعددة من كتاب الجواب الصحيح وخصوصاً الجزء الثاني منه.

(٢) في أ، س (ما ننزه الله) وسقطت (سبحانه وتعالى) من س و ط.

(٣) في ك، ط (دين).

(٤) في ط (قص الله).

(٥) سورة مريم: الآية ٣٤.

(٦) سورة الزخرف: الآية ٦٥.

(٧) سقطت (فيه) من أ.

(٨) ما بين النجمتين ساقط من أ، وزدناه من س، ك، ط.

﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا... ﴾ (١).

يقول - تعالى - : ما أسمعهم وما أبصرهم يوم يأتوننا، لكن الظالمون اليوم كالنصارى الذين ظلموا بإفكهم وشركهم في ضلال مبين ضلوا عن الحق في المسيح، وقد وصف الله النصارى بالضلال في مثل قوله - تعالى - :

﴿ قُلْ يَا هَلْ أَكْتَبَ لَا تَعْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ (٢).

وقال - تعالى - :

﴿ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۚ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ (٣).

لأن الغالب عليهم الجهل بالدين، وأنهم يتكلمون بكلام لا يعقلون معناه * ليس منقولاً عن الأنبياء حتى يسلم لقائله بل هم ابتدعوه، وإذا سألتهم عن معناه قالوا: هذا لا يعرف بالعقول فيتدعون كلاماً يعرفون بأنهم لا يعقلونه * (٤)، وهو كلام متناقض ينقض أوله آخره؛ ولهذا لا تجدهم يتفقون على قول واحد في معبودهم حتى قال بعض الناس: لو اجتمع عشرة نصارى، اختلفوا على أحد عشر قولاً.

وقال الربيعي (٥): النصارى أشد الناس اختلافاً في مذاهبهم،

(١) سورة مريم: الآية ٣٨.

(٢) سورة المائدة: الآية ٧٧.

(٣) سورة الكهف: الآيتان ٤، ٥.

(٤) ما بين النجمتين ساقط من أ، وزدناه من سائر النسخ.

(٥) لعله: محمد بن عبد الله بن أحمد الربيعي: مؤرخ من حفاظ الحديث، كان محدث =

وأقلهم تحصيلاً لها، لا يمكن أن^(١) يعرف لهم مذهب، ولو سألت قساً من أقسائهم عن مذهبهم في المسيح، وسألت أباه وأمه لاختلفوا عليك الثلاثة، ولقال كل واحد منهم قولاً لا يشبه قول الآخر.

وقال بعض النظار: و^(٢) ما من قول يقوله طائفة من العقلاء إلا إذا تأملته تصورت^(٣) منه معنى^(٤) معقولاً وإن كان باطلاً، إلا قول النصارى فإنك كلما تأملته لم^(٥) تتصور له حقيقة تعقل لكن غايتهم أن يحفظوا الأمانة أو غيرها، وإذا طولبوا^(٦) بتفسير ذلك فسرهم كل منهم بتفسير يكفر به الآخر، كما يكفر اليعقوبية، والملكانية، والنسطورية بعضهم بعضاً لاختلافهم في أصل التوحيد والرسالة إذ كان قولهم في التوحيد والرسالة من أفسد الأقوال وأعظمها تناقضاً كما بين في موضع آخر.



دمشق وابن قاضيها، له تصانيف منها: أخبار ابن أبي ذئب، وتاريخ مولد العلماء ووفياتهم، ووصايا العلماء عند حضور الموت، مات سنة ٣٧٩هـ.
انظر: شذرات الذهب ٩٥/٣؛ والعبر للذهبي ١٢/٣؛ وتذكرة الحفاظ ١٧٩/٣؛ والأعلام للزركلي ٢٢٥/٦؛ ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ١٩٦/١٠.
أما النص الذي ذكره المؤلف - رحمه الله - فلم أقف عليه، فلعله ورد في كتاب له لم ير النور والله أعلم.

(١) سقطت (أن) من أ، وألحقتهما من سائر النسخ.

(٢) في س، ك، ط (ما) بدون واو.

(٣) في ط (لم تصورت) وهو خطأ.

(٤) في س، ك (يعني) وهو تصحيف.

(٥) سقطت (لم) من ط.

(٦) في ط (طولبوا).

فصل

وأما قولهم: فكان طيراً بإذن الله. أي: بإذن اللاهوت الذي هو كلمة الله المتحدة في الناسوت، فهذا إذا قالوه على أنه مذهبهم من غير أن يقولوا أن محمداً أرادته تكلمنا معهم في ذلك وبيننا فساد ذلك عقلاً ونقلاً.

وأما قولهم: أن محمداً - صلى الله عليه وسلم - كان يقول: أن المراد إذن اللاهوت الذي هو كلمة الله المتحدة في الناسوت، فهذا من البهتان الظاهر على محمد - صلى الله عليه وسلم - ، وهو من جنس قولهم أن قوله:

﴿ أَهْدَيْنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ... ﴾^(١).

أراد به: النصارى. ومن جنس قولهم أن قوله:

﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا... ﴾^(٢).

أراد به: العرب^(٣)، ومن جنس قولهم:

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ... ﴾^(٤).

أراد بهم: الحواريين، ومن جنس قولهم:

(١) سورة الفاتحة: الآيتان ٦، ٧. (٣) في أ، س، ك زيادة (من).

(٢) سورة آل عمران: الآية ٨٥. (٤) سورة الحديد: الآية ٢٥.

﴿الْعَمَّ﴾ ذَلِكَ أَلَكِتَبُ لَارِيَبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١﴾ .

أراد به الإنجيل ، فهذه المواضع التي فسروا بها القرآن وزعموا أن محمداً - صلى الله عليه وسلم - الذي بين للناس ما أنزل إليهم ، كان يريد بما (٢) يتلوه من القرآن هذه المعاني التي ذكروها هي (٣) من الكذب الظاهر الذي يدل على غاية جهل قائلها ، أو غاية معاندته ، ولكن مثل هذا التأويل غير مستنكر من النصارى ، فإنهم قد فسروا مواضع كثيرة من التوراة والإنجيل ، والزبور ، والنبوات بنحو هذه التفاسير التي حرفوا فيها الكلام الذي جاءت به الأنبياء عن مواضعه تحريفاً ظاهراً ، فبدلوا بذلك كتب الله ودين الله ، وضاهوا بذلك اليهود الذين حرفوا وبدلوا ، وإن اختلفت جهة التحريف والتبديل ، فتحريفهم للقرآن من جنس تحريفهم للتوراة والإنجيل وهم من الذين يدعون المحكم ويتبعون ما نشأ به منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، لكن في هذه المواضع حرفوا المحكم الذي معناه ظاهر لا يحتمل إلا معنى واحداً فكانوا من الجهل والمعادنة أبعد عن الصواب ممن حرف معنى المشابه ، وذلك أنه قد علم بالاضطرار من دين محمد - صلى الله عليه وسلم - أنه كان يقول : أن المسيح عبد الله (٤) مخلوق كسائر المرسلين وأنه يكفر النصارى الذين يقولون : هو الله أو (٥) ابن الله .

قال - تعالى - :

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ

(١) سورة البقرة : الآيتان ١ ، ٢ . (٤) في ط (عند الله) .

(٢) في س ، ك ، ط (بها ما) . (٥) في ط (و) .

(٣) في ط (وهي) .

وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ .

وقال - تعالى - :

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي لِي سِرًّا وَيَلْعَبُدُونِ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّكُمْ مِنْ يُشْرِكٍ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَكَانَ مِنْ إِلَهِ إِلَّا إِلَهُ وَحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ بُيِّنْتُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ اتَّبِعُونِ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَتَأَهَّلِ الْكِتَابُ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ .

فقد ذكر كفر النصارى في قولهم : هو الله مرتين ، وذكر أنه ليس المسيح إلا رسول قد خلت من قبله الرسل فغايتة الرسالة كما قال في محمد - صلى الله عليه وسلم - :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ . . . ﴾ (٣) .

(١) سورة المائدة: الآية ١٧ .

(٢) سورة المائدة: الآيات ٧٢ - ٧٧ .

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٤٤ .

وغاية أمه أن تكون صديقة ودل بهذا أنها ليست بنبيه^(١)، ثم قال: (كَأَنَّا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ).

وهذا من أظهر الصفات النافية للإلهية؛ لحاجة الأكل إلى ما يدخل في جوفه ولما يخرج منه مع ذلك من الفضلات. والرب - تعالى - أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

(١) قول جمهور العلماء أن مريم - رضي الله عنها - ليست نبيه، وإنما هي صديقة. أما ابن حزم في كتابه الفصل ١٧/٥ - ١٩، فقد عقد فصلاً بعنوان «نبوة النساء» وانتصر فيه للقول بأنها نبيه، كذلك فعل القرطبي في تفسيره ورجح أنها نبيه ٩٠/١١ (مجلد ٦) [الآية ١٦ من سورة مريم]، فقال: «واختلف الناس في نبوة مريم، فقيل: كانت نبيه بهذا الإرسال والمحاوراة للملك، وقيل: لم تكن نبيه، وإنما كلمها مثال بشر ورؤيتها للملك كما رؤي جبريل - عليه السلام - في صفة دحية الكلبي... والأول أظهر»، وقد تناول هذا أكثر وذكر أدلته في تفسير سورة آل عمران ٨٣/٤ - ٨٤.

وقد زاد عليه ابن حزم بإثبات نبوة أم موسى - عليه السلام - في الفصل ١٨/٥، والصحيح قول جمهور العلماء - رحمهم الله - أن مريم لم تكن نبيه، وكذلك أم موسى جاء في شرح مسلم للنووي: «قال القاضي عياض: هذا الحديث - كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء غير مريم بنت عمران، وآسية... إلخ. هذا الحديث يستدل به من يقول بنبوة النساء، ونبوة آسية ومريم، والجمهور على أنهما ليستا بنبيتين بل هما صديقتان ووليتان من أولياء الله - تعالى -، ولفظة الكمال تطلق على تمام الشيء، وتناهيه في باب، والمراد هنا: التناهي في جميع الفضائل، وخصال البر والتقوى.

ثم قال النووي: وهذا الذي نقله من القول بنبوتيهما غريب ضعيف، وقد نقل عن جماعة الإجماع على عدمها والله أعلم.

انظر: صحيح مسلم بشرح النووي ١٩٨/١٥ - ١٩٩ (مجلد ٨)؛ باب فضائل خديجة رضي الله عنها؛ وتفسير القرطبي ٨٣/٤ - ٨٤، ٩٠/١١؛ والفصل لابن حزم ١٨/٥؛ والشفا بتعريف حقوق المصطفى ٦٤٤/٢ - ٦٤٥؛ والنبوة والأنبياء للصابوني ص ١٢.

والنصارى يقولون^(١): إنه يلد، وأنه يولد، وأن له كفواً كما قد بين في موضع آخر، وقد أخبر بعبودية المسيح في غير موضع كقوله - تعالى -

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ... ﴿٦٠﴾﴾.

وأخبر - تعالى - أن أول شيء نطق به المسيح قوله:

﴿... إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٦١﴾﴾.

وقال - تعالى - :

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ... ﴿٦٢﴾﴾
الآيات - إلى قوله: ﴿... شَهِيدٌ ﴿٦٤﴾﴾.

وقال - تعالى - :

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ... ﴿٦٥﴾﴾ (الآيات كلها).

فإذا كان قد علم بالاضطرار من دين محمد - صلى الله عليه وسلم - ، وبالنقل المتواتر عنه ، وبإجماع أمته إجماعاً يستندون فيه

(١) في س، ك، ط (تقول).

(٢) سورة الزخرف: الآيات ٥٧ - ٥٩.

(٣) سورة مريم: الآية ٣٠.

(٤) سورة المائدة: الآيتان ١١٦ - ١١٧. (٥) سورة النساء: الآية ١٧١.

إلى النقل عنه، وبكتابه المنزل عليه وسسته المعروفة عنه^(١) أنه كان يقول: أن المسيح عبد الله ورسوله ليس هو إلا رسول، وأنه يكفر النصارى الذين يقولون: هو الله وهو ابن الله، والذين يقولون: ثالث ثلاثة وأمثال ذلك، كان بعد هذا تفسيرهم لقول الله الذي بلغه نبيه محمد - صَلَّى الله عليه وسلّم - فيكون طيراً بإذن الله، أي: بإذن اللاهوت الذي هو كلمة الله المتحدة بالناسوت كذباً ظاهراً على محمد - صَلَّى الله عليه وسلّم - .

وهذا مما يعرف كذبهم فيه على محمد - صَلَّى الله عليه وسلّم - جميع أهل الأرض العالم بحال محمد - صَلَّى الله عليه وسلّم - ، سواء أقرؤا بنبوته أو أنكروها.

فالمقصود في هذا المقام: أن هؤلاء كذبوا على محمد - صَلَّى الله عليه وسلّم - كذباً ظاهراً معلوماً للخلق المؤمنين به والمكذبين له ليس هو كذباً خفياً.

وإن قدر أن^(٢) ما قالوه يكون معقولاً، فكيف إذا كان ممتنعاً في صرائح العقول؟ بل هو قول غير معقول، أي: غير معقول ثبوته في الخارج، وإن كان يعقل ما يختلفون ويعلم به فساد عقولهم لمن قال سائر الأقوال المتناقضة الفاسدة التي يمتنع ثبوتها في الخارج، وذلك كما قد بسط في موضع آخر^(٣)، فإن قولهم: بإذن اللاهوت الذي هو

(١) جملة (وبكتابه المنزل وسسته المعروفة عنه) ساقطة من ك.

(٢) سقطت (أن) من أ.

(٣) سبق الحديث عن افتراءهم على النبي محمد - صَلَّى الله عليه وسلّم - وزعمهم بأن كلامه متناقض والرد على هذه الفرية في أول الكتاب.

وفي غير ذلك الموضع في مواضع متعددة من هذا الكتاب وفي مجموع الفتاوى الجزء السابع عشر منه تحدث فيه عن هذه القضية في مواضع متفرقة.

كلمة الله المتحدة في الناسوت باطل من وجوه:

منها: أن تلك الكلمة إما أن تكون هي الله أو صفة لذاته، أو لا هي ذاته ولا^(١) صفة له، أو الذات والصفة جميعاً.

فإن لم تكن هي ذات الله ولا صفته، ولا الذات والصفة كانت بائنة عنه مخلوقة له، ولم يكن لاهوتاً، بل ولا خالقاً، وحينئذ فلم يتحد بالمسيح لاهوت، بل إن لم يتحد به إنه كان اتحد به إلا مخلوق.

وإن كانت الكلمة هي الذات أو الذات والصفة فهي رب العالمين، وهي الأب عندهم، وهم متفقون على أن المسيح ليس هو الأب، ولم يتحد به الأب بل الابن.

وإن كانت الكلمة صفة لله - عز وجل -، فصفة الله ليست هي الإله الخالق والمسيح عندهم هو الإله الخالق، وأيضاً فصفة الله قائمة بذاته لا تفارق ذاته وتحل بغيره وتتحد به وكلمة الله عندهم اتحدت بالمسيح.

وإن قالوا: قولنا هذا كما تقول^(٢) طائفة من المسلمين: إن القرآن أو التوراة، أو الإنجيل حل في القراء أو اتحد بهم، وأن القديم حل في المخلوق أو اتحد به، ونحو ذلك.

قيل: لو كان قول هؤلاء صواباً لم يكن لهم فيه حجة، فإنه على هذا التقدير لا فرق بين المسيح وبين سائر من يقرأ التوراة، والإنجيل، والزبور والقرآن، وأنتم تدعون أن المسيح هو الله أو ابن الله مخصوصاً بذلك دون غيره، وأيضاً فهؤلاء وجميع الأمم متفقون على أن قراء

(١) في ط (ولا هي).

(٢) في ط (يقول) بالمشناة التحتية.

القرآن، وسائر الكتب الإلهية ليس واحد منهم هو الله، ولا هو ابن الله، ولا أنه خالق للعالم، فإذا جعلتم قولكم مثل قول هؤلاء لزمكم أن لا يكون المسيح هو الله، ولا ابن الله، ولا ربا للعالم، وأيضاً فلم نعلم أحداً من هؤلاء قال: أن اللاهوت اتحد بالناسوت ولا أن القديم اتحد بالمحدث، ولا أن كلام الله صار هو والمخلوق شيئاً واحداً، فالاتحاد باطل باتفاق هؤلاء وغيرهم.

ولكن طائفة منهم أطلقت لفظ الحلول، وطائفة أنكرت لفظ الحلول، وقالوا: إنما نقول ظهر القديم في المحدث لا حل فيه، لكن قالوا ما يستلزم الحلول.

وسلف المسلمين وجمهورهم يخطئون هؤلاء، ويبينون خطأهم عقلاً ونقلاً، وقولهم ليس هو قول أحد من أئمة المسلمين، ولا قول طائفة مشهورة من طوائف المسلمين كالمالكية^(١) والشافعية^(٢)،

(١) نسبة إلى الإمام مالك بن أنس الأصبحي الحميري، إمام دار الهجرة، وأحد الأئمة الأربعة ولد في المدينة سنة ٩٣هـ. وتوفي بها سنة ١٧٩هـ. كان قوياً صلباً في دينه، بعيداً عن الأمراء والملوك، صنف الموطأ، وله رسالة في الوعظ وفي الرد على القدرية، وتفسير غريب القرآن وغيرها.

انظر: تهذيب التهذيب ٥/١٠؛ والانتقاء لابن عبد البر ص ٨ - ٣٦ وتذكرة الحفاظ ٢٠٧/١؛ وطبقات الحفاظ ص ٩٦ (١٨٩)؛ والأعلام للزركلي ٢٥٧/٥.

(٢) نسبة إلى محمد بن إدريس بن العباس الهاشمي القرشي المطلبي الشافعي، أحد الأئمة الأربعة، ولد في غزة سنة ١٥٠هـ وحمل إلى مكة وهو صغير، وتوفي بمصر سنة ٢٠٤هـ برع في العلوم، وصنف وأفنى وهو ابن عشرين سنة، ومن تصانيفه الأم في سبع مجلدات وهو في الفقه، والرسالة، والمسند وغيرها.

انظر: تهذيب التهذيب ٢٥/٩؛ وتذكرة الحفاظ ٣٦١/١؛ والانتقاء ص ٦٦؛ وتهذيب الأسماء واللغات ٤٤/١؛ وطبقات الحفاظ ص ١٥٧ (٣٣٦)؛ والأعلام للزركلي ٢٦/٦.

والحنفية^(١)، والحنبلية^(٢)، والثورية^(٣)، والداودية^(٤)، والإسحاقية^(٥)،

- (١) نسبة إلى أبي حنيفة النعمان بن ثابت التيمي بالولاء، الكوفي، الفقيه المجتهد أحد الأئمة الأربعة، ولد سنة ٨٠هـ بالكوفة ونشأ بها من تصانيفه المسند في الحديث والمخارج في الفقه، والفقه الأكبر، مات - رحمه الله - ببغداد سنة ١٥٠هـ .
انظر: البداية والنهاية ٩٧/١٠، ١٠٧؛ والانتقاء ص ١٢٢؛ والأعلام ٣٦/٨؛ وطبقات الحفاظ ص ٨٠ (١٥٦)؛ وتذكرة الحفاظ ١٦٨/١ .
- (٢) نسبة إلى الإمام أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني، إمام المذهب الحنبلي وأحد الأئمة الأربعة، أصله من مرو، ولد ببغداد سنة ١٦٤هـ، رحل في سبيل العلم رحلات طويلة وكثيرة، امتحن بالقول بخلق القرآن في زمن المعتصم وسجن ستين وأربعة أشهر - رضي الله عنه - . من تصانيفه المسند في ستة مجلدات، والناسخ والمنسوخ والرد على الزنادقة والجهمية، وغيرها . مات - رحمه الله - سنة ٢٤١هـ . في زمان المتوكل .
- انظر: البداية والنهاية ٣٢٥/١٠ - ٣٣٠؛ وطبقات الحنابلة ٤/١ - ٢٠؛ طبقات الحفاظ ص ١٨٩ (٤١٧)؛ وتذكرة الحفاظ ٤٣١/٢ .
- (٣) نسبة إلى سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، أمير المؤمنين في الحديث، سيد أهل زمانه ولد سنة ٩٧هـ في الكوفة، مات بالبصرة سنة ١٦١هـ ومن تصانيفه الجامع الكبير والجامع الصغير في الحديث وكتاب في الفرائض .
- انظر: طبقات الحفاظ ص ٩٥ (١٨٨)؛ وتذكرة الحفاظ ٢٠٢/١ .
- (٤) نسبة إلى داود بن علي الأصبهاني الملقب بالظاهري، تنسب إليه الظاهرية، وسميت بذلك لأخذها بظاهر الكتاب والسنة، دون التأويل والرأي والقياس، ولد في الكوفة سنة ٢٠١هـ، له تصانيف كثيرة ذكرها ابن النديم في زهاء صفحتين توفي ببغداد سنة ٢٧٠هـ .
- انظر: الفهرست لابن النديم ص ٣٠٣ - ٣٠٥؛ ولسان الميزان ٤٢٢/٢؛ وتذكرة الحفاظ ٥٧٢/٢؛ وميزان الاعتدال ١٤/٢؛ وطبقات الحفاظ ص ٢٥٧ (٥٧١)؛ والأعلام ٣٣٣/٢ .
- (٥) نسبة إلى إسحاق بن إبراهيم بن راهويه الحنظلي التيمي المروزي، ولد سنة ١٦١هـ، عالم خراسان في عصره من سكان مرو، أحد كبار الحفاظ، طاف البلاد لجمع الحديث، وأخذ عنه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وغيرهم من تصانيفه المسند وغيره مات رحمه الله سنة ٢٣٨هـ بنيسابور .

وغيرهم، ولا قول طائفةٍ من طوائف المتكلمين من المسلمين، لا المنتسبين إلى السنة كالأشعرية، والكرامية ولا غيرهم كالمعتزلة والشيعة، وأمثالهم وإنما قال ذلك طائفة قليلة انتسبت إلى بعض علماء المسلمين مثل قليل من المالكية، والشافعية، والحنبلية، وهؤلاء غايتهم أن يقولوا بحلول صفة من صفات الله، وكذلك من قال بحلول الرب واتحاده في العبد من طوائف الغلاة المنتسبين إلى التشيع، والتصوف أو غيرهم، فهم ضلال كالنصارى مع أنه لا حجة للنصارى على هؤلاء؛ إذ كان ما يقولونه لا يختص به المسيح، بل هو مشترك بينه وبين غيره من الأنبياء، والصالحين.

والنصارى تدعي اختصاص المسيح بالاتحاد مع أن المتحد بالناسوت صار هو^(١) والناسوت شيئاً واحداً، ومع الاتحاد فيمتنع أن يكون لأحدهما فعل أو صفة خارج عن الآخر، والنصارى يدعون الاتحاد ثم يتناقضون. فمنهم من يقول: جوهر واحد، ومنهم من يقول: جوهران، ومنهم من يقول: مشيئة واحدة، ومنهم من يقول: مشيئتان، كما سيأتي الكلام — إن شاء الله تعالى — على ذلك^(٢).



= انظر: تهذيب التهذيب ٢١٦/١؛ وطبقات الحنابلة ١٠٩/١؛ وطبقات الحفاظ ص ١٩١ (٤١٨)؛ وتذكرة الحفاظ ٤٣٣/٢.

(١) في جميع النسخ زيادة (هو).

(٢) سيتحدث عن ذلك في مواضع متفرقة من هذا الكتاب، وخصوصاً في الجزء الثاني منه.

فصل

وأما قوله - تعالى - :

﴿... يَلْعَنُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَرَافِعُكَ إِلَىٰ وَمُطَهَّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا
وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ...﴾ (١).

فهذا حق كما أخبر الله به، فمن اتبع المسيح - عليه السلام - جعله الله فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة وكان الذين اتبعوه على دينه الذي لم يبدل قد جعلهم الله فوق اليهود، وأيضاً فالنصارى فوق اليهود الذين كفروا به إلى يوم القيامة.

وأما المسلمون فهم مؤمنون به ليسوا كافرين به بل لما بدل النصارى دينه وبعث الله محمداً - صلى الله عليه وسلم - بدين الله الذي بعث به المسيح وغيره من الأنبياء جعل الله محمداً وأُمَّته فوق النصارى إلى يوم القيامة، كما في الصحيحين عن أبي هريرة، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد وإن أولى الناس بابن مريم لأنا، إنه» (٢) ليس بيني وبينه نبي» (٣). وقال - تعالى - :

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ...﴾ (٤).

(١) سورة آل عمران: الآية ٥٥. (٢) سبق تخريجه في أول الكتاب.

(٣) سورة الشورى: الآية ١٣. (٤) في ط (لأنه).

رد دعواهم
الفضل لهم
على
المسلمين
بقوله
- تعالى - :
﴿وَجَاعِلُ
الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ
فَوْقَ الَّذِينَ
كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ
الْقِيَامَةِ﴾

وقال - تعالى - :

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلٌّ حِزْبٌ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾ (١).

فكل من كان أتم إيماناً بالله ورسله، كان أحق بنصر الله - تعالى - ؛ فإن الله (٢) يقول في كتابه :

﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ (٣).

وقال في كتابه :

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كِمْنَاتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (٤).

واليهود كذبوا المسيح ومحمداً - صلى الله عليهما وسلم - كما قال الله فيهم :

﴿يَسْأَلُكَ الَّذِينَ يَكْفُرُوا بِهٖ أَنفُسَهُم أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَعِيًّا أَن يُنَزَّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءَ وَيَغْضَبُ عَلَىٰ غَضَبٍ...﴾ (٥).

فالغضب الأول : بتكذيبهم (٦) المسيح ، والثاني : بتكذيبهم لمحمد (٧) - صلى الله عليه وسلم - والنصارى لم يكذبوا المسيح ، فكانوا (٨) منصورين على اليهود ، والمسلمون منصورون على اليهود

(١) سورة المؤمنون : الآيات ٥١ - ٥٣ . (٦) في ك ، ط (تكذيبهم) .

(٢) في ط (فإن الله تعالى) . (٧) في ك ، ط (محمداً) وسقطت

(٣) سورة غافر : الآية ٥١ . (بتكذيبهم) منها .

(٤) سورة الصافات : الآيات ١٧١ - ١٧٣ . (٨) في ك ، ط (وكانوا) .

(٥) سورة البقرة : الآية ٩٠ .

والنصارى، فإنهم آمنوا بجميع كتب الله ورسله، ولم يكذبوا بشيء من كتبه ولا كذبوا أحداً من رسله، بل اتبعوا ما قال الله لهم، حيث قال:

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا مِنْ رَبِّهِمْ وَلَا سَمْعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (١).

وقال - تعالى - :

﴿أَمَنْ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (٢).

ولما (٣) كان المسلمون هم المتبعون لرسول الله كلهم المسيح وغيره، وكان الله قد وعد أن ينصر (٤) الرسل وأتباعهم قال النبي - صلى الله عليه وسلم - في الحديث الصحيح: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرة على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة» (٥).

وقال أيضاً: «سألت ربي أن لا يسلط على أمتي عدواً من غيرهم فيجتاحهم فأعطانيها» (٦) الحديث.

فكان ما احتجوا به حجة عليهم لا لهم.



(١) سورة البقرة: الآية ١٣٦. (٤) سقطت (أن ينصر) من ك، ط.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٨٥. (٥) سبق تخريجه.

(٣) في س (فلما). (٦) سبق تخريجه.

فصل

وأما قوله - تعالى - (١):

﴿...وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ...﴾ (٢).

بيان معنى
الروح القدس
ودفع اعتقاد
النصارى
الوهمية

فهو (٣) حق كما أخبر الله به، وقد ذكر - تعالى - تأييد عيسى بن مريم بروح القدس في عدة مواضع، فقال - تعالى - في سورة البقرة:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ...﴾ (٤).

وقال - تعالى :

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (٥).

وقال - تعالى - :

﴿...يَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَذْكَرَ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَلَدَتِكَ إِذْ أَيَّدْنَاكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْنَاكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ

(١) في ك، ط (وأما قولهم).

(٢) سورة البقرة: الآية ٨٧.

(٣) في س (فهذا) وفي ك، ط (فهذا حق كما قال تعالى).

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٥٣.

(٥) سورة البقرة: الآية ٨٧.

طَيَّرَ بِإِذْنِي وَتُبِّرْتُ الْأَكْصَمَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي... ﴿١﴾.

وقال - تعالى - في القرآن :

﴿وَإِذَا بَدَأْنَا آيَةً مَّكَاتٍ آيَةً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا نُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴿٢﴾﴾.

وقال - تعالى - :

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٣﴾﴾.

وقال - تعالى - :

﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا ﴿٤﴾﴾.

فروح القدس الذي نزل ﴿٥﴾ بالقرآن من الله هو الروح الأمين، وهو

جبريل.

وثبت في الصحيح عن أبي هريرة أنه سمع النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول لحسان بن ثابت: «أجب عني اللهم أيده بروح القدس» ﴿٦﴾.

(١) سورة المائدة: الآية ١١٠.

(٢) سورة النحل: الآيتان ١٠١، ١٠٢.

(٣) سورة الشعراء: الآيتان ١٩٣، ١٩٤.

(٤) سورة البقرة: الآية ٩٧.

(٥) في س (ينزل).

(٦) رواه البخاري في كتاب الصلاة، باب الشعر في المسجد ١/١٦٦، وفي كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة - صلوات الله عليهم - ٤/٧٩؛ ومسلم في فضائل الصحابة، باب فضائل حسان - رضي الله عنه - ٤/١٩٣٣ (١٥١)، (١٥٢)؛ وأحمد في مسند أبي هريرة ٢/٢٦٩، ٥/٢٢٢؛ والحميدي في مسنده ٢/٤٧٠ (١١٠٥).

وفي صحيح مسلم وغيره عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: سمعت النبي - صَلَّى الله عليه وسلَّم - يقول لحسان بن ثابت^(١): «إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله»^(٢).

وفي الصحيحين عن البراء بن عازب قال: سمعت رسول الله - صَلَّى الله عليه وسلَّم - يقول لحسان بن ثابت: «اهجهم أو هاجهم وجبريل معك»^(٣).

(١) هو حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي الأنصاري، صحابي جليل، شاعر الرسول - صَلَّى الله عليه وسلَّم - وأحد المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام عاش في الجاهلية ٦٠ سنة ومثلها في الإسلام وعمي قبل وفاته، مات - رضي الله عنه - بالمدينة سنة ٥٤هـ، حُفظ بعض شعره في ديوان مطبوع.
انظر: تهذيب التهذيب ٢/٢٤٧؛ والإصابة لابن حجر ١/٣٢٥ (١٧٠٤)؛ والأعلام ١٧٥/٢.

(٢) رواه مسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل حسان ٤/١٩٣٦ (١٥٧)؛ ورواه أبو داود في كتاب الأدب، باب ما جاء في الشعر ٥/٢٨٠ (٥٠١٥)، ورواه الترمذي في الأدب، باب إنشاد الشعر ٥/١٣٨ (٢٨٤٦)، ورواه أحمد في مسنده من حديث عائشة ٦/٧٢.

المنافحة: المدافعة، ومنه قولهم نفحت الرجل بالسيف إذا تناولته من بعد ونفحته الدابة إذا أصابته بحد حافرها.

انظر: معالم السنن للخطابي ٥/٢٨٠، وقد روى الإمام البخاري في صحيحه قال: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا عبدة، عن هشام، عن أبيه قال: ذهبت أسب حسان عند عائشة فقالت: لا تسبه فإنه كان ينافح عن رسول الله - صَلَّى الله عليه وسلَّم -، رواه البخاري في كتاب المغازي ٥/٦١؛ وفي المناقب ٤/١٦٢.

(٣) رواه البخاري في كتاب المغازي، باب مرجع النبي - صَلَّى الله عليه وسلَّم - من الأحزاب ومخرجه إلى بني قريظة ٥/٥١؛ ومسلم في كتاب فضائل الصحابة باب فضائل حسان بن ثابت - رضي الله عنه - ٤/١٩٣٣ (١٥٣)؛ وأحمد في مسنده ٤/٢٨٦، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠١، ٣٠٣ من حديث البراء بن عازب - رضي الله عنه -.

فهذا حسان بن ثابت واحد من المؤمنين لما نافع عن الله ورسوله، وهجا المشركين الذين يكذبون الرسول أيده الله بروح القدس وهو جبريل - عليه السلام - وأهل الأرض يعلمون أن محمداً - صلى الله عليه وسلم - لم يكن يجعل اللاهوت متحداً بناسوت^(١) حسان بن ثابت، فعلم أن إخباره بأن الله أيده بروح القدس لا يقتضي اتحاد اللاهوت بالناسوت، فعلم أن التأييد بروح القدس ليس من خصائص المسيح، وأهل الكتاب يقرون بذلك وأن غيره من الأنبياء كان مؤيداً بروح القدس، كداود وغيره، بل يقولون إن الحواريين كانت فيهم روح القدس، وقد ثبت باتفاق المسلمين واليهود والنصارى أن روح القدس يكون في غير المسيح، بل في غير الأنبياء كما سيأتي إن شاء الله^(٢).

ولأنما المقصود في هذا المقام، بيان كذبهم على محمد - صلى الله عليه وسلم - وهذا التأييد نظير قوله - تعالى - :

﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾^(٣).

فهذا التأييد بروح منه عام لكل من لم يحب أعداء الرسل وإن كانوا أقاربه، بل يحب من يؤمن بالرسل وإن كانوا أجانِب، ويبغض من لم يؤمن بالرسل وإن كانوا أقارب وهذه ملة إبراهيم.

(١) في ط (بناسبون) وهو خطأ ظاهر.

(٢) في ك، ط (إن شاء الله تعالى).

(٣) سورة المجادلة: الآية ٢٢.

وقال - تعالى - :

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُكُمْ وَأَئِمَّتُكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كُفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ... ﴾ (١).

وقال - تعالى - :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٦٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٦٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (٢).

وقال (٣): ﴿... فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأ مِنْهُ... ﴾ (٤).

وهذا التأييد بروح القدس لمن ينصر الرسل عام في كل من نصرهم على من خالفهم من المشركين وأهل الكتاب كما تقدم (٥) وليس في القرآن، ولا في الإنجيل، ولا غير ذلك من كتب الأنبياء أن روح القدس الذي أيد به المسيح هو صفة الله القائمة به وهي حياته ولا أن روح القدس رب (٦) يخلق ويرزق فليس روح القدس هي الله، ولا صفة من صفات الله، بل ليس في شيء من كلام الأنبياء أن صفة الله القائمة به تسمى ابناً، ولا روح القدس.

فإذا تأول النصارى قول المسيح (٧) عمدوا الناس باسم الأب والابن وروح القدس على أن الابن صفته التي هي العلم، وروح

(١) سورة الممتحنة: الآية ٤. (٤) سورة التوبة: الآية ١١٤.

(٢) سورة الزخرف: الآيات ٢٦ - ٢٨. (٥) في س (كما كان تقدم).

(٣) في ط (وقال تعالى). (٦) سقطت (رب) من ك. ط.

(٧) هذا على التسليم بأنه قال ذلك، وإلا فإنه لم يثبت بطريق صحيح كما سيوضح الشيخ - رحمه الله - في مواضع عديدة.

القدس صفته التي هي الحياة، كان هذا كذباً بيناً على المسيح، فلا^(١) يوجد قط في كلامه ولا كلام غيره من الأنبياء تسمية الله، ولا شيئاً من صفاته ابناً، ولا حياته روح القدس.

وأيضاً: فهم يذكرون في الأمانة أن المسيح تجسد من مريم ومن روح القدس وهذا يوافق ما أخبر الله به من أنه أرسل روحه الذي هو جبريل، وهو روح القدس فنفخ في مريم فحملت بالمسيح، فكان المسيح متجسداً^(٢) مخلوقاً من أمه ومن^(٣) ذلك الروح - وهذا الروح ليس صفة لله^(٤)، لا حياته ولا غيرها، بل روح القدس قد جاء ذكرها كثيراً في كلام الأنبياء، ويراد بها إما الملك، وإما ما يجعله الله في قلوب أنبيائه وأوليائه من الهدى والتأييد ونحو ذلك كما قال - تعالى - :

﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾^(٥).

وقال - تعالى - :

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾^(٦).

(١) في ك، د (ولا).

(٢) في س (متحداً).

(٣) في ك، ط (من) بدون واو.

(٤) في ك، ط (الله).

(٥) سورة المجادلة: الآية ٢٢، وفي التفسير قال الإمام الشوكاني - رحمه الله - : قواهم بنصر منه على عدوهم في الدنيا، وسمى نصره لهم روحاً لأن به يحيا أمرهم، وقيل: هو نور القلب، وقال الربيع بن أنس: بالقرآن والحجة، وقيل: بجبريل، وقيل: بالإيمان، وقيل: برحمة.

انظر: فتح القدير ١٩٣/م.

(٦) سورة الشورى: الآية ٥٢. قال ابن كثير الوحي هنا: القرآن ١٢٢/٤ من تفسيره.

وقال - تعالى - :

﴿يَنْزِلُ الْمَلَكُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾^(١).

وقال - تعالى - :

﴿ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ النَّالِقِ﴾^(٢).

فسمى الملك روحاً وسمى ما ينزل به الملك روحاً وهما متلازمان،
والمسيح - عليه السلام - مؤيد بهذا وهذا.

ولهذا قال كثير من المفسرين: إنه جبريل، وقال بعضهم: إنه
الوحي، وهذا كلفظ الناموس يراد به صاحب سر الخير كما يراد
بالجاسوس صاحب سر الشر فيكون الناموس جبريل، ويراد به الكتاب
الذي نزل به وما فيه من الأمر والنهي والشرع، ولما^(٣) قال ورقة بن نوفل
للنبي - صلى الله عليه وسلم - : «هذا هو الناموس الذي كان يأتي
موسى»^(٤)، فسر الناموس بهذا وهذا وهما متلازمان.



(١) سورة النحل: الآية ٢.

المراد بالروح هنا الوحي كما ذكر المفسرون قال الشوكاني - رحمه الله - سمي
الوحي روحاً، لأنه يحيي قلوب المؤمنين، فإن من جملة الوحي القرآن، وهو نازل
من الدين منزلة الروح من الجسد. انظر: فتح القدير ١٤٧/٣.

(٢) سورة غافر: الآية ١٥.

(٣) في أ (قلما) وفي س (فلما)، وصححه من ك، ط.

(٤) سبق تخريجه في أول الكتاب.

فصل

وأما قوله - تعالى - :

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَرِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ (١).

الرد على
النصارى في
احتجاجهم
بآية سورة
الحديد على
مدح الرهبانية

فهو حق كما قال - تعالى - وليس في ذلك مدح للرهبانية ولا لمن بدل دين المسيح ، وإنما فيه مدح لمن اتبعه بما جعل الله في قلوبهم من الرحمة والرأفة حيث يقول : ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ . ثم قال : ﴿... وَرَهَابَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ...﴾ .

أي وابتدعوا رهبانية ما كتبناها عليهم «وهذه الرهبانية لم يشرعها الله (٢) ولم يجعلها مشروعة لهم ، بل نفى جعله عنها كما نفى ذلك عما ابتدعه المشركون بقوله :

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ (٣).

(١) سورة الحديد : الآيات ٢٥ - ٢٧ .

(٢) في أ، س (لهم) بدل (الله) . (٣) سورة المائدة : الآية ١٠٣ .

وهذا الجعل المنفي عن البدع هو الجعل الذي أثبتته للمشروع بقوله - تعالى - : ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾^(١). وقوله : ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾^(٢). فالرهبانية ابتدعوها لم يشرعها الله. وللناس في قوله : «ورهبانية» قولان :

أحدهما : أنها منصوبة^(٣) : يعني ابتدعوها إما بفعل مضممر^(٤) يفسره ما بعده، أو يقال هذا الفعل عمل^(٥) في المضممر والمظهر كما هو

(١) سورة المائدة : الآية ٤٨ .

(٢) سورة الحج : الآية ٦٧ .

(٣) إذا نصبت كان في إعرابها وجهان :

١ - رهبانية : معطوف على ما قبله، وابتدعوها (الجملة) في موضع صفة رهبانية .
٢ - ذهب أبو علي الفارسي، والزمخشري إلى أنها منصوبة على إضمار فعل يفسره ما بعده فهي من باب الاشتغال . قال أبو حيان في البحر المحيط ٢٢٨/٨ : «وهذا إعراب المعتزلة، وكان أبو علي معتزلياً، وهم يقولون ما كان مخلوقاً لله لا يكون مخلوقاً للعبد، فالرافة، والرحمة من خلق الله، والرهبانية من ابتداع الإنسان فهي مخلوقة له، وهذا الإعراب ليس بجيد...» . وقال ابن هشام في مغني اللبيب ٦٣٩/٢ : «والمشهور أنه عطف على ما قبله، وابتدعوها صفة، ولا بد من تقدير مضاف أي : وحب رهبانية، وإنما لم يحمل أبو علي الآية على ذلك لاعتزاله فقال : لأنما يبتدعونه لا يخلقه الله - عز وجل -» . اهـ .

وانظر في هذا زيادة على ما تقدم : التبيان في إعراب القرآن للعكبري ص ١٢١١ ؛ ومغني اللبيب لابن هشام ٦٣٩/٢ ؛ ودراسات لأسلوب القرآن الكريم لعبد الخالق عزيمة / القسم الثالث / ١٦/٢ - ١٧ ؛ وتفسير القرطبي ٢٦٣/١٧ (مجلد ٩) .

(٤) في أ، س جملة زائدة بعد كلمة (مضممر)، وجاءت هكذا (بفعل مضممر على قوله وأصحابه يفسره...) إلخ، ويبدولي أن جملة (على قوله وأصحابه) زائدة لا مكان لها .

(٥) في ط (يعمل) .

قول الكوفيين^(١). حكاه عنهم ابن جرير^(٢) وثلعب^(٣) وغيرهما ونظيره قوله: ﴿يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾^(٤). وقوله: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ...﴾^(٥). وعلى هذا القول، فلا تكون الرهبانية معطوفة على الرأفة، والرحمة.

والقول الثاني: * إنها معطوفة عليها فيكون الله قد جعل في قلوبهم^(٦) * الرأفة والرحمة والرهبانية^(٧) المبتدعة، ويكون هذا جعلاً

(١) قال ابن يعيش في باب الاشتغال: «وذهب الكوفيون إلى أنه منصوب بالفعل الظاهر، وإن كان قد اشتغل بضميره؛ لأن ضميره ليس غيره، وإذا تعدى إلى ضميره كان متعدياً إليه». انظر: شرح المفصل ٣٠/٢.

(٢) ابن جرير: سبقت ترجمته.

(٣) ثلعب: هو أحمد بن يحيى ثلعب الشيباني، مولاهم، اشتهر بالحفظ ومعرفة الغريب، ورواية الشعر القديم، وكان محدثاً، ولد سنة ٢٠٠ هـ ببغداد، ومات بها سنة ٢٩١ هـ، له تصانيف كثيرة منها: معاني القرآن، وإعراب القرآن والفصيح، وقواعد الشعر، وغيرها.

انظر ترجمته في: مراتب النحويين ص ١٥١؛ وطبقات النحويين أو اللغويين ص ١٥٥ - ١٦٧؛ وإنباه الرواة ١٣٨/١؛ ومناقب الإمام أحمد لابن الجوزي ص ٦١٢؛ والأعلام ٢٥٢/١.

(٤) سورة الإنسان: الآية ٣١.

(٥) سورة الأعراف: الآية ٣٠.

(٦) ما بين النجمتين ساقط من س، وجاءت الجملة هكذا (القول الرأفة والرحمة والرهبانية المبتدعة)، وهو ثابت في أ، ط، وأما في ك فسقط كلام كثير سنحدده فيما بعد بعدة أسطر.

(٧) نقل القرطبي في تفسيره ٢٦٣/١٧ (مجلد ٩)، عن الماوردي أن في (رهبانية) قراءتين: إحداهما بفتح الراء وهي الخوف من الرب، الثانية بضم الراء، وهي منسوبة إلى الرهبان كالرضوانية من الرضوان. وانظر: لسان العرب ٤٢١/١؛ والنهاية ١١٣/٢.

خلقياً كونياً والجعل الكوني يتناول الخير والشر كقوله - تعالى - :

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى التَّكْوِينِ...﴾ (١).

وعلى هذا القول: فلا مدح للرهبانية بجعلها (٢) في القلوب، فثبت على التقديرين أنه (٣) ليس في القرآن مدح للرهبانية (٤).
ثم قال: (إلا ابتغاء رضوان الله).

أي لم يكتب عليهم إلا ابتغاء رضوان الله، وابتغاء رضوان الله بفعل ما أمر به لا بما يبتدع، وهذا يسمى استثناء منقطعاً (٥).

(١) سورة القصص: الآية ٤١.

(٢) في س، ط (لأنها) بدل (بجعلها).

(٣) في س، ط (ثبت أنه على التقديرين).

(٤) سقطت (للهبانية) من ط.

(٥) إذا استثنى بـ لا وكان الكلام غير تام وهو الذي لم يذكر فيه المستثنى منه فلا عمل لإلا، وهذا يسمى مفرغاً. وشرطه أن يكون الكلام غير إيجاب. أي سبقه نفي أو نهي أو استفهام إنكاري نحو: وما محمد إلا رسول، ولا تقولوا على الله إلا الحق، فهل يهلك إلا القوم الفاسقون. وإن كان الكلام تاماً أي ذكر فيه المستثنى منه: فإن كان موجباً نصب المستثنى نحو فشرّبوا منه إلا قليلاً، وإن كان الكلام غير موجب فله حالان: إما أن يكون الاستثناء متصلًا، والأرجح في ذلك اتباع المستثنى للمستثنى منه، بدل بعض عند البصريين أو عطف نسق عند الكوفيين، نحو ما فعلوه إلا قليل منهم أي لكن قليل منهم.

وأما أن يكون الاستثناء منقطعاً فإن لم يمكن تسليط العامل على المستثنى وجب النصب بالاتفاق نحو ما زاد هذا المال إلا ما نقص. وإن أمكن التسليط فالحجازيون ينصبون وجوباً نحو ما لهم به من علم إلا اتباع الظن، وتميم يرجحونه ويجيزون اتباع، نحو وبلدة ليس بها أنيس: إلا اليعافير وإلا العيس.

هذا ملخص ما ورد عن الاستثناء المفرغ والمتصل، والمنقطع.

وانظر: أوضح المسالك ص ٣٠٧؛ وشذور الذهب ص ٢٦٠.

كما في قوله :

﴿ أَخْلَفُوا فِيهِ لِفِيَ شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَنُوتُهُ ﴾ (١).

وقوله - تعالى - :

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا ... ﴾ (٢).

وقوله - تعالى - :

﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ ... ﴾ (٣).

وقوله - تعالى - :

﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢١﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢٢﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكْذِبُونَ ﴿٢٣﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٤﴾ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ (٤).

وقوله - تعالى - :

﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٣٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾ (٥).

وقوله : ﴿ وَمَا كَانِ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً ﴾ (٦).

وهذا أصح الأقوال في هذه الآية كما هو مبسوط في موضع

آخر (٧).

(١) سورة النساء: الآية ١٥٧. (٤) سورة الانشقاق: الآيات ٢٠ - ٢٥.

(٢) سورة النساء: الآية ٢٩. (٥) سورة الواقعة: الآيات ٢٥ - ٢٦.

(٣) سورة الدخان: الآية ٥٦. (٦) سورة النساء: الآية ٩٢.

(٧) في ط جملة زائدة هكذا (وذكر أنهم ابتدعوا الرهبانية) ولا مكان لها هنا حيث ستأتي

بعد أسطر قليلة في موضعها المناسب.

ولا يجوز أن يكون المعنى أن الله كتبها عليهم ابتغاء رضوان الله؛ فإن الله لا يفعل شيئاً ابتغاء رضوان نفسه، ولا أن المعنى أنهم ابتدعوها ابتغاء رضوانه كما يظن هذا وهذا بعض الغالطين، كما قد بسط في موضع آخر.

وذكر أنهم ابتدعوا الرهبانية، وما رعوها حق رعايتها^(١)، وليس في ذلك مدح لهم بل هو ذم، ثم قال - تعالى - :

﴿فَتَأْتِنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ...﴾^(٢).

وهم الذين آمنوا بمحمد - صلى الله عليه وسلم - وكثير منهم فاسقون، ولو أريد الذين آمنوا بالمسيح أيضاً فالمراد من اتبعه على دينه الذي لم يبدل وإلا^(٣) فكلهم يقولون إنهم مؤمنون بالمسيح، وبكل حال فلم يمدح - سبحانه - إلا من اتبع المسيح على دينه الذي لم يبدل، ومن آمن بمحمد - صلى الله عليه وسلم - لم يمدح النصارى الذين بدلوا دين المسيح ولا الذين لم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم^(٤).

فإن قيل: قد قال بعض الناس: إن قوله - تعالى - : ورهبانية ابتدعوها عطف على رافة ورحمة، وإن المعنى أن الله جعل في قلوب الذين اتبعوه رافة ورحمة ورهبانية أيضاً^(٥) ابتدعوها وجعلوا الجعل شرعياً

(١) من قوله: ولم يجعلها مشروعة لهم بل نفى جعله عنها - إلى هذا الموضع ساقط كله من نسخة ك، أي من بعد بداية الفصل بأربعة أسطر إلى هذا الموضع، أي حوالي (٣٠) سطراً.

(٢) سورة الحديد: الآية ٢٧.

(٣) في ك، ط (والآن)، وهو خطأ.

(٤) جملة (لم يمدح إلى آخرها) ساقطة من س.

(٥) سقطت (أيضاً) من س، ك، ط.

ممدوحاً. قيل: هذا غلط لوجوه:

منها: أن الرهبانية لم تكن في كل من اتبعه، بل الذين صحبوه كالحواريين لم يكن فيهم راهب، وإنما ابتدعت الرهبانية بعد ذلك بخلاف الرأفة والرحمة فإنها جعلت في قلب كل من اتبعه.

ومنها: أنه أخبر أنهم ابتدعوا الرهبانية بخلاف الرأفة والرحمة، فإنهم لم يبتدعوها، وإذا كانوا ابتدعوها لم يكن قد شرعها لهم، فإن كان المراد هو الجعل الشرعي الديني لا الجعل الكوني القدري فلم تدخل الرهبانية في ذلك^(١)، وإن كان المراد الجعل الخلقي الكوني فلا مدح للرهبانية في ذلك.

ومنها: أن الرأفة والرحمة جعلها في القلوب، والرهبانية لا تختص بالقلوب بل الرهبانية ترك المباحات من النكاح واللحم وغير ذلك، وقد كان طائفة من الصحابة - رضوان الله عليهم - هموا بالرهبانية^(٢)، فأنزل الله - تعالى - نهيمهم عن ذلك بقوله - تعالى - :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرُّوا طِبَبَتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾^(٣).

وثبت في الصحيحين: أن نفراً من أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - قال أحدهم: أما أنا فأصوم لا أفطر، وقال آخر: أما أنا

(١) سقطت جملة (فلم تدخل الرهبانية في ذلك) من ك.

(٢) في س، ك، ط (بالترهب).

(٣) سورة المائدة: الآية ٨٧.

انظر أسباب النزول للواحد ص ١٥٢ - ١٥٣؛ وتفسير ابن جرير الطبري ٧/٧ -

٩ (مجلد ٥)؛ وتفسير ابن كثير ٨٧/٢؛ وفتح القدير للشوكاني ٧٠/٢.

فأقوم لا أنام. وقال آخر^(١): أما أنا فلا أتزوج النساء، وقال آخر^(٢): أما أنا فلا أكل اللحم.

فقام النبي - صلى الله عليه وسلم - خطيباً فقال: «ما بال رجال يقول أحدهم كذا وكذا لكنني أصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأتزوج النساء، وأكل اللحم فمن رغب عن سنتي فليس مني»^(٣).

وفي صحيح البخاري أن النبي - صلى الله عليه وسلم - رأى رجلاً قائماً في الشمس فقال: ما هذا؟ قالوا: هذا أبو^(٤) إسرائيل^(٥) نذر أن يقوم في الشمس ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم. فقال: «مروه فليجلس وليستظل وليتكلم وليتم صومه»^(٦).

(١) في ط (الأخر).

(٢) في س، ك، ط (الأخر).

(٣) أخرجه البخاري من حديث أنس بن مالك في أول كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح وليس فيه «فقام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خطيباً» ١١٦/٦، وأخرجه مسلم من حديث أنس أيضاً في النكاح، باب استحباب النكاح لمن تأقت إليه نفسه ووجد مؤونة ١٠٢٠/٢، وفيه اختلاف يسير في اللفظ لا يضر بالمعنى وقد ورد فيه «فحمد الله وأثنى عليه». . . الحديث، ورواه أحمد في مسند أنس ٢٤١/٣، ٢٥٩، ٢٨٥، ورواه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص بنحوه ١٥٨/٢.

(٤) سقطت (أبو) من أ.

(٥) هو أبو إسرائيل الأنصاري أو القرشي العامري، قال ابن حجر: «ذكره البغوي وغيره في الصحابة، وقال أبو عمر: قيل اسمه يسير بتحتانية ومهمله مصغراً، وأورده ابن السكن والباوردي في حرف القاف وفي قشير بقاف ومعجمة». اهـ. قلت: هذا ما ذكره ابن حجر ولم نقف على مولده ووفاته وشيء من حياته غير هذه الإشارة من ابن حجر في الإصابة في موضعين ٢٢٧/٣ (٧١١٢)، ٦/٤ (٢٦).

(٦) رواه البخاري من حديث ابن عباس في كتاب الأيمان والنذور، باب النذر فيما لا يملك وفي معصيته ٢٣٤/٧، وأبو داود في كتاب الأيمان والنذور، باب من رأى =

وثبت في صحيح مسلم عن النبي - صَلَّى الله عليه وسلّم - أنه كان^(١) يقول في خطبته: «خير الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة»^(٢).

وفي السنن عن العرياض بن سارية^(٣) أن النبي - صَلَّى الله عليه

عليه كفارة إذا كان في معصية ٥٩٩/٣، وابن ماجه في الكفارات ٦٩٠/١ (٢١٣٦)، ومالك في الموطأ، كتاب النذور والأيمان (مرسلاً) بسنده عن حميد بن قيس، وثور بن زيد الديلي، ٤٧٥/٢، ورواه أحمد في المسند ١٦٨/٤ من حديث ابن طاووس، عن أبيه، عن أبي إسرائيل. ورواه الإمام الشافعي في مسنده، عن طاووس ص ٣٣٩.

قال الخطابي - رحمه الله - في معالم السنن ٥٩٩/٣: «قد تضمن نذره نوعين من طاعة ومعصية فأمره النبي - صَلَّى الله عليه وسلّم - بالوفاء بما كان منهما طاعة وهو الصوم، وأن يترك ما ليس بطاعة من القيام في الشمس، وترك الكلام، وترك الاستظلال بالظل، وذلك لأن هذه الأمور مشاق تتعب البدن وتؤذيه، وليس في شيء منها قربة إلى الله - سبحانه - وقد وضعت عن هذه الأمة الأصار والأغلال التي كانت عليهم.

(١) سقطت (أنه كان) من أ.

(٢) هذا قطعة من حديث رواه مسلم في كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة ٥٩٢/٢ من حديث جابر بن عبد الله قال: «كان رسول الله - صَلَّى الله عليه وسلّم - إذا خطب احمرت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش، يقول: صبحكم ومساكم، ويقول: بعثت أنا والساعة كهاتين، ويقرن بين إصبعيه السبابة، والوسطى ويقول: «أما بعد، فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة ثم يقول: أنا أولى بكل مؤمن من نفسه. من ترك مالا فليأمله، ومن ترك ديناً أو ضياعاً فليأني وعليّ».

وأخرجه ابن ماجه في المقدمة، باب اجتناب البدع والجدل ١٧/١ (٤٥).

(٣) العرياض (بكسر أوله وسكون الراء بعدها موحدة) ابن سارية السلمى أبو نجيح، صحابي مشهور من أهل الصفة، أسلم قديماً، وهو ممن نزل فيه قوله - تعالى - : ﴿ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم﴾. حديثه في السنن الأربعة نزل حمص، ومات بعد السبعين، قيل: سنة ٧٥هـ، وقيل: في فتنة ابن الزبير.

وسلم - قال: «عليكم بستي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة»^(١).

قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وقد بينت النصوص الصحيحة أن الرهبانية بدعة وضلالة، وما كان بدعة وضلالة لم يكن هدى، ولم يكن الله جعلها بمعنى أنه شرعها، كما لم يجعل الله ما شرعه المشركون من البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام^(٢).

انظر: الإصابة لابن حجر ٤٦٦/٢ (٥٥٠٣)؛ وتقريب التهذيب ١٧/٢؛ وتهذيب الأسماء واللغات للنووي ٣٣٠/١ (٤٠٢).

(١) هذا جزء من حديث رواه الترمذي في كتاب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع ٤٤/٥ (٢٦٧٦)، وفيه تقديم وتأخير، وقال عنه: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه في المقدمة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين ١٥/١ (٤٢)، ورواه بلفظ مقارب من طريق أخرى وفيه زيادة (تركتم على البيضاء ليلها كنهارها)، حديث (٤٣)، ورواه أبو داود في كتاب السنة باب في لزوم السنة ١٣/٥ (٤٦٠٧)، وأحمد في مسنده ١٢٦/٤، ١٢٧.

(٢) البحيرة: هي الناقة إذا نتجت خمسة أبطن عمد إلى الخامس فما لم يكن ذكراً شق آذانها ثم لا يجز لها وبراً، ولا يذوق لها لبناً، وسماها لآلهتهم. والسائبة: ما يسب من ماله، ولا يمنع من حوض ولا حمى.

والوصيلة: الشاة إذا ولدت سبعاً عمد إلى السابع فإن كان ذكراً ذبح لآلهتهم وإن كان أنثى تركت، وإن كان في بطنها اثنان ذكر وأنثى فيتركان جميعاً لا يذبحان، وقالوا: وصلت أخاها.

والحام: الفحل يكون عند الرجل فإذا لقح عشر سنين قيل: قد حمى ظهره وسمي بحام.

انظر: تفسير ابن جرير ٥٦/٧ - ٦٠ (مجلد ٥)؛ وتفسير ابن كثير ١٠٧/٢ - ١٠٨؛ وفتح القدير ٨٢/٢؛ وصحيح البخاري، كتاب التفسير، باب ما جعل الله من بحيرة...، ١٩١/٥.

فإن قيل: قد قال طائفة: معناها ما فعلوها إلا ابتغاء رضوان الله ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله^(١).

وقالت طائفة: ما فعلوها أو^(٢) ما ابتدعوها إلا ابتغاء رضوان الله.

قيل: كلا القولين خطأ والأول أظهر خطأ؛ فإن الرهبانية لم يكتبها الله عليهم، بل لم يشرعها لا إيجاباً ولا استحباباً، ولكن ذهبت طائفة إلى أنهم لما ابتدعوها كتب عليهم إتمامها وليس في الآية ما يدل على ذلك فإنه قال:

﴿... مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا...﴾^(٣).

فلم يذكر أنه كتب عليهم نفس الرهبانية ولا إتمامها ولا رعايتها، بل أخبر أنهم ابتدعوا بدعة، وأن تلك البدعة لم يرعوها حق رعايتها.

فإن قيل: قوله — تعالى —: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾.

يدل على أنهم لو رعوها حق رعايتها لكانوا ممدوحين.

قيل: ليس في الكلام ما يدل على ذلك، بل يدل على أنهم — مع عدم الرعاية — يستحقون من الذم ما لا يستحقونه بدون ذلك، فيكون ذم من ابتدع البدعة ولم يرعها حق رعايتها أعظم من ذم من رعاها، وإن لم يكن واحد منهما محموداً، بل مذموماً مثل نصارى بني تغلب^(٤).

(١) سقطت جملة (ما كتبناها... إلخ) من س.

(٢) في أ (و).

(٣) سورة الحديد: الآية ٢٧.

(٤) بني تغلب بن وائل بن قاسط يتصل نسبهم إلى أسد بن ربيعة بن نزار ومنهم بنو جشم، وبنو مالك ابني بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب بن وائل. وقد =

ونحوهم ممن دخل في النصرانية ولم يقوموا بواجباتها، بل أخذوا منها ما وافق أهواءهم، فكان كفرهم وذمهم أغلظ ممن هو أقل شراً منهم والنار دركات كما أن الجنة درجات.

وأيضاً: فالله تعالى إذا كتب شيئاً على عباده لم يكتب ابتغاء رضوانه، بل العباد يفعلون ما يفعلون ابتغاء رضوان الله.

وأيضاً: فتخصيص الرهبانية بأنه كتبها ابتغاء رضوان الله دون غيرها تخصيص بغير موجب، فإن ما كتبه ابتداء لم يذكر أنه كتبه ابتغاء رضوانه فكيف بالرهبانية؟

وأما قول من قال: ما فعلوها إلا ابتغاء رضوان الله، فهذا المعنى لودل عليه الكلام لم يكن في ذلك مدح للرهبانية، فإن من فعل ما لم يأمر الله به، بل نهاه عنه مع حسن مقصده، غايته أن يثاب على قصده لا يثاب على ما نهى عنه، ولا على ما ليس بواجب، ولا مستحب، فكيف والكلام لا يدل عليه فإن الله قال^(١):

﴿... مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ...﴾^(٢).

ولم^(٣) يقل ما فعلوها إلا ابتغاء رضوان الله، ولا قال: ما ابتدعوها إلا ابتغاء رضوان الله، ولو كان المراد ما فعلوها أو ما ابتدعوها^(٤) إلا

= ذكر السمعاني في الأنساب نفراً من الصحابة والتابعين من بني تغلب.

انظر: الأنساب ص ١٠٨؛ وجمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ٣٠٢، ٤٦٩.

(١) في س، ك، ط (فإنه قال).

(٢) سورة الحديد: الآية ٢٧.

(٣) في ك، ط (لم) بدون واو، وسقطت الجملة من قوله ولم يقل إلى قوله ولو كان المراد من نسخة س.

(٤) سقطت (أو ما ابتدعوها) من ك.

ابتغاء رضوان الله ، لكان منصوباً على المفعولية^(١) ، ولم يتقدم لفظ الفعل ليعمل فيه ولا نفي الابتداء^(٢) ، بل أثبت له ، وإنما تقدم لفظ الكتابة فعلم أن القول الذي ذكرناه هو الصواب ، وأنه استثناء منقطع فتقديره وابتدعوا رهبانية ما كتبناها عليهم ، لكن كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله ، فإن إرضاء الله واجب مكتوب على الخلق وذلك يكون بفعل المأمور وبترك المحذور ، لا بفعل ما لم يأمر بفعله وبترك ما لم ينه^(٣) عن تركه ، والرهبانية فيها فعل ما لم يؤمر^(٤) به وترك ما لم ينه^(٥) عنه .



(١) في أ ، س ، ك (المفعول) .

(٢) في ط (ابتداء) وسقطت جملة (الابتداء بل أثبت له) من ك .

(٣) في س ، ك ، ط (ينه) .

(٤) في س ، ك ، ط (يأمر) .

(٥) في س ، ك ، ط (ينه) .

فصل

وأما قوله - تعالى - :

﴿... مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾ (١).

فهذه الآية لا اختصاص فيها للنصارى، بل هي مذكورة بعد قوله

- تعالى - :

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٥﴾ لَن يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَذًى وَلَئِن يَفْتَلُوْكُمْ يُؤْلَوْكُمْ إِلَّا ذَبَابٌ ثُمَّ لَا تُبْصَرُونَ ﴿١١٦﴾ ضَرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا ثَقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُ وَيَغْضَبُ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٧﴾﴾ (٢).

ثم قال (٣) :

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ...﴾ (٤).

(١) سورة آل عمران: الآيتان ١١٣، ١١٤. (٣) في أ (قالوا) وصححناه من سائر النسخ.

(٢) سورة آل عمران: الآيات ١١٠ - ١١٢. (٤) سورة آل عمران: الآية ١١٣.

ومعلوم أن الصفة المذكورة في قوله :

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ .

صفة اليهود^(١) ، وكذلك قوله : ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ .

فقوله : عقب ذلك : ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ .

لا بد أن يكون متناولاً لليهود ، ثم قد اتفق المسلمون والنصارى على أن اليهود مع كفرهم بالمسيح ومحمد - صلى الله عليه وسلم - ليس فيهم مؤمن ، وهذا معلوم بالاضطرار من دين محمد - صلى الله عليه وسلم - ، والآية إذا تناولت النصارى كان حكمهم في ذلك حكم اليهود ، والله - تعالى - إنما أثنى على من آمن من^(٢) أهل الكتاب ، كما قال - تعالى - :

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾^(٣) .

وقد ذكر أكثر العلماء أن هذه * الآية الأخرى في آل عمران *^(٤) نزلت في النجاشي ونحوه ممن آمن بالنبي - صلى الله عليه وسلم - لكنه لم تمكنه الهجرة إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - ، ولا العمل

(١) في ط (اليهود) .

(٢) سقطت (من) من ط .

(٣) سورة آل عمران : الآية ١٩٩ .

(٤) سقط ما بين النجمتين من أ .

وانظر في سبب النزول لباب النقول للسيوطي ص ٥٧ - ٥٨ ؛ وأسباب النزول للواحدي ص ١٠٣ ؛ والصحيح المسند من أسباب النزول للوادعي ص ٣٨ - ٣٩ .

بشرائع الإسلام لكون^(١) أهل بلده نصارى لا يوافقونه على إظهار شرائع الإسلام، وقد قيل^(٢): أن النبي - صَلَّى الله عليه وسلّم - إنما صَلَّى عليه لما مات؛ لأجل هذا، فإنه لم يكن هناك من يظهر الصلاة عليه في جماعة كثيرة ظاهرة، كما يصلي المسلمون على جنائزهم.

ولهذا جعل من أهل الكتاب مع كونه آمن بالنبي - صَلَّى الله عليه وسلّم - بمنزلة من يؤمن^(٣) بالنبي - صَلَّى الله عليه وسلّم - في بلاد الحرب، ولا يتمكن من الهجرة إلى دار الإسلام، ولا يمكنه العمل بشرائع الإسلام الظاهرة، بل يعمل ما يمكنه ويسقط عنه ما يعجز عنه، كما قال - تعالى -

﴿ فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ... ﴾^(٤).

فقد يكون الرجل في الظاهر من الكفار، وهو في الباطن مؤمن، كما كان مؤمن آل فرعون.

قال - تعالى - :

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ﴾

(١) في س، ك، (لكونه).

(٢) جاء في معالم السنن للخطابي شرح سنن أبي داود ٥٤٢/٣: «النجاشي رجل مسلم قد آمن برسول الله - صَلَّى الله عليه وسلّم - وصدقه على نبوته إلا أنه كان يكتُم إيمانه، والمسلم إذا مات وجب على المسلمين أن يصلوا عليه، إلا أنه كان بين ظهрани أهل الكفر، ولم يكن بحضرته من يقوم بحقه في الصلاة عليه، فلزم رسول الله - صَلَّى الله عليه وسلّم - أن يفعل ذلك إذ هو نبيه ووليّه وأحق الناس به، فهذا - والله أعلم - هو السبب الذي دعاه إلى الصلاة عليه بظهر الغيب».

(٣) في س (من لم يؤمن) وهو خطأ.

(٤) سورة النساء: الآية ٩٢.

وَلَا يَكُ صَادِقًا يُصِيبُكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ
كَذَابٌ ﴿٣٨﴾ يَقُومُ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ
اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٩﴾
وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقُومُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٤٠﴾ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ
وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٤١﴾ وَيَقُومُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ
يَوْمَ النَّارِ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَالَهُ مِنْ
هَادٍ ﴿٤٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّ مَتَاجَاءَكُمْ
بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ
مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يُحَدِّثُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ
كَبْرُ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ
جَبَّارٍ ﴿٤٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَنْهَكُنْ أَبْنِيَ صِرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٤٦﴾ أَسْبَابَ
السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زَيَّنْ لِفِرْعَوْنَ
سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٤٧﴾ وَقَالَ
الَّذِي ءَامَنَ يَقُومُ أَتَبْعُونَ أَهْدِيَكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٤٨﴾ يَقُومُ إِنَّمَا هَٰذِهِ
الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعُ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْفَرَارِ ﴿٤٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا
يُجْزِيهِ إِلَّا مِثْلُهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَنَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ
يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٥٠﴾ وَيَقُومُ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ
وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٥١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ
وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْفَقِيرِ ﴿٥٢﴾ لَاجِرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَكَ دَعْوَةٌ فِي
الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدْنَا إِلَى اللَّهِ وَآبَ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ
﴿٥٣﴾ فَسْتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفُوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٥٤﴾

فَوَقَّهٗ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَّا مَكَّرُوا وَحَاقَ بِقَالَ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾.

فقد أخبر - سبحانه (٣) - أنه حاق بآل فرعون سوء العذاب، وأخبر أنه كان من آل فرعون رجل مؤمن يكتم إيمانه وأنه خاطبهم بالخطاب الذي ذكره، فهو من آل فرعون (٣) باعتبار النسب والجنس والظاهر، وليس هو من آل فرعون الذين يدخلون أشد العذاب وكذلك امرأة فرعون ليست من آل فرعون هؤلاء. قال الله (٤) - تعالى - :

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٥).

وامرأة الرجل من آله بدليل قوله :

﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا الْمُنَجِّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٦) إِلَّا امْرَأَتُهُ قَدَرْنَا إِنَّا لَنَحْنُ الْغَافِرِينَ (٦).

وهكذا أهل الكتاب فيهم من هو في الظاهر منهم، وهو في الباطن يؤمن بالله ورسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - ، يعمل بما يقدر عليه ويسقط عنه ما يعجز عنه علماً وعملاً : ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ ، وهو عاجز عن الهجرة إلى دار الإسلام، كعجز النجاشي ،

(١) سورة غافر: الآيات ٢٨ - ٤٦ . (٥) سورة التحريم: الآية ١١ .

(٢) في ط (سبحانه وتعالى) . (٦) سورة الحجر: الآيتان ٥٩ ، ٦٠ .

(٣) سقطت (فرعون) من س .

(٤) سقط لفظ الجلالة من س ، ك ، ط .

وكما أن الذين يظهرون الإسلام فيهم من هم^(١) في الظاهر مسلمون، وفيهم من هو منافق كافر في الباطن، إما يهودي، وإما نصراني، وإما مشرك، وإما معطل.

كذلك في أهل الكتاب والمشركين، من هو في الظاهر منهم، ومن^(٢) هو في الباطن من^(٣) أهل الإيمان بمحمد - صَلَّى الله عليه وسلم - ، يفعل ما يقدر على علمه وعمله، ويسقط^(٤) ما يعجز عنه في ذلك.

وفي^(٥) حديث حماد بن سلمة عن ثابت^(٦)، عن أنس قال: لما مات النجاشي قال النبي - صَلَّى الله عليه وسلم - : «استغفروا لأخيك» فقال بعض القوم: تأمرنا أن نستغفر لهذا العليج^(٧)، يموت بأرض الحبشة. فنزلت:

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ...﴾^(٨).

(١) في أ (من هو) وسقطت (فيهم من) من س، وما أثبتناه من ك، ط.

(٢) سقطت (من) من س، ك، ط.

(٣) سقطت (من) من ط.

(٤) في س، ك، ط (ويسقط عنه).

(٥) في ك (إلى).

(٦) سيأتي بعد أسطر ترجمة حماد وثابت.

(٧) العليج: بكسر العين المهلمة، العير، والحصار، والرجل الضخم من كفار العجم وبعض العرب يطلق العليج على الكافر مطلقاً، وجمعه عليج، وأعلاج. انظر: القاموس المحيط؛ فصل العين؛ باب الجيم ٢٠٠/١؛ والمصباح المنير ٥٨١/٢.

(٨) الآية ١٩٩ من سورة آل عمران، وسبق تخريج الحديث، وجميع الأحاديث المتعلقة بموت النجاشي، ونعي الرسول - صَلَّى الله عليه وسلم - له.

ذكره ابن أبي حاتم وغيره بأسانيدهم^(١)، وذكره حماد بن سلمة^(٢)، عن ثابت^(٣)، عن الحسن البصري^(٤) أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وسلَّم^(٥) - قال: «استغفروا لأخيكم النجاشي» فذكر مثله^(*).

وكذلك ذكر^(٦) طائفة من المفسرين، عن جابر بن عبد الله^(٧) وابن عباس وأنس وقتادة أنهم قالوا: نزلت هذه الآية في النجاشي ملك الحبشة، واسمه أصحمة. وهو بالعربية عطية. وذلك أنه لما مات نعاه جبريل للنبي - صَلَّى الله عليه وسلَّم - في اليوم الذي مات فيه، فقال

(١) جاء ذلك في تفسير ابن أبي حاتم الجزء الثاني مخطوط رقم (٢٦٧٦) بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية / المكتبة المركزية قسم المخطوطات. عند تفسير الآية ١٩٩ من سورة آل عمران. بسند رجاله ثقات.

(٢) حماد بن سلمة بن دينار البصري، أبو سلمة، ثقة عابد، أثبت الناس في ثابت وتغير حفظه بآخره مات سنة ١٦٧هـ.

(٣) انظر تهذيب التهذيب ١١/٣ - ١٦؛ وتقريبه ١٩٧/١؛ والخلاصة للخزرجي ص ٩٢. ثابت بن أسلم البناني: بضم الباء الموحدة، ونونين مخففتين، أبو محمد البصري ثقة، عابد مات رحمه الله سنة ١٢٧هـ وقيل ١٢٣هـ.

انظر: تهذيب التهذيب ٢/٢ - ٤؛ وتقريبه ١١٥/١؛ والخلاصة للخزرجي ص ٥٦.

(٤) الحسن بن يسار (أبي الحسن) البصري الأنصاري مولاهم، من كبار التابعين ثقة فقيه فاضل مشهور، وكان يرسل كثيراً ويدلس مات - رحمه الله - سنة ١١٠هـ، وقد قارب التسعين.

انظر: تهذيب التهذيب ٢/٢ - ٢٧١؛ وتقريبه ١٦٥/١ (٢٦٣)؛ والخلاصة للخزرجي ص ٧٧.

(٥) سقطت (صَلَّى الله عليه وسلَّم) من س، ك.

(*) مرسل، وجاء موصولاً من عدة طرق في الصحيحين وغيرهما وسبق تخريجه.

(٦) سقطت (ذكر) من أ.

(٧) سقطت جملة (بن عبد الله) من س، ك، ط.

رسول الله^(١) - صَلَّى الله عليه وسلّم - لأصحابه: «اخرجوا فصلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم» قالوا^(٢): من هو؟ قال: «النجاشي» فخرج رسول الله - صَلَّى الله عليه وسلّم - إلى البقيع. وزاد بعضهم وكشف له من المدينة إلى أرض الحبشة، فأبصر سرير النجاشي وصلى عليه، وكبر أربع تكبيرات، واستغفر له، وقال لأصحابه: «استغفروا له». فقال المنافقون: انظروا^(٣) إلى هذا يصلي على علع حبشي نصراني لم يره قط: وليس على دينه. فأنزل الله - تعالى - :

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّكَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾^(٤).

وقد ذهبت طائفة من العلماء إلى أنها نزلت فيمن كان على دين المسيح - عليه السلام - إلى أن بعث محمد^(٥) - صَلَّى الله عليه وسلّم - فأمن به، كما نقل ذلك عن عطاء.

وذهبت طائفة إلى أنها نزلت في مؤمني^(٦) أهل الكتاب كلهم^(٧).

(١) سقط لفظ الجلالة من ك.

(٤) سورة آل عمران: الآية ١٩٩.

(٢) في ط (فقالوا).

(٥) في ط (بعث الله محمد).

(٣) في س، ك، ط (أبصروا).

(٦) في أ، س، ك (مؤمن) وما أثبتناه من ط أولى.

(٧) أصحاب القول الأول جابر وأنس، وابن عباس، وقتادة. وأصحاب القول الثاني مجاهد، وابن جريح، وابن زيد.

وقد رجح ابن جرير - بعد أن ساق الأقوال كلها - القول بأنها في عموم مؤمني أهل الكتاب مبنياً أنه لا داعي للتخصيص لأن الله - جل ثناؤه - عم بقوله: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أهل الكتاب جميعاً فلم يخصص منهم النصاري دون اليهود ولا اليهود دون النصاري، ثم ذكر أن الخبر الذي ساقه دليلاً للأول عن جابر فيه نظر، ولو لم يكن كذلك لما كان في معنى الآية خلاف.

والقول الأول أجود، فإن من آمن بمحمد - صلى الله عليه وسلم - وأظهر الإيمان به، وهو من أهل دار الإسلام، يعمل ما^(١) يعمل المسلمون ظاهراً وباطناً فهذا من المؤمنين وإن كان قبل ذلك مشركاً^(٢) بعبد الأوثان، فكيف إذا كان كتابياً؟ وهذا مثل عبد الله بن سلام^(٣)، وسلمان الفارسي^(٤) وغيرهما، وهؤلاء لا يقال: إنهم من أهل الكتاب، كما لا يقال في المهاجرين والأنصار: إنهم من المشركين وعباد الأوثان، ولا يُمكن أحد من^(٥) المنافقين ولا من^(٦) غيرهم من أن يصلي على واحد منهم، بخلاف من هو في الظاهر منهم، وفي الباطن من المؤمنين.

وفي بلاد النصارى من هذا النوع خلق كثير، يكتمون إيمانهم، إما مطلقاً، وإما يكتُمونه^(٧) عن العامة ويظهرونه لخاصتهم، وهؤلاء قد

= انظر: تفسيره ١٤٦/٤ - ١٤٧ (مجلد ٣) الآية ١٩٩ من سورة آل عمران، وأسباب النزول للواحدي ص ١٠٣؛ وفتح القدير للشوكاني ٤١٥/١؛ وتفسير ابن كثير ٤٤٣/١.

- (١) في ط (بما).
 - (٢) في أ (من المشركين).
 - (٣) عبد الله بن سلام بن الحارث من ذرية يوسف - عليه السلام - الإسرائيلي ثم الأنصاري كان من بني قينقاع، وأسلم أول ما قدم النبي - صلى الله عليه وسلم - المدينة على الصحيح وكان اسمه الحصين فغيره النبي - صلى الله عليه وسلم - وفضائله معلومة مشهورة مات - رضي الله عنه - سنة ٤٣ هـ بالمدينة.
 - انظر: الإصابة لابن حجر ٣١٢/٢؛ والاستيعاب هامش الإصابة ٣٧٤/٢.
 - وانظر في فضائله: صحيح البخاري كتاب المناقب ٢٩٩/٤؛ وصحيح مسلم ١٩٣٠/٤.
 - (٤) سبقت ترجمته.
 - (٥) في أ (ولا يمكن أحداً) وصححنا العبارة من سائر النسخ.
 - (٦) سقطت (من) من س، ك، ط.
 - (٧) سقطت (يكتُمونه)، (ويظهرونه لخاصتهم) من أ وزدناها من سائر النسخ.
- وجاءت الجملة في أ هكذا (أما مطلقاً وأما عن العامة).

يتناولهم قوله - تعالى - :

﴿وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ...﴾ الآية.

فهؤلاء لا يدعون الإيمان بكتاب الله ورسوله لأجل مال يأخذونه، كما يفعل كثير من الأقباط والرهبان، الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدونهم عن سبيل الله، فيمنعونهم^(١) الإيمان بمحمد - صلى الله عليه وسلم - .

وأما قوله - تعالى^(٢) - :

﴿مَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَاتَاءَ الَّتِي وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٢﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾^(٣).

فهذه الآية تتناول اليهود أقوى مما تتناول النصارى، ونظيرها^(٤) قوله - تعالى - : ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾^(٥). وهذا^(٦) مدح مطلق لمن تمسك بالتوراة، ليس في ذلك مدح لمن كذب المسيح، ولا فيها مدح لمن كذب محمداً - صلى الله عليه وسلم - .

وهذا الكلام يفسره^(٧) سياق الكلام، فإنه قال - تعالى - :

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ...﴾.

(١) في س، ك، ط (ويمنعونهم من). (٥) سورة الأعراف: الآية ١٥٩.

(٢) سقطت (تعالى) من س، ك، ط. (٦) في س، ك، ط (هذا).

(٣) سورة آل عمران: الآيتان ١١٣ - ١١٤. (٧) في ك، ط (تفسيره).

(٤) في س، ك، ط (ونظيره).

ثم قال - تعالى - :

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (١).

فقد جعلهم نوعين : نوعاً مؤمنين ونوعاً فاسقين وهم أكثرهم وقوله (٢) - تعالى - : ﴿مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

يتناول من كان منهم (٣) مؤمناً قبل مبعث (٤) محمد - صلى الله عليه وسلم - ، كما يتناولهم قوله - تعالى - :

﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾
إلى قوله : ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (٥).

وكذلك قوله - تعالى - :

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (٦).

وقوله عن إبراهيم الخليل :

﴿وَبَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ (٧).

ثم لما قال : ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٨).
قال :

﴿لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا آذَىٌ وَإِنْ يَفْتَلُوكُمْ يُولُوكُمْ أَلَذَّ بَارَكُمْ لَا يُنْصِرُونَ﴾ (٩)

(١) سورة آل عمران : الآية ١١٠ . (٥) سورة الحديد : الآية ٢٧ .

(٢) في ك ، ط (لقوله) . (٦) سورة الحديد : الآية ٢٦ .

(٣) سقطت (منهم) من ك ، ط . (٧) سورة الصافات : الآية ١١٣ .

(٤) في ك زيادة (قبل من كان قبل مبعث) . (٨) سورة آل عمران : الآية ١١٠ .

ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَفْقَهُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُ وَيَعْصِبُ مِنَ اللَّهِ
وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ
الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١﴾

* وضرب الذلة عليهم أينما ثقفوا ومباؤهم بغضب الله * (٢)
— وما ذكر معه من قتل الأنبياء بغير حق وعصيانهم واعتداؤهم (٣) كان
اليهود متصفين به قبل مبعث محمد — صلى الله عليه وسلم — كما قال —
تعالى — في سورة البقرة:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يُمُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا
تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِشَائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِيهَا وَبَصِلَهَا قَالَ أَسْتَبْدِلُوكَ
الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَآسًا أَتُمُّ وَضُرِبَتْ
عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُ وَيَعْصِبُ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ
بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْنَبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾

ثم قال بعد ذلك:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغِينَ مِنَ ءَامَنِ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ﴾ (٤).

فتناولت هذه الآية من كان من أهل هذه (٥) الملل الأربع متمسكاً
بها (٦) قبل النسخ بغير تبديل، كذلك آية آل عمران لما وصف أهل

(١) سورة آل عمران: الآيتان ١١١ — ١١٢.

(٢) ما بين النجمتين ساقط من أ، وفي النسخ الثلاث الأخرى زيادة لفظ الآية وسط
الكلام في غير موضعها. (٣) في س (واعداهم).

(٤) سورة البقرة: الآيتان ٦١، ٦٢. (٥) سقطت (هذه) من س، ط.

(٦) سقطت (متمسكاً بها) من أ وزدناها من سائر النسخ.

الكتاب بما كانوا متصفاً به أكثرهم قبل محمد - صلى الله عليه وسلم - من الكفر، قال (١):

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾ (٢).

وهذا يتناول من كان متصفاً منهم بهذا قبل النسخ، فإنهم كانوا على الدين الحق الذي (٣) لم يبدل ولم ينسخ، كما قال في الأعراف.

﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ وقوله (٤):

﴿وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرَثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُ الَّذِي أَخَذُوا لَيُؤْخَذَ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَاللَّذَارِ الْأُخْرَى خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الصَّالِحِينَ ﴿١٦٧﴾﴾ (٥)

وقد قال - تعالى - :

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ (٦).

فهذا خبر من الله عن من كان متصفاً بهذا (٧) الوصف قبل مبعث محمد - صلى الله عليه وسلم - ، ومن أدرك من هؤلاء محمداً - صلى الله عليه وسلم - ، فآمن به كان له أجره مرتين .



(١) في أ، س (قالوا) وصححه من ك، ط. (٥) سورة الأعراف: الآيات ١٥٩، ١٦٨ -

(٢) سورة آل عمران: الآيتان ١١٣، ١١٤. ١٧٠.

(٣) سقطت (الذي) من أ وزدناها من سائر النسخ. (٦) سورة الأعراف: الآية ١٨١.

(٤) سقطت (وقوله) من جميع النسخ. (٧) في أ (به بهذا) وهي زائدة.

فصل

قالوا: ثم وجدناه يعظم إنجيلنا، ويقدم صوامعنا ويشرف مساجدنا ويشهد^(١) بأن اسم الله يذكر فيها كثيراً وذلك مثل قوله - تعالى - (٢):

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صَوَامِعُ وَيَعُوصَلَوَاتُ مَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا...﴾ (٣).

رد دعواهم
تعظيم
الإسلام
لمعابدهم

والجواب: أن فيها ذكر الصوامع والبيع، وأما قوله: ﴿ويذكر فيها اسم الله كثيراً﴾ فإنما ذكره عقب ذكره^(٤) المساجد، والمساجد للمسلمين، وليس المراد بها كنائس النصارى، فإنها^(٥) هي البيع. ثم قوله - تعالى - (٦): ﴿يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾:

إما أن يكون مختصاً بالمساجد، فلا يكون في ذلك اخبار بأن اسم الله^(٧) يذكر كثيراً في البيع والصوامع^(٨)، وإما أن يكون ذكر اسم^(٩) الله في الجميع، فلا ريب أن الصوامع والبيع قبل أن يبعث الله^(١٠) محمداً - صلى الله عليه وسلم - كان فيها من يتبع دين المسيح الذي لم يبدل ويذكر فيها اسم الله كثيراً. وقد قيل: إنها بعد النسخ والتبديل

(١) في أ (وشهد). (٥) في ط (فإنما).

(٢) سقطت (تعالى) من س، ك، ط. (٦) سقطت (تعالى) من س، ك، ط.

(٣) سورة الحج: الآية ٤٠. (٧) سقط لفظ الجلالة من ط.

(٤) في س، ك، ط (ذكر). (٨) في س، ك، ط (في الصوامع والبيع).

(٩) سقطت (اسم) من س.

(١٠) في س، ك (قبل أن بعث محمداً) وفي ط (قبل أن يبعث محمد).

يذكر فيها اسم الله^(١) كثيراً وإن الله يحب أن يذكر اسمه .

قال الضحاك^(٢) : «إن الله يحب أن يذكر اسمه^(٣) وإن كان يشرك به»^(٤) يعني : أن المشرك به خير من المعطل الجاحد الذي لا يذكر اسم الله بحال .

وأهل الكتاب خير من المشركين ، وقد ذكرنا أنه لما اقتتل فارس والروم وانتصرت الفرس ، ساء ذلك أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكرهوا انتصار الفرس على النصارى ؛ لأن النصارى أقرب إلى دين الله من المجوس ، والرسول بعثوا بتحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها ، وتقديم خير الخيرين على أدناها حسب الإمكان ، ودفع شر الشرين بخيرهما ، فهدم صوامع النصارى وبيعهم فساد إذا هدمها المجوس والمشركون ، وأما إذا هدمها المسلمون وجعلوا

(١) سقط لفظ الجلالة من ط .

(٢) الضحاك بن مزاحم الهلالي ، البلخي الخراساني ، صاحب التفسير قال الذهبي في العبر : «وثقه الإمام أحمد وغيره» ، وقال ابن حجر : «صدوق كثير الإرسال» . كان آية في التفسير له فيه كتاب ، توفي - رحمه الله - بخراسان سنة ١٠٢ هـ ، وقيل : ١٠٥ هـ .

انظر : العبر في خبر من غبر ١/١٢٤ ؛ وشذرات الذهب ١/١٢٤ ؛ وتقريب التهذيب ١/٣٧٣ والأعلام للزركلي ٣/٢١٥ .

(٣) سقطت (اسمه) من ك .

(٤) أخرجه ابن جرير بنحوه في تفسيره ١٧/١٢٦ (مجلد ٧) ، ولفظه هكذا : «في كل هذا يذكر اسم الله كثيراً ولم يخص المساجد» .

قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله - : «قيل : الضمير في قوله يذكر فيها عائذ إلى المساجد ، لأنها أقرب المذكورات ، وقال الضحاك : الجميع يذكر فيها اسم الله كثيراً» .

انظر : تفسير ابن كثير ٣/٢٢٦ ؛ وانظر : تفسير ابن جرير ١٧/١٢٦ ؛ وفتح القدير ٣/٤٥٨ .

أماكنها مساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً، فهذا خير وصلاح.

وهذه الآية ذكرت في سياق الإذن للمسلمين بالجهاد بقوله

— تعالى — :

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾^(١).

وهذه الآية أول آية نزلت في الجهاد، ولهذا قال :

﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ...﴾^(٢).

ثم قال : ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ...﴾^(٣).

فيدفع بالمؤمنين الكفار ويدفع شر الطائفتين بخيرهما، كما دفع

المجوس بالروم النصارى^(٤)، ثم دفع النصارى بالمؤمنين أمة محمد

— صلى الله عليه وسلم — ، وهذا كما قال — تعالى —^(٥) في سورة

البقرة :

﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ دُجَالُوتَ وَءَاتَتْهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ

مَا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ

وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(٦).

وأما التقديم في اللفظ، فإنه يكون للانتقال من الأدنى إلى

الأعلى، كقوله — تعالى — :

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ

تَشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُرْسِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ﴾^(٧).

(٥) سقطت (تعالى) من س، ك، ط .

(٦) سورة البقرة: الآية ٢٥١ .

(٧) سورة الأعراف: الآية ٣٣ .

(١) سورة الحج: الآية ٣٩ .

(٢) سورة الحج: الآية ٤٠ .

(٣) سورة الحج: الآية ٤٠ .

(٤) في ط (والنصارى).

وقوله: ﴿يَوْمَ يَفْرَأُ الْمُرَّةُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٦﴾ وَأُمُّهُ سَوَآءٌ ﴿٣٧﴾ وَصَحْبُهُ مِنْ بَيْنِهِ ﴿٣٨﴾﴾ (١).

وقوله:

﴿وَالَّذِينَ ذَرَوْا ﴿١﴾ فَأَلْحَمَلَتْ وَقَرَأَ ﴿٢﴾ فَأَلْجَزَتْ يَسْرًا ﴿٣﴾ فَأَلْمَقَسَمَتْ أَمْرًا ﴿٤﴾﴾ (٢).

ونظائره متعددة.

وكذلك في قوله — تعالى — (٣):

﴿... هَلْدَمَتْ صَوَامِعَ وَبِيْعَ وَصَلَوَاتٍ وَمَسَاجِدَ يُدْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿٤﴾﴾.

فبيّن (٥) — سبحانه — أنه (٦) لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت مواضع العبادات، وهدمها فساد إذا هدمها من لا يبذلها بخير منها وأدناها هي الصوامع، فإن الصومعة تكون لواحد أو لطائفة (٧) قليلة فبدأ بأدنى المعابد، وختم بأشرفها وهي المساجد التي يذكر فيها اسم الله كثيراً. ففي الجملة حكم هذه المعابد حكم أهلها، وأهلها قبل النسخ والتبديل مؤمنون مسلمون (٨)، وهدم معابد المؤمنين المسلمين فساد، وبعد النسخ والتبديل، إذا غلب أهل الكتاب من هوشر منهم، كالمجوس والمشركين، وهدموا معابدهم، كان ذلك فساداً وإذا هدمها من هو خير منهم كأمة محمد — صلى الله عليه وسلم — وأبدلوها مساجد يذكر فيها

(١) سورة عبس: الآيات ٣٤ — ٣٦، وسقطت هذه الآيات من ك.

(٢) سورة الذاريات: الآيات ١ — ٤.

(٣) سقطت (تعالى) من أ.

(٤) سورة الحج: الآية ٤٠.

(٥) في س، ك، ط (بين).

(٦) في أ (مسلمون يؤمنون).

(٧) في س، ك، ط (أو طائفة).

(٨) في أ (مسلمون يؤمنون).

اسم الله كثيراً، ولا يشرك به، ويذكر فيها الإيمان بجميع كتبه ورسله، كان ذلك صلاحاً لا فساداً.

ولهذا أمر النبي - صَلَّى الله عليه وسلّم - أن يتخذ^(١) المساجد مواضع معابد الكفار كما كان لثقيف أهل الطائف^(٢) معبد يعبدون فيه اللات، التي قال الله فيها: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾^(٣).

فأمر النبي - صَلَّى الله عليه وسلّم - أن يهدم ذلك المعبد، ويتخذ مكانه المسجد الذي يعبد الله وحده فيه^(٤)؛ فإن المساجد هي

(١) في ك، ط (يتخذ) بالمشاة التحتية.

(٢) ثقيف قبيلة من قبائل قيس عيلان بن مضر، وثقيف هم بنو قسي بن منبه بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة ينتهي نسبه إلى قيس عيلان.

وكان لهم معبد بالطائف يقال له اللات مبني على صخرة، وكانوا يحرمون واديه ويكسونه، وسدنته آل أبي العاص من بني مالك بن ثقيف، هدم الصنم أبو سفيان بن حرب، والمغيرة بن شعبة رضي الله عنهما. وقيل: خالد والمغيرة والأول أصح على ما سنذكره بعد قليل.

انظر: جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ٤٨٢، ٤٩١؛ وإغاثة اللفهان ٢٣١/٢؛ والإصابة لابن حجر ٤٣٢/٣.

(٣) سورة النجم: الآية ١٩.

(٤) اخرج ابن جرير الطبري في تاريخه ٩٩/٣ - ١٠٠ بسنده. قال: حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة (يعني بن الفضل الأبرش)، عن ابن إسحاق، عن يعقوب بن عتبة... قال: «بعث رسول الله - صَلَّى الله عليه وسلّم - أبا سفيان والمغيرة بن شعبة في هدم الطاغية... وساق بقية القصة ولم يرد فيها أن الرسول اتخذ مكانها مسجداً، ولكن ابن كثير في تاريخه ٣٣/٥، ٣٤؛ وفي تفسيره ٢٥٤/٤ ذكر أنهما هدماهما وجعلاهما مسجداً بالطائف، وذكر ابن القيم في إغاثة اللفهان ٢١٣/٢، «أن اللات كانت في موضع منارة مسجد الطائف اليسرى اليوم». والله أعلم. أما ابن حجر فقد ساق القصة في الإصابة ٤٣٢/٣ (في ترجمة المغيرة) وعزاها لابن جرير ولم يتعقبها، ووردت في سيرة ابن هشام بدون ذكر الأمر ببناء المسجد ١٣٧/٤، ١٣٨.

بيوت الله في الأرض قال - تعالى - :

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ... ﴾ (١).

وقال - تعالى - : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ (٢).

وقال - تعالى - :

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ... ﴾ الآية إلى قوله ﴿ ... الْمُهْتَدِينَ ﴾ (٣).

وقال - تعالى - :

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ ... ﴾ الآية. إلى قوله :
﴿ بغير حساب ﴾ (٤).

ثم لما ذكر المؤمنين ذكر الكفار من أهل الكتاب والمشركون،
فذكر أهل الجهل المركب والبسيط (٥)، فقال - تعالى - :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ يَفْبِقُهَا يَحْسَبُهَا الظَّمْثَانُ مَاءً حَقًّا إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فُوفَتْهُ حِسَابُهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (٦) أَوْ كَظُلُمَاتٍ

= وسند ابن جرير الطبري فيه محمد بن إسحاق مدلس وقد عنعن، ولكن القصة مشهورة عند أهل السير وقد ساقها المحققون الذين تقدم ذكرهم، والله تعالى أعلم.

(١) سورة الأعراف: الآية ٢٩.

(٢) سورة الجن: الآية ١٨.

(٣) سورة التوبة: الآيتان ١٧، ١٨.

(٤) سورة النور: الآيات ٣٥ - ٣٨.

(٥) الجهل البسيط: عدم العلم عما من شأنه أن يكون عالماً.
والجهل المركب: عبارة عن اعتقاد جازم غير مطابق للواقع.

انظر: التعريفات للجرجاني ص ٨٤.

فِي بَحْرِ لُجِّي يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ، مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ، سَحَابٌ طُلُمْتُ بِعَظْمِهَا فَوْقَ بَعْضِ
إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْذِبْنَهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ ﴿١﴾ .

فقد تبين أنه ليس لهم حجة في شيء مما جاء به محمد
— صلى الله عليه وسلم — ، بل ما جاء به حجة عليهم من وجوه متعددة.



(١) سورة النور: الآيتان ٣٩ ، ٤٠ . وقد جاء في أ (يحسبه الظمان ماء ، الآية إلى قوله :
﴿فما له من نور﴾ .

فصل

قالوا: وهذا وغيره أوجب لنا التمسك بديننا وأن لا نهمل ما معنا ولا نرفض مذهبنا، ولا نتبع غير السيد المسيح، كلمة الله، وروحه وحواريه الذين أرسلهم إلينا.

رفض دعواهم
وجوب
التمسك

بدينهم بعد
بعثة محمد
- صلى الله
عليه وسلم -

والجواب: إنهم احتجوا بحجتين باطلتين:

إحدهما^(١): أن محمداً - صلى الله عليه وسلم -^(٢) لم يرسل إليهم بل إلى العرب، وقد تبين أن الاحتجاج بها من أعظم الكذب والافتراء على محمد - صلى الله عليه وسلم - ، فإنه لم يقل قط: إني لم أرسل إلى أهل الكتاب، ولا قال قط: إني لم أرسل إلا إلى العرب، بل نصوصه المتواترة عنه وأفعاله تبين أنه مرسل إلى جميع أهل الأرض: أميهم، وكتابيهم.

والحجة الثانية: قولهم أن محمداً - صلى الله عليه وسلم - ، أثنى على دين النصارى بعد التبديل والنسخ، وهي أيضاً أعظم كذباً عليه من التي قبلها، كيف^(٣) يثني عليهم وهو يكفرهم في غير موضع من كتابه، ويأمر بجهادهم وقتالهم، ويذم المتخلفين عن جهادهم غاية الذم، ويصف من لم ير طاعته في قتالهم بالنفاق والكفر، ويذكر أنه

(١) في س، ك، ط (أحدهما).

(٢) سقطت الجملة الدعائية من س، ك، ط .

(٣) في ط (فكيف).

يدخل جهنم ، وهذا كله يخبر به عن الله (١) ويذكره تبليغاً (٢) لرسالة ربه ، وإنما يضاف إليه لأنه بلغه وأداه ، لا لأنه أنشأه وابتدأه .

كما قال — تعالى — :

﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمِنُونَ (٥) وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ (٦) نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٧) وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ (٨) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٩) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (١٠) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (١١) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لِّلْمُتَّقِينَ (١٢) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ (١٣) وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ (١٤) وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (١٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (١٦) ﴾ (٣)

وأما ثناء الله ورسوله على المسيح وأمه وعلى من اتبعه، وكان على دينه الذي لم يبدل، فهذا حق وهو لا ينافي وجوب اتباع محمد — صلى الله عليه وسلم — على من بعث إليه (٤)، فلو قدر أن شريعة المسيح لم تبدل، وأن محمداً — صلى الله عليه وسلم — أثنى على كل من اتبعها، وقال مع ذلك إن الله أرسلني إليكم، لم يكن ذلك (٥) متناقضاً، وإذا كفر من لم يؤمن به لم يناقض ذلك ثناؤه عليهم قبل أن يكذبوه .

(١) في ط (عز وجل) .

(٢) في س (يبلغنا) وهو تصحيف .

(٣) سورة الحاقة : الآيات ٤٠ — ٥٢ .

(٤) في هامش نسخة أ تعليق بخط مغاير لخط النسخة نصه ما يأتي : «بل يجب عليهم اتباعه، ولو نكث عن دعوتهم، لأمر الله — تعالى — لهم في كتبه السابقة باتباعه، بل ولو لم يؤمروا في الكتب السابقة، لظهور معجزاته الخارقة، وتحديثهم بالقرآن وصدق ما أخبر فيه مما تقدم، وما تأخر، وعزبه المؤمنين من الفتوح، والنصر، والظفر والظهور على الدين كله» . اهـ . ولعله استطراد من ناسخ النسخة .

(٥) سقطت (ذلك) من س، ط .

فكيف وهو إنما مدح من اتبع ديناً لم يبدل؟ وأما الذين بدلوا دين المسيح فلم يمدحهم بل ذمهم، كما قال:

﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيُّ أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (١).

وقد قدمنا أن النصارى كفروا كما كفرت اليهود(*) : كفروا بتبديلهم ما في الكتاب الأول، وكفروا (٢) بتكذيبهم بالكتاب الثاني.

وأما من لم يبدل الكتاب أو أدرك محمداً - صلى الله عليه وسلم - (٣) فآمن به، فهؤلاء مؤمنون، ومما يبين ذلك: أن تعظيم المسيح للتوراة واتباعه لها، وعمله (٤) بشرائعها أعظم من تعظيم محمد - صلى الله عليه وسلم - للإنجيل، ومع هذا فلم يكن ذلك مسقطاً عن اليهود وجوب اتباعهم للمسيح، فكيف يكون تعظيم محمد - صلى الله عليه وسلم - للإنجيل مسقطاً عن النصارى وجوب اتباعه؟ (٥).



(١) سورة المائدة: الآية ١٤.

(*) هنا ورد في نسخة أ تعليق بهامش النسخة نصه هكذا: «وكفى بها معجزة دالة على صدقه - صلى الله عليه وسلم - ، فإن العداوة من حين نزولها إلى قيام الساعة قائمة . . . كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفاها الله . . . ».

(٢) في أ، س (كفراً).

(٣) سقطت الجملة الدعائية من س، ط .

(٤) في س (وعلمه).

(٥) من قوله: (وأما ثناء الله ورسوله على المسيح وأمه) إلى هذا الموضع ساقط كله من نسخة ك.

فصل

ردّ دعوى
النصارى أنّ
الإسلام عظم
الحواريين

وأما قولهم: وحواريه الذين أرسلهم إلينا أنذرونا بلغتنا، وسلموا لنا ديننا^(١) الذين قد عظموا في هذا الكتاب، بقوله في سورة الحديد:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ...﴾^(٢).

وقال في سورة البقرة:

﴿...فَعَثَ اللَّهُ الْبَيِّنَاتِ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ...﴾^(٣).

فأعني^(٤) بقوله أنبياءه المبشرين، ورسله ينحو بذلك الحواريين الذين^(٥) داروا في سبعة أقاليم العالم، وبشروا بالكتاب الواحد، الذي هو الإنجيل الطاهر؛ لأنه لو أعني عن^(٦) إبراهيم وداود، وموسى ومحمد، لكان قال: معهم الكتب؛ لأن كل واحد منهم جاء بكتاب دون

(١) سقطت جملة (وسلموا لنا ديننا) من أ، ك.

(٢) سورة الحديد: الآية ٢٥.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢١٣.

(٤) هكذا في جميع النسخ، وبرجوعي إلى نص الرسالة وهو مخطوط وعندي منه نسخة وجدت الكلمة هكذا (فعني).

(٥) في س (الذي).

(٦) هكذا وردت في جميع النسخ، وأحسبها زائدة، وبرجوعي إلى النص الأصلي لم أجدها فيه فالبعبارة هكذا (لأنه لو كان أعني إبراهيم... إلخ).

غيره، ولم يقل: إلا الكتاب الواحد؛ لأنه ما أتى جماعة مبشرين بكتاب واحد غير الحواريين الذين أتوا بالإنجيل الطاهر. وجاء أيضاً في الكتاب:

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَنْقُومُ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾^(١).

* يعني الحواريين - لم يقل: رسول، إنما قال: المرسلين *^(٢)،

والجواب من وجوه:

أحدها: أنه ليس فيما ذكر ولا في غيره، ما يوجب تكذيب الرسول الذي أرسل إليكم و^(٣)إلى غيركم وتمسككم بدين مبدل منسوخ، كما أنه ليس فيما يعظم به موسى والتوراة ومن اتبع موسى ما يوجب لليهود تكذيب الرسول الذي أرسل إليهم، وتمسكهم بدين مبدل منسوخ. -

الثاني: أن قولهم: ولا نتبع غير المسيح وحوارييه، قول باطل، فإنهم ليسوا متبعين، لا للمسيح ولا لحوارييه، لوجهين:

أحدهما: أن دينهم مبدل ليس كله عن المسيح والحواريين، بل أكثر شرائعهم أو كثير منها ليست عن المسيح والحواريين.

الثاني: أن المسيح بشر بأحمد، كما قال - تعالى - :

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ...﴾^(٤).

(١) سورة يس: الآية ٢٠.

(٢) ما بين النجمتين ساقط من أ وزدناه من سائر النسخ.

(٣) في ط (أو).

(٤) سورة الصف: الآية ٦.

فإذا لم يتبعوا أحمد، كانوا مكذبين للمسيح، وعندهم من البشارات عن المسيح وغيره من الأنبياء بأحمد، ما هو مبسوط في موضع آخر * كما سيأتي إن شاء الله * (١).

وإنما المقصود هنا منع احتجاجهم بشيء مما جاء به محمد — صَلَّى الله عليه وسلَّم — ، وبيان أنه حجة عليهم لا لهم، إذ زعموا أن في بعضه حجة لهم.

الثالث: أن قولهم عن الحواريين: أنهم الرسل الذين عظموا في هذا الكتاب قول باطل، فسروا به القرآن تفسيراً باطلاً من جنس تفسيرهم ﴿الذين أنعمت عليهم﴾ بالنصارى. وتفسيرهم ﴿بإذني﴾ أي: ينفخ فيه فيكون طيراً بإذن اللاهوت الذي هو كلمة الله المتحدة في الناسوت، وتفسيرهم:

﴿الْمَآءُ الَّذِي كَتَبْتُ...﴾ (٢).

بالإنجيل، وتفسيرهم:

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَيَا آخِرَةَ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ (٤) هم النصارى.

وتفسيرهم قوله: ﴿وَلَا تُحَدِّثُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ

أَحْسَنُ...﴾ (٥) هم النصارى.

(١) ما بين النجمتين ساقط من أ وزدناه من سائر النسخ.

وسيتحدث عن ذلك بالتفصيل في الجزء الثالث وأول الجزء الرابع من هذا الكتاب.

(٢) سورة البقرة: الآيتان ١، ٢.

(٣) سورة البقرة: الآيتان ٣، ٤.

(٤) سورة العنكبوت: الآية ٤٦.

﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا...﴾ هم اليهود.

وأمثال ذلك من تفسيرهم القرآن، مثل (١) ما يفسرون به التوراة، والإنجيل، والزبور، من التفاسير التي هي من تحريف الكلم عن مواضعه، والإلحاد في آيات الله، والكذب على أنبيائه بما يظهر أنه كذب على الأنبياء (٢) لكل من تدبر ذلك. وبطلان ذلك يظهر من وجوه:

أحدها: أن الله قال:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَصْرِفُهُمْ وَرُسُلُهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٣).

وقوله - تعالى - : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾.

اسم جمع مضاف، يعم جميع من أرسله الله - تعالى - .

الثاني: أن أحق (٤) الرسل بهذا الحكم الذين سماهم (٥) في

القرآن كما قال - تعالى - :

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ

(١) في س، ك، ط (بمثل).

(٢) في أ (أنبيائه).

(٣) سورة الحديد: الآية ٢٥.

(٤) في أ (جعل) بدل (أحق) وصوابه ما أثبتناه من سائر النسخ.

(٥) في ط (سماهم الله تعالى).

وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِتَلَايَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةً بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١﴾.

وقال (٢) في سورة الشعراء:

﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ نُوحَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٣﴾.﴾

(وقوله) (٤):

﴿كَذَبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٣٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٣٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٥﴾.﴾

(وقوله) (٦):

﴿كَذَبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧﴾.﴾

وقوله (٨):

(١) سورة النساء: الآيات ١٦٣ - ١٦٥.

(٢) في س، ك، ط (وقال تعالى).

(٣) سورة الشعراء: الآيات ١٠٥ - ١١٠.

(٤) سقطت (وقوله) من أ، س، ك وزدناه من ط.

(٥) سورة الشعراء: الآيات ١٢٣ - ١٢٧.

(٦) سقطت (وقوله) من أ، س، ك وزدناه من ط.

(٧) سورة الشعراء: الآيات ١٤١ - ١٤٥.

(٨) سقطت (وقوله) من أ، س، ك، وزدناه من ط.

﴿ كَذَبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ .

وقوله (٢) :

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ النَّيْكََةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣﴾ .

وقال - تعالى - :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿٤﴾ .

وقال - تعالى - (٥) :

﴿ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْنَاهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٦﴾ .

وقال - تعالى - :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَنْقُمُوا عَبْدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴿٧﴾ أَفَلَا تَنْتَقُونَ ﴿٧﴾ .

(١) سورة الشعراء: الآيات ١٦٠ - ١٦٤ . (٥) سقطت هذه الجملة من ك .

(٢) سقطت (وقوله) من أ، س، ك وزدناه من ط . (٦) سورة غافر: الآية ٥ .

(٣) سورة الشعراء: الآيات ١٧٦ - ١٨٠ . (٧) سورة المؤمنون: الآية ٢٣ .

(٤) سورة المزمل: الآيتان ١٥ ، ١٦ .

وذكر قصته ثم قال (١) بعد ذلك :

﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ ۝ ﴾

ثم لما قضى قصته قال - تعالى - :

﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤١﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ ﴿٤٢﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلًّا مَلَّجَاءَ أُمَّةٍ وَرَسُولَهَا كَذَّبُونَهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعْدَ الْقَوْمِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ ۝ ﴾

فذكر إرسال رسله تترى - أي متواترة - ثم ذكر إرسال موسى ،
وهارون ، وإرسال موسى وهارون قبل (٤) المسيح بمدة طويلة .

وقال - تعالى - :

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فسيروا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٥٠﴾ ۝ ﴾

فهذا إخبار منه - سبحانه وتعالى - بأنه بعث في كل أمة رسولا يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، وقال - تعالى - في المسيح - صلوات الله عليه - :

(١) في ط (ثم قال من بعد) .

(٢) سورة المؤمنون : الآيتان ٣١ ، ٣٢ .

(٣) سورة المؤمنون : الآيات ٤٢ - ٤٦ .

(٤) في ط (قبل إرسال المسيح) .

(٥) سورة النحل : الآية ٣٦ .

﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ
صِدِّيقَةٌ... ﴾ (١).

فأخبر أن المسيح رسول من هؤلاء الرسل:

﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾.

وقبله قد بعث في كل أمة رسولا (٢).

وقد روى في حديث أبي (٣) زر عن النبي - صَلَّى الله عليه
وسلم - : « أن الأنبياء مائة ألف نبي، وأن الرسل منهم ثلثمائة وثلاثة
عشر » (٤). وبعض الناس يصحح هذا الحديث وبعضهم يضعفه، فإن

(١) سورة المائدة: الآية ٧٥.

(٢) في أ (رسول) وكلا الأمرين صحيح فيخرج على أن بعث مبني للمجهول في حال
الرفع. (٣) في س (ابن) وهو خطأ.

(٤) أخرجه ابن حبان بسنده قال: أخبرنا الحسن بن سفيان الشيباني، والحسين بن
عبد الله القطان، وابن سلم قالوا: حدثنا إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني حدثنا
أبي، عن جدي، عن أبي إدريس الخولاني، عن أبي زر قال: دخلت المسجد
فإذا رسول الله - صَلَّى الله عليه وسلم - جالس وحده. وفيه أن أبا زر سأله أسئلة
كثيرة ومنها قلت يا رسول الله: كم الأنبياء؟ قال: «مائة ألف وعشرون ألف». قلت يا
رسول الله: كم الرسل من ذلك؟ قال: «ثلاثمائة وثلاثة عشر جأ غفيرا»... ثم ذكر الحديث
بطوله.

قال الهيثمي - رحمه الله - «في موارد الظمان إلى زوائد ابن حبان»
فيه إبراهيم ابن هشام بن يحيى الغساني قال أبو حاتم وغيره: كذاب.
انظر: موارد الظمان ص ٥٢ - ٥٤ حديث رقم (٩٤). وجاء في
ميزان الاعتدال ٧٢/١ - ٧٣ «هو صاحب حديث أبي زر الطويل، انفرد به عن أبيه
عن جده. قال الطبراني: لم يرو هذا عن يحيى إلا ولده وهم ثقات، وذكره
ابن حبان في الثقات، وقال ابن أبي حاتم ينبغي ألا يحدث عنه وقال ابن الجوزي:
قال أبو زرعة: كذاب». وقد أخرج الحاكم في المستدرک ٢٦٢/٢ من حديث
أبي أمامة أن رجلاً قال: يا رسول الله أنبيى كان آدم؟ قال: «نعم، معلم، مكلم»
قال: كم بينه وبين نوح؟ قال: «عشرة قرون» قال: كم كان بينه وبين إبراهيم؟ قال: =

كان صحيحاً، فالرسل ثلاثمائة وثلاثة^(١) عشر، وإن لم تعرف صحته
أمكن أن يكونوا بقدر ذلك وأن يكونوا أكثر، كما يمكن أن يكونوا أقل،
فإن الله - تعالى -^(٢) أخبر أنه بعث في كل أمة رسولاً.

وقال - تعالى - :

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾^(٣).

وروى أن^(٤) النبي - صلى الله عليه وسلم - قال^(٥) : «أنتم توفون
سبعين أمة أنتم أكرمها وأفضلها على الله»^(٦) * وهو حديث جيد *^(٧).

وقد^(٨) قال - تعالى - في سورة الزمر:

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ إِذْ جَاءُوهَا فَتُحَتُّ أَبْوَابُهَا
وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ

= «عشرة قرون» قال: يا رسول الله كم كانت الرسل؟ قال: «ثلاثمائة وخمس عشرة
جماً غفيراً». قال الحاكم: سنده صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

(١) في س، ك (ثلاث).

(٢) سقطت (تعالى) من س، ك، ط.

(٣) سورة فاطر: الآية ٢٤.

(٤) في س، ك، ط (عن).

(٥) في س، ك، ط (أنه قال).

(٦) رواه الترمذي في كتاب تفسير القرآن، تفسير سورة آل عمران ٢٦٦/٥ (٣٠٠١)

بلفظ «إنكم تتمون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله». وقال هذا حديث حسن

ثم قال وقد روى غير واحد هذا الحديث عن بهز بن حكيم نحو هذا، ورواه

ابن ماجه في الزهد، باب صفة أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - ١٤٣٣/٢

(٤٢٨٨)؛ ورواه الإمام أحمد في المسند ٥/٥؛ وجاء في مسند عبد الله بن عمر

ص ٢٧ رقم (٢٤) بلفظ أن أمتي هذه توفي سبعين أمة نحن آخرها وخيرها.

(٧) سقط ما بين النجمتين من أ، س وزدناه من ك، ط.

(٨) سقطت (قد) من ك، ط.

لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿١﴾

وقال - تعالى - في سورة تبارك :

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيُسَّ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾﴾

فهذا إخبار منه بأن كل فوج يلقي في النار، وقد جاءهم نذير كما قال - تعالى - :

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿٣﴾﴾

وقد قال - تعالى - (٤) :

﴿وَمُنذِرِينَ لِّئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴿٥﴾﴾

وقال - تعالى - :

﴿يَمَعَشِرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٦﴾﴾

(١) سورة الزمر: الآية ٧١.

(٢) سورة الملك الآيات ٦ - ٩، وقد سقطت آية ٧ من س، ك، ط ومكانها (وقال تعالى).

(٣) سورة الإسراء: الآية ١٥.

(٤) سقطت (تعالى) من ط.

(٥) سورة النساء: الآية ١٦٥.

(٦) سورة الأنعام: الآية ١٣٠.

فقد أرسل الله قبل المسيح رسلاً كثيرين إلى جميع الأمم، فكيف يجوز أن يدعي أن المراد بقوله - تعالى (١) - : ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات﴾ هم الحواريون فقط، الذين أرسلهم المسيح، مع أن الحواريين رسل المسيح بمنزلة رسل موسى، وإبراهيم، ورسل محمد صلى الله عليه وسلم.

ومن أرسله رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وجبت طاعته على الناس (٢) فيما يبلغه عن رسول الله (٣)، كما في الصحيحين عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصاني فقد عصى الله ومن عصى أميري فقد عصاني» (٤).

فبين أن أميره إنما تجب طاعته في المعروف الذي أمر الله به (٥) ورسوله. لا في كل ما يأمر به، ففي الصحيحين عن علي (٦): «أن

(١) سقطت (تعالى) من س، ك، ط.

(٢) في س، ك، ط (وجبت على الناس طاعته).

(٣) في س (صلى الله عليه وسلم).

(٤) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة في كتاب الأحكام، أول حديث في الباب ١٠٤/٨ بلفظ مقارب.

باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصيته وتحريمها في المعصية ١٤٦٦/٣
(٣٢) (٣٣)؛ ورواه النسائي في كتاب البيعة، باب الترغيب في طاعة الإمام ١٥٤/٧؛ ورواه ابن أبي عاصم في السنة ٥٠٦/٢ - ٥٠٧ باب ذكر السمع والطاعة بسنده من طرق متعددة عن أبي هريرة - رضي الله عنه - رقم (١٠٦٥)، (١٠٦٦)، (١٠٦٧)، ورواه أبو عوانة في مسنده من حديث أبي هريرة بطرق متعددة ٤٤٤/٤ - ٤٤٦.

(٥) سقطت (الواو) من ط.

(٦) في ط (عن علي عليه السلام).

رسول الله - صَلَّى الله عليه وسلّم - بعث جيشاً وأمر عليهم رجلاً، وأمرهم أن يسمعوا ويطيعوا، فأغضبوه. فقال^(١): اجمعوا لي حطباً فجمعوا له. ثم قال: أوقدوا ناراً فأوقدوا ناراً، ثم قال: ألم يأمركم رسول الله أن تسمعوا لي وتطيعوا؟ قالوا: بلى. قال: فادخلوها، فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا^(٢): إنما فررنا إلى رسول الله من النار، فكانوا كذلك حتى سكن غضبه، فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله - صَلَّى الله عليه وسلّم -، وقال: «لودخلوها ما خرجوا منها أبداً» وقال: «لا طاعة في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف»^(٤). وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمر، عن النبي - صَلَّى الله عليه وسلّم - أنه قال: «على المرء^(٥) المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية، فإن أمر بمعصية فلا سمع وطاعة»^(٦).

(١) في أ، (فقالوا) وصححه من سائر النسخ.

(٢) في ك، ط (فقالوا).

(٣) سقطت الجملة الدعائية من س، ك، ط.

(٤) رواه البخاري في الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية ١٠٦/٨؛ ورواه في أخبار الأحاد، أول الباب ١٣٤/٨، ١٣٥؛ وفي المغازي، باب سرية عبد الله بن حذافة السهمي، وعلقمة ويقال أنها سرية الأنصار ١٠٧/٥؛ ورواه مسلم في الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية ١٤٦٩/٣ (٤٠)، وأبوداود في الجهاد، باب في الطاعة ٩٢/٣ - ٩٣ (٢٦٢٥)، والنسائي في البيعة، باب جزاء من أمر بمعصية فأطاع ١٥٩/٣، وأحمد في المسند ٨٢/١، ٩٤، ١٢٤، وأخرجه أبو عوانة في مسنده من حديث أبي عبد الرحمن السلمي عن علي - رضي الله عنه - بطرق متعددة وفيها أن الرجل من الأنصار ٤٥١/٤.

(٥) في س، ك، (المؤمن).

(٦) رواه البخاري في كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية بلفظ السمع والطاعة على المرء المسلم... الحديث ١٠٥/٨، ورواه في الجهاد باب =

وفي مسلم عن أم الحصين سمعت رسول الله - صَلَّى الله عليه وسلم - في حجة الوداع يقول: «ولو استعمل عليكم عبد أسود يقودكم بكتاب الله فاسمعوا وأطيعوا»^(١).

وفي الصحيحين عنه - صَلَّى الله عليه وسلم - أنه قال: «ليبلغ الشاهد^(٢) الغائب فرب مبلغ أوعى له من سامع»^(٣).

وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمرو عن النبي

= السمع والطاعة للإمام ٧/٤، ورواه مسلم في الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء ١٤٦٩/٣ (١٨٣٩)، وأبو داود في الجهاد، باب في الطاعة ٩٣/٣ (٢٦٢٦)، والترمذي في الجهاد، باب لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ٢٠٩/٤ (١٧٠٧) وقال حديث حسن صحيح، والنسائي في البيعة باب جزاء من أمر بمعصية ١٥٩/٧، وابن ماجه في الجهاد، باب لا طاعة في معصية ٩٥٦/٢ (٢٨٦٤)، وأحمد ١٦٠، وأبو عوانة في مسنده من حديث ابن عمر ٤٥٠/٤ ومن حديث نافع ينحوه.

(١) جاءت جملة (فاسمعوا وأطيعوا) في أول الكلام في نسخة أ بخلاف سائر النسخ ونص الحديث وهو في صحيح مسلم بلفظ: سمعته يقول: «إن أمر عليكم عبد مجدع - حسبته قالت أسود - يقودكم بكتاب الله تعالى فاسمعوا له وأطيعوا». رواه مسلم في كتاب الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر ركباً، ٩٤٤/٢ (٣١١)، ورواه أبو عوانة في مسنده من حديث أم الحصين الأحمسية ٤٤٦/٤، ورواه من حديث أبي ذر، وعبادة بن الصامت بألفاظ متقاربة ٤٤٧/٤، ٤٤٨.

(٢) في س، ك، ط (فليبلغ) وما أثبتناه من أ، ومن نص الحديث.

(٣) الحديث قطعة من حديث طويل أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب قول النبي - صَلَّى الله عليه وسلم - رب مبلغ أوعى من سامع ٢٤/١، ٢٥، وفي موضع آخر من كتاب العلم، باب ليبلغ العلم الشاهد الغائب ٣٥/١، ورواه في الأضاحي ٢٣٥/٦، وفي الفتن ٩١/٨، وفي التوحيد ١٨٦/٨، ورواه مسلم في الحج، باب تحريم مكة، ٩٨٦/٢ (٤٤٦)، وفي القسامة، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال ١٣٠٥/٣ (٢٩)، (٣٠)، وأخرجه ابن ماجه في المقدمة، باب من بلغ علماً ٨٥/١ (٢٣٣)، وأحمد في مسنده ٣٧/٥، ٣٩، ٤٠ وكلهم رواه من حديث أبي بكر عن أبيه.

— صَلَّى الله عليه وسلّم — أنه قال: «بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»^(١).

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل ١٤٥/٤، والترمذي في كتاب العلم، باب ما جاء في الحديث عن بني إسرائيل ٤٠/٥ وقال عنه هذا حديث حسن صحيح، والدارمي في السنن، باب البلاغ عن رسول الله — صَلَّى الله عليه وسلّم — وتعليم السنن ١/١٣٦، وأخرجه الخطيب البغدادي في باب كراهة رواية أحاديث بني إسرائيل المأثورة عن أهل الكتاب ١١٧/٢ (١٣٥٠) وأحمد في مسنده ١٥٩/٢، ٢٠٢، وأبو داود في كتاب العلم، باب الحديث عن بني إسرائيل ٧٠/٤ (٣٦٦٢) مقتصراً على قوله: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج» عن أبي هريرة — رضي الله عنه —.

وأخرجه في كتاب العلم، باب التشديد في الكذب على رسول الله — صَلَّى الله عليه وسلّم — ٦٣/٤ مقتصراً على قوله «من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» — من حديث الزبير رضي الله عنه — وأخرجه ابن ماجه من حديث ابن مسعود مقتصراً على هذه الجملة في المقدمة، باب التغليظ في تعمد الكذب على رسول الله — صَلَّى الله عليه وسلّم — ١٣/١.

قال الخطابي — رحمه الله — «ليس معناه إباحة الكذب في أخبار بني إسرائيل، ورفع الحرج عمن نقل عنهم الكذب، ولكن معناه الرخصة في الحديث عنهم على معنى البلاغ، وإن لم يتحقق صحة ذلك بنقل الإسناد، وذلك لأنه أمر قد تعذر في أخبارهم لبعد المسافة، وطول المدة، ووقوع الفترة بين زمني النبوة، وفيه دليل على أن الحديث لا يجوز عن النبي — صَلَّى الله عليه وسلّم — إلا بنقل الإسناد والتثبت فيه» انظر: معالم السنن ٧٠/٤.

قلت: أما عن تصديق أهل الكتاب أو تكذيبهم في أخبارهم فالأمر على ثلاثة أوجه: الأول: ما وافق صريح ما جاءنا به الإسلام فهذا مقبول قولاً واحداً من منطلق إيماننا بديننا.

الثاني: ما خالف صريح ما جاء به الإسلام فهذا مرفوض قولاً واحداً من منطلق اعتقادنا في صدق ديننا.

الثالث: ما لا يوافق، ولا يخالف صريح ما جاء به ديننا فهذا علمنا الرسول — صَلَّى الله عليه وسلّم — أن لا نصدقهم فيه ولا نكذبهم ونقول لهم: ﴿أَمَّا بِمَا نُنْزِلُ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمُ وَاللَّهُنَّاءُ وَالنَّهْكَمُ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

وفي السنن عنه أنه قال: «نَضَّرَ اللهُ امرأً سمع^(١) منا حديثاً فبلغه^(٢) إلى من لم يسمعه فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»^(٣).

فالحواريون في تبليغهم عن المسيح كسائر أصحاب الأنبياء في تبليغهم عنهم، وقال الله - تعالى - في كتابه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾^(٤).

وأولوا الأمر هم العلماء والأمرء، فإذا أمروا بما أمر الله به ورسوله، وجبت طاعتهم، وإن تنازع الناس في شيء وجب رده إلى الله والرسول، لا يرد إلى أحد دون الرسل الذين أرسلهم الله، كما قال في الآية الأخرى:

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَ تَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٥).

(١) في س، ك، ط (استمع فسمع).

(٢) في س، ك، ط (ويبلغه).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) سورة النساء: الآية ٥٩.

(٥) سورة البقرة: الآية ٢١٣.

والكتاب اسم جنس لكل كتاب أنزله الله ليس المراد به كتاباً معيناً، كما قال (١) - تعالى - :

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّنَ﴾ (٢).

ولم يرد بهذا أن يؤمن بكتاب معين واحد، بل و (٣) هذا يتضمن الإيمان بالتوراة، والإنجيل، والقرآن، وكل ما أنزله الله من كتاب، كما قال في سورة الشورى :

﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ هُمُ وَقِلَّ ءَامَنَتْ بِمَا أُنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتَ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ...﴾ (٤).

فأمره الله - تعالى - أن يؤمن بكل ما أنزله الله من كتاب، وأن يعدل بين من بلغتهم رسالته، كما قال :

﴿... لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ...﴾ (٥).

فكل (٦) من بلغه القرآن فهو مخاطب به يتناوله خطاب القرآن وفي الصحيحين عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : «بلغوا عني ولو آية» (٧).

(١) في ط (كما قال الله تعالى).

(٢) سورة البقرة: الآية ١٧٧.

(٣) سقطت الواو من س، ك، ط.

(٤) سورة الشورى: الآية ١٥.

(٥) سورة الأنعام: الآية ١٩.

(٦) هنا تقديم وتأخير في س، ك، ط لا يضر بالسياق.

(٧) الحديث قطعة من حديث طويل سبق تخريجه من الصحيحين ومن كتب السنن قبل صفحات قليلة.

وقال - تعالى - :

﴿ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ۚ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ ۚ وَكُتُبِهِ ۚ وَرُسُلِهِ ۚ لَا نَفَرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ۚ ﴾ . . . (١)

وفي القراءة الأخرى وكتابه ورسله وكلا القرائتين موافقة للأخرى (٢) وقوله - تعالى - : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ . . . (٣)

أي فاختلّفوا بعد ذلك . كما قال في السورة الأخرى :

﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ﴾ . . . (٤)

فلما اختلف بنو آدم بعث النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب .

وذلك يتناول كل كتاب أنزله الله ليحكم الله ، ويحكم كتابه بين الناس بالحق فالحاكم بين الناس هو الله - تعالى - ، وحكمه في كتبه المنزلة ، فلهذا أمر الله المؤمنين إذا تنازعوا في شيء أن يردوه إلى الله والرسول .

والرد إلى الله هو الرد إلى كتابه ، فأمرهم بالرد إلى كتابه ورسوله ، وقد ذم - تعالى - من لم يتحاكم إلى كتابه ورسوله فقال - تعالى - :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ۚ وَيُرِيدُ

(١) سورة البقرة: الآية ٢٨٥ .

(٢) في س، ك (الأخرى) وسيأتي في تخريج القراءتين بعد عدة صفحات .

(٣) سورة البقرة: الآية ٢١٣ .

(٤) سورة يونس: الآية ١٩ .

الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُتَنَفِّقِينَ يُصَدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا أَحْسَنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ فَإِنْ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ (١)

فقد تبين أن الرسل الذين ذكرهم الله في قوله:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ...﴾

يتناول الرسل الذين أرسلهم الله - تعالى - (٢) كلهم، ومن أحقهم بذلك الرسل الذين أخبر في القرآن أنه أرسلهم إلى عباده، فظهر بطلان قولهم أنهم الحواريون.

الوجه الثالث: أنه قال:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٣)

فذكر أنه أنزل الحديد أيضاً؛ ليتبين من يجاهد في سبيل الله

بالحديد.

(٣) سورة الحديد: الآية ٢٥.

(١) سورة النساء: الآيات ٦٠ - ٦٥.

(٢) سقطت (تعالى) من ك، ط.

والنصارى يزعمون أن الحواريين والنصارى لم يؤمروا بقتال أحد بالحديد.

الوجه الرابع : أنه قال بعد ذلك :

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (٣٦) ثُمَّ قَفَيْنَا عَلَى آثَرِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً... ﴿١﴾.

وإخباره بإرسال نوح وإبراهيم بعد قوله : لقد أرسلنا رسلنا بالبينات من باب ذكر الخاص بعد العام ، وبيان ما اختص به الخاص من الأحكام التي امتاز بها عن غيره ، مما دخل في العام كما يأمر السلطان العسكر بالجهاد ، ويأمر فلاناً وفلاناً بأن يفعلوا كذا وكذا ، ومثل أن يقال (٢) أرسل رسله إلى فلان ، وأرسل إليهم فلاناً ، وأمره بكذا وكذا ، قال — تعالى — :

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ...﴾ (٣) . فنوح هو أبو آدميين الذين حدثوا بعد الطوفان ، فإن الله أغرق ولد آدم إلا أهل السفينة ، وقال في نوح : ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ (٤) (٥) .

(١) سورة الحديد : الآيتان ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) سقطت (يقال) من ط .

(٣) سورة الحديد : الآية ٢٦ .

(٤) سورة الصافات : الآية ٧٧ .

(٥) قال ابن كثير — رحمه الله — : «كل من على وجه الأرض اليوم من سائر أجناس

بني آدم ينسبون إلى أولاد نوح الثلاثة وهم سام وحام ويافت» .

وإبراهيم جعل الأنبياء بعده من ذريته، كما قال - تعالى - في إبراهيم:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١).

ثم قال بعد أن ذكر إرسال نوح وإبراهيم وأنه جعل في ذريتهما النبوة والكتاب:

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَرِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ...﴾ (٢).

فأخبر أنه قفى على آثارهم برسله وقفى بعيسى بن مريم، وآتاه الإنجيل، وهؤلاء رسل قبل المسيح، وآخرهم المسيح ولم يذكر أنه أرسل أحداً من أتباع المسيح، بل أخبر (٣) أنه جعل في قلوب الذين اتبعوه رافة ورحمة، فكيف يجوز أن يقال: أن مراده بالرسل الذين أرسلهم بالبينات، وأنزل معهم الكتاب، والميزان، هم الحواريون، دون الرسل الذين ذكرهم وأرسلهم قبل المسيح.

وقد نقل إجماع أهل الأديان، الناقلون عن رسل الرحمن، مع ما تواتر عند الناس في سائر الأزمان، على وقوع الطوفان، وأنه عمَّ جميع البلاد، ولم يبق الله أحداً من كفره العباد، استجابة لدعوة نبيه المؤيد المعصوم، وتنفيذاً لما سبق في القدر المحتوم. وقد ذكر قبل هذا أنه لم ينكره إلا طائفة من جهلة الفرس وأهل الهند، وبين أن هذا سفسطة منهم وجهل فضيع، ومكابرة للمحسوسات. انظر البداية والنهاية ١١٨/١.

(١) سورة العنكبوت: الآية ٢٧.

(٢) سورة الحديد: الآية ٢٧.

(٣) سقطت (أخبر) من ط.

الوجه الخامس: أنه ليس في القرآن آية تنطق بأن الحواريين
رسل (١) الله، بل (٢) ولا صرح في القرآن بأنه أرسلهم، لكن قال في
سورة يس:

﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ
اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ
مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ
لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا نَطِيرُ نَاطِرًا بِكُمْ لَيْنَ لَمْ تَنْتَهُوا
لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَئِرُكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ ذُكِّرُمْ بَلْ
أَنْتُمْ قَوْمٌ مُشْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَنْقُورُ أَتَبِعُوا
الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ أَتَبِعُوا مَنْ لَا يَسْتَلْكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ
الَّذِي فَطَرَنِي وَالْيَهَّ تَرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ
لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنْ
أَمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَلَيْتُ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾
بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ
مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾
يَحْسَرَةُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

فهذا كلام الله ليس فيه ذكر أن هؤلاء المرسلين كانوا من
الحواريين، ولا أن الذين أرسلوا (٤) إليهم آمنوا بهم، وفيه أن هؤلاء القوم
الذين أرسل إليهم هؤلاء الثلاثة أنزل الله عليهم صيحة واحدة، فإذا هم
خامدون.

(٣) سورة يس: الآيات ١٣ - ٣٠.

(٤) في ك، ط (أرسل).

(١) في ط (هم رسل الله).

(٢) سقطت (بل) من س.

وقد ذكر طائفة من المفسرين، أن هؤلاء كانوا من الحواريين، وأن القرية أنطاكية وأن هذا الرجل اسمه حبيب النجار^(١)، ثم إن بعضهم يقول: إن المسيح أرسلهم في حياته، لكن المعروف عند النصارى، أن أهل إنطاكية آمنوا بالحواريين واتبعوهم لم يهلك الله أهل إنطاكية.

والقرآن يدل على أن الله أهلك قوم هذا الرجل الذي آمن بالرسول.

وأيضاً فالنصارى يقولون: إنما جاءوا إلى أهل إنطاكية بعد رفع المسيح، وأن الذين جاءوا كانوا اثنين لم يكن لهما ثالث. قيل: أحدهما: شمعون الصفا. والآخر بولص^(٢). ويقولون: إن أهل إنطاكية آمنوا بهم، ولا يذكرون حبيب النجار، ولا مجيء رجل من أقصى المدينة، بل يقولون: إن شمعون وبولص، دعوا الله حتى أحيا ابن الملك، فالأمر المنقول عند النصارى، أن هؤلاء^(٣) المذكورين^(٤) في القرآن، ليسوا من الحواريين، وهذا أصح^(٥) القولين عند علماء

(١) سبقت ترجمته.

(٢) جاء في تفسير ابن الجوزي ١٠/٧ - ١١ [سورة يس: آية ١٤]: «وفي اسميهما ثلاثة أقوال: أحدها - صادق، وصدوق، قاله ابن عباس، وكعب.

والثاني: يوحنا وبولس، قاله وهب بن منبه.

والثالث: تومان وبولس، قاله مقاتل.

قال ابن الجوزي - رحمه الله - ، قال مقاتل: واسم هذا الثالث شمعون، وكان من الحواريين، وهو وصي عيسى - عليه السلام - ، وانظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري ٣٣٧/٦ كتاب الأنبياء، باب واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية.

(٣) في هامش ك، ط (هؤلاء الرسل).

(٤) في أ، س، ك (المذكورون) وهو خطأ صوابه ما أثبتته من ط.

(٥) في ط (أصل) وهو تصحيف.

المسلمين، وأئمة المفسرين و^(١)ذكروا أن^(٢) المذكورين في القرآن في سورة يس، ليسوا من الحواريين، بل كانوا قبل المسيح، وسموهم بأسماء غير^(٣) الحواريين، كما ذكر محمد بن إسحاق، قال: سلمة بن الفضل^(٤): كان من حديث صاحب يس فيما حدثني محمد بن إسحاق، عن ابن عباس، وعن كعب^(٥)، وعن وهب^(٦) بن منبه، أنه كان رجلاً^(٧) من أهل إنطاكية، وكان اسمه حبيباً، وكان يعمل الحرير^(٨)، وكان رجلاً سقيماً قد أسرع فيه الجذام، وكان منزله عند باب من أبواب المدينة،

(١) سقطت (الواو) من ك، ط .

(٢) في ك (أن الرسل المذكورين).

(٣) في ك، ط (غير أسماء).

(٤) سقطت (ابن الفضل) من ك، وسبقت ترجمته.

(٥) هو أبو إسحاق كعب بن مائع الحميري، كان يهودياً يمينياً، ثم أسلم، وقدم المدينة أيام عمر، ثم خرج إلى الشام فاختره معاوية وجعله من مستشاريه، وقد ذكره ابن سعد في الطبقة الأولى من تابعي الشام، وهو من رواة الحديث، مات في حمص سنة ٣٢ هـ .

انظر: تذكرة الحفاظ ٥٢/١ (٣٣)؛ وحلية الأولياء ٣٦٤/٥ (٣٢٥)؛ والإصابة لابن حجر ٢٩٧/٣ (٧٤٩٨)؛ والأعلام ٢٢٨/٥ .

(٦) سقطت (وعن وهب) من ط، وجاءت الجملة فيها هكذا (وعن كعب بن منبه) وهو خطأ .

وهب بن منبه: هو أبو عبد الله وهب اليماني الصنعاني، ولد سنة ٣٤ هـ في اليمن، روى عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري وغيرهما من الصحابة، وروى عنه ابنه عبد الله وعبد الرحمن، وأخرج له البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود والنسائي، مات سنة ١١٤ هـ .

انظر: معجم المؤلفين ١٣/١٧٤؛ ووفيات الأعيان ٢/٢٣٨؛ والأعلام ٩/١٥٠ .

(٧) في ط (رجل).

(٨) في ط (بالحرث).

يتاجر^(١)، وكان مؤمناً ذا صدقة يجمع كسبه إذا أمسى فيما يذكرون فيقسمه نصفين، فيطعم نصفه عياله، ويتصدق بنصفه وكان بالمدينة التي هو بها، مدينة إنطاكية، فرعون من الفراعنة، يقال له: إنطخس بن أنطنخس، يعبد الأصنام، صاحب شرك، فبعث الله إليه المرسلين وهم ثلاثة: صادق، وصدوق، وشلوم^(٢)، فقدم الله إليه وإلى أهل المدينة منهم اثنين فكذبوهما، ثم عزز الله بالثالث^(٣).

وروى الربيع بن أنس، عن أبي العالية في قوله - تعالى - (٤) :

﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مِّثْلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِالثَّالِثِ... ﴿٥﴾.

لكي تكون الحجة عليهم أشد، فأتوا أهل القرية فدعوهم إلى الله وحده، وعبادته لا شريك له، فكذبوهم، فأتوا على رجل في ناحية القرية في زرع له فسألهم الرجل: ما أنتم؟ قالوا^(٦): نحن رسل رب العالمين،

(١) في ط (يتأخر).

(٢) في س، ك، ط (سلوم) بالسین المهملة.

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره بسنده قال: حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة، قال: ثنا ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس، وعن كعب الأحبار، وعن وهب بن منبه. وذكره. في التفسير ١٠١/٢٢ (مجلد ٨).

قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٣٣٦/٦، باب واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية... الآية: «القرية المراد بها إنطاكية فيما ذكر ابن إسحاق، ووهب ولعلها كانت مدينة بالقرب من هذه الموجودة، لأن الله أخبر أنه أهلك أهلها، وليس لذلك أثر في هذه المدينة الموجودة الآن، ولم يذكر المصنف - يعني البخاري في ذلك حديثاً مرفوعاً. اهـ.

(٤) سقطت (تعالى) من س، ك، ط.

(٥) سورة يس: الآيتان ١٣ - ١٤.

(٦) في أ (قال) وصحناه من سائر النسخ.

أرسلنا إلى أهل هذه القرية ندعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له . قال لهم : أتسألون على ذلك أجراً؟ قالوا : لا . قال^(١) : فألقى ما في يده ، ثم أتى أهل المدينة فقال :

﴿يَقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾ .

وهذا القول هو الصواب ، وأن هؤلاء المرسلين كانوا رسلاً لله قبل المسيح ، وأنهم^(٢) كانوا قد أرسلوا إلى إنطاكية وآمن بهم حبيب النجار ، فهم كانوا قبل المسيح ، ولم تؤمن أهل المدينة^(٤) بالرسول . بل أهلكهم الله — تعالى — كما أخبر في القرآن ثم بعد هذا عمرت إنطاكية . وكان أهلها مشركين حتى جاءهم من جاءهم من الحواريين فآمنوا بالمسيح على أيديهم . ودخلوا في دين المسيح .

ويقال : إن إنطاكية أول المدائن الكبار الذين آمنوا بالمسيح — عليه السلام — ، وذلك بعد رفعه إلى السماء . ولكن ظن من ظن من المفسرين أن المذكورين في القرآن هم رسل المسيح^(٥) . وهم من

(١) سقطت (قال) من س .

(٢) سورة يس : الآيتان ٢٠ ، ٢١ .

(*) وقد جاء في الدر المنثور للسيوطي ٢٦١/٥ ما نصه : «أخرج ابن أبي حاتم ، عن أبي العالية — رضي الله عنه — في قوله : «إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعزنا بثالث» قال : لكي تكون عليهم الحجة أشد ، فأتوا أهل القرية فدعوهم إلى الله وحده لا شريك له فكذبوهم» .

(٣) في س ، ك ، ط (وإن) .

(٤) في س ، ك ، ط (القرية) .

(٥) عزاه ابن الجوزي في تفسيره زاد المسير ١١/٧ ، ١٤ ، (ط . المكتب الإسلامي) «إلى قتادة ، وابن جريح» . اهـ . وهذا قول ضعيف كما سيأتي زيادة بيان له .

الحواريين وهذا^(١) غلط لوجوه:

منها: أن الله قد ذكر في كتابه أنه أهلك الذين جاءتهم الرسل، وأهل إنطاكية لما جاءهم من دعاهم إلى دين المسيح آمنوا ولم يهلكوا.

ومنها: أن الرسل في القرآن ثلاثة، وجاءهم رجل من أقصى^(٢) المدينة يسعى، والذين جاءوا من أتباع المسيح كانوا اثنين، ولم يأتهم رجل يسعى، لا حبيب ولا غيره.

ومنها: أن هؤلاء جاءوا بعد المسيح فلم يكن الله أرسلهم، وهذا كما أن الله ذكر في القرآن أنه أهلك أهل^(٣) مدين بالظلة لما جاءهم شعيب. وذكر في القرآن أن موسى أتاها وتزوج بنت واحد منها فظن بعض الناس أنه شعيب النبي، وهذا غلط عند علماء المسلمين مثل ابن عباس، والحسن البصري، وابن جريج وغيرهم كلهم ذكروا أن الذي صاهره موسى ليس هو شعيباً النبي، وحكى أنه شعيب عمن لا يعرف من العلماء^(٤) ولم يثبت^(٥) عن أحد من الصحابة والتابعين، كما^(٦) بسطناه في^(٧) موضعه^(٨).

(١) في س، ك، ط (فهذا).

(٢) في س، ك، ط (أهل).

(٣) سقطت (أهل) من أ وزدناها من سائر النسخ.

(٤) سقطت (من العلماء) من س، ك، ط وسقطت (ولم) من س.

(٥) في س، ك، ط (ثبت ذلك).

(٦) في س، ك، ط (كما قد).

(٧) في ط (في موضع آخر).

(٨) ذكر المفسرون في ذلك عدة أقوال، فقليل: إنه شعيب النبي، وقيل: بل كان ابن أخي شعيب، وقيل: رجل مؤمن من قوم شعيب، وقال آخرون: كان شعيب قبل زمان موسى - عليه السلام - بمدة طويلة لأنه قال: «وما قوم لوط منكم =

وأهل الكتاب يقرون بأن الذي صاهره موسى ليس هو شعباً بل رجل من أهل مدين، ومنهم من يقول: إنها غير مدين التي أهلك الله أهلها، والله أعلم.

وكذلك ذكر المفسرون في المرسلين هل أرسلهم الله، أو أرسلهم المسيح؟ قولين:

أحدهما: أن الله هو الذي أرسلهم^(١).

قال أبو الفرج ابن الجوزي. وهذا ظاهر القرآن، وهو مروي^(٢) عن ابن عباس وكعب، ووهب بن منبه. قال: وقال المفسرون في قوله^(٣):

ببعيده، وقد كان هلاك قوم لوط في زمن الخليل — عليه السلام — بنص القرآن، وقد علم أنه كان بين الخليل وموسى عليهما السلام مدة طويلة تزيد على أربعمئة سنة كما ذكره غير واحد، وما قيل: إن شعباً عاش مدة طويلة إنما هو والله أعلم احتراز من هذا الإشكال كما ذكر الحافظ ابن كثير — رحمه الله —، قال: ومن المقوي لكونه ليس بشعيب أنه لو كان إياه لأوشك أن ينص على اسمه في القرآن ها هنا، وما جاء في بعض الأحاديث من التصريح بذكره في قصة موسى لم يصح إسناده... وقد ذكر ابن جرير — رحمه الله — الصواب في هذا أنه لا يدرك إلا بخبر تجب به الحجة في ذلك.

انظر: تفسير ابن جرير الطبري ٤٠/٢٠ (مجلد ٨) ؛ وتفسير ابن كثير ٣٨٤/٣؛ وفتح القدير للشوكاني ١٦٨/٤.

ومدين اسم قبيلة، وقيل: اسم بلد، قال الشوكاني: والأول أولى، وسميت المدينة باسم أبيهم: وهو مدين بن إبراهيم كما يقال بكر وتميم. انظر فتح القدير ٢٢٣/٢.

(١) ذكر الحافظ ابن كثير — رحمه الله — في تفسيره ٥٦٩/٣ أن هؤلاء رسل الله وليسوا رسل المسيح، وأجاب عن القول بأنهم رسل المسيح من عدة وجوه.

وانظر أيضاً البداية والنهاية ٢٢٩/١.

(٢) في س، ك (يروي).

(٣) في ط (قوله تعالى).

﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَابَعْدَةً...﴾ (١).

أخذ جبريل بعضادتي (٢) باب المدينة و (٣) صاح بهم صيحة واحدة
فإذا هم ميتون لا يُسمع لهم حس كالنار إذا أطفئت وذلك قوله :

﴿... فَإِذَا هُمْ خَحِمِدُونَ﴾ (٤).

أي : ساكنون كهيئة الرماد الخامد (٥).

ومعلوم عند الناس أن أهل إنطاكية لم يصبهم ذلك بعد مبعث
المسيح بل آمنوا قبل أن يبدل دينه، وكانوا مسلمين مؤمنين به على دينه
إلى أن تبدل دينه بعد ذلك، ومما يبين ذلك أن المعروف عند أهل العلم
أنه بعد نزول التوراة لم يهلك الله مكذبي الأمم بعذاب من السماء (٦)
يعمهم، كما أهلك قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وفرعون
وغيرهم، بل أمر المؤمنين بجهاد الكفار، كما أمر بني إسرائيل على
لسان موسى بقتال الجبابرة، وهذه القرية أهلك الله أهلها بعذاب من
السماء، فدل ذلك على أن هؤلاء الرسل (٧) المذكورين في يس كانوا
قبل موسى — عليه السلام — ، وأيضاً فإن الله لم يذكر في القرآن رسولاً

(١) سورة يس: الآية ٢٩.

(٢) في س (بعضاً دين).

(٣) في س، ك، ط (ثم).

(٤) سورة يس: الآية ٢٩.

(٥) انظر: زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ١١/٧، ١٤، (ط. المكتب

الإسلامي)، وقد جاء القول الثاني فيه منسوباً إلى قتادة وابن جريح وهو أن عيسى

أرسلهم وسبق التحقيق في ذلك، وأن هذا القول ضعيف والأصح أنهم رسل الله.

(٦) في س، ك، ط (سماوي).

(٧) سقطت (الرسول) من أ وزدناها من سائر النسخ.

أرسله غيره، وإنما ذكر الرسل الذين أرسلهم هو^(١)، وأيضاً فإنه قال:
﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ...﴾^(٢).

فأخبر أنه أرسلهم، كما أخبر أنه أرسل نوحاً وموسى وغيرهما^(٣)،
وفي الآية: ﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ...﴾^(٤).

(١) روى ابن جرير في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ [الآية ٤٣ من سورة القصص] ٥٠/٢٠ (مجلد ٨)، روى من حديث عوف الأعرابي، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري، قال: ما أهلك الله قوماً بعد ما من السماء أو من الأرض بعدما أنزلت التوراة على وجه الأرض غير القرية التي مسخوا قردة، ألم تر أن الله تعالى - يقول: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى...﴾ الآية.

وقد عزاه ابن كثير - رحمه الله - في البداية والنهاية ٢٢٧/١؛ والتفسير ٣٩٠/٣ من هذا الطريق إلى ابن أبي حاتم، والبزار، وابن جرير ثم قال: ورفع البزار في رواية له، والأشبه - والله أعلم - وقفه فدل على أن كل أمة أهلكت بعامة قبل موسى - عليه السلام - فمنهم أصحاب الرس، قال - تعالى - في سورة الفرقان: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا وَكَلَّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ﴾ الآية. وقال - تعالى - في سورة ق: ﴿كَذَبَتْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَحَقَّ وَعِيدُ﴾، وهذا السياق والذي قبله يدل على أنهم أهلكوا ودمروا وتبروا وهو الهلاك. وقال الشوكاني في فتح القدير ١٧٤/٤: «أخرج البزار وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «ما أهلك الله قوماً ولا قرناً ولا أمة ولا أهل قرية بعد ما من السماء منذ أنزل التوراة على وجه الأرض غير القرية التي مسخت قردة» ألم تر قوله وذكر الآية السابقة ٤٣ من سورة القصص».

قلت: أخرج الحاكم في المستدرک ٤٠٨/٢ تفسير آية القصص ٤٣، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الإمام الذهبي. والله أعلم.

(٢) سورة يس: الآية ١٤.

(٣) في ط (وغيرها).

(٤) سورة يس: الآية ١٥.

ومثل هذا هو خطاب المشركين لمن قال: إن الله أرسله وأنزل عليه الوحي لا لمن^(١) جاء رسولاً من عند رسول، وقد قال بعد هذا:

﴿يَحْزَنُونَ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾^(٢).

وهذا إنما هو في الرسل الذين جاءوهم من عند الله لا من عند رسله. وأيضاً: فإن الله ضرب هذا مثلاً لمن أرسل إليه محمداً - صلى الله عليه وسلم - يحذرهم أن ينتقم الله منهم، كما انتقم من هؤلاء، ومحمد إنما يضرب له المثل برسول نظيره لا بمن أصحابه أفضل منهم، فإن أبا بكر، وعمر، وعثمان، وعلياً أفضل من الحواريين باتفاق علماء المسلمين، ولم يبعث الله بعد المسيح رسولاً بل جعل ذلك الزمان زمان فترة كقوله:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ...﴾^(٣).

وأيضاً فإنه قال - تعالى - :

﴿إِذَا رَسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾^(٤) قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا...﴾^(٥).

ولو كانوا رسل رسول لكان التكذيب لمن أرسلهم، ولم يكن في قولهم: إن أنتم إلا بشر مثلنا شبهة، فإن أحداً لا ينكر أن يكون رسل^(٥) رسل الله بشراً، وإنما أنكروا أن يكون رسول الله بشراً، وأيضاً فلو كان

(١) في س، ك، ط (من).

(٢) سورة يس: الآية ٣٠.

(٣) سورة المائدة: الآية ١٩.

(٤) سورة يس: الآيتان ١٤، ١٥.

(٥) سقطت (رسل) من ط.

التكذيب لهما وهما رسل الرسول لأمكنهما أن يقولوا: فأرسلوا إلى من أرسلنا، أو إلى أصحابه فإنهم يعلمون صدقنا في البلاغ عنه، بخلاف ما إذا كانا رسل الله وأيضاً فقله: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ﴾.

صريح في أن الله هو المرسل ومن أرسلهم غيره إنما أرسلهم ذلك لم يرسلهم الله كما لا يقال لمن أرسله محمد بن عبد الله أنهم رسل الله فلا يقال لدحية بن خليفة^(١) الكلبي أن الله أرسله، ولا يقال ذلك للمغيرة بن شعبة، وعبد الله بن حذافة وأمثالهما^(٢) ممن أرسلهم الرسول وذلك أن النبي - صَلَّى الله عليه وسلّم - أرسل رسله إلى ملوك الأرض، كما أرسل دحية بن خليفة إلى قيصر وأرسل عبد الله بن حذافة إلى كسرى، وأرسل حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس، كما تقدم ذكر ذلك.

ومعلوم أنه لا يقال في هؤلاء إن الله أرسلهم، ولا يسمون عند المسلمين رسل الله، ولا يجوز باتفاق المسلمين أن يقال هؤلاء داخلون في قوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾^(٣).

فإذا كانت رسل محمد - صَلَّى الله عليه وسلّم - لم يتناولهم اسم رسل الله في الكتاب الذي جاء به. فكيف يجوز أن يقال: إن هذا الاسم يتناول رسل رسول غيره، والمقصود هنا بيان معاني القرآن وما أراده الله - تبارك وتعالى - بقوله:

﴿إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ (١٣) ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ...﴾^(٤).

(١) سقطت (ابن خليفة) من أوزدناها من سائر النسخ.

(٢) في ط (وأمثالهم).

(٣) سورة الحديد: الآية ٢٥. (٤) سورة يس: الآيتان ١٣، ١٤.

هل مراد الله ورسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - من أرسلهم الله ، أو من أرسلهم رسوله ، وقد علم يقيناً أن محمد - صلى الله عليه وسلم - لم يدخل في مثل هذا فمن قال : إن محمداً - صلى الله عليه وسلم - أراد بذلك من أرسله رسول^(٢) فقد كذب على محمد - صلى الله عليه وسلم - عمداً أو خطأ .



(١) سقطت الجملة الدعائية من س ، ك ، ط .

(٢) في ط (رسولاً) .

فصل

وقد تبين بما ذكرناه فساد قولهم في تفسير آية البقرة، فإنهم قالوا:
وقال في سورة البقرة:

﴿...فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ...﴾^(١).

قالوا: فأعني بقوله أنبياء المبشرين ورسله ينحو بذلك عن
الحواريين الذين داروا في سبعة أقاليم العالم وبشروا بالكتاب الذي هو
الإنجيل الطاهر، لأنه لو كان أعني عن إبراهيم وموسى وداود ومحمد
لكان قال: ومعهم الكتب لأن كل واحد منهم جاء بكتاب دون غيره
ولم يقل إلا الكتاب الواحد، لأنه ما أتى جماعة مبشرين بكتاب واحد
غير الحواريين الذين أتوا بالإنجيل الطاهر^(٢).

فيقال لهم: قد تقدم بعض ما يدل على فساد هذا التفسير.

وأيضاً فإنه قال — تعالى — : ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً...﴾.

أي: فاختلفوا. ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ...﴾.

والحواريون ليسوا من النبيين، وإن كان المسيح أرسلهم ولا يلزم
من إرساله لهم أن يكونوا أنبياء كمن أرسلهم موسى ومحمد وغيرهما
ولهذا تسميهم عامة النصارى رسلاً ولا يسمونهم أنبياء.

(١) سورة البقرة: ٢١٣.

(٢) هكذا نص رسالتهم وفيه أخطاء وضعف في الأسلوب واضح.

وأيضاً فإنه قال: ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾.

والحواريون لم ينزل معهم الكتاب إنما أنزل الكتاب مع المسيح، ولكن الأنبياء أنزل معهم جنس الكتاب؛ فإن الكتاب اسم جنس فيدخل فيه الكتب المنزلة كلها كما في قوله:

﴿... وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ

وَالنَّبِيِّنَ...﴾^(١).

وفي قوله: ﴿... كُلُّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾^(٢).

* وفي القراءة الأخرى (وَكِتَابِهِ وَرُسُلِهِ) *^(٣)، وكذلك قوله عن

مريم: ﴿... وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ...﴾^(٤).

وفي القراءة الأخرى: (وَكِتَابِهِ)^(٥)، وأيضاً قال - تعالى - :

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ...﴾^(٦).

(١) سورة البقرة: الآية ١٧٧.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٨٥.

(٣) سقط ما بين النجمتين من أ وزدناه من سائر النسخ.

(٤) سورة التحريم: الآية ١٢.

(٥) قال الشوكاني - رحمه الله - : «قرأ نافع، وابن كثير، وعاصم في رواية أبي بكر (في آية البقرة) وكتبه بالجمع، وقرأوا في التحريم وكتابه. وقرأ ابن عباس هنا (يقصد آية البقرة) وكتابه، وكذلك قرأ حمزة والكسائي، وروي عنه أنه قال: الكتاب أكثر من الكتب، وبين الزمخشري في الكشف أنه إذا أريد بالواحد الجنس لم يخرج منه شيء».

انظر: فتح القدير ٣٠٧/١؛ والتبصرة في القراءات السبع لمكي بن أبي طالب ص ٥٣٣؛ والغاية في القراءات العشر ص ١٢٢؛ والتيسير في القراءات السبع لأبي عمرو الداني ص ٨٥.

(٦) سورة البقرة: الآية ٢١٣.

وقال - تعالى - في سورة يونس :

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا...﴾ (١).

وهذا يدل أنه لما اختلفت بنو آدم بعث الله النبيين، واختلافهم كان (٢) قبل المسيح بل قبل موسى، بل قبل الخليل، بل قبل نوح، كما قال ابن عباس (٣) : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام ثم حدث فيهم الشرك والاختلاف على وجهين : تارة يختلفون فيؤمن بعضهم، ويكفر بعضهم، كما قال - تعالى - :

﴿...وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْنَا الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ...﴾ (٤).

وقال - تعالى - : ﴿هَذَا نَحْصَانِ اخْتَصِمُوا فِي رَبِّكُمْ...﴾ (٥).

يعني : أهل الإيمان والكفر، وقد يكون المختلفون كلهم على باطل كقوله :

(١) سورة يونس : الآية ١٩ .

(٢) في س، ك، ط (وكان اختلافهم).

(٣) رواه الحاكم في المستدرک، کتاب التاريخ، باب ذکر نوح - علیه السلام - ٥٤٦/٢، ٥٤٧، وقال : هذا حديث صحيح على شرط البخاري، ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وجاء في مجمع الزوائد للهيثمي ١٩٦/١، عن أبي أمامة الباهلي أن رجلاً قال : يا رسول الله أنبيى كان آدم؟ قال : «نعم» قال : كم بينه وبين نوح؟ قال : «عشرة قرون» قال : كم بين نوح وإبراهيم؟ قال : «عشرة قرون» قال : يا رسول الله كم كانت الرسل؟ قال : «ثلاثمائة وخمسة عشر». قال الهيثمي : رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح . وانظر : تفسير ابن كثير ٢/٢٢٣ ؛ وفتح القدير للشوكاني ٢/٢١٧، وقد عزاه فيه إلى ابن أبي حاتم والحاكم .

(٤) سورة البقرة : الآية ٢٥٣ .

(٥) سورة الحج : الآية ١٩ .

﴿... وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ (١).

وقوله:

﴿... وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۖ﴾ (١١٨) ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ...﴾ (٢).

وأيضاً: فالإنجيل ليس فيه حكم بين الناس فيما اختلفوا فيه بل عامته مواعظ ووصايا وأخبار المسيح (٣). بخلاف التوراة والقرآن فإن فيهما من الحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ما ليس في الإنجيل.

وأيضاً فإنه قال:

﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَ نَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ...﴾ (٤).

وذلك يقتضي أن الله هدى الذين آمنوا بعد اختلاف الذين أوتوا الكتاب بغياً بينهم لما اختلفوا فيه من الحق، وهذا ذم لمن أوتوا الكتاب فاختلفوا.

والنصارى داخلون في هذا الذم. ولو كان المراد الإنجيل (٥) لكانوا (٦) هم المذمومين دون غيرهم، وليس كذلك، بل اليهود وغيرهم من المختلفين مذمومون أيضاً، وإنما الممدوح هم المؤمنون الذين (٧) هداهم الله لما اختلف أولئك فيه من الحق بإذنه.

(١) سورة البقرة: الآية ١٧٦.

(٢) سورة هود: الآيتان ١١٨، ١١٩.

(٣) سبق بيان التوراة والإنجيل في أول الكتاب.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢١٣.

(٥) في ط (بالإنجيل).

(٦) في س، ك، ط (كانوا).

(٧) في أ والذين.

وهذا يتناول أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - قطعاً، وقد يتناول كل من آمن من الأمم المتقدمة، كالذين كانوا على دين موسى، والمسيح، وإبراهيم الخليل، كما قال - تعالى - :

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّبِيَّانَ مَن ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(١).

وأما أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - ، فإن الله هداهم لما اختلف فيه الأمم قبلهم من الحق بإذنه، وهذا بين فإنهم على الحق والعدل الوسط بين طرفي الباطل وهذا ظاهر في اتباعهم الحق الذي اختلفت^(٢) فيه اليهود والنصارى في التوحيد والأنبياء والأخبار، والتشريع، والنسخ، والحلال والحرام، والتصديق، والتكذيب^(٣)، وغير ذلك.

أما التوحيد فإن اليهود شبهوا الخالق بالمخلوق فوصفوا الرب - سبحانه - بصفات النقص الذي يختص بها المخلوق، فقالوا: إن الله^(٤) فقير وبخيل، وإنه يتعب وغير ذلك.

والنصارى وصفوا المخلوق بصفات الخالق صفات الكمال الذي^(٥) يختص بها الخالق، فقالوا عن المسيح: إنه خالق السموات والأرض القديم الأزلي علام الغيوب القادر على كل شيء، و :

(١) سورة البقرة: الآية ٦٢.

(٢) في أ (اختلف).

(٣) في أ (غير ذلك من التصديق والتكذيب)، وما أثبتناه من سائر النسخ أصح.

(٤) في س، ك، ط (إنه فقير).

(٥) في س، ك، ط (التي).

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ (١) الآية .

والمسلمون هداهم الله لما اختلفوا (٢) فيه من الحق فلم يشبهوا الخالق بالمخلوق ولا المخلوق بالخالق، بل أثبتوا لله ما يستحقه من صفات الكمال، ونزهوه عن النقائص وأقروا بأنه أحد ليس كمثله شيء وليس له كفواً أحد في شيء من صفات الكمال فنزهوه عن النقائص خلافاً لليهود (٣)، وعن مماثلة المخلوق له خلافاً للنصارى .

وأما الأنبياء — عليهم السلام — فإن اليهود قتلوا بعضاً وكذبوا بعضاً كما قال — تعالى — :

﴿... أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ (٤) .

والنصارى أشركوا بهم وبمن هو دونهم (٥) فعبدوا المسيح بل اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، وجعلوا الحواريين رسلاً لله وزعموا أن الإنسان يصير بطاعته (٦) بمنزلة الأنبياء، وصوروا تماثيل الأنبياء والصالحين، وصاروا يدعونهم ويستشفعون بهم بعد موتهم، وإذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تماثيلهم . وفي الصحيحين أن النبي — صلى الله عليه وسلم — ذكر له كنيسة

(١) سورة التوبة: الآية ٣١، وليس في س، ك، ط لفظ (الآية) .

(٢) في س، ك، ط (اختلف) .

(٣) في أ (خلاف اليهود)، وما أثبتناه من سائر النسخ هو الأولى .

(٤) سورة البقرة: الآية ٨٧ .

(٥) في س (دنهم) .

(٦) في س، ك، ط (إن الإنسان بطاعته يصير) .

بأرض الحبشة وذكر من حسننها وتصاوير فيها، فقال: «أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك التصاوير، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة»^(١).

وأما المسلمون فهداهم الله لما اختلف فيه من الحق بإذنه، فآمنوا بأنبياء الله كلهم ولم يفرقوا بين أحد منهم ولم يغلو فيهم غلو النصارى ولا قصروا في حقهم تقصير اليهود، وكذلك قتل اليهود الذين يأمرون بالقسط من الناس. والنصارى يطيعون من يأمر بالشرك. وإن الشرك لظلم عظيم، ويطيعون من يحرم الحلال ويحلل الحرام. والمسلمون يطيعون من يأمر بطاعة الله، ولا يطيعون من يأمر بمعصية الله. والنصارى فيهم الشرك بالله. واليهود فيهم الاستكبار عن عبادة الله كما قال - تعالى - في النصارى:

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمُّرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾^(٢).

وقال في اليهود:

﴿... أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾^(٣).

والإسلام هو أن يستسلم العبد لله وحده فيعبده وحده بما أمره به. فمن استسلم له ولغيره كان مشركاً، والله لا يغفر أن يشرك به. ومن

(١) سبق تخريجه.

(٢) سورة التوبة: الآية ٣١.

(٣) سورة البقرة: الآية ٨٧.

لم يستسلم له بل استكبر عن عبادته كان ممن قيل فيه :

﴿... اذْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (١).

فلهذا كان جميع الأنبياء وأمهم مسلمين لله يعبدونه وحده بما أمرهم به وإن تنوعت شرائعهم . فالمسيح لم يزل مسلماً لما كان متبعاً لشرع التوراة ولما نسخ الله له نسخة منها .

ومحمد - صلى الله عليه وسلم - لم يزل مسلماً لما كان يصلي إلى بيت المقدس ثم لما صلى إلى الكعبة ولما بعثه الله إلى الخلق كانوا كلهم مأمورين بطاعته وكانت عبادة الله طاعته ، فمن لم يطعه لم يكن عابداً لله فلم يكن مسلماً .

وأما التشريع فإن اليهود زعموا أن ما أمر الله (٢) به يمتنع منه أن ينسخه .

والنصارى زعموا أن ما أمر الله به يسوغ لأكابرهم أن ينسخوه فهدى الله المؤمنين لما اختلفوا فيه من الحق ، فقالوا : إن الله - سبحانه - له أن ينسخ ما شرعه خلافاً لليهود ، وليس للمخلوق (٣) أن يغير شيئاً من شرع الخالق خلافاً للنصارى .

وأما الحلال والحرام والطهارة والنجاسة فإن اليهود حرمت عليهم الطيبات وشددت (٤) عليهم من (٥) أمر النجاسات ، حتى منعوا (٦) من

(١) سورة غافر: الآية ٦٠ .

(٢) في س، ك، ط (أمره) .

(٣) في س (المخلوق) وفي ك، ط (لمخلوق) .

(٤) في س، ك، ط (وشدد) .

(٥) في س، ك، ط (في) . (٦) في س، ك، ط (فمنعوا) .

مؤاكلة الحائض، والجلوس معها في بيت ومن إزالة النجاسة، وحرم عليهم شحم الثرب^(١) والكليتين، وكل ذي ظفر وغير ذلك.

والمسيح - عليه السلام - أحل لهم بعض الذي حرم عليهم فقابلهم النصارى، فقالوا: ليس شيء محرم، لا الخنزير ولا غيره. بل ولا شيء نجس، لا البول، ولا غيره وزعموا أن بعض أكابرهم رأى ملاءة^(٢) صور له فيها صور الحيوان وقيل له: كل ما طابت نفسك ودع ما تكره * وأنه أبيع لهم جميع الحيوان ونسخوا شرع التوراة بمجرد ذلك *^(٣). فالحلال عندهم ما اشتتهه أنفسهم. والحرام عندهم ما كرهته أنفسهم^(٤). فهدى الله^(٥) الذين آمنوا لما اختلف^(٦) فيه من الحق فأحل لهم^(٧) الله الطيبات وحرم عليهم الخبائث وأزال عنهم الأصار والأغلال التي كانت على بني إسرائيل خلافاً لليهود وأمرهم بالطهارة طهارة الحدث والخبث خلافاً للنصارى. والمسيح - عليه السلام - جعلته اليهود ولد زناً كذاباً ساحراً، وجعلته النصارى هو الله خالق السموات والأرض، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا^(٨) فيه من الحق بإذنه

(١) في ط (الترب) بالمشاة الفوقية، وجاءت في س غير منقوطة والثرب وزان فلس:

شحم رقيق على الكرش والإمعاء كما قال في المصباح المنير ١/١١١، ١١٢.

(٢) قال في المصباح المنير ٢/٧٩٨: الملاءة: بالضم والمد، والرَّيْطَةُ ذات لفقين، والجمع ملاء بحذف الهاء. قلت: والرَّيْطَةُ الثوب اللين الرقيق كما ذكر أيضاً ١/٣٣٨.

(٣) ما بين النجمتين ساقط من أ وزدناه من س وهامش ك، ط.

(٤) سقطت (أنفسهم) من أ وزدناها من سائر النسخ.

(٥) سقط لفظ الجلالة من أ وزدناه من سائر النسخ.

(٦) في ط (اختلفوا).

(٧) في س، ك، ط (فأحل الله لهم).

(٨) في س، ك، ط (اختلف).

فشهدوا أنه عبد الله مخلوق خلافاً للنصارى وأنه رسول وجيه في الدنيا والآخرة ومن المقربين خلافاً لليهود، وأما التصديق والتكذيب فإن اليهود من شأنهم التكذيب بالحق، والنصارى من شأنهم التصديق بالباطل فإن اليهود كذبوا من كذبوه من الأنبياء وقد جاءوا بالحق كما قال - تعالى - :

﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ
وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ ^(١).

والنصارى يصدقون بمحالات العقول والشرائع كما صدقوا بالتثليث والاتحاد ونحوهما من الممتنعات.



(١) سورة البقرة: الآية ٨٧.

فصل

ثم^(١) قالوا عن القرآن أنه يشهد^(٢) لهم أنهم أنصار الله حيث يقول
كما قال عيسى بن مريم^(٣): من أنصاري إلى الله قال الحواريون:
﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَإِنَّمَنْتَ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرْتَ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا
عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾^(٤).

فيقال: هذا حق والحواريون مؤمنون مسلمون وهم أنصار الله،
لكن ليس في هذا أنهم رسل الله، ولا في هذا أن كل ما أنتم عليه من
الدين مأخوذ عنهم، ولا في هذا أن الواحد من الحواريين معصوم من
الغلط، بل أمر^(٥) الله المؤمنين من أمة محمد - صَلَّى الله عليه وسلَّم -
أن يكونوا أنصار الله كما طلب المسيح ذلك بقوله: (مَنْ أَنْصَارِي إِلَى
اللَّهِ).

وقد وصف الله المؤمنين أصحاب^(٦) النبي - صَلَّى الله عليه
وسلَّم - من أهل المدينة النبوية بأنهم أنصار الله^(٧) بقوله - تعالى - :

-
- (١) سقطت (ثم) من س، ك، ط .
 - (٢) في س، ط (شهد).
 - (٣) في ك، ط زيادة (للحواريين).
 - (٤) سورة الصف: الآية ١٤ .
 - (٥) في ك، ط (يأمر).
 - (٦) في س (من أصحاب).
 - (٧) سقط لفظ الجلالة من س، ك، ط .

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ
بِإِحْسَنِ رِضَى اللَّهِ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ...﴾ (١).

والمهاجرون أفضل من الأنصار، وهم أيضاً من أنصار الله نصره
كما نصره الأنصار، لكن لما كان لهم اسم^(٢) يخصصهم، وهو^(٣)
المهاجرون، وهو أفضل الاسمين، خص الأنصار بهذا الاسم.
والمهاجرون والأنصار أفضل ممن آمن بموسى ومن آمن بعيسى عند
المسلمين.

ومع هذا فليس فيهم عندهم نبي ولا رسول لله، ولكن فيهم رسل
رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليماً.

• • •

(١) سورة التوبة: الآية ١٠٠.

(٢) سقط (اسم) من ط.

(٣) في ط (وهم).

فصل

قالوا وأما تعظيمه لإنجيلنا وكتبنا التي بأيدينا^(١) فيقول:

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ...﴾^(٢).

وقال في سورة آل عمران:

﴿الْعَمَّ ۝ (١) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝ (٢) نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ۝ (٣) مِنْ قَبْلِ هُدًى لِلنَّاسِ...﴾^(٣).

وقال في سورة البقرة:

﴿الْعَمَّ ۝ (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۝ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ (٤) أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٤).

فأعني^(٥) بالكتاب^(٦) الإنجيل، والذين يؤمنون بالغيب نحن

الرد عليهم في
رغمهم أن
الإسلام عظم
إنجيلهم الذي
بين أيديهم

(١) في س، ك، ط (في أيدينا).

(٢) سورة المائدة: الآية ٤٨.

(٣) سورة آل عمران: الآيات ١ - ٤.

(٤) سورة البقرة: الآيات ١ - ٥.

(٥) في ط (فعني).

(٦) في س (الكتاب).

النصارى الذين آمنوا بالمسيح^(١) وما رأيناه، ثم اتبع بالقول والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك فأعني^(٢) بهم المسلمين الذين آمنوا بما أتى به وما أتى من قبله، وقال في سورة المائدة:

﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

وقال في سورة آل عمران:

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ
وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾^(٤).

فأعني^(٥) أيضاً بالكتاب المنير الذي هو الإنجيل المقدس.

وقال أيضاً:

﴿فَإِن كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾^(٦).

فثبت بهذا ما معنا ونفي عن إنجيلنا وكتبنا التي في أيدينا التهم والتبديل والتغيير لما فيها بتصديقه إياها^(٧).

(١) في س، ك، ط (بالسيد المسيح).

(٢) في ط (فعني).

(٣) سورة المائدة: الآيتان ٤٦، ٤٧.

(٤) سورة آل عمران: الآية ١٨٤.

(٥) في ط (فعني).

(٦) سورة يونس: الآية ٩٤.

(٧) النص من أول الفصل إلى هذا الموضع يوجد في المخطوطة التي بأيدينا (رسالة بولص الأنطاكي) في الورقة الخامسة صفحة أ، مع اختلاف يسير في الألفاظ.

والجواب: بعد أن تعرف أن لفظ الآية الأولى من سورة المائدة:

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ...﴾ (١).

أن يقال: أما تصديق خاتم الرسل محمد رسول الله (ﷺ) — صلى الله عليه وسلم — لما أنزل الله قبله من الكتب ولمن جاء قبله من الأنبياء، فهذا معلوم بالاضطرار من دينه متواتراً تواتراً ظاهراً كتواتر إرساله إلى الخلق كلهم وهذا من أصول الإيمان.

قال — تعالى — :

﴿قُلُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنُتُمْ بِهِ فَقَدْ أَهْتَدُوا وَإِنْ نُؤَلِّفُوا لَمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾.

وقال — تعالى — :

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

(١) سورة المائدة: الآية ٤٨.

(٢) سقط (رسول الله) من س، ك، ط.

(٣) سورة البقرة: الآيتان ١٣٦، ١٣٧.

(٤) سورة آل عمران: الآيتان ٨٤، ٨٥.

وقال :

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى
وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنَى السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى
الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ
أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١﴾

وقال - تعالى - :

﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ
وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفْرِقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ
رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٣٨٥﴾ لَا يَكْفُفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا
مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ قَسِينَا أَوْ أَخْطَاْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا
كَمَا حَمَلْتُمْ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لِطَآئِفَةٍ لَنَا بِهِ ؕ وَاعْفُ عَنَّا
وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾

وتصديقه للتوراة والإنجيل مذكور في مواضع من القرآن، وقد

قال (٣) :

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ
وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ ؕ... ﴿٤﴾

(١) سورة البقرة: الآية ١٧٧ .

(٢) سورة البقرة: الآيتان ٢٨٥ ، ٢٨٦ .

(٣) في ط (قال تعالى) .

(٤) سورة المائدة: الآية ٤٨ .

وقال - تعالى - :

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانٍ...﴾^(١).

وقال^(٢): ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ...﴾^(٣).

فبيّن أنه أنزل هذا القرآن مهيمناً على ما بين يديه من الكتب، والمهمين الشاهد المؤتمن الحاكم، يشهد^(٤) بما فيها من الحق وينفي^(٥) ما حرف فيها ويحكم بإقرار ما أقره الله من أحكامها، وينسخ ما نسخه الله منها وهو مؤتمن في ذلك عليها، وأخبر أنه أحسن الحديث وأحسن القصص وهذا يتضمن أنه كل من كان متمسكاً بالتوراة قبل النسخ من غير تبديل شيء من أحكامها فإنه من أهل الإيمان والهدى، وكذلك من كان متمسكاً بالإنجيل من غير تبديل شيء من أحكامه قبل النسخ، فهو من أهل الإيمان والهدى، وليس في ذلك مدح لمن تمسك بشرع مبدل، فضلاً عما تمسك بشرع منسوخ، ولم يؤمن بما أرسل الله إليه^(٦) من الرسل وما أنزل إليه من الكتب بل قد بين^(٧) كفر اليهود والنصارى بتبديل الكتاب الأول وترك الإيمان بمحمد - صلى الله عليه وسلم - في غير موضع.

وأما تأويلهم قوله: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾، إنه الإنجيل. و﴿إِنَّ الَّذِينَ

(١) سورة الزمر: الآية ٢٣ وفي ط (تقشعر منه جلود الذين آمنوا...) إلى آخر الآية.

(٢) في ط (وقال تعالى).

(٣) سورة يوسف: الآية ٣.

(٤) في ك، ط (فشهد).

(٥) في ط (وبين).

(٦) في س، وهامش ك، (إليه سبحانه).

(٧) في س، ط (بين سبحانه).

يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿١﴾ - عَنِ بِهِم
النصارى فهو من تحريف الكلم عن مواضعه، وتبديل كلام الله كما فعلوه
في قوله: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا﴾، وفي قوله: ﴿بِإِذْنِي﴾ أي
باللاهوت^(١)، وفي قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

وفي غير ذلك مما ذكره وتأولوه من القرآن على غير المعنى الذي
أراد الله به، وهذا مما يؤيد أنهم فعلوا كذلك بالتوراة والإنجيل؛ فإنه إذا
كان القرآن الذي قد عرف تفسيره، والمراد به: العام والخاص، ونقل
ذلك عن الرسول نقلاً متواتراً حتى عرف معناه علماً يقيناً اضطرارياً
فيبدلون معناه ويحرفون الكلم عن مواضعه، فماذا يصنعون بالتوراة
والإنجيل ولم ينقل لفظ ذلك ومعناه كما نقل القرآن وليس في أهل تلك
الكتب من^(٢) يذب عن لفظها ومعناها كما يذب المسلمون عن لفظ
القرآن ومعناه؟

وهؤلاء غرهم قوله: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾، فظنوا أن لفظ ﴿ذَلِكَ﴾ لما
كان يشار بها إلى الغائب أشير بها إلى الإنجيل.

فيقال لهم هذا كقوله: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ
الْحَكِيمِ﴾.

وأشار بذلك إلى ما تلاه قبل هذه الآية، وقوله:

﴿وَسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَ لَكُمْ أَنْفَقُوا ذَلِكَ كُنْكُمْ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ...﴾^(٣).

(١) في ط (بإذن اللاهوت).

(٢) في أ، س، ك (ممن) وما أثبتناه من ط أصح.

(٣) سورة الممتحنة: الآية ١٠.

وقوله :

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُعْطَىٰ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ...﴾ (١).

ومثله — قوله تعالى — بعد أن ذكر خبر يوسف الصديق :

﴿ذَٰلِكَ مِّنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ...﴾ (٢).

وقال أيضاً لما ذكر خبر مريم :

﴿ذَٰلِكَ مِّنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ
أَقْلَمَهُمْ﴾ (٣).

كما قال لما ذكر آيات يخبر فيها عن نوح :

﴿تِلْكَ مِّنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾ (٤).

وقال :

﴿الرَّتِّلْكَ مَا يَنْتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ
تَعْقِلُونَ﴾ (٥).

و «تلك» في المؤنث مثل «ذلك» في المذكر، ومع هذا فأشار إلى

(١) سورة الطلاق: الآية ٢.

(٢) سورة يوسف: الآية ١٠٢.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٤٤.

(٤) سورة هود: الآية ٤٩.

(٥) سورة يوسف: الآيات ١ — ٣.

القرآن ومنه قوله: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ (١).

وقوله: ﴿طَسَّ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٢).

ومنه قوله: ﴿طَسَمَ ۖ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ (٣).

ومنه قوله:

﴿حَمْدٌ ۖ عَسَىٰ ۖ أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٤).

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا...﴾ (٥).

وقوله:

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ...﴾ (٦) الآية.

ومثل هذا كثير، وذلك أنه لما أنزل قوله: ﴿ذلك الكتاب﴾ وتلك آيات الكتاب، ونحو ذلك لم يكن الكتاب المشار إليه قد أنزل تلك الساعة، وإنما كان قد أنزل قبل ذلك فصار كالغائب الذي يشار إليه كما يشار إلى الغائب وهو باعتبار حضوره عند النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يشار إليه كما يشار إلى الحاضر، كما قال - تعالى - :

﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ...﴾ (٧).

(١) سورة الحجر: الآية ١.

(٢) سورة النمل: الآية ١.

(٣) سورة القصص: الآيتان ١، ٢.

(٤) سورة الشورى: الآيات ١ - ٣.

(٥) سورة الشورى: الآية ٧.

(٦) سورة الرعد: الآية ١.

(٧) سورة الأنبياء: الآية ٥٠.

ولهذا قال غير واحد من السلف^(١) «ذلك الكتاب» أي هذا الكتاب، يقولون: المراد هذا الكتاب وإن كانت الإشارة تكون تارة إشارة غائب، وتارة إشارة حاضر، وقد قال:

﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ...﴾^(٢).

وقد وصف النصارى بأنهم لا يؤمنون بالله، ولا باليوم الآخر، وأنهم كافرون ظالمون، فكيف يجعلهم المتقين الذين يؤمنون بالغيب.

قال - تعالى - :

﴿قَدْ نَلَّوْا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا يَوْمَ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾^(٣).

وأول التقوى تقوى الشرك، وقد وصف النصارى بالشرك في قوله:

(١) في تفسير ابن جرير الطبري ٧٤/١ «قال ابن عباس ذلك الكتاب هذا الكتاب»، وبه قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والسدي، ومقاتل، وزيد بن أسلم وابن جريج. وقال الإمام الشوكاني: «والعرب قد تستعمل الإشارة إلى البعيد الغائب مكان الإشارة إلى القريب الحاضر، كما قال خفاف:

أقول له والرمح يأطرمته تأمل خفافاً أني أنا ذالك
انظر: فتح القدير ٣٣/١.

وقال الحافظ ابن كثير: «ومن قال أن المراد بذلك الكتاب الإشارة إلى التوراة والإنجيل فقد أبعد النجعة، وأغرق في النزاع والتكلف ما لا علم له به».

انظر: تفسيره ٣٩/١، وقد ذكر القرطبي - رحمه الله - في تفسيره ١٥٧/١، (المجلد الأول) عشرة أقوال في المراد بالإشارة والصحيح الذي عليه المعول أن المراد به القرآن الكريم كما ذكر علماء السلف والله أعلم.

(٢) سورة البقرة: الآيتان ٢، ٣.

(٣) سورة التوبة: الآية ٢٩.

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَأْمُورًا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (١).

وقال - تعالى - لما ذكر المسيح :

﴿ فَأَخْلَفَ الْآخَرَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٧٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (٢).

وقال - تعالى - :

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ... ﴾ (٣).
وقوله : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ... ﴾ (٤).

ونهى عن موالاتهم فقال :

﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ... ﴾ (٥).

وقد أخبر أن الله ولي المتقين فقال :

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٦).

(١) سورة التوبة : الآية ٣١ . (٤) سورة المائدة : الآية ٧٣ .

(٢) سورة مريم : الآيتان ٣٧ ، ٣٨ . (٥) سورة المائدة : الآية ٥١ .

(٣) سورة المائدة : الآية ٧٢ . (٦) سورة الجاثية : الآيتان ١٨ ، ١٩ .

فلو كانوا من المتقين فضلاً عن أن يكونوا هم المتقين لكان الله وليهم، ولكانت مولاتهم واجبة على المؤمنين، وهو قد نهى عن مولاتهم وجعل من يتولاهم ظالماً، وجعل المؤمنين بعضهم أولياء بعض، والكفار بعضهم أولياء بعض، ولهذا لما قطع الله المولاة بين المؤمنين وبين الكافرين.

قال النبي - صلى الله عليه وسلم - في الحديث الصحيح :
« لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم »^(١).

واتفق المسلمون على أن اليهودي والنصراني لا يرث مسلماً ولو كان ابنه وأباه لأن الله قطع المولاة بينهما، وقد قال - تعالى - :

﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾^(٢).

وأيضاً فإنه قال - تعالى - :

﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾^(٣).

(١) أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب أين ركز النبي - صلى الله عليه وسلم - رايته يوم الفتح ؟ ٩٢/٥ من حديث أسامة بن زيد وفيه (المؤمن) بدل (المسلم) ورواه في كتاب الفرائض ١١/٨، وأخرجه من قول عمر في الحج ١٥٧/٢، ورواه مسلم في الفرائض الحديث الأول من الكتاب ١٢٣٣/٣، وأبوداود في الفرائض، باب هل يرث المسلم الكافر ٣٢٧/٣ (٢٩٠٩)، والترمذي في الفرائض باب ما جاء في إبطال الميراث بين المسلم والكافر ٤٢٣/٤ (٢١٠٧)، وابن ماجه في الفرائض، باب ميراث أهل الإسلام من الشرك ٩١١/٢ (٢٧٢٩)، والدارمي في الفرائض باب في ميراث أهل الشرك وأهل الإسلام ٣٧٠/٢.

(٢) سورة المجادلة: الآية ٢٢.

(٣) سورة البقرة: الآية ٣.

وهي الصلاة التي أمر بها في قوله :

﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُولِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ (١).

وقد قال - صَلَّى الله عليه وسلّم - : «لا يقبل الله صلاة بغير طهور» (٢). والنصارى يصلون بغير طهور.

وقال - صَلَّى الله عليه وسلّم - : «لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب» (٣). وهم لا يقرؤونها. والصلاة التي فرضها وأثنى عليها مشتملة

(١) سورة الإسراء: الآية ٧٨.

(٢) رواه مسلم من حديث ابن عمر يرفعه بلفظ «لا تقبل صلاة بغير طهور، ولا صدقة من غلول». في كتاب الطهارة، باب وجوب الطهارة للصلاة ٢٠٤/١، والترمذي في كتاب الطهارة، باب ما جاء لا تقبل صلاة بغير طهور ٥/١، وقال هذا الحديث أصح شيء في هذا الباب وأحسن، وابن ماجه في الطهارة باب لا يقبل الله صلاة بغير طهور ١٠٠/١ (٢٧٢) وجاء الحديث من طريق أبي المليح عن أبيه (أسامة بن عمير الهذلي) يرفعه بنحوه في سنن أبي داود، في كتاب الطهارة ٤٩/١ (٥٩)، وفي سنن النسائي في الطهارة ٨٧/١، باب فرض الوضوء، وفي سنن ابن ماجه ١٠٠/١ (٢٧١)، وفي سنن الترمذي ٦/١ كتاب الطهارة، وروى البخاري من حديث أبي هريرة يرفعه: «لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ» في كتاب الوضوء ٤٣/٦، ومسلم في الطهارة ٢٠٤/١. وقد تعقب الشيخ أحمد شاكر كلام الترمذي «بأن أصح شيء في الباب حديث ابن عمر» وقال: فيه نظر، ثم ذكر بأن أصح شيء هو حديث أبي هريرة انظر: سنن الترمذي ٦/١ تعليق رقم (٤).

(٣) رواه مسلم في كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة ٢٩٥/١ (٣٩٤) من حديث عبادة بن الصامت بلفظ «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب» وأبو داود في الصلاة، باب القراءة في الفجر ٥١٤/١ (٨٢٢)، والترمذي في الصلاة، باب ما جاء أنه لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب ٢٥/٢ (٢٤٧)، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها، باب القراءة خلف الإمام ٢٧٣/١ (٨٣٧)، وأحمد في المسند ٣١٦/٥، ٣٢٢، والحميدي في مسنده ١٩١/١ (٣٨٦).

على استقبال الكعبة وعلى ركوع وسجدين في كل ركعة، وغير ذلك مما لا يفعله النصارى فكيف يمدحهم بإقامة^(١) الصلاة وهم لا يقيمون الصلاة التي أمر بإقامتها.

ثم لو قال اليهودي المراد بقوله: (ذلك الكتاب) التوراة، و(بالمؤمنين) اليهود، لكان هذا مع بطلانه أقرب من قول القائل: أن المراد بالكتاب الإنجيل؛ لأن التوراة أحق بذلك من الإنجيل فإنها الأصل والله - تعالى - يقرن بينها وبين القرآن في غير موضع كقوله:

﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتْنٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كُتِبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾^(٢).

وقوله - تعالى - :

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَقَامَ فَنَاسٌ مِّنْهُمْ وَأَسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(٣).

وقد قالت الجن لما سمعت القرآن :

﴿قَالُوا يَنْقُومُنَا إِنَّا سَمِعْنَا كُتْبًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾^(٤).

وقال النجاشي - لما سمع القرآن - : «إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة»^(٥). وكذلك ورقة بن نوفل قال: «هذا

(١) في ط (باقام).

(٢) سورة هود: الآية ١٧.

(٣) سورة الأحقاف: الآية ١٠.

(٤) سورة الأحقاف: الآية ٣٠.

(٥) سبق تخريجه في أول الكتاب.

هو الناموس الذي كان ينزل^(١) على موسى بن عمران^(٢).

وقال - تعالى - :

﴿ قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا ﴾^(٣).

أي: التوراة والقرآن. وقالوا: ساحران تظاهرا، أي موسى ومحمد. وقالوا: إنا بكل كافرون.

قال الله^(٤) :

﴿ قُلْ فَأَتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾^(٥).

فقد بين أنه لم يأت من عند الله كتاب أهدى من التوراة والقرآن.

وقال - تعالى - :

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يَبْدُونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثَمَرُ ذَرِّهِمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿١١﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ بِمَبَرِكٍ مُصَدِّقٌ لِلَّذِي فِي يَدَيْهِ الْوَيْلُ وَالْإِنْدَارُ أَمْ الْفَرِئُ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِمْ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾^(٦).

(١) في س (نزل) وسقطت الكلمة من ك.

(٢) سبق تخريجه في أول الكتاب.

(٣) سورة القصص: الآية ٤٨.

(٤) في س، ط (قال الله تعالى) وسقطت الجملة كلها من ك.

(٥) سورة القصص: الآية ٤٩.

(٦) في هامش س وهامش ك، ط بعد كلمة (موسى) جملة (أي الله هو الذي) وهي تفسيرية.
(٧) سورة الأنعام: الآيتان ٩١، ٩٢.

وأما قوله - تعالى - :

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ...﴾ (١).

فهي صفة ثانية للذين يؤمنون بالغيب مجملاً، ثم وصفهم بإيمان مفصل (٢) بما أنزل إليك، وما أنزل من قبله. والعطف بالواو يكون لتغاير الذوات ويكون لتغاير الصفات كقوله تعالى :

﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝ الَّذِي خَلَقَ فَسْوَى ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ۝ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ۝ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ۝﴾ (٣).

والذي خلق فسوى هو (٤) الذي قدر فهدى وهو الذي أخرج المرعى، وكذلك قوله - تعالى - :

﴿وَلَيْنَ سَأَلْنَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۝ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدَرُ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ نُخْرِجُوكَ ۝ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ۝﴾ (٥).

ومثله (٦) قوله :

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝﴾

(١) سورة البقرة: الآية ٤. (٤) سقطت (هو) من س ومكانها (و).

(٢) في ط (مفعل) وهو تحريف. (٥) سورة الزخرف: الآيات ٩ - ١٢.

(٣) سورة الأعلى: الآيات ١ - ٥. (٦) في س (ومثل).

فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ
رَعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ
يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾ .

فهم صنف واحد وصفهم بهذه الصفات بحرف الواو، وكذلك في قوله :

﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ
مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ فِيْ أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ
مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّمَاتِ الْإِسْلَامِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ
مُسْتَفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ
أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾
وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْثَلِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ
يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ .

وقد فسر قبل (٣) - قوله يؤمنون بالغيب، صفة المؤمنين من غير
أهل الكتاب كمشركي العرب، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل
من قبلك صفة من آمن به (٤) من أهل الكتاب .

وعلى هذا القول: هؤلاء غير هؤلاء، لكن هذا ضعيف فإنه لا بد
في المؤمنين من غير أهل الكتاب أن يؤمنوا بما أنزل إليه، وما أنزل من
قبله، ولا بد في مؤمن أهل الكتاب أن يؤمن بالغيب. فكل من الإيمانين

(١) سورة المؤمنون: الآيات ١ - ١١ .

(٢) سورة المعارج: الآيات ١٩ - ٣٥ .

(٣) في س، (وقد قيل أن قوله) وسقطت (قبل) من أ.

(٤) سقطت (به) من س.

واجب على كل واحد، ولا يكون أحد على هدى من ربه مفلحاً إلا بهذا وهذا.

وأما قول النصارى: نحن الذين آمنّا بالسيد المسيح وما رأيناه. فهكذا اليهود آمنوا بموسى - عليه السلام - وما رأوه. والمسلمون آمنوا بمحمد - صلى الله عليه وسلم - وما رأوه، بل المسلمون آمنوا بموسى، وعيسى وسائر النبيين، وما رأوهم بخلاف اليهود والنصارى الذين آمنوا ببعض وكفروا ببعض. ثم الغيب ليس المراد به صورة النبي - عليه السلام - فإن صورة النبي ليست من الغيب فإن الناس يرونها وليس في رؤيتها ما يوجب إيماناً ولا كفرةً، ولكن الغيب ما غاب عن مشاهدة الخلق وهو ما أخبرت به الأنبياء من الغيب فيدخل فيه الإيمان بالله، وملائكته وكتبه، ورسله، وهو الإيمان بأنهم رسل الله وسواء رؤيت أبدانهم أو لم تر فقد يراهم من لم يؤمن برسالتهم، وقد يؤمن برسالتهم من لم يرههم.

والمقصود بالإيمان برسالتهم لا بنفس صورهم حتى يقول القائل: آمنا بنبي ولم نره وقد يعلم من دلائل نبوته وأعلام رسالته من لم يره أكثر مما يعلمها من رآه.



فصل (١)

وأما قوله في سورة المائدة:

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ۝٤٦ وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ۖ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٢).

فهذا ثناء منه على المسيح والإنجيل وأمر للنصارى بالحكم بما أنزل فيه، كما أثنى على موسى والتوراة بأعظم مما عظم به المسيح والإنجيل فقال - تعالى - :

﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخِرِينَ لَّمْ يَأْتُواكَ...﴾ (٣).

أي : قائلون للكذب مصدقون مستجيبون مطيعون لقوم آخرين

(١) كلمة «فصل» في غير موطنها لأن الكلام موصول، وكثيراً ما كانت كلمة «فصل» ترد في مثل هذا المقام في غير موضعها، ولعل المقصود التنبيه، وليس الانتقال من فكرة إلى فكرة كما هو متبع الآن.

(٢) سورة المائدة: الآيتان ٤٦، ٤٧.

(٣) سورة المائدة: الآية ٤١.

لم يأتوك فهم مصدقون للكذب مطيعون لمن^(١) يخالفك وأنت رسول الله .

فكل من تصديق الكذب والطاعة لمن خالف رسول الله - صلى الله عليه وسلم -^(٢) من أعظم الذنوب .

ولفظ «السميع» : يراد به الإحساس بالصوت ويراد به فهم المعنى ويراد به قبوله فيقال : فلان سمع ما يقول فلان . أي : يصدقه أو يطيعه ويقبل منه .

فقوله^(٣) سماعون للكذب أي : مصدقون به وإلاً مجرد سماع صوت الكاذب وفهم كلامه ليس مذموماً على الإطلاق .

وكذلك سماعون لقوم آخرين لم يأتوك أي : مستجيبون لهم مطيعون^(٤) . كما قال في حق المنافقين : «وفيكم سماعون لهم»^(٥) ، أي : مستجيبون مطيعون لهم ، ومن قال : إن المراد به الجاسوس فهو غلط كغلط من قال سماعون لهم : هم الجواسيس ، فإن الجاسوس إنما ينقل خبر القوم إلى من لا يعرفه ، ومعلوم أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان ما يذكره ويأمر به ويفعله يراه ويسمعه كل من بالمدينة مؤمنهم ومنافقهم ، ولم يكن يقصد أن يكتُم يهود المدينة ما يقوله ويفعله ، خلاف من كان يأتيه^(٦) من اليهود وهم يصدقون الكذب ويطيعون لليهود

(١) في ط (لما) .

(٢) سقطت الجملة الدعائية من س ، ك ، ط .

(٣) في ك ، ط (بقوله) .

(٤) في س ، ك ، ط (مطيعون لهم) .

(٥) من سورة التوبة : الآية ٤٧ .

(٦) في ط (يأتيهم) .

الآخرين الذين لم يأتوه، والله نهى نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يحزنه المسارعون في الكفر من^(١) هاتين الطائفتين المنافقتين الذين أظهروا الإيمان به ولم تؤمن قلوبهم ومن أهل الكتاب الذين يطلبون أن يحكم بينهم وليس مقصودهم أن يطيعوه ويتبعوا حكمه بل إن حكم بما يهوانه قبلوه، وإن حكم بخلاف ذلك لم يقبلوه لكونهم مطيعين لقوم آخرين لم يأتوه.

قال - تعالى - :

﴿سَمْعُوكَ لِلْكَذِبِ سَمْعُوكَ لِقَوْمٍ ءَاخِرِينَ﴾.

أي : لم يأتك أولئك القوم الآخرون «يقولون»، أي : يقول السماعون :

﴿... إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٢).

والحكم يفتقر إلى الصدق والعدل فلا بد أن يكون الشاهد صادقاً والحاكم عادلاً وهؤلاء يصدقون الكاذبين من اليهود^(٣) ويتبعون حكم المخالفين للرسول الذين يحكمون بغير ما أنزل الله، وإذا لم يكن قصدهم اتباع الصدق والعدل فليس عليك أن تحكم بينهم، بل إن شئت فاحكم بينهم، وإن شئت فلا تحكم.

(١) في أ، س تقديم وتأخير في الجملة من قوله : (الآخرين إلى هذا الموضع)، وقد أحل بتركيبها، وما أثبتناه من ك، ط .

(٢) سورة المائدة : الآية ٤١ .

(٣) في أ، س (اليهود).

ولكن إذا حكمت فلا تحكم إلا بما أنزل الله إليك، إذ هو العدل.

قال - تعالى - (١) :

﴿ سَمْعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ
أَوْ اعْزِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْزِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم
بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (٢).

ثم قال :

﴿ وَكَيْفَ يُحْكِمُوكَ وَعِنْدَهُمُ التَّورَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ
ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّورَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكَمُ
بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّنِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا
مِنَ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَأَخْشَوْنَ وَلَا
تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (٤)

وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ
وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ
كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٥).

فهذا ثناؤه على التوراة، وإخباره أن فيها حكم الله، وأنه أنزل
التوراة، وفيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا،
وقال عقب ذكرها :

﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (٦).

(١) في ط زيادة قوله : (قال تعالى : ﴿سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين﴾).

(٢) سورة المائدة : الآية ٤٢ .

(٣) سورة المائدة : الآيات ٤٣ - ٤٥ .

(٤) سورة المائدة : الآية ٤٤ .

وهذا أعظم مما ذكره في الإنجيل؛ فإنه قال في الإنجيل:

﴿...وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ...﴾ (١).

وقال فيه:

﴿وَلِيَحْكُمُ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٢).

وقال في التوراة:

﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾.

وقال (٣) عقب ذكرها:

﴿...وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٤).

فهو - سبحانه - مع إخباره بإنزال الكتابين يصف التوراة بأعظم مما يصف به الإنجيل.

كما قال - تعالى - :

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا...﴾ (٥).

وإذا كان ما ذكره من مدح موسى والتوراة لم يوجب ذلك مدح اليهود الذين كذبوا المسيح ومحمداً (٦) صلى الله عليه وسلم (٧)،

(١) سورة المائدة: الآية ٤٦.

(٢) سورة المائدة: الآية ٤٧.

(٣) في س (فقال) والآية من سورة المائدة: الآية ٤٤.

(٤) سورة المائدة: الآية ٤٤.

(٥) سورة المائدة: الآية ٤٤.

(٦) في س (ومحمد).

(٧) في س، ك، ط (وسلم تسليماً).

وليس فيه ثناء على دين اليهود المبدل المنسوخ باتفاق المسلمين والنصارى، فكذلك^(١) أيضاً ما ذكره من مدح المسيح والإنجيل ليس فيه مدح النصارى الذين كذبوا محمداً - صَلَّى الله عليه وسلّم - وبدلوا أحكام التوراة والإنجيل، واتبعوا المبدل المنسوخ، واليهود توافّق المسلمين على أنه ليس فيما ذكر مدح للنصارى، والنصارى توافّق المسلمين على أنه ليس فيما ذكر مدح لليهود بعد النسخ والتبديل. فعلم اتفاق أهل الملل كلها: المسلمون، واليهود والنصارى، على أنه ليس^(٢) فيما ذكر في القرآن من ذكر التوراة والإنجيل، وموسى، وعيسى مدح لأهل الكتاب الذين كذبوا محمداً^(٣) - صَلَّى الله عليه وسلّم - ، ولا مدح لدينهم المبدل قبل مبعثه فليس في ذلك مدح لمن تمسك بدين مبدل، ولا بدين منسوخ، فكيف بمن تمسك بدين مبدل منسوخ؟



(١) في س (وكذلك).

(٢) في س (إنس) وهو تصحيف.

(٣) في س (محمد).

فصل

وهنا (١) أصل لا بد من بيانه (٢) وهو أنه قد دلت النصوص على أن الله لا يعذب إلا من أرسل إليه رسولا تقوم به الحجة عليه .
قال - تعالى - :

قيام الحجّة
على من بلغته
دعوة الرُّسل

﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ (١٣) ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ (١٤) ﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ فَأِنَّمَا هتَدَىٰ لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَأِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا نُزِرُ وَاِزْرَةً وَلَا نُزِرُ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (١٥) .

وقال - تعالى - :

﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ (١٦) .

وقال - تعالى - عن أهل النار :

﴿كُلَّمَا أَلْقَىٰ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ (١٧) ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ...﴾ (١٨) .

وقال (١٩) :

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ هَٰذَا جَزَاءُ هَٰؤُلَاءِ ۖ فَتِيحتُ أَبْوَابُهَا

(١) في ك ، ط (هذا) .

(٢) في ك ، ط (ثباته) .

(٣) سورة الإسراء : الآيات ١٣ - ١٥ .

(٤) سورة النساء : الآية ١٦٥ .

(٥) سورة الملك : الآيتان ٨ ، ٩ ، وذكر تمام الآية في ك ، ط ﴿إن أنتم إلا في ضلال

كبير﴾ . (٦) في ط (قال تعالى) .

وَقَالَ لَهُمْ خُزِّنْهَا لَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿١﴾
وقال - تعالى - :

﴿يَمْعَشِرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٢﴾﴾
وقال - تعالى - :

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٣﴾﴾
وقال - تعالى - :

﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا... ﴿٤﴾﴾
إلى قوله :

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أَوْفَىٰ مِثْلَ مَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ أَوَّلَمَ يَكْفُرُوا بِمَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُمْ لِكُفْرُونِ ﴿٥﴾﴾.

(١) سورة الزمر: الآية ٧١.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٣٠.

(٣) سورة القصص: الآية ٥٩.

(٤) سورة القصص: الآيتان ٤٧، ٤٨، وقد جاء في النسخ المخطوطة كلها خطأ في الآية الأولى حيث ورد ﴿ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله...﴾ الآية، ثم قال إلى قوله: ﴿فلما جاءهم الحق...﴾ الآية، وذكر آية القصص مع أن الآية الأولى من سورة طه رقم ١٣٤، والمراد عرض آيات القصص.

وقال - تعالى - :

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ (١).

(وقوله) :

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢).

وإذا كان كذلك فمعلوم أن الحجة إنما تقوم بالقرآن على من بلغه
كقوله : ﴿لَا نُذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ ، فمن بلغه بعض القرآن دون بعض
قامت عليه الحجة بما بلغه دون ما لم يبلغه ، فإذا (٣) اشتبه معنى بعض
الآيات ، وتنازع الناس في تأويل الآية ، وجب رد ما تنازعوا فيه إلى الله
ورسوله (٤) ، فإذا اجتهد الناس في فهم ما أراده الرسول (٥) فالمصيب له
أجران والمخطيء له أجر (٦) فلا يمنع (٧) أن يقال ذلك في أهل الكتاب
قبلنا فمن لم يبلغه جميع نصوص الكتاب قبلنا ، لم تقم عليه الحجة
إلا (٨) بما بلغه وما (٩) خفي عليهم (١٠) معناه منه فاجتهد في معرفته فإن

(١) سورة المائدة: الآية ١٥ ، وقد سقط ذكر هذه الآية من ك ، ط .

(٢) سورة المائدة: الآية ١٩ .

(٣) في س (وإذا) .

(٤) في س ، ك ، ط (والرسول) .

(٥) في ك ، ط (الرسول) .

(٦) في ط (أجر واحد) .

(٧) في س ، ك ، ط (يتمتع) .

(٨) سقطت (إلا) من ك ، ط .

(٩) في ك ، ط (فيما) بدل (وما) .

(١٠) في س (عليه) .

أصاب فله أجران. وإن أخطأ فله أجر وخطأه محطوط عنه. فأما من
تعمد تحريف الكتاب لفظه أو معناه وعرف ما جاء به الرسول فعانده فهذا
مستحق للعقاب، وكذلك من فرط في طلب الحق واتباعه^(١) متبعاً لهواه
مشتغلاً عن ذلك بدنياه.

وعلى هذا، فإذا كان بعض أهل الكتاب قد حرفوا بعض الكتاب
وفهم آخرون لم يعلموا ذلك فهم^(٢) مجتهدون في اتباع ما جاء به
الرسول لم يجب أن يجعل هؤلاء من المستوجبين للوعيد، وإذا^(٣) جاز
أن يكون في أهل الكتاب من لم يعرف جميع ما جاء به المسيح، بل
خفي عليه بعض ما جاء به أو بعض معانيه فاجتهد لم يعاقب على ما
لم يبلغه. وقد تحمل أخبار اليهود الذين كانوا مع تبع^(٤) والذين كانوا
ينتظرون الإيمان بمحمد - صلى الله عليه وسلم - من أهل المدينة
كابن التيهان^(٥) وغيره على هذا، وإنهم لم يكونوا مكذبين للمسيح
تكذيب غيرهم من اليهود.

(١) سقطت (واتباعه) من أ وزدناها من سائر النسخ.

(٢) في س، ك، ط (وهم).

(٣) في ك، ط (فإذا).

(٤) تبع بن حسان بن تبيان: من ملوك حمير في اليمن. قيل: اسمه مرثد، وهو تبع
الأصغر، آخر التباغة، ملك بعد عبد كلال، وعقد الحلف بين اليمن وربيعة، وسار
إلى الشام فلقية قوم من حمير، فشكوا إليه ما نزل بهم من اليهود في يثرب (المدينة)
فسار إلى يثرب ونزل في سفح «أحد» وبعث إلى اليهود فقتل منهم ثلاثمائة رجل،
وذللها لهم، وكان ملكه ٧٨ سنة.

انظر: البداية والنهاية ٣١٠/٢، والأعلام للزركلي ٨٣/٢.

(٥) في أ، س (الهيان) وفي ك، ط (الهيان) وكلها خطأ والصواب (التيهان) بفتح
المثناة الفوقانية مع كسرهما كما ضبطه الحافظ ابن حجر في الإصابة ٢٠٩/٤. وهو
أبو الهيثم بن التيهان بن مالك الأنصاري الأوسي، يقال التيهان لقب، واسمه مالك
وقد اشتهر بكنيته، كان أحد النقباء ليلة العقبة، ثم شهد بدرًا والمشاهد كلها. قالوا: =

وقد تنازع الناس هل يمكن مع الاجتهاد واستفراغ الوسع أن لا يبين للنظر^(١) المستدل صدق الرسول أم لا؟^(٢).

وإذا لم يبين له ذلك هل يستحق العقوبة في الآخرة أم لا^(٣)؟

وتنازع^(٤) بعض الناس في المقلد منهم أيضاً والكلام في مقامين:

المقام الأول^(٥): في بيان^(٦) خطأ المخالف للحق وضلاله. وهذا مما يعلم بطرق متعددة عقلية وسمعية، وقد يعرف الخطأ في أقوال كثيرة^(٧) من أهل القبلة المخالفين للحق، وغير أهل القبلة بأنواع متعددة من الدلائل.

والمقام الثاني: الكلام في كفرهم واستحقاقهم الوعيد في الآخرة.

فهذا فيه ثلاثة أقوال للناس من أصحاب الأئمة المشهورين مالك

وكان شاعراً له قصيدة في رثاء النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول فيها:
لقد جدعت أذاننا وأنوفنا غداة فجعنا بالنبي محمد
مات - رضي الله عنه - سنة إحدى وعشرين على الصحيح كما قال ابن حجر.
انظر في ترجمته: الإصابة ٢٠٩/٤ (١١٩٩)؛ والاستيعاب لابن عبد البر هامش
الإصابة ١٩٩/٤؛ ومغازي الواقدي ٧١٨/٢؛ وطبقات ابن سعد ٢١٨/١، وصفة
الصفوة ١٨٣/١، والأعلام للزركلي ٢٥٨/٥.

(١) في ك، ط (للمناظر).

(٢) في ك، ط (أولاً).

(٣) في س، ك، ط (أم لا يستحقها).

(٤) سقطت (الواو) من ك.

(٥) سقط المقام الأول من أ، س، ك وزدناه من ط.

(٦) في ك، ط (شأن).

(٧) في س (كثير).

والشافعي وأحمد لهم الأقوال الثلاثة.

قيل^(١): إنه يعذب في النار من لم يؤمن وإن لم يرسل إليه رسول لقيام الحجة عليه بالعقل، وهذا قول كثير ممن يقول بالحكم العقلي من أهل الكلام والفقهاء من أصحاب أبي حنيفة وغيرهم، وهو اختيار أبي الخطاب^(٢).

وقيل: لا حجة عليه بالعقل، بل لا^(٣) يجوز أن يعذب من لم يقيم عليه حجة لا بالشرع، ولا بالعقل، وهذا قول من يجوز تعذيب أطفال الكفار ومجانينهم، وهذا قول كثير من أهل الكلام كالجهنم^(٤)، وأبي الحسن الأشعري^(٥) وأصحابه، والقاضي —————

(١) في س (فقل).

(٢) محفوظ بن أحمد الكلوزاني، نسبة إلى كلوزان من ضواحي بغداد ولد عام ٤٣٢هـ، وتوفي عام ٥١٠هـ، وهو إمام الحنابلة في عصره، وأحد تلاميذ القاضي أبي يعلى، واسع العلم، قوي الإدراك. ألف في فنون مختلفة وصنف في المذهب الحنبلي، وله اختيارات معتمدة عند أئمة الحنابلة، وله شعر حسن من تصانيفه: الهداية في الفقه، والتمهيد في أصول الفقه، وغيرها.

انظر: شذرات الذهب ٢٧/٤؛ والعبر في خبر من غبر ٢١/٤؛ وطبقات الحنابلة ٢٥٨/٢؛ وذيله ١١٦/١ - ١٢٧ (٦٠)؛ ومناقب الإمام أحمد ص ٦٣٥؛ والبداية والنهاية ١٢/١٨٠؛ وابن قدامة وآثاره الأصولية للدكتور عبد العزيز السعيد ٥٥/١.

(٣) سقطت (لا) من أ، س وزدناها من ك، ط.

(٤) الجهنم بن صفوان السمرقندي وسبقت ترجمته.

(٥) أبو الحسن الأشعري: علي بن إسماعيل بن إسحاق من نسل الصحابي أبي موسى الأشعري. ولد سنة ٢٦٠هـ في البصرة، كان معتزلياً ثم رجع عن ذلك وجاهر بخلافهم، وألف كتابه الإبانة في أصول الديانة، يوضح فيه أنه يقول بقول الإمام أحمد، اشتهر بسعة علمه، ودقة فهمه، وكثرة تصانيفه، ومن أشهر مؤلفاته: مقالات الإسلاميين، والإبانة عن أصول الديانة، واللمع في الرد على أهل الزيع والبدع وغيرها. توفي رحمه الله سنة ٣٢٤هـ ببغداد.

أبي يعلى^(١)، وابن عقيل^(٢) وغيرهم.

والقول الثالث: وعليه السلف والأئمة: إنه لا يعذب إلا من بلغته الرسالة، ولا يعذب إلا من خالف الرسل كما دل عليه^(٣) الكتاب والسنة.

قال - تعالى - لإبليس^(٤):

﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٥).

وإذا كان كذلك فنحن فيما^(٦) نناظر فيه أهل الكتاب: متقدمهم ومتأخريهم، تارة نتكلم في المقام الأول، وهو بيان مخالفتهم للحق وجهلهم وضلالهم، فهذا تنبيه لجميع الأدلة الشرعية والعقلية وتارة^(٧) نبين^(٨) كفرهم الذي يستحقون به العذاب في الدنيا والآخرة، فهذا

انظر: وفيات الأعيان ٢٨٤/٣ (٤٢٩)؛ والعبر للذهبي ٢٠٢/٢؛ والبداية والنهاية ١٨٧/١١؛ وشذرات الذهب ٣٠٣/٢؛ تاريخ بغداد ٣٤٦/١١؛ والأعلام للزركلي ٢٦٣/٤.

(١) سبقت ترجمته.

(٢) ابن عقيل هو علي بن محمد بن عقيل البغدادي، قاضي القضاة، وعالم العراق وشيخ الحنابلة في وقته، ولد سنة ٤٣١هـ، واشتهر بسعة علمه، وكثرة تصانيفه ومنها الفنون في مختلف العلوم يقال لم يؤلف في الدنيا أوسع منه، والفصول في الفقه وغيرهما وهو من تلاميذ القاضي أبي يعلى الفراء، مات رحمه الله سنة ٥١٣هـ.

راجع طبقات الحنابلة ٢٥٩/٢؛ وذيل طبقات الحنابلة ١٤٢/٣؛ والبداية والنهاية ١٨٤/١٢؛ وابن قدامة وآثاره الأصولية للدكتور عبد العزيز السعيد القسم الأول ص ٥٦ - ٥٨.

(٣) في س (على ذلك).

(٨) في ك، ط (وتبين).

(٤) سقطت (إبليس) من ك.

(٥) سورة ص: الآية ٨٥.

(٦) في ك، ط (فهو كما تناظر).

(٧) سقطت (تارة) من أ، ط، ك وزدناها من س.

أمره إلى الله ورسوله لا يتكلم فيه إلا بما أخبرت به الرسل^(١)، كما أنا أيضاً لا نشهد بالإيمان والجنة إلا لمن شهدت له الرسل، ومن لم تقم عليه الحجة في الدنيا بالرسالة كالأطفال والمجانين وأهل الفترات^(٢) فهؤلاء فيهم أقوال أظهرها ما جاءت به الآثار أنهم يمتحنون يوم القيامة فيبعث الله^(٣) إليهم من يأمرهم بطاعته، فإن أطاعوه استحقوا الثواب، وإن عصوه استحقوا العقاب^(٤)^(٥).

(١) في أ (أخبر به الرسول). (٣) سقط لفظ الجلالة من ك، ط.

(٢) في ك (العثران) وهو تحريف ظاهر. (٤) في ط (العذاب).

(٥) ذكر العلماء أن أهل الفترة على قسمين:

١ - من بلغته الدعوة وهم على قسمين:

(أ) من كان موحداً كقس بن ساعدة، وزيد بن عمرو بن نفيل، وغيرهما فهؤلاء ماتوا على التوحيد كما وردت بذلك نصوص.

(ب) ومن كان مشركاً كعمرو بن لحي. أول من سن عبادة الأصنام فبحر البحيرة، وسبب السائبة... إلخ. وقد ثبت في صحيح مسلم ٢١٩١/٤ (٢٨٥٦) أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قال رأيت عمرو بن لحي يعجز قصبه (امعاءه) في النار، وعبد الله بن جدعان وقد ثبت في صحيح مسلم ١٩٦/١ (٢١٤) أن عائشة لما سألت النبي - صلى الله عليه وسلم - هل ينفعه صلته للرحم وكرمه؟ قال - صلى الله عليه وسلم - : «لا، إنه لم يقل يوماً رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين»، فهؤلاء ماتوا على الشرك - وهذا القسم بنوعيه ليس محلاً للتزاع.

٢ - من لم تبلغه الدعوة وبقي على حين غفلة. وللعلماء فيه ثلاثة أقوال:

الأول: أنهم ينجون من العذاب. وهذا قول الأشاعرة من أهل الكلام، وبعض الشافعية من الفقهاء، ومن أدلتهم قوله - تعالى - : ﴿مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ تَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ١٥].

وقوله - تعالى - : ﴿إِنَّمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [سورة النساء: الآية ١٦٥] وغيرها. وحديث: «ما من أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أرسل الرسل». قالوا: وأهل الفترة معذورون لعدم إرسال الرسل إليهم.

الثاني: أنهم من أهل النار، وهذا قول المعتزلة، وبعض الماتوريدية. قالوا: لأنهم مكلفون، وإن لم يرسل لهم رسل أن يستدلوا بعقولهم فما استحسنة العقل فهو حسن، وما استقبحه فهو قبيح، واستدلوا بأدلة عامة لا تفيد التنقيص، والتخصيص كقوله - تعالى - : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَذَى بِهِ...﴾ [الآية ٩١ من سورة آل عمران]. وقوله - تعالى - : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ...﴾ [الآية ١٤٨ من سورة النساء]. وغيرها من أدلة العموم.

واستدلوا بمحاجة الرسل لأقوامهم حينما دعوهم إلى التفكير واستخدام العقل، وهذا واضح في أن هؤلاء مرسل إليهم، ولا خلاف فيمن بلغته الدعوة. الثالث: أن أهل الفترة يمتحنون في عرصات القيامة بنار يأمر الله بدخولها فمن دخلها كانت عليه برداً وسلاماً، ومن لم يدخلها فقد عصى الله - تعالى - فدخله الله فيها، وهذا قول السلف وجمهور الأئمة، واختاره الإمام ابن تيمية، وابن القيم، وابن كثير، وابن حجر، وابن حزم، والشنقيطي في أضواء البيان ٤٨٣/٣، وأدلة هذا القول كثيرة منها:

الحديث الذي رواه أحمد في مسنده من طريق الأسود بن زريع أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «أربعة يحتجون يوم القيامة: رجل لا يسمع شيئاً، ورجل أحمق، ورجل هرم، ورجل مات في الفترة...» وذكر في آخر الحديث - فيرسل إليهم أن ادخلوا النار فالذي نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً.

قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢١٦/٧ وهذا لفظ أحمد، ورجاله من طريق الأسود بن زريع، وأبي هريرة رجال الصحيح، ثم ذكر الهيثمي حديثاً آخر بمعناه. وهذه الأحاديث تخصص ما ورد من أدلة العموم التي استدلت بها أصحاب القول الآخر، وغير متنافية معها، والجمع بين الأدلة واجب ما أمكن كما بين العلماء. وعللوا أن عمل الدليلين أولى من إسقاط أحدهما. وأما أدلة الفريق الآخر فلا تدل على أن أهل الفترة ناجون، وأنهم من أهل الجنة.

يقول ابن حجر - رحمه الله - في فتح الباري ٢٤٦/٣: «قد صحت مسألة الامتحان في حق من مات في الفترة والمجنون». اهـ.

ويرد هنا سؤال: هل يتنافى التكليف والامتحان في عرصات القيامة مع كون الآخرة دار جزاء؟ والجواب كما ذكر العلماء: لا تنافي في ذلك، والأدلة على أنه يكلف =

المرء في الآخرة قوله - تعالى - : ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ﴾
 الآية [سورة القلم : الآيتان ٤٢ - ٤٣] . وهذا تكليف، وحديث في صحيح البخاري
 ٧٢/٦؛ كتاب التفسير وفيه «يكشف ربنا عن ساقه يوم القيامة فيسجد له كل مؤمن
 ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رثاءً وسمعة، فيذهب ليسجد فيعود ظهره
 طبعاً واحداً» .
 وأما من قال بعدم التكليف فأدلتهم عقلية لا تقوى على معارضة الأدلة النقلية والله
 - عز وجل - فعال لما يريد، ولا راد لمشيئته .
 راجع في هذه المسألة المؤلفات التالية :
 مختصر الفتاوى المصرية ص ٦٤٦ ؛ وطريق الهجرتين لابن القيم ص ٧٠٥ ، ٦٩٥ ؛
 وفتح الباري ٢٤٦/٣ ، ٤٨٦ ، ٦٦٤/٨ ؛ وتفسير ابن كثير ٣/٣٥ ؛ والفصل
 لابن حزم ٤/٦٠ ، ٧٠ ؛ ومقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري ١/٣٤٩ ؛
 ومجمع الزوائد للهيتمي ٧/٢١٦ ؛ وأضواء البيان للشنقيطي ٣/٤٨٣ ، وجمع
 الجوامع للسبكي ١/٦٢ - ٦٣ حاشية البناني على شرح المحلى على متن جمع
 الجوامع ، والبداية والنهاية ٢/٢٣٠ ؛ وتجريد التمهيد لابن عبد البر ص ٣٢٦ ،
 ورسالة ماجستير للشيخ موفق شكري بعنوان (أهل الفترة) .
 وأما أطفال المشركين فقد تعددت أقوال العلماء في شأنهم فقليل في الجنة وقد ذهب
 إلى ذلك البخاري ، والنووي ، وابن الجوزي ، وابن حزم ، وابن حجر ، وجماعة من
 المفسرين . وقيل : في النار ، قاله القاضي أبو يعلى ، وذهب إليه الأزارقة من الخوارج
 وغيرهم .
 وقيل : يمتحنون في عرصات القيامة ، اختاره ابن تيمية وابن القيم .
 وقيل : التوقف فلا يحكم لهم بجنة أو نار .
 انظر في هذه المسألة : مجموع الفتاوى ٢٤/٣٧٢ ؛ وفتح الباري ٣/٢٤٥ ؛ والنووي
 بشرح مسلم ١٦/٢٠٧ ؛ وشرح الأصول الخمسة لعبد الجبار الهمذاني ص ٤٧٧ ؛
 والفصل ٤/٧٤ ؛ وروح المعاني للألوسي ١٥/٣٧ ؛ وتجريد التمهيد لما في الموطأ
 من المعاني والأسانيد لابن عبد البر ص ٣١٠ ، وحكى الأقوال كلها بأدلتها في نحو
 خمسين صفحة ؛ والفتح المبين لأبي يعلى ١/٢٤٥ ؛ وأحكام أهل الذمة
 ٦١٩/٢ - ٦٥٦ ؛ طريق الهجرتين ص ٦٧٩ .

وإذا كان كذلك فنحن نشهد لمن كان مؤمناً بموسى متبعاً له أنه^(١) مؤمن مسلم مستحق للثواب.

وكذلك من كان مؤمناً بالمسيح متبعاً له . ونشهد لمن قامت عليه الحجة بموسى فلم يتبعه كآل فرعون أنهم من أهل النار.

وكذلك من^(٢) قامت عليه الحجة بالمسيح الذين قال الله فيهم :

﴿... قَالَ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾^(٣).

والذين قال فيهم :

﴿... يَٰعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَرَافِعُكَ إِلَىٰ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ٥٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ٥٧﴾^(٤).

وأما من بعد عهده بالمسيح وبلغته بعض أخباره دون بعض ، أو بموسى وبلغه^(٥) أخباره دون بعض ، فهؤلاء قامت عليهم الحجة بما بلغهم من أخبارهم دون ما لم يبلغهم من أخبارهم ، وإذا اختلفوا في تأويل بعض التوراة والإنجيل فمن قصد الحق واجتهد في طلبه لم يجب

(١) في س (وأنه) وفي ط (بأنه) وسقطت من ك .

(٢) في ك ، ط (لمن) .

(٣) سورة المائدة : الآية ١١٥ .

(٤) سورة آل عمران : الآيات ٥٥ - ٥٧ .

(٥) في ك ، ط (وبلغته) .

أن يعذب، وإن كان مخطئاً للحق جاهلاً به ضالاً عنه، كالمجتهد في طلب الحق من أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - .

وعلى هذا فإذا قيل: أن الحواريين، أو بعضهم، أو كثيراً من أهل الكتاب، أو أكثرهم كانوا يعتقدون أن المسيح نفسه صلب. كانوا مخطئين في ذلك ولم يكن هذا الخطأ مما يقدر في إيمانهم بالمسيح إذا آمنوا بما جاء به، ولا يوجب لهم النار فإن الأناجيل التي بأيدي أهل الكتاب فيها ذكر صلب المسيح وعندهم أنها مأخوذة عن الأربعة: مرقس^(١)، ولوقا^(٢)، ويوحنا^(٣)،

(١) مرقس: اسم لاتيني معناه (مطرقة) وهو من السبعين الذين يقال أن المسيح عيسى - عليه السلام - اختارهم، وأرسلهم ليعلموا المسيحية، وقد طاف البلاد داعياً ثم اتخذ مصر مقراً له، وكان يهودياً من بيت لاوي، ثم تتلمذ على يد بطرس، ومات مقتولاً كما في سفر الأعمال في الاسكندرية سنة ٦٨ قتلته الوثنيون في عهد نيرون من ملوك الرومان، وقد ألف الإنجيل لطلب أهل رومية لذلك فيما بين عامي ٦٠ - ٧٠ م. انظر: نظم الجوهر لابن البطريق ص ٤٤؛ والمسيحية للدكتور شلبي ص ٢٠٩؛ وتحقيق تاريخ الأناجيل ص ٣٤؛ ومحاضرات في النصرانية ص ٥٣؛ وقاموس الكتاب المقدس ص ٨٥٣.

(٢) لوقا: اسم لاتيني ربما كان اختصار «لوقانوس» وهو تلميذ بولس الذي كان عدواً للنصارى ثم أصبح رسولاً لهم، وهو من أهل أنطاكية ولم ير المسيح وليس من الحواريين، ولا من تلاميذهم. كان طبيباً، وقيل: مصوراً كتب إنجيله باللغة اليونانية فيما بين عامي ٦٠ - ٧٠ م، وهو رسالة إلى صديقه (ثاوفيلس) كما أعلن هو عن ذلك في الإصحاح الأول منه، وقد ذكر المحققون من المسيحيين أنه ليس إلهاً.

انظر: تحقيق تاريخ الأناجيل ص ٣٦ - ٣٧؛ والمسيحية لشلبي ص ٢١٢؛ ومحاضرات في النصرانية ص ٥٥؛ وقاموس الكتاب المقدس ص ٨٢٢.

(٣) يوحنا أحد الحواريين الاثني عشر، ولد في صيدا من أعمال الجليل، وهو ابن زبدي الصياد، وأخو يعقوب الكبير، كان صياداً ثم اتبع المسيح، نفاه القيصر (دوميتان) إلى جزيرة بطمس من جزر بحر إيجه ثم عاد إلى أفسس ولبث بها مبشراً، ثم مات شيخاً، كتب إنجيله باليونانية، وعرض فيه ليسوع المسيح من وجهة نظر اللاهوتية،

ومتى^(١). ولم يكن في الأربعة من شهد صلب المسيح ، ولا من الحواريين ، بل ولا في أتباعه من شهد صلبه^(٢)، وإنما الذين شهدوا الصلب طائفة من اليهود فمن الناس من يقول: أنهم علموا أن المصلوب غيره وتعمدوا الكذب في أنهم صلبوه وشبه صلبه على من أخبروهم . وهذا قول طائفة من أهل الكلام: المعتزلة وغيرهم وهو قول ابن حزم^(٣)_____

ويتصف إنجيل يوحنا بالطابع الفلسفي الذي يعد روح المدرسة الاسكندرية .
انظر: الفارق بين المخلوق والخالق ص ٣٤١ - ٣٤٢؛ وتحقيق تاريخ الأنجيل ص ٤١؛
والمسيحية لشلبي ص ٢١٣؛ ومحاضرات في النصرانية ٥٧ - ٥٨؛ وقاموس
الكتاب المقدس ص ١١٠٦ .

(١) متى: من الاسم العبري (مثنيا) الذي معناه (عطية يهوه) أحد الحواريين الذين آمنوا بالمسيح، وعاونوه، وتعلموا عليه، وعددهم اثنا عشر وقد ورد ذلك في الإصحاح العاشر: ص ١ - ٤ من إنجيل متى، ويعرف بمتى العشار حيث كان عشاراً، أي: من جبة الضرائب للحاكم الروماني في ذلك الوقت، وكان يهودياً ثم آمن بدعوة المسيح، وترك وظيفة العشارين، وقد كتب إنجيله بالعبرية ثم فقد هذا الإنجيل حسبما ذكر صاحب كتاب الفارق بين المخلوق والخالق، وترجم بعد ذلك باللغة اليونانية، ولم يعلم متى ترجم، ومن هو المترجم، وتثار حوله شكوك كثيرة، مات متى سنة ٧٩م ببلاد الحبشة .

انظر: الفارق بين المخلوق والخالق ص ١٩ - ٢٠؛ وسلسلة مقارنة الأديان (المسيحية) ص ٢٠٩؛ ومحاضرات في النصرانية ص ٤٩؛ وتحقيق تاريخ الأنجيل المعتمدة ص ٣٠ - ٣٤، وقاموس الكتاب المقدس ص ٨٣٢ .

(٢) في ك، ط (الصلب) .

(٣) هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، عالم الأندلس في عصره، ولد بقرطبة سنة ٣٨٤هـ، وكانت له ولأبيه من قبله رئاسة الوزارة وتدبير المملكة فزهد بها وانصرف إلى العلم والتأليف، كان فقيهاً، حافظاً، زاهداً، متواضعاً، متفتناً في علوم جملة، صاحب تصانيف كثيرة منها المحلى في الفقه في أحد عشر جزءاً، والفصل في الملل والأهواء والنحل في خمسة أجزاء وجمهرة الأنساب وغيرها من المؤلفات الكثيرة مات رحمه الله سنة ٤٥٦هـ .

انظر في ترجمته: وفيات الأعيان ٣/٣٢٥ (٤٤٨)؛ ومعجم الأدباء ١٢/٢٣٥ وله فيه =

وغيره^(١). ومنهم من يقول: بل اشتبه على الذين صلبوه، وهذا قول أكثر الناس^(٢)، والأولون يقولون أن قوله:

﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ...﴾.

أي: شبه للناس الذين أخبرهم أولئك بصلبه.

الجمهور يقولون: بل شبه للذين يقولون^(٣) صلبوه كما قد ذكرت القصة في غير هذا الموضع. والمقصود هنا أن الناس في هذا المقام على طرفين ووسط.

= ترجمة طويلة، وتاريخ الحكماء للقفطي ص ٢٣٣؛ والعبر للذهبي ٢٣٩/٣؛
وشذرات الذهب ٢٩٩/٣؛ والأعلام ٢٥٤/٤.

(١) ما ذكره المؤلف عن ابن حزم ورد في الفصل ٥٩/١، وقالت به المعتزلة وانظر:
المغني للقاضي عبد الجبار ١٤٣/٥ - ١٤٤ (بتحقيق محمود الخضيري).

(٢) نص القرآن صريح في أن عيسى - عليه السلام - لم يقتل، ولم يصلب، ولكن شبه
على القوم. والاختلاف هو في صفة التشبيه فقيل: أن عيسى انتدب أحدهم ليلقي
عليه شبهه ويكون رفيقه في الجنة فقام أحدهم ويقال له جرجس فجلس مكانه
ورفع الله عيسى ثم وقع الصلب على جرجس. وقيل: أن الله ألقى شبهه على رجل
اسمه يهوذا الأسخريوطي الذي تذكر الأناجيل أنه هو الذي دس عليه وأرشد
القابضين إليه، وقد كان من تلاميذه، ورفع الله عيسى ووقع الصلب على يهوذا،
والأناجيل مختلفة في ذلك اختلافاً عظيماً وقيل: بل حول الله القوم كلهم الذين كانوا
مع عيسى في صورة عيسى فلم يعرفوا عيسى من غيره لتشابه الصور عليهم.

انظر: تفسير ابن جرير ١١/٦، ١٢ (مجلد ٤)؛ وتفسير القرطبي ٩/٦ - ١٠
(مجلد ٣)؛ والبداية والنهاية ٩١/٢ - ٩٢؛ وفتح القدير ١/٥٣٤؛ ومحاضرات في
النصرانية لأبي زهرة ص ٢٨، ٢٩؛ ومجموع الفتاوى ٤/٣٢٢. وفي ظلال القرآن
٨٠١/٦؛ وإنجيل برنابا بتحقيق سيف الله أحمد فاضل ص ٢٨٩ الفصل السابع عشر
بعد المئين.

(٣) في ك (يقول صلبوه) وسقطت (يقولون) من أ، س.

أما الطرف الواحد: فهم الغلاة من النصارى الذين يدعون أن الحواريين كانوا معصومين فيما يقولونه ويروونه ويعلمونه، وكذلك يقولون بتصويب علماء النصارى فيما يقولونه^(١) من تأويل الإنجيل.

والطرف الآخر يقول: بل كل من غلط وأخطأ في شيء من ذلك فإنه مستحق للوعيد^(٢) بل كافر.

والثالث، الوسط: أنهم لا يعصمون، ولا يؤثمون^(٣) بل قد يكونون مخطئين خطأ مغفوراً لهم^(٤) إذا كانوا مجتهدين في معرفة الحق واتباعه بحسب وسعهم وطاقتهم، وعلى هذا تدل^(٥) الأدلة الصحيحة وكتب الله تدل على ذم الضال والجاحد^(٦) ومقته مع أنه لا يعاقب إلا بعد إنذاره.

وقد ثبت في الصحيح عن عياض بن حمار^(٧)، عن النبي

(١) في أ، س (يقوله) وما أثبتناه من ك، ط.

(٢) في ك، ط (يستحق الوعيد).

(٣) في أ (يقولون) وهو تحريف وصححناه من سائر النسخ.

(٤) في أ، س (مغفور) وصححناه من ك، ط.

(٥) في ك، ط (تصح).

(٦) سقطت (الجاحد) من س.

(٧) في ك، ط (حمار) وهو تصحيف صوابه ما أثبتناه وعياض بن حمار بن أبي حمار التميمي المجاشعي، سكن البصرة، وكان صديقاً للنبي - صلى الله عليه وسلم - قديماً وكان إذا قدم مكة لا يطوف إلا في ثياب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأنه كان من الجملة الذين لا يطوفون إلا في ثوب أحمر. حديثه في صحيح مسلم، وسنن أبي داود، والترمذي، عاش إلى حدود الخمسين - رضي الله عنه ورحمه - .

انظر: الإصابة ٤٨/٣؛ والاستيعاب هامش الإصابة ١٢٩/٣؛ والرياض المستطابة في جملة من روى في الصحيحين من الصحابة ص ٢٤٠.

— صَلَّى الله عليه وسلّم — أنه قال: «إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب»^(١).

فأخبر أنه مقتهم إلا هؤلاء البقايا، والمقت هو البغض بل أشد البغض ومع هذا فقد أخبر في القرآن أنه لم يكن ليعذبهم^(٢) حتى يبعث إليهم رسولاً، فقال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا...﴾^(٣).
وقال:

﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نُنْزِلَ وَنَخْزِيَ﴾^(٤).

فدل ذلك على أن المقتضي لعذابهم قائم ولكن شرط العذاب هو بلوغ^(٥) الرسالة، ولهذا قال:

﴿... لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ...﴾^(٥).

وفي الصحيحين عن النبي — صَلَّى الله عليه وسلّم — أنه قال: «ما أحد أحب إليه العذر من الله^(٦)؛ من أجل ذلك، أرسل الرسل، وأنزل الكتب».

وفي رواية: «من أجل ذلك، بعث الرسل مبشرين ومنذرين،

(١) الحديث: سبق تخريجه، وهو في صحيح مسلم رقم (٦٣)، ومسنده أحمد ١٦٢/٤.

(٢) في أ (يعذبهم).

(٣) سورة طه: الآية ١٣٤ وقد حصل خلط وخطأ في الآية في جميع النسخ بين آية سورة طه، وآية سورة القصص: ٤٧، وجاء في ط (بالآية كاملة من سورة القصص).

(٤) في ك، ط (هو بعد بلوغ).

(٥) سورة النساء: الآية ١٦٥.

(٦) في ك، ط (من الله عز وجل).

وما أحد أحب إليه المدح من الله ؛ من أجل ذلك مدح نفسه ، وما (١) أحد
أغبر من الله ؛ من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن (٢) .

وقد تنازع الناس في حسن الأفعال (٣) وقبحها كحسن العدل
والتوحيد ، والصدق ، وقبح الظلم ، والشرك ، والكذب : هل يعلم بالعقل
أم لا يعلم إلا بالسمع (٤) ، وإذا قيل : أنه يعلم بالعقل فهل يعاقب من

(١) في ط (وما من) .

(٢) الحديث : سبق تخريجه .

(٣) في ط (الأقوال) .

(٤) ذهب أكثر أصحاب الشافعي ، وطائفة من المتكلمين ، وجماعة من أصحاب
أبي حنيفة والإمام أحمد ، وأكثر أصحابه ، وطائفة من الفقهاء . إلى أن العقل
لا يحسن ولا يقبح ولا يوجب ، ولا يحرم ، والعقل بذاته ليس بدليل على تحسين
شيء ولا تقيحه ، ولا يعرف حسن الشيء وقبحه حتى يرد السمع بذلك ، والعقل آلة
تدرك به الأشياء ، فيدرك به ما حسن ، وما قبيح بعد أن ثبت ذلك بالسمع .

جاء في العدة في أصول الفقه ٤٢٢/٢ «وقد دل على هذا الأصل قوله
— تعالى — : ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾ فأخبر أنهم آمنون من العذاب
قبل بعثة الرسل إليهم ، فعلم أن الله — تعالى — لم يوجب على العقلاء شيئا من جهة
العقل . بل أوجب ذلك عند مجيء الرسل ، وقوله — تعالى — : ﴿رسلا مبشرين
ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾ سورة النساء : الآية ١٦٥ فلو
كان العقل حجة عليهم لما قال : ﴿لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾ بل
كان الواجب أن يقول لئلا يكون للناس على الله حجة بعد العقل ، ولما لم يقل هذا
ثبت أن العقل لا تأثير له في ذلك» .

أما القول الثاني : فهو قول طائفة من الأحناف ، والمعتزلة بأسرهم . وهو أن الحسن
والقبح ضربان ضرب علم بالعقل كحسن العدل ، والصدق النافع ، وشكر النعمة ،
وقبح الظلم ، والكذب الضار ، وكفران النعمة . وضرب عرف بالسمع كحسن مقادير
العبادات وهيئاتها ، وقبح الزنا ، وشرب الخمر ، قالوا : وسبيل السمع إذا ورد بموجب
العقل أن يكون وروده مؤكداً لما في العقل . والذي رجحه كثير من أهل العلم هو
القول الأول والله أعلم .

=

فعل ذلك قبل أن يأتيه رسول؟ على ثلاثة أقوال معروفة في أصحاب الأئمة وغيرهم، وهي ثلاثة أقوال لأصحاب الإمام أحمد وغيرهم. فقالت طائفة لا يعرف ذلك إلا بالشرع لا بالعقل، وهذا قول نظار المجبرة كالجهم بن صفوان وأمثاله، وهو قول أبي الحسن الأشعري وأتباعه * من أصحاب الأئمة الأربعة *^(١) كالقاضي أبي بكر بن الطيب^(٢)، وأبي عبد الله بن حامد^(٣)، والقاضي أبي يعلى^(٤)، وأبي المعالي^(٥)،

= انظر في هذه المسألة: كشف الأسرار عن أصول فخر الإسلام البزدوي ١/١٨٣، والعدة في أصول الفقه بتحقيق د. أحمد مباركي ٢/٤٢٢ - ٤٢٣، وشرح الكوكب المنير المسمى بمختصر التحرير تحقيق محمد حامد فقي ص ٩٥، ونهاية السؤل في شرح منهاج الأصول للبيضاوي الحاشية ١/٨٢ - ٨٧.

(١) سقط ما بين النجمتين من أ وزدناه من س، ك، ط.

(٢) محمد بن الطيب بن محمد أبوبكر، ولد في البصرة سنة ٣٣٨ هـ، وسكن بغداد، قاض من كبار علماء الكلام، انتهت إليه الرئاسة في مذهب الأشاعرة، وصنف التصانيف الكثيرة المشهورة في علم الكلام وغيره، وفي الرد على الفرق، وجهه عضد الدولة سفيراً إلى ملك الروم فجرت له في القسطنطينية مناظرات مع علماء النصارى انتصر فيها عليهم. ومن كتبه إعجاز القرآن، والملل والنحل، وتمهيد الدلائل، وكشف أسرار الباطنية وغيرها. مات - رحمه الله - سنة ٤٠٣ هـ.

انظر: وفيات الأعيان ٤/٢٦٩ (٦٠٨)؛ وشذرات الذهب ٣/١٦٨؛ وتاريخ بغداد ٥/٣٧٩ (٢٩٠٦)؛ والعبر في خبر من غبر ٣/٨٦؛ والأعلام ٦/١٧٦.

(٣) الحسن بن حامد بن علي، أبو عبد الله البغدادي. وإمام الحنابلة في زمانه، ومدرسهم، وفقههم، اشتهر بزهده وورعه، من أصحابه القاضي أبو يعلى وأبو إسحاق وغيرهما وقد انتفع به خلق كثير. من تصانيفه الجامع في المذهب الحنبلي، وشرح الخرقى، وتهذيب الأجوبة وغيرها مات سنة ٤٠٣ هـ.

انظر: طبقات الحنابلة ٢/١٧١ (٦٣٨)؛ والمنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد ٢/٨٢ (٦٢٩).

(٤) تقدمت ترجمته.

(٥) عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني إمام الحرمين. ولد سنة ٤١٩ هـ في جوين من نواحي نيسابور، من أصحاب الشافعي، عالم متفنن في العلوم من =

وأبي الوفاء بن عقيل^(١) وغيرهم، وقيل: بل قد يعلم حسن الأفعال^(٢) وقبحها بالعقل.

قال^(٣) أبو الخطاب محفوظ بن أحمد^(٤): وهذا^(٥) قول أكثر الفقهاء والمتكلمين^(٦).

وهذا هو المنقول عن أبي حنيفة نفسه، وعليه عامة أصحابه، وكثير من أصحاب مالك، والشافعي، وأحمد، وأهل الحديث كأبي الحسن التميمي^(٧)، وأبي الخطاب، وأبي بكر القفال^(٨)، وأبي نصر

الأصول والفروع. كثير الرحلات، وهو من المتكلمين، ونقل في الشذرات جملة من كلامه في العقيدة النظامية كدليل على رجوعه عن مذاهب المتكلمين. له تصانيف كثيرة منها: الشامل في أصول الدين، والإرشاد والعقيدة النظامية، وغيث الأمم؛ وغيرها. مات سنة ٤٧٨ هـ.

انظر: وفيات الأعيان ١٦٧/٣ (٣٧٨)؛ وشذرات الذهب ٣/٣٥٨؛ والعبر في خبر من غبر ٣/٢٩١؛ والأعلام ٤/١٦٠.

(١) سبقت ترجمته.

(٢) في ك، ط (الأقوال).

(٣) في ك، ط (وقال).

(٤) أبو الخطاب: سبقت ترجمته.

(٥) في س (فهذا).

(٦) عقد أبو الخطاب - رحمه الله - في هذا فصلاً في كتابه التمهيد (مخطوط) رقم ٢٨٠١ (بجامعة الملك سعود بالرياض ورقة ٢٠١) فقال: «اختلف أصحابنا هل في قضايا العقل حظر، وإباحة، وإيجاب، وتحسين، وتقبيح أم لا؟ ثم ساق كلاماً طويلاً في هذا الكتاب الذي اشتغل بتحقيقه باحثان بكلية الشريعة بجامعة أم القرى، بمكة المكرمة لنيل درجة الدكتوراة. وتم طبعه بتحقيقهما.

(٧) أبو الحسن التميمي عبد العزيز بن الحارث التميمي الحنبلي. فقيه، أصولي فرضي له تصانيف كثيرة في الفقه والفرائض وأصول الفقه وسمع الحديث، وروى عن غير واحد، وهو من أصحاب الإمام أحمد مات - رحمه الله - سنة ٣٧١ هـ.

انظر: البداية والنهاية ١١/٢٩٨؛ ومعجم المؤلفين ٥/٢٤٤.

(٨) محمد بن علي بن إسماعيل الشاشي القفال، أبو بكر ولد سنة ٢٩١ هـ. فقيه =

السجزي^(١)، وأبي القاسم سعد بن علي الزنجاني^(٢)، وهو قول الكرامية^(٣) وغيرهم من نظار المثبتة للقدر، وهو قول المعتزلة وغيرهم

= شافعي، إمام عصره، كان فقيهاً محدثاً، أصولياً، لغوياً، شاعراً. له مصنفات كثيرة في أصول الفقه وفي الفقه مات رحمه الله سنة ٣٦٥ في شاش وراء نهر سيحون. انظر: وفيات الأعيان ٢٠٠/٤ (٥٧٥)؛ وشذرات الذهب ٥١/٣؛ وتهذيب الأسماء واللغات ٢٨٢/٢؛ والعبر في خبر من غير ٣٣٨/٢؛ والأعلام ٢٧٤/٦.

(١) عبيد الله بن سعيد بن حاتم السجزي الوائلي البكري، أبو نصر من حفاظ الحديث أصله من سجستان، ونسبته إليها على غير قياس. كان متقناً، مكثراً بصيراً بالحديث والسنة، واسع الرحلة، زاهداً، له كتب منها الإبانة عن أصول الديانة في الحديث مات سنة ٤٤٤ هـ.

انظر: شذرات الذهب ٢٧١/٣ - ٢٧٢؛ والعبر ٢٠٦/٣؛ وتذكرة الحفاظ ٢٩٧/٣؛ وحسن المحاضرة ٣٥٣/١؛ والأعلام ١٩٤/٤.

(٢) وقع في النسخ «(الريحاني) وهو تصحيف صوابه الزنجاني، بالزاي المعجمة والنون والجيم المعجمتين وهو أبو القاسم سعد بن علي بن محمد الزنجاني، شيخ الحرم، كان إماماً حافظاً متعبداً، قدوة عالماً زاهداً نزيب الحرم، وصفه المقدسي بأنه أعرف من رأى بالحديث». مات سنة ٤٧١ هـ عن ٩٠ سنة. انظر: شذرات الذهب ٣٣٩/٣ (٣٤٠)؛ والبداية والنهاية ١٢٠/١٢.

(٣) إحدى فرق المرجئة، وهم أصحاب محمد بن كرام، قال في اللباب: بفتح أوله، والراء المشددة النسبة إليه كرامي، وقد كان أبوه يحفظ الكرم فقل له كرام، وقال عنه الذهبي عابد متكلم شيخ الكرامية، وله أتباع، ومريدون وقد سجن بنيسابور لأجل بدعته ثمانية أعوام، ثم خرج وسار إلى بيت المقدس، ومات بالشام سنة ٢٥٥ هـ ومن مذهب الكرامية أن الإيمان قول اللسان دون اعتقاد القلب، وعمل الجوارح فمن أقر بلسانه فهو مؤمن حقاً، وإن اعتقد بقلبه ما شاء من الشرك، وجحدوا العبادات، وزعموا أن المنافقين كانوا مؤمنين في الحقيقة.

انظر: اللباب في تهذيب الأنساب ٨٩/٣؛ وميزان الاعتدال للذهبي ٢١/٤؛ والفصل في الملل والأهواء والنحل ٢٠٤/٤، ٢٠٥؛ والملل والنحل ١٤٥/١؛ والفرق بين الفرق ص ٢١٦؛ ومجموع الفتاوى ١٠٣/٣؛ والتبصير في الدين للأسفراييني ص ٦٥ - ٧٠؛ واعتقادات فرق المسلمين والمشركين للرازي ص ٦٧؛ وتلبس إبليس لابن الجوزي ص ٨٤.

من نظار القدرية، ثم هؤلاء على قولين :

منهم من يقول: يستحقون عذاب الآخرة بمجرد مخالفتهم للعقل كقول: المعتزلة، والحنفية، وأبي^(١) الخطاب، وقول هؤلاء مخالف للكتاب والسنة.

ومنهم من يقول: بل^(٢) لا يعذبون حتى يبعث إليهم رسول كما دل عليه الكتاب والسنة. لكن أفعالهم تكون مذمومة ممقوتة يذمها الله ويبغضها ويوصفون بالكفر الذي يذمه الله ويبغضه، وإن كان لا يعذبهم حتى يبعث إليهم رسولاً، كما قال النبي - صلى الله عليه وسلم - في الحديث الصحيح كما تقدم: «إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب، وإن ربي قال لي: قم في قريش فأنذرهم. قلت: إذاً يثلغوا^(٣) رأسي حتى يدعوه خبزة.

قال: «إني مبتليك ومبتل بك ومنزل عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرأ نائماً ويقظان فابعث جنداً أبعث مثليهم، وقاتل بمن أطاعك من عصاك، وأنفق أنفق عليك»^(٤).

وقال: «إني خلقت عبادي حنفاء فاجتالهم الشياطين. وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به

(١) في أ (وابن) وصححه من سائر النسخ ومن الترجمة.

(٢) سقطت (بل) من ك، ط.

(٣) يثلغوا رأسي أي: يشدخوا رأسي. انظر: تفسير غريب الحديث لابن حجر ص ٥٠؛ والقاموس المحيط (فصل الثاء، باب الغين) ١٠٤/٣.

(٤) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار ٢١٩٧/٤ - ٢١٩٨ (٦٣)؛ ورواه أحمد في مسنده ١٦٢/٤ (من حديث عياض بن حمار).

سلطاناً»^(١).

وقال النبي - صلى الله عليه وسلم - في الحديث الصحيح^(٢):
«كل مولود يولد على الفطرة».

وفي رواية: على هذه الملة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه
كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون^(٣) فيها من جدعاء. ثم يقول
أبو هريرة - رضي الله عنه^(٤) - : «اقرأوا إن شئتم: فطرة الله التي فطر
الناس عليها. قيل: يا رسول الله أرايت من يموت من أطفال
المشركين^(٥) وهو صغير؟ قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين»^(٦). ومع

(١) هذا قطعة من الحديث السابق الطويل والذي رواه مسلم في كتاب الجنة ٤/٢١٩٧
(٦٣) ورواه أحمد في مسنده ٤/١٦٢ من حديث عياض بن حمار وهذا الجزء في
أول الحديث فهو سابق للجزء الذي قبله.

(٢) سقطت (الصحيح) من ط.

(٣) في ط (تحسون) وهو خطأ.

(٤) سقطت الجملة الدعائية من أ، س وزدناها من ك، ط.

(٥) سقطت جملة (من أطفال المشركين) من أ، ك، ط وزدناها من س ولفظ الحديث
هكذا.

(٦) والحديث: أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل
يُصلّى عليه؟ ٩٧/٢؛ وفي التفسير، تفسير سورة الروم ٦/٢٠ وليس في هذين
الموضعين ذكر جملة «أفرايت من يموت وهو صغير» ولكنها وردت في الحديث
الذي أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة في كتاب القدر، باب الله أعلم بما
كانوا عاملين ٧/٢١١؛ ورواه مسلم في كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على
الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين ٤/٢٠٤٧ - ٢٠٤٩ رقم ٢٢،
٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٧ ومن حديث ابن عباس برقم ٢٨، وأخرجه أبو داود في
كتاب السنة، باب في ذراري المشركين ٥/٨٨ (٤٧١٤)؛ والترمذي في القدر
٤/٤٤٧ (٣١٣٨) وفيه (الملة) بدل (الفطرة)، ومالك في الجنائز ١/٢٤١ (٥٢)،
وأحمد في المسند ٢/٢٣٣، ٢٥٣، ٢٧٥، ٢٨٢، ٣١٥، ورواه الحميدي في
مسنده بطرق متعددة ٢/٤٧٣ (١١١٣)، (١١١١).

مقت الله لهم، فقد أخبر أنه لم يكن ليعذبهم حتى يبعث^(١) إليهم رسولاً. وهذا يدل على إبطال قول من قال أنهم لم يكونوا مسيئين، ولا مرتكبين لقبيح حتى جاء السمع. وقول من قال: أنهم كانوا معذبين بدون السمع إما لقيام الحجة بالعقل كما يقوله من يقوله من القدرية وإما لمحض المشيئة، كما يقوله المجبرة^(٢).

قال - تعالى - :

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾^(٣).

وقال - تعالى - :

﴿وَلَوْلَا أَن نُّصِيبَهُمْ مُّصِيبَةً يَمَآءَدَمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٤).

ومعنى قوله جمعاء: السليمة سميت بذلك لاجتماع السلامة لها في أعضائها، والجدعاء هي مقطوعة الأذن.

يقول الخطابي في معناه «إن البهيمة أول ما تولد تكون سليمة من الجدع، والخرم، ونحو ذلك من العيوب حتى يحدث فيها أربابها هذه النقائص، كذلك الطفل يولد مفطوراً على خلقته السليمة ولو ترك عليها لسلم من الآفات، إلا أن والديه يزينان له الكفر، ويحملانه عليه».

انظر: معالم السنن للخطابي (هامش سنن أبي داود) ٨٨/٥ (كتاب السنة)، وانظر تفسير غريب الحديث ص ٥٣.

(١) في ط (نبعث).

(٢) سبق الحديث عن القدرية، والجبرية في أول الكتاب.

(٣) سورة القصص: الآية ٥٩.

(٤) سورة القصص: الآية ٤٧.

وقال - تعالى - :

﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾ (١).

فهذا يبين أنه لم يكن ليعذب الكفار حتى يبعث إليهم رسولاً،
وبين أنهم قبل الرسول كانوا (٢) قد اكتسبوا الأعمال التي توجب العقاب
والذم وهي سبب للعذاب (٣) لكن شرط العقاب قيام الحجة عليهم
بالرسالة.



(١) سورة طه : الآية ١٣٤ .

(٢) في ك، ط (كانوا قبل الرسول).

(٣) في س، ك، ط (للعذاب).

فصل

أسباب ضلال
النصارى ومن
على شاكلتهم

ومما ينبغي أن يعلم أن سبب ضلال النصارى وأمثالهم من الغالية كغالية العباد والشيعة وغيرهم ثلاثة أشياء:

أحدها: ألفاظ^(١) متشابهة مجملة مشككة منقولة عن الأنبياء، وعدلوا عن الألفاظ الصريحة المحكمة وتمسكوا بها، وهم كلما سمعوا لفظاً لهم فيه شبهة تمسكوا به وحملوه على مذهبهم وإن لم يكن دليلاً على ذلك. والألفاظ الصريحة المخالفة لذلك إما أن يفوضوها، وإما أن يتأولوها كما يصنع أهل الضلال، يتبعون المتشابه من الأدلة العقلية والسمعية ويعدلون عن المحكم الصريح من القسمين.

والثاني: خوارق ظنوها آيات^(٢) وهي من أحوال الشياطين، وهذا مما ضل به كثير من الضلال المشركين وغيرهم مثل دخول الشياطين في الأصنام وتكليمها^(٣) للناس. ومثل إخبار الشياطين للكهان بأمور غائبة، ولا بد لهم مع ذلك من كذب، ومثل تصرفات تقع من الشياطين.

والثالث: أخبار منقولة إليهم ظنوها صدقاً وهي كذب^(٤). وإلا فليس مع النصارى ولا غيرهم من أهل الضلال على باطلهم لا معقول

(١) في ك (ألفاظاً).

(٢) في ك (الآيات) وفي ط (من الآيات).

(٣) في ك، ط (وتكليمهم).

(٤) جملة: والثالث: أخبار منقولة إليهم ظنوها صدقاً وهي كذب (ساقطة من س).

صريح ولا منقول صحيح ، ولا آية من آيات الأنبياء . بل ^(١) إن تكلموا بمعقول تكلموا بألفاظ متشابهة مجملة . فإذا استفسروا عن معاني تلك الكلمات ، وفُرق بين حقها وباطلها تبين ما فيها من التلبس والاشتباه .

وإن تكلموا بمنقول : فإما أن يكون صحيحاً لكن ^(٢) لا يدل على باطلهم .

وإما أن يكون غير صحيح ^(٣) ثابت بل مكذوب .

وكذلك ما يذكرونه ^(٤) من خوارق العادات : إما أن يكون صحيحاً قد ظهر على يد نبي كمعجزات المسيح ومن قبله كإلياس واليسع وغيرهما من الأنبياء ، وكمعجزات موسى – صلى الله عليه وسلم – فهذه حق .

وإما أن تكون قد ظهرت على يد بعض الصالحين ، كالحواريين ^(٥) ، و ^(٦) ذلك لا يستلزم أن يكونوا معصومين كالأنبياء ، فإن الأنبياء معصومون فيما يبلغونه لا يتصور أن يقولوا على الله إلا الحق ، ولا يستقر في كلامهم باطل ، لا عمداً ولا خطأ .

وأما الصالحون : فقد يغلط أحدهم ويخطئ مع ظهور الخوارق على يديه ، وذلك لا يخرجهم عن كونه رجلاً صالحاً ، ولا يوجب أن يكون معصوماً إذا كان هو لم يدع العصمة ، ولم يأت بالآيات دالة على ذلك ،

(١) سقطت (بل) من ك ، ط .

(٢) سقطت (لكن) من ك ، ط .

(٣) سقطت (صحيح) من س ، ك ، ط .

(٤) في ك (ما يظهره) .

(٥) في ك (وكالحواريين) .

(٦) سقطت (الواو) من ك .

ولو ادعى العصمة وليس بنبي، لكان^(١) كاذباً لا بد أن يظهر كذبه وتقترن^(٢) به الشياطين فتضله ويدخل في قوله - تعالى - :

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَا نَزَّلَ الشَّيَاطِينُ ﴿٣١﴾ نَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ .

والنصارى عندهم منقول^(٤) في الأناجيل أن الذي صلب ودفن في القبر رآه بعض الحواريين وغيرهم بعد أن دفن، قام من قبره رآوه^(٥) مرتين أو ثلاثاً، وأراهم موضع المسامير، وقال: لا تظنوا أنني شيطان^(٦).

(١) في س (إذ كان).

(٢) في ك، ط (فتقترن).

(٣) سورة الشعراء: الآيتان ٢٢١، ٢٢٢.

(٤) في أ، س (منقولاً).

(٥) سقطت (رآوه) من ك، ط .

(٦) جاءت القصة متكررة في الأناجيل الأربعة بالفاظ مختلفة في :

إنجيل يوحنا: الإصحاح العشرون: الفقرات ١ - ١٠ .

إنجيل لوقا: الإصحاح الرابع والعشرون: الفقرة ٧ .

إنجيل مرقس: الإصحاح السادس عشر: الفقرات ١ - ٢٠ .

إنجيل متى: الإصحاح الثامن والعشرون: الفقرات ١ - ٢٠ .

ونصها في إنجيل متى إصحاح ٢٨: من أوله: «وبعد السبت عند فجر أول الأسبوع جاءت مريم المجدلية، ومريم الأخرى لتنظرا القبر: وإذا زلزلة عظيمة حدثت لأن ملاك الرب نزل من السماء، وجاء ودحرج الحجر عن الباب، وجلس عليه، وكان منظره كالبرق، ولباسه أبيض كالثلج فمن خوفه ارتعد الحراس، وصاروا كأصوات. فأجاب الملاك، وقال للمرأتين: لا تخافا أنتما. فلما أعلم أنكما تطلبان يسوع المصلوب. ليس هو هنا؛ لأنه قام... إلخ.

وقد اختلفت الأناجيل في تفصيل القيام. فمتى ذكر أنه ظهر في الجليل، ولوقا ذكر أنه ظهر في أورشليم، ويوحنا ذكر أنه ظهر في اليهودية والجليل معاً، ومرقس ذكر أنه ظهر بين تلاميذه، وهذا الاختلاف والتناقض في حادثة معينة دليل واضح على اضطراب النصوص عندهم - اضطراباً يدعو إلى اليقين الجازم بأن هذا كلام بشر يخطئون أكثر مما يصيبون، وأنهم نسوا حظاً مما ذكروا به، ولو كان من عند الله =

وهذا إذا كان صحيحاً فذاك شيطان ادعى أنه المسيح ، والتبس^(١) على أولئك ، ومثل هذا قد جرى لخلق عظيم^(٢) في زماننا ، وقبل زماننا ، كناس كانوا بـ «تدمر»^(٣) فرأوا شخصاً عظيماً طائراً في الهواء ، وظهر لهم مرات بأنواع من اللباس ، وقال لهم : أنا المسيح ابن مريم ، وأمرهم بأمور يمتنع أن يأمر بها المسيح — عليه السلام — ، وحضروا إلى عند الناس ويؤمنوا لهم^(٤) أن ذلك هو شيطان أراد أن يضلهم .

وآخرون يأتي أحدهم إلى قبر من يعظمه ويحسن به الظن من الصالحين وغيرهم ، فتارة يرى القبر قد^(٥) انشق وخرج منه إنسان على صورة ذلك الرجل ، وتارة يرى ذلك الإنسان قد دخل في القبر ، وتارة يراه إما راكباً وإما ماشياً داخلاً إلى مكان ذلك الميت كالقبة المبنية على القبر ، وتارة يراه خارجاً من ذلك المكان ويظن أن ذلك هو ذلك الرجل الصالح ، وقد يظن أن قوماً استغاثوا به فذهب إليهم ، ويكون ذلك شيطناً تصور بصورته^(٦) . وهذا جرى لغير واحد ممن أعرفهم^(٧) ، وتارة يستغيث

= — تعالى — لما حصل فيه اختلاف ، ولكنه من عند غير الله فوجدنا فيه اختلافاً كثيراً والحمد لله الذي حفظ لنا كتابنا وجعله المصدق والمهيمن وجعل نبينا خاتم الأنبياء وسيد المرسلين ورسول رب العالمين إلى الناس أجمعين .

(١) في ك (والبس) .

(٢) في ك ، ط (كثير) .

(٣) تدمر : بفتح التاء ، ثم السكون وضم الميم . مدينة قديمة مشهورة في برية الشام بينها وبين حلب خمسة أيام ، وهي قرية من حمص ، من عجائب الأبنية : وهي إحدى مدن سوريا اليوم .

انظر : معجم البلدان ١٧/٢ ؛ مراصد الاطلاع ٢٥٤/١ .

(٤) سقطت (لهم) من ك ، ط .

(٥) سقطت (قد) من ط .

(٦) في س ، ك (بصورة) . (٧) في س (عرفهم) .

أقوام بشخص يحسنون به الظن إما ميت وإما^(١) غائب، فيرونه بعيونهم قد جاء، وقد يكلمهم وقد يقضي بعض حاجاتهم^(٢) فيظنون ذلك الشخص الميت، وإنما هو شيطان زعم أنه هو، وليس هو إياه، وكثيراً ما يأتي الشخص بعد الموت في صورة الميت، فيحدثهم ويقضي ديوناً، ويرد ودائع ويخبرهم عن الموتى، ويظنون أنه هو الميت نفسه قد جاء إليهم، وإنما هو شيطان تصور بصورته.

وهذا كثير جداً لا سيما في بلاد الشرك، كبلاد الهند ونحوها، * ومن هؤلاء من تراه أنت تحت سريره آخذ بيد ابنه في الجنازة، ومنهم من يقول: إذا مت فلا تدعوا أحداً يغسلني فأنا آتي من هذه الناحية أغسل نفسي، فيأتي بعد الموت شخص في الهواء على صورته يغسله هو والذي أوصاه، ويظن ذلك أنه جاء، وإنما هو شيطان تصور بصورته *^(٣)، وتارة يرى أحدهم شخصاً إما طائراً في الهواء وإما عظيم الخلقة، وإما أن يخبره بأشياء غائبة ونحو ذلك، ويقول له: أنا الخضر^(٤)، ويكون ذلك شيطانياً كذب على ذلك الشخص، وقد يكون

(١) سقطت (إما) من ط .

(٢) في ط (حوائجهم).

(٣) من قوله: (ومن هؤلاء من تراه - إلى قوله تصور بصورته)، ساقط من أ وزدناه من سائر النسخ.

(٤) اختلف في اسمه، ونسبه، وزمانه، ونبوته، وموته على أقوال ذكرها العلماء: فقيل: اسمه الخضر بن قابيل بن آدم، وقيل: إيليا بن ملكان... إلى نوح - عليه السلام - وقيل غير ذلك. وأما زمانه فقد كان متقدماً على زمان موسى حتى أدركه موسى - عليه السلام - وأما نبوته فقد رجح الحافظ ابن كثير - رحمه الله - بادلة كثيرة أنه كان نبياً، وذلك بما ورد في سورة الكهف، فيما قصه الله من خبره من أعمال تدل على أنها وحى من الله وليست من أمره كما قال تعالى: ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾. قال ابن كثير: وأما القول بأنه من الملائكة فذلك قول غريب =

الرائي من أهل الدين والزهد والعبادة، وقد جرى هذا لغير واحد، وتارة يرى عند قبر نبي أو غيره، أن الميت قد خرج إما من حجرته، وإما من قبره وعانق ذلك الزائر وسلم عليه، ويكون شيطاناً تصور بصورته، وتارة يجيء من يجيء إلى عند قبر ذلك الشخص فيستأذنه في أشياء: ويسأله^(١) عن أمور فيخاطبه شخص يراه أو يسمع صوتاً، ولا يرى^(٢)

جداً، ثم قال: وإذا ثبتت نبوته لم يبقَ لمن قال بولايته، وأن الولي قد يطلع على حقيقة الأمور دون أرباب الشرع الظاهر مستند يستندون إليه، ولا معتمد يعتمدون عليه.

أما حياته: فقد رجع الحافظ ابن كثير - رحمه الله - بادلة عظيمة أنه ليس حياً: منها قوله: «والمعلوم أن الخضر لم ينقل بسند صحيح ولا حسن تسكن النفس إليه أنه اجتمع برسول الله - صلى الله عليه وسلم - في يوم واحد، ولم يشهد معه قتالاً في مشهد من المشاهد. وهذا يوم بدر... كان مع الرسول سادة المسلمين، وسادة الملائكة حتى جبريل، فلو كان حياً لكان وقوفه تحت هذه الراية أشرف مقاماته، وأعظم غزواته... ثم لو كان باقياً لكان تبليغه عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الأحاديث النبوية، والآيات القرآنية، وإنكاره للأحاديث المكذوبة، والآراء البدعية، وقتاله مع المسلمين، وشهوده جمعهم وجماعتهم... أفضل ما يقال عنه من كنونه في الأمصار، وجريه الفيافي والأقطار...». وقال ابن القيم - رحمه الله - : «الأحاديث التي يذكر فيها الخضر وحياته كلها كذب، ولا يصح في حياته حديث واحد». وقد علق شيخنا أبو غدة - حفظه الله - في المنار المنيف لابن القيم على هذا، وذكر كلاماً مفيداً وجملأً سديدة. بين فيها التصانيف التي صنفت في موت الخضر وفي حياته، وذكر أنها مسألة شغلت اهتمام العلماء قديماً وحديثاً، فآلفوا فيها تأليف مستقلة أو توسعوا في بيانها في كتبهم نظراً لاستفحال الخلاف فيها».

انظر: البداية والنهاية لابن كثير ٣٢٥/١ - ٣٣٦؛ وتفسيره ٩٦/٣؛ وفتح الباري ٣٠٩/٦ - ٣١٢؛ والإصابة ٤٢٨/١ - ٤٤٨؛ والمنار المنيف ص ٦٧ - ٧٦ لابن القيم، وتعليق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة عليه ص ٦٩؛ وفتح القدير للشوكاني ٢٩٧/٣؛ ومجموع الفتاوى لابن تيمية ١٨/٢٧، ١٠٠، ٢٤٩/١.

(١) في ك، ط (يسأله). (٢) في ك، ط (أويرى).

شخصاً، ويكون ذلك شيطاناً أضله.

وقد يرى أشخاصاً في اليقظة، إما ركبناً، وإما غير ركباً، ويقولون: هذا فلان النبي، إما إبراهيم، وإما المسيح، وإما محمد، وهذا فلان الصديق إما أبو^(١) بكر وإما عمر^(٢)، وإما بعض الحواريين. وهذا فلان لبعض من يعتقد فيه الصلاح إما جرجس^(٣)، أو^(٤) غيره ممن تعظمه النصارى. وإما بعض شيوخ المسلمين^(٥)، ويكون ذلك شيطاناً ادعى أنه ذلك النبي، أو ذلك الشيخ، أو الصديق، أو القديس.

ومثل هذا يجري كثيراً لكثير من المشركين والنصارى، وكثير من المسلمين، ويرى أحدهم شيخاً يحسن به الظن، ويقول: أنا الشيخ فلان، ويكون شيطاناً. وأعرف من هذا شيئاً كثيراً وأعرف غير واحد ممن يستغيث ببعض الشيوخ الغائبين، و^(٦)الموتى، يراه قد أتاه في اليقظة وأعانه.

وقد جرى مثل هذا لي ولغيري ممن أعرفه، ذكر غير واحد أنه

(١) في ط (أما أبا).

(٢) سقطت (وإما عمر) من ط.

(٣) جرجس: قال ابن جرير الطبري في تاريخه ٢/٢٤: «كان فيما ذكر عبد الله، صالحاً من أهل فلسطين، ممن أدرك بقايا من حوارى عيسى - عليه السلام - وكان تاجراً يكسب بتجارته ما يستغني به عن الناس، ويعود بالفضل على أهل المسكنة، ثم ذكر قصته مع ملك الموصل في زمانه حين وعظه، ونصحه من عبادة الأوثان. فعاقبه على ذلك بالسجن، والتعذيب.

له في تاريخ الأمم والملوك ترجمة طويلة ٢/٢٤ - ٣٦. ولم أقف له على ترجمة في غير هذا الموضع فيما اطلعت عليه من كتب التراجم.

(٤) في ك، ط (وأما غيره).

(٥) جاءت الجملة في أ (وأما بعض المتكلمين) وصححناها من سائر النسخ.

(٦) سقطت (الواو) من ط.

استغاث بي من بلاد بعيدة، وأنه رآني قد جئته. ومنهم من قال: رأيتك راکباً بلباسك^(١) وصورتك، ومنهم من قال: رأيتك على جبل، ومنهم^(٢) من قال: غير ذلك فأخبرتهم أنني لم أغيرهم، وإنما ذلك شيطان تصور بصورتي ليضلهم لما أشركوا بالله، ودعوا غير الله^(٣).

وكذلك غير واحد ممن أعرفه من أصحابنا استغاث به بعض من يحسن به الظن، فرآه قد جاءه وقضى حاجته، قال صاحبي: وأنا لا أعلم بذلك، ومن هؤلاء الشيوخ^(٤) من يقول^(٥): إنه يسمع صوت ذلك الشخص المستغيث به ويجيبه، وتكون الشياطين أسمعته صوتاً يشبه صوت الشيخ^(٦) * المستغيث به، فأجابه الشيخ بصوته فأسمعت المستغيث صوتاً يشبه صوت الشيخ، فيظن أنه صوت الشيخ *^(٧).

وهذا جرى لمن أعرفه وأخبر^(٨) بذلك عن نفسه، وقال: بقي

(١) في س، ك، ط (بشباك).

(٢) سقطت (منهم) من س.

(٣) انظر: الكتاب القيم (تليس إبليس) لابن الجوزي ص ٣٧٧ - ٣٨٧، فقد ذكر فيه حكايات كثيرة في تليس إبليس على الجبال ولعبه بقولهم، عن طريق الحيل، والأوهام، والمخاريق، التي يظنون أنها كرامات، وإنما هي ضلالات وخرافات، زينها لهم ليحتكهم بها، وسُلطان إبليس قوياً على مَنْ قَلَّ علمه وضعف إيمانه ويقينه. أما عباد الله المخلصون فلا سلطان له عليهم كما ورد في سورة الحجر: الآيات ٣٩ - ٤٣: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ. قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ. إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ. وَإِنْ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

(٤) في س (من الشيوخ).

(٥) في أ، س (يقال) وصحناه من ك، ط.

(٦) سقطت (الشيخ) من س، ك، ط.

(٧) سقط ما بين النجمتين من أ وزدناه من سائر النسخ.

(٨) في ك، ط (فأخبر).

الجني الذي يحدثني يبلغني مثل صوت المستغيثين بي، ويبلغهم مثل^(١) صوتي، ويريني في شيء أبيض نظير ما أسأل^(٢) عنه، فأخبر به الناس أنني رأيته، وأنه سيأتي، ولا أكون قد رأيته، وإنما رأيت شبيهه^(٣). وهكذا تفعل الجن بمن يعزم عليهم ويقسم عليهم. وكذلك ما رآه قسطنطين من الصليب الذي رآه من نجوم، والصليب الذي رآه مرة أخرى^(٤) هو مما^(٥) مثله الشياطين، وأراهم^(٦) ذلك ليضلهم به، كما فعلت الشياطين ما هو أعظم من ذلك بعباد^(٧) الأوثان.

(١) في أ (من) وصححناه من سائر النسخ.

(٢) في س (أرسل).

(٣) في س، ط (شبهه).

(٤) يقول يوسابيوس القيصري في كتابه (حياة قسطنطين) ترجمة القمص مرقس داود - نشر مكتبة المحبة بمصر سنة ١٩٧٥ :

«... إنه حوالي الظهر رأى بعينه صليبا من نور في السماء، فوق الشمس يحمل هذه الكتابة «اغلب بهذا».

قال: «... وبينما هو يتأمل ويفكر في فحواها أقبل الليل فجأة، ثم ظهر له في نومه مسيح الله بنفس العلامة التي رآها في السماء، وأمره بأن يصنع مثالا لهذه العلامة التي رآها في السماء، وأن يستعملها كوقاية له في كل حروبه مع أعدائه.

انظر: الكتاب المذكور ص ٢٤. وفيه حديث واسع عن قسطنطين وأمه هيلانة... قلت: وهذه خرافات واضحة البطلان لا تحتاج في ردها إلى برهان؛ إذ هي ساقطة من نفسها وهي من جملة الأساطير التي ذكرها المؤلف - رحمه الله - ، وقسطنطين من الرومان الوثنيين الذين وجدوا في النصرانية فرصة ليحرفوا وببدلوا حسبما تمليه عليهم أهواؤهم ليحولوا النصرانية إلى وثنية تامة، وهو ما يسير عليه نصارى اليوم حتى في حروبهم يرفعون الصليب وذلك من باب الوقاية كما أملته عليهم شياطينهم نعوذ بالله من الزيف والضلال.

(٥) في ك، ط (وهو ما).

(٦) في س (وأوثهم) وهو تصحيف.

(٧) في س، ك، ط (العباد).

وكذلك من ذكر أن المسيح جاءه في اليقظة وخاطبه بأمور كما يذكر عن بولس فإنه إذا كان صادقاً كان ذلك الذي رآه في اليقظة^(١) وقال: إنه المسيح، شيطانياً^(٢) من الشياطين، كما جرى * مثل ذلك *^(٣) لغير واحد.

والشيطان^(٤) إنما يضل الناس ويغويهم بما يظن أنهم يطيعونه فيه فيخاطب النصارى بما يوافق دينهم، ويخاطب من يخاطب من ضلال المسلمين بما يوافق اعتقاده، وينقله إلى ما يستجيب^(٥) لهم^(٦) فيه بحسب اعتقادهم.

ولهذا يتمثل لمن يستغيث من النصارى بجرجس في صورة جرجس، أو بصورة من يستغيث به^(٧) النصارى من أكابر دينهم، إما بعض البطارقة، وإما بعض المطارنة وإما بعض الرهبان. ويتمثل لمن يستغيث به^(٨) من ضلال المسلمين بشيخ من الشيوخ في صورة ذلك الشيخ، كما تمثل^(٩) لجماعة ممن أعرفهم في صورتى، وفي صورة جماعة من الشيوخ الذين ذكروا في^(١٠) ذلك، ويتمثل كثيراً في صورة

(١) سقطت جملة (وخاطبه بأمور - إلى قوله: وقال أنه المسيح) من ك، ط .

(٢) في ط (إنما هو شيطان).

(٣) ما بين النجمتين ساقط من أ وزدناه من سائر النسخ .

(٤) في أ والشياطين .

(٥) في ط (يستجيب).

(٦) في ك (له).

(٧) في ك، ط (به من).

(٨) مكان (به) بياض في أ، وسقطت من س وزدناها من ك، ط .

(٩) في ك، ط (يتمثل).

(١٠) في س (لي).

بعض الموتى : تارة يقول : أنا الشيخ عبد القادر^(١) وتارة يقول : أنا الشيخ^(٢) أبو الحجاج الأقصري^(٣)، وتارة يقول : أنا الشيخ عدي^(٤)، وتارة يقول : أنا أحمد بن الرفاعي^(٥)، وتارة يقول : أنا أبو مدين

(١) عبد القادر بن موسى الجيلاني، أو الكيلاني، أو الجيلي نسبة إلى جيلان وراء طبرستان، ويقال لها جيل. ولد سنة ٤٧١ هـ، انتقل إلى بغداد، واتصل بشيوخ العلم، والتصوف، وتفقه في مذهب أحمد على يد ابن عقيل، وأبي الخطاب، وسمع الحديث من جماعة، وتصدر للوعظ والتدريس، وأسس الطريقة القادرية من طرق الصوفية. مات سنة ٥٦١ هـ.

انظر: شذرات الذهب ٤/١٩٨ - ٢٠٢؛ والعبر ٤/١٧٥؛ والنجوم الزاهرة ٣٧١/٥؛ والأعلام ٤/٤٧.

(٢) سقطت كلمة (الشيخ) من أ، س. وألحقناها من ك، ط.

(٣) أبو الحجاج يوسف بن عبد الرحيم القرشي الأقصري. نسبة إلى الأقصر من صعيد مصر، من كبار الصوفية في عصره، له أتباع ومريدون. ذكروا لأتباعه حكايات تدل على غلوهم فيه، وهي من حيل الشيطان ومخاريقه. مات سنة ٦٤٢ هـ. انظر ترجمته في: الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد للأدفوني ص ٧٢٢ - ٧٢٤ ترجمة رقم (٥٧٤)؛ والأعلام ٨/٢٣٨.

(٤) عدي بن مسافر بن إسماعيل الهكاري نسبة إلى جبة الهكارية من أعمال الموصل، ولد سنة ٤٦٧ هـ. ولد في بيت قار من أعمال بعلبك، وجاور بالمدينة، وهو من شيوخ الصوفية، وتنسب إليه طائفة العدوية، كان زاهداً، عابداً، أثنى عليه شيخ الإسلام ابن تيمية في الوصية الكبرى، لكن أتباعه خرجوا عن الصواب، وغلوا فيه ومن أقوالهم فيه أنه إذا ذكر على موج البحر سكن، وعلى الأسد وقف. نعوذ بالله من الزيغ والضلal. مات سنة ٥٧٧ هـ.

انظر: وفيات الأعيان ٣/٢٥٤ (٤١٥)؛ وشذرات الذهب ٤/١٧٧؛ والعبر ٤/١٦٣؛ والأعلام ٤/٢٢١.

(٥) أحمد بن علي الرفاعي الحسيني أبو العباس. شيخ الطريقة الرفاعية، ولد سنة ٥١٢ هـ. بقرية حسن من أعمال واسط، كان شافعي المذهب. وسكن البطائح، وانضم إليه خلق عظيم من الفقراء، والطائفة الرفاعية، والباطنية منسوبة إليه. قال الذهبي: كان إليه المنتهى في التواضع والقناعة، لكن أصحابه فيهم الجيد والرديء، وقد كثر الزغل فيهم، وتجددت لهم أحوال شيطانية منذ أخذت التار =

المغربي^(١)، وإذا كان يقول: أنا المسيح، أو إبراهيم، أو محمد: فغيرهم بطريق الأولى، والنبي - صَلَّى الله عليه وسلّم - قال: «من رآني في المنام فقد رآني حقاً، فإن الشيطان لا يتمثل في صورتي». وفي رواية «في صورة الأنبياء»^(٢).

فرؤيا الأنبياء في المنام حق. وأما رؤية الميت في اليقظة فهذا جني تمثل في صورته.

وبعض الناس يسمي هذا روحانية الشيخ، وبعضهم^(٣) يقول: هي رفيقه^(٤)، وكثير من هؤلاء يرى^(٥) يقوم من مكانه ويدع في مكانه صورة

= العراق . . . مات سنة ٥٧٨ هـ .

انظر: وفيات الأعيان ١٧١/١ (٧٠)؛ والعبر ٢٣٣/٤؛ ومروءة الجنان ٤٠٩/٣؛ ومروءة الزمان في تاريخ الأعيان ٣٧٠/١؛ والأعلام ١٦٩/١.

(١) أبو مدين المغربي: لم أقف له على ترجمة، وذلك بعد البحث الطويل في كتب التراجم والفرق.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب إثم من كذب على النبي - صَلَّى الله عليه وسلّم - من حديث أبي هريرة ٣٥/١، وفي التعبير ٧١/٨، ورواه مسلم في كتاب الرؤيا، باب قول النبي - صَلَّى الله عليه وسلّم - : «من رآني في المنام فقد رآني» ١٧٧٥/٤ (١٠)، (١١)؛ وأبوداود في الأدب، باب ما جاء في الرؤيا ٢٨٥/٥ (٥٠٢٣)؛ وابن ماجه في كتاب تعبير الرؤيا، باب رؤية النبي - صَلَّى الله عليه وسلّم - في المنام ١٢٨٤/٢ (٣٩٠١)؛ وأحمد في المسند ٢٣٢/٢، ٢٦١، ٣٤٢، ٤١٠، ٤١١، ٤٢٥.

ورواه الترمذي من حديث ابن عمر بلفظ مقارب في كتاب الرؤيا، باب ما جاء في قول النبي - صَلَّى الله عليه وسلّم - من رآني في المنام فقد رآني ٥٣٥/٤ (٢٢٧٦)، وقال: حسن صحيح، وفي الباب عن أبي هريرة، وأبي قتادة، وابن عباس.

(٣) في ك، ط (وبعض الناس).

(٤) في أ، س (رفيقته). والمقصود قرينه، ورفيقه من الشياطين.

(٥) في ك، ط (من) بدل (يرى).

مثل صورته، وكثير من هؤلاء، ومن هؤلاء من يقول يرى في مكانين^(١)، ويرى واقفاً بعرفات. وهو في بلده لم يذهب، فيبقى الناس الذين لا يعرفون حائرين.

فإن العقل الصريح يعلم أن الجسم الواحد لا يكون في الوقت الواحد في مكانين.

والصادقون قد رأوا ذلك عياناً لا يشكون فيه، ولهذا يقع النزاع كثيراً بين هؤلاء وهؤلاء، كما قد جرى ذلك غير مرة.

وهذا صادق فيما رأى وشاهد، وهذا صادق فيما دل عليه العقل^(٢) الصريح.

لكن ذلك المرئي، كان جنياً تمثل بصورة^(٣) الإنسان.

والحسيات إن لم يكن معها عقليات تكشف حقائقها وإلا وقع فيها غلط كبير.

وهذا القسم المشهود في الخارج غير ما يتخيله الإنسان في نفسه، فإن هذا يعرفه جميع الناس، ويصوبه^(٤) جميع العقلاء، يتخيلون^(٥) أشياء في أنفسهم، كما يتخيله النائم في منامه، وتكون تلك الصورة موجودة في الخيال لا في الخارج.

(١) في س (من في مكانين) وفي ك، ط (يرى في مكانين).

(٢) سقط لفظ (العقل) من أ، ك، ط، وألحقناه من س.

(٣) في ك، ط (في صورة).

(٤) في س (وتقربه) وفي ك، ط (ويعرفه).

(٥) في ط (ويتخيلون).

والفلاسفة وسائر^(١) العقلاء يعترفون بهذا، لكن كثير^(٢) من الفلاسفة يظن أن ما رأته الأنبياء^(٣) من الملائكة، وما سمعته من الكلام كان من هذا النوع، ويظنون أن ما يرى من الجن هو من هذا النوع، وهؤلاء جهال غالطون في هذا، كما جهلوا وغلطوا في ظنهم أن خوارق العادات سببها قوى نفسانية، أو طبيعية، أو قوى فلكية، وأن الفرق بين النبي والساحر، إنما هو حسن قصد هذا، وفساد قصد^(٤) الآخر، وإلا فكلاهما خوارق^(٥) سببها قوى نفسانية أو فلكية، وهذا النفي باطل، كما قد بسطنا الكلام عليه، وبيننا جهل هؤلاء وضلالهم في غير^(٦) هذا الموضوع^(٧).

والذين شاهدوا ذلك في الخارج وثبت عندهم بالأخبار الصادقة المتواترة، وجود ذلك في الخارج يعلمون أن هؤلاء جاهلون ضالون، ويعلمون أن الملائكة تظهر في صورة البشر، كما ظهرت لإبراهيم،

(١) في ك، ط (وجميع).

(٢) في ط (كثيراً).

(٣) في س (أنبياء).

(٤) في ك، ط (وفساد قصد ظن الآخر).

(٥) في جميع النسخ عدا ط (خوارقة).

(٦) في ط (في غير ذلك هذا).

(٧) ألف شيخ الإسلام في هذا الموضوع كتاب النبوات ويقع في قرابة ثلاثمائة صفحة،

مطبوع بدون تحقيق، ويظهر أنه ليس كاملاً. وقد تناول فيه الشيخ - رحمه الله -

هذه المسألة بالتفصيل، وناقش الفلاسفة مناقشة علمية في عدم تفريقهم بين النبي

والساحر إلا من حيث كون النبي يأمر بالخير، والساحر يأمر بالشر، وقد سبق هذا

بحديث عن آيات الأنبياء، وما تتميز به خوارقهم عن غيرهم، ثم وضح الفرق بين

النبي والكاهن ثم ناقش الفلاسفة بعد ذلك في ص ٢١٠ من الكتاب.

وانظر كتابه: الرد على المتطقيين ص ٤٤١ فما بعدها كلام جيد في الفرق بين السحر

والمعجزة.

ولوط، ومريم، في صورة البشر، وكما كان جبريل يظهر للنبي - صلى الله عليه وسلم - تارة في صورة دحية الكلبي، وتارة في صورة أعرابي، ويراه كثير من الناس عياناً، وما في خيال الإنسان لا يراه غيره^(١)، وكذلك كما^(٢) ظهر إبليس^(٣) للمشركين في صورة الشيخ النجدي^(٤) (*)، وظهر لهم يوم بدر^(٥) في صورة سراقه بن مالك بن جعشم^(٦)؛ فلما رأى الملائكة هرب.

(١) سقطت (غيره)؛ من ك.

(٢) في ك، ط (لما)، وفي س (وكذلك الشياطين كما).

(٣) في ك، ط (الشیطان).

(٤) في ك، ط زيادة (وغيره).

(*) ظهر في صورة الشيخ النجدي عندما اجتمع كفار قريش في دار الندوة ليتشاوروا في أمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - فلما أدلوا بأرائهم صوب رأي أبي جهل الذي يقضي بقتل الرسول - صلى الله عليه وسلم - على أيدي شباب من كل قبيلة شاب، حتى يتفرق دمه في القبائل فلا يعطون إلا الدية.

انظر القصة بكاملها في سيرة ابن هشام ٨٩/٢ - ٩١ عن ابن إسحاق - وذكر السند وتمام القصة. لكن ابن إسحاق قال: حدثني من لا أتهم من أصحابنا وساق السند عن ابن عباس، وقد ذكر السيوطي - رحمه الله - القصة كاملة في لباب النقول ص ١٠٨، وعزاها إلى ابن أبي حاتم، عن ابن عباس. وذلك في آية الأنفال: ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا...﴾ الآية ٣٠.

وقال ابن كثير بعد أن ساق القصة كاملة عن ابن إسحاق: «وهذه القصة التي ذكرها ابن إسحاق قد رواها الواقدي بأسانيده عن عائشة، وابن عباس، وعلي، وسراقه بن مالك، وغيرهم. دخل حديث بعضهم في بعض فذكر نحو ما تقدم».

انظر: البداية والنهاية ١٧٦/٣. وساق ابن جرير في تفسيره القصة كاملة.

انظر: ١٤٩/٩ (مجلد ٥).

(٥) سيأتي تخريجها قريباً.

(٦) سراقه بن مالك بن جعشم بن مدلج الكناني المدلجي، أبوسفیان، قال ابن حجر: روى البخاري قصته في إدراكه النبي - صلى الله عليه وسلم - لما هاجر إلى المدينة، ودعا النبي - صلى الله عليه وسلم - عليه حتى ساخت رجلاً فرسه ثم إنه =

قال - تعالى - :

﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَاغَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾^(١).

وروي عن ابن عباس وغيره، قال: تبدى إبليس في جند من الشياطين ومعه راية في صورة رجال من مدلج، والشيطان في صورة سراقه بن مالك بن جعشم، فقال: لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم. وأقبل جبريل - عليه السلام - على إبليس، فلما رآه وكانت يده في يد رجل من المشركين انتزع^(٢) إبليس يده وولى مدبراً هو وشيعته^(٣)، فقال الرجل: يا سراقه أتزعم أنك لنا جار؟ فقال: إني أرى ما لا ترون، إني أخاف الله، والله شديد العقاب^(٤).

= طلب منه الخلاص، وأن لا يدل عليه ففعل. وكتب له أماناً، وأسلم يوم الفتح، وفي قصته مع النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول مخاطباً أبا جهل: أبا حكم والله لو كنت شاهداً لأمر جوادي إذ تسوخ قوائمه علمت ولم تشكك بأن محمداً رسول ببرهان فمن ذا يقاومه له ١٩ حديثاً، وكان في الجاهلية قائفاً. ومات سنة ٢٤هـ.

انظر: الإصابة ١٨/٢ - ١٩ (٣١١٥)؛ والاستيعاب هامش الإصابة ١١٨/٢ - ١٢٠؛ والأعلام ٨٠/٣. وانظر دلائل النبوة للبيهقي ٢/٢١٥.

(١) سورة الأنفال: الآية ٤٨.

(٢) في ك، ط (نزع).

(٣) في س، ك، ط (وشعبه).

(٤) أخرجه ابن جرير بسنده عن ابن عباس وذكره كاملاً. ثم رواه من طرق متعددة بالفاظ مختلفة فأخرجه من طريق ابن إسحاق كما سبق ذكره، وذكره بسنده عن قتادة، وعن ابن عباس من طريق أخرى. وقد عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى ابن المنذر وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي. وكلهم رواه عن ابن عباس وساق ابن كثير لهذه القصة عدة أسانيد، وذكرها ابن هشام في السيرة عن ابن إسحاق =

قال ابن عباس: وذلك لما رأى الملائكة، قال الضحاك: سار الشيطان معهم برايته وجنوده وألقى في قلوب المشركين أن أحداً لن يغلبكم وأنتم^(١) تقاتلون على دينكم ودين آبائكم^(٢).

وكثير من الناس تحمله الجن إلى مكان بعيد، فتحمل^(٣) كثيراً من الناس إلى عرفات وغير عرفات، وإذا رأى واحد من هؤلاء في غير بلده يكون تارة محمولاً، قد^(٤) حملته الجن، وتارة تصورت^(٥) على صورته،

والأثر، عن ابن عباس صحيح، لأنه ورد من صحيفة علي بن أبي طلحة التي وثقها العلماء، وقد جاء في ميزان الاعتدال للذهبي ١٣٤/٣ علي بن أبي طلحة بن سالم المخارق الهاشمي ولاء، وهو يرسل الأثر إلى ابن عباس، حيث يسقط الوساطة بينه وبينه.

قلت: ذكر بعض العلماء أنه يأخذ عن ثقتين وهما مجاهد، وعكرمة، وهو في نفسه صدوق. انظر: الناسخ والمنسوخ للسخاوي ص ١٣، وانظر في ترجمته: تهذيب التهذيب ٣٣٩/٧.

انظر: تفسير ابن جرير الطبري ١٤/١٠ (مجلد ٦)؛ وسيرة ابن هشام ١٨٦/٢؛ تفسير ابن كثير ٣١٧/٢؛ والدر المنثور للسيوطي ١٩٠/٣؛ ودلائل النبوة للبيهقي ٣٥٤/٢؛ وآكام المرجان في أحكام الجان للشبلي ص ٢٩٠؛ والبداية والنهاية لابن كثير ٢٥٩/٣.

(١) في أ (وإنكم) وما أثبتناه من سائر النسخ هو الأولى.

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري - باللفظ الذي ذكره المؤلف - بسنده عن الحسن، وأخرجه بسنده عن ابن عباس، وعن السدي، وعن عروة بن الزبير، وعن ابن إسحاق، وعن قتادة، وعن طلحة بن عبيد الله بن كريز، وعن محمد بن كعب. انظر: تفسير ابن جرير ٧/١٥ - ١٢ (تحقيق محمد شاكر، ط دار المعارف بمصر)؛ والبداية والنهاية لابن كثير ١٧٥/٣، ٢٨٣.

ولم أقف عليه بتفسير الضحاك بعد بحث طويل في مظانه من كتب التفسير بالمأثور لابن جرير، وابن أبي حاتم، والسيوطي، وغيرها، والله أعلم.

(٣) في ط (فتنقل).

(٤) في ك، ط (تارة قد).

(٥) في ك، ط (قد تصورت).

ولا يكون هذا من أولياء الله المتقين الذين لهم كرامات، بل قد ^(١) يكون من الكافرين، أو الفاسقين، وأعرف من ذلك قضايا ^(٢) كثيرة ليس هذا موضع تفصيلها ^(٣).

وعند المشركين والنصارى من ذلك شيء كثير ^(٤) يظنونه من جنس الآيات التي للأنبياء.

إنما هي من جنس ما للسحرة والكهان، ومن لم يفرق بين أولياء الرحمن، وأولياء الشيطان. ويفرق بين معجزات الأنبياء، وكرامات الصالحين، وبين خوارق السحرة والكهان، ومن تقتنر ^(٥) بهم الشياطين. وإلا التبس عليه الحق بالباطل، فأما أن يكذب بالحق الذي جاء به الأنبياء الصادقون، وأما أن يصدق بالباطل الذي يقوله الكاذبون ^(٦) والغالطون.

وهذه الأمور مبسوبة في موضع آخر، والمقصود هنا التنبيه على هذا الأصل وعلماء النصارى يسلمون هذا وعندهم من ذلك أخبار كثيرة من حكايات أولياء الشيطان الذين عارضهم أولياء الرحمن، وأبطلوا ^(٧) أحوالهم كما أبطل موسى — صلوات الله عليه — ^(٨) ما عارضته ^(٩) به

(١) سقطت (قد) من س.

(٢) في ك، ط (قصصاً).

(٣) في ك، ط (ليس تفصيلها في هذا الموضع).

(٤) في أ (كثيراً) وصححناه من سائر النسخ.

(٥) في ك، ط (يقتنر) بالمشاة التحتية.

(٦) في ك، ط (الكافرون).

(٧) في أ، س (وبطلوا) وصوبناه من ك، ط.

(٨) سقطت الجملة الدعائية من ك، ط.

(٩) في س، ك، ط (ما عارضه).

السحرة من الخوارق، كما ذكر ذلك^(١) في التوراة^(٢)، وكما يذكرونه عن فلان وفلان، مثل حكاية سيمون الساحر^(٣) مع الحواريين وغير ذلك وإذا^(٤) كان هذا معلوماً كان ما يذكرونه من هذا الجنس، إذا كان مخالفاً لما ثبت عن الأنبياء من الشيطان، فلا يجوز أن يحتج به^(٥) على ما يخالف شرائع الأنبياء الثابتة عنهم، بل هؤلاء من جنس الدجال الكبير الذي أنذرت به الأنبياء كلهم حتى نوح أنذر^(٦) قومه. وقال خاتم الرسل - صَلَّى الله عليه وسلَّم - : «ما من نبي إلا قد أنذر أمته حتى نوح أنذر

(١) سقطت (ذلك) من ك، ط .

(٢) وردت قصة انتصاره على السحرة في التوراة: سفر الخروج، الإصحاح الرابع فقرة ١ - ٩ حين ألقى العصا فانقلبت بأمر الله حية، وأدخل يده في جيبه فإذا هي بيضاء كالثلج، وأخذ من ماء النهر ماء ثم وضعه على اليابسة ليكون دماً. أما في القرآن الكريم فقد وردت هذه في مواضع متعددة منها سورة طه من آية ٦٠ - ٧٣؛ وسورة الشعراء من ٣٦ - ٥١، وغيرهما.

(٣) جاءت حكاية سيمون الساحر في سفر أعمال الرسل الإصحاح الثامن فقرة ٩ - ٢٤. انظر: الإنجيل (كتاب الحياة - ترجمة تفسيرية) ص ١٦٨ (ط دار العلم العربي - القاهرة ١٩٨٣)؛ وانظره في الكتاب المقدس - العهد الجديد ص ٢٠٣، ط دار حلمي، وسيمون: اسم عبراني معناه (السامع)، وفي الأصل لفظه نفس لفظ (سمعان)، وجاء في قاموس الكتاب المقدس أنه «كان يدهش شعب السامرة بسحره فكانوا يقولون أن سحره شيء عظيم... ثم ذكر أنه آمن عندما التقى بالمبشر فيلبس، ولم ينشأ إيمانه عن توبة...، وهم يطلقون اسم السيمونية على كل من يتاجر في الوظائف الكنسية، وقد كان له أتباع اسمهم السيمونيون اعتبروا سيمون مسيحهم وفاديتهم...».

انظر: قاموس الكتاب المقدس ص ٤٩٧، تأليف نخبة من أساتذة اللاهوت ط ٢ عن مجمع الكنائس في الشرق الأدنى.

(٤) في ك، ط (إذا).

(٥) سقطت (به) من ك، ط .

(٦) في أ، س، ك (أنذره)، وهو خطأ واضح وصححناه من ط ومن نص الحديث.

قومه وسأقول لكم فيه قولاً لم يقله نبي لأمته: إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور، مكتوب بين عينيه كافر (ك ف ر) يقرؤه كل مؤمن قارىء وغير قارىء». وقال: «واعلموا أن أحداً منكم لن يرى ربه حتى يموت»^(١).

وقد أخبر أن المسيح عيسى بن مريم مسيح الهدى ينزل إلى الأرض على المنارة البيضاء شرقي دمشق، فيقتل مسيح الضلالة^(٢)، وهذا هو الذي تنتظره اليهود ويجحدون المسيح عيسى بن مريم، ويقولون: هذا هو الذي بشرت به الأنبياء، «ويتبعه من يهود أصبهان سبعون ألفاً مطيلسين»^(٣)، «ويقتلهم المسلمون مع عيسى بن مريم شر قتلة حتى يقول الشجر والحجر: يا مسلم هذا يهودي ورائي تعال

(١) الحديث: أخرجه البخاري من حديث أنس - رضي الله عنه - في كتاب التوحيد، باب قول الله - تعالى - ولتصنع على عيني ١٧٢/٨، وفي كتاب الفتن ١٠٣/٨، باب ذكر الدجال (وليس فيه عبارة: وسأقول لكم فيه قولاً لم يقله نبي لأمته)، وأخرجه أيضاً من حديث ابن عمر في الفتن، باب ذكر الدجال ١٠٢/٨، وليس فيه: (مكتوب بين عينيه كافر). وكل روايات البخاري ليس فيها جملة: (حتى نوح أنذر قوم)، ورواه مسلم في الفتن، باب ذكر ابن صياد ٢٢٤٥/٤ (٩٥) بلفظ مقارب لما ذكره المؤلف؛ ورواه من حديث أنس في الفتن، باب ذكر الدجال وصفته وما معه ٢٢٤٨/٤ (١٠١)؛ وروى حديث ابن عمر أبوداود في كتاب السنة، باب في الدجال ١١٨/٥ (٤٧٥٧)؛ والترمذي في الفتن، باب ما جاء في علامة الدجال ٥٠٨/٤ (٢٢٣٥)، وقال: حديث حسن صحيح. وأحمد في مسند ابن عمر ١٥٣/٢؛ وفي مسند أنس ١٠٣/٣؛ وفي مسند أبي عبيدة بن الجراح ١٩٥/١ بالفاظ مختلفة.

وورد في حديث طويل رواه أبو أمامة الباهلي في سنن الترمذي، كتاب الفتن، باب فتنة الدجال ١٣٦٠/٢ قوله: «وإنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور، وإنه مكتوب بين عينيه كافر يقرؤه كل مؤمن كاتب أو غير كاتب... إلخ. أوصافه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

اقتله»^(١). وكل هذا ثابت في الصحيح عن النبي - صَلَّى الله عليه وسلم - . ولهذا أمر أمته أن يستعينوا بالله من فتنه، فقال: «إذا قعد أحدكم في التشهد في الصلاة فليتعوذ بالله من أربع: من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال»^(٢).

والأنبياء كلهم أُنذروا بالكذابين الذين يتشبهون بالأنبياء، لكن من الناس من يتعمد الكذب، وكثير منهم لا يتعمد، بل يلتبس عليه فيغلط فيخبر بما يظنه حقاً، ولا يكون كذلك، ويرى في اليقظة^(٣) ما يظنه فلاناً الولي أو النبي، أو الخضر، ولا يكون كذلك.

والغلط جائز على كل أحد إلا الأنبياء - عليهم السلام - ، فإنهم معصومون، لا يقرون على خطأ، فمن لم يزن علومه وأعماله وأقواله وأفعاله بالمعلوم^(٤) عن الأنبياء، وإلا كان ضالاً، فنسأل^(٥) الله العظيم أن يهدينا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه مسلم من حديث أبي هريرة في كتاب المساجد ومواضع الصلاة فيها، باب ما يستعاذ منه في الصلاة ٤١٢/١، حديث رقم (١٢٨)، وحديث رقم (١٣٠)، (١٣١)، (١٣٢)، (١٣٣). بالفاظ متقاربة؛ ورواه النسائي في كتاب السهو، باب التعوذ في الصلاة ٥٨/٣؛ وأحمد في المسند ٤٧٧/٢. وفيه قدم الرابعة على الثالثة.

(٣) جملة (ويرى في اليقظة... إلى ولا يكون كذلك) ساقطة من ك.

(٤) في ك (العلوم).

(٥) في ك، ط (نسأل).

والمسلمون^(١) وأهل الكتاب متفقون على إثبات مسيحين: مسيح هدى من ولد داود، ومسيح ضلال. يقول أهل الكتاب: إنه من ولد يوسف^(٢). ومتفقون على أن مسيح الهدى سوف يأتي كما يأتي مسيح الضلالة، لكن المسلمون والنصارى يقولون^(٣): مسيح الهدى هو عيسى بن مريم، وإن الله أرسله ثم يأتي مرة ثانية، لكن المسلمون يقولون: إنه ينزل قبل يوم القيامة فيقتل مسيح الضلالة، ويكسر الصليب ويقتل الخنزير، ولا يبقى دين^(٤) إلا دين الإسلام، ويؤمن به أهل الكتاب: اليهود، والنصارى.

(١) من هذه الكلمة (والمسلمون وأهل الكتاب إلى نهاية الفصل)، جاء متأخراً في نسخة ك، ط حيث ورد في ورقة ١٨٤ في نسخة ك، السطر الرابع عشر، وفي نسخة ط ص ٣٢٩ - ٣٣٠، (ط: المدني).

(٢) المسلمون يؤمنون بمجيء المسيح الدجال، الذي وردت أوصافه كما سبق أن ساق المؤلف طرفاً منها، أما تحديد اسمه ونسبه فلم يرد به السمع، ولسنا ملزمين بشيء لم يرد به السمع.

أما أهل الكتاب فيزعمون أنه من ولد يوسف، ونحن نطالبهم بالدليل الصحيح وليس معهم في ذلك شيء.

(٣) يقول ابن القيم - رحمه الله - : «فالمسلمون يؤمنون بالمسيح الصادق الذي جاء من عند الله بالهدى ودين الحق، هو عبد الله، ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول، والنصارى إنما تؤمن بمسيح دعى إلى عبادة نفسه وأمه، وأنه ثالث ثلاثة، وأنه الله وابن الله، وهذا هو أخو المسيح الكذاب لو كان له وجود؛ فإن المسيح الكذاب يزعم أنه الله، والنصارى في الحقيقة أتباع هذا المسيح، كما أن اليهود إنما ينتظرون خروجه، وهم يزعمون أنهم ينتظرون النبي الذي بشروا به، فعوضهم الشيطان بعد مجيئه من الإيمان به انتظاراً للمسيح الدجال، وهكذا كل من أعرض عن الحق يعرض عنه بالباطل».

انظر: هداية الحيارى، بتحقيق د. أحمد السقا ص ١٣٥، ١٣٦.

(٤) في ط (ولا يبقى ديناً).

كما قال - تعالى - :

﴿وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ...﴾ (١).

والقول الصحيح الذي عليه الجمهور قبل موت المسيح ، وقال

- تعالى - :

﴿وَأِنَّهُمْ لَعِلَّمُ السَّاعَةَ فَلَا تَمُوتُ بِهَا...﴾ (٢).

وأما النصارى فتظن (٣) أنه الله ، وأنه يأتي يوم القيامة لحساب الخلائق وجزائهم ، وهذا مما ضلوا فيه . واليهود تعترف بمجيء مسيح هدى يأتي ، لكن يزعمون أن عيسى - عليه السلام - لم يكن مسيح هدى ، لضعفهم (٤) أنه جاء بدين النصارى المبدل ، ومن جاء به فهو كاذب ، وهم ينتظرون (٥) المسيحين .



(١) سورة النساء : الآية ١٥٩ .

(٢) سورة الزخرف : الآية ٦١ .

(٣) في ط (فيظنون) وفي ك (فيظن) .

(٤) في س ، ك ، ط (لضعفهم) .

(٥) في ك (ينتظرون) .

فصل (١)

والخوارق التي تضل^(٢) بها الشياطين لبني آدم مثل تصور الشيطان بصورة شخص غائب أو ميت ونحو ذلك، ضل بها خلق^(٣) كثير من الناس من المتسبين إلى المسلمين، أو إلى أهل الكتاب وغيرهم، وهم بنوا ذلك على مقدمتين:

الخوارق التي
يُضِلُّ بها
الشياطين
أبناء آدم

إحداهما^(٤): أن من ظهرت هذه على يديه فهو ولي الله . وبلغه النصرارى هو قديس عظيم .

الثانية^(٥): أن من يكون كذلك فهو معصوم فكل^(٦) ما يخبر به فهو^(٧) حق وكل ما يأمر به فهو عدل، وقد لا يكون ظهرت على يديه خوارق، لا رحمانية ولا شيطانية، ولكن صنع حيلة من حيل أهل الكذب والفجور. وحيل أهل الكذب والفجور كثيرة جداً، فيظن أن ذلك من العجائب الخارقة للعادة، ولا يكون كذلك مثل الحيل المذكورة عن الرهبان.

(١) سقطت كلمة (فصل) من ك.

(٢) في ك، ط (يضل) بالمشنة التحتية.

(٣) سقطت (خلق) من ك، ط.

(٤) في ك، ط (أحدهما).

(٥) في جميع النسخ (الثاني).

(٦) في ك ط (وكل).

(٧) سقطت (فهو) من ط.

وقد صنّف بعض الناس مصنفاً في حيل الرهبان، مثل الحيلة المحكية عن أحدهم في جعل الماء زيتاً بأن يكون الزيت في جوف منارة، فإذا نقص صب فيها ماء ، فيطفو الزيت على الماء، فيظن الحاضرون أن نفس الماء انقلب زيتاً.

ومثل الحيلة المحكية عنهم في ارتفاع النخلة، وهو أن بعضهم مر بدير راهب وأسفل منه نخلة فأراه النخلة صعدت شيئاً شيئاً^(١) حتى حاذت الدير، فأخذ من رطبها ثم نزلت حتى عادت كما كانت فكشف الرجل الحيلة فوجد النخلة في سفينة في مكان منخفض إذا أرسل عليه الماء امتلأ حتى تصعد السفينة * وإذا صرف الماء إلى موضع آخر هبطت السفينة *^(٢).

ومثل الحيلة المحكية عنهم في التكحل بدموع السيدة، يضعون^(٣) كحلاً في ماء متحرك حركة لطيفة، فيسيل حتى ينزل من تلك الصورة فيخرج من عينها فيظن أنه دموع.

ومثل الحيلة التي صنعوها بالصورة التي يسمونها القونة^(٤)

(١) سقطت (شيئاً) الثانية من ط.

(٢) سقط ما بين النجمتين من أ وزدناه من سائر النسخ.

(٣) في ط (وهو أنهم يضعون) وفي ك (ويضعون).

(٤) هكذا في جميع النسخ (القونة) ولعل المراد بها (الأيقونة) وهذا ما أفهمه من السياق، والأيقونة كلمة يونانية أو قبطية الأصل ويقصد بها صورة دينية، وهي تشمل صور السيد المسيح، أو السيدة العذراء، أو الحواريين، أو الرسل، أو الشهداء، أو القديسين، وغير ذلك من الموضوعات الدينية التي وردت في التوراة والإنجيل أو في تاريخ الكنيسة وهي من العناصر الأساسية في العبادة عند النصارى؛ قالوا لأنها تنقل بواسطة الرسم، والألوان البشارة عينها التي أعلنها الله للكنيسة، والتي حفظت في ضميرها، وعبر عنها التقليد الشريف، ونقلها الكتاب المقدس، قلت: وهم يعظمون الأيقونات أي - الصور للسيد المسيح ومريم العذراء، وآباء الكنائس =

بصيدنايا، وهي أعظم مزاراتهم بعد القمامة وبيت لحم^(١)، حيث ولد المسيح : وحيث قبر، فإن هذه^(٢) صورة السيدة مريم، وأصلها خشبة^(٣) نخلة سقيت بالأدهان حتى تنعمت^(٤) وصار الدهن يخرج منها دهناً^(٥) مصنوعاً يظن أنه من بركة الصورة.

ومن حيلهم الكثيرة النار التي يظن عوامهم أنها تنزل من السماء في عيدهم في قمامة^(٦) وهي حيلة قد شهدا غير واحد من المسلمين والنصارى ورأواها بعيونهم أنها نار مصنوعة يضلون بها عوامهم يظنون أنها نزلت من السماء ويتبركون بها وإنما هي صنعة صاحب محال وتلبیس .

ومثل ذلك كثير من حيل النصارى فجميع ما عند النصارى المبدلين لدين المسيح من الخوارق، إما حال شيطاني . وإما محال

= ويجوبون وضعها في الكنيسة، والبيوت، والطرق؛ قالوا لأن تأمل الأيقونة يبعث فيهم قوة تحثهم على تكريم من ترمز إليه الأيقونة، وهذا في الحقيقة عبادة للصور وإن زعموا أنهم لا يعنون بذلك عبادتها كما ورد في كتبهم على ألسنة آبائهم، ورهبانهم الذين اتخذوهم أرباباً من دون الله .
انظر: كتاب الأيقونات القبطية للدكتور رؤوف حبيب ص ١؛ والكتاب كله مليء بنماذج وصور، وفيه حديث عن الأيقونات كلها؛ وكتاب الرؤية الأرثوذكسية لوالدة إلاله ص ٧٧ - ٩٤ والكتاب لمجموعة من المؤلفين؛ والمظاهر الرائعة للفنون القبطية للدكتور رؤوف حبيب .

(١) سبق التعريف بهذه المواضع كلها .

(٢) في س، ك، ط (فإن هذه هي) .

(٣) في ك، ط (حشة) .

(٤) في ك، ط (سمنت) .

(٥) سقطت (دهناً) من ط، وجاءت الجملة في أ، س، ك هكذا (يخرج منها دهن مصنوع) .

(٦) سقطت (في قمامة) من أ .

بهتاني ليس فيه شيء من كرامات الصالحين^(١).

وكذلك أهل الإلحاد المبدلين لدين محمد - صلى الله عليه وسلم - ، الذين يتخذون ديناً لم يشرعه الله ورسوله، ويجعلونه طريقاً إلى الله، وقد يختارونه على الطريق التي شرعها^(٢) الله ورسوله، مثل أن يختاروا سماع الدفوف والشبابات^(٣) على سماع كتاب الله - تعالى - ، فقد يحصل لأحدهم من الوجد والغرام الشيطاني ما يلبسه معه الشيطان حتى يتكلم على لسان أحدهم بكلام لا يعرفه ذلك الشخص إذا أفاق، كما يتكلم الجنى على لسان المصروع، وقد يخبر بعض الحاضرين بما في نفسه ويكون ذلك من الشيطان، * فإذا فارق الشيطان ذلك الشخص لم يدر ما قال، ومنهم من يحمله الشيطان *^(٤) ويصعد به قدام الناس في الهواء.

ومنهم من يشير إلى بعض الحاضرين فيموت أو يمرض أو يصير مثل الخشبة.

ومنهم من يشير إلى بعض الحاضرين فيلبسه الشيطان ويزول عقله حتى يبقى دائراً زماناً طويلاً بغير اختياره.

(١) حكى القرافي - رحمه الله - في كتاب الأجوبة الفاخرة جملاً كثيرة تتعلق بحيل النصارى وتلبسهم على العوام. قال - رحمه الله - : «ولما علم حذاقهم أن دينهم ليست له قاعدة يبنون عليها، ولا أصل يرجع إليه، جمعوا عقول العامة بتخيلات موهمة، وأباطيل مزخرفة، وضعوها في الكنائس والمزارات. ... ثم ذكر أموراً كثيرة من حيلهم فانظره في الكتاب المشار إليه بتحقيق زميلنا د. سالم بن محمد القرني - رسالة ماجستير ص ١٣٥ - ١٤٠.

(٢) في ك (الذي شرعها) وفي ط (الذي شرعه).

(٣) قال في القاموس المحيط ٨٥/١ (فصل الشين، باب الباء): «التشبيب النسيب بالنساء».

(٤) سقط ما بين النجمتين من أ، وزدناه من سائر النسخ.

ومنهم من يدخل النار ويأكلها ويبقى لهابها في بدنه وشعره .

ومنهم من تحضر له الشياطين طعاماً أو شيئاً من لادن^(١) أو سكر^(٢) أو زعفران^(٣) أو ماء ورد^(٤) . ومنهم من تأتيه بدراهم تسرقها الشياطين من بعض المواضع .

ثم من هؤلاء من^(٥) إذا فرق الدراهم على الحاضرين، أخذت منهم، فلا يمكنون من التصرف فيها، إلى أمور يطول وصفها، وآخرون ليس لهم من يعينهم على ذلك من الشياطين، فيصنعون حيلاً ومخاريق .

فالملحدون المبدلون لدين الرسل، دين المسيح، أو دين محمد — صلى الله عليهما^(٦) وسلم^(٧) — هم^(٨) كأمثالهم من أهل الإلحاد^(٩)

(١) اللادن: جاء في المعتمد في الأدوية المفردة للمظفر (حرف اللام) بأنه «شيء من رطوبة يذبق بيد اللامس . يكون على شجرة القيسوس، فترعاه المعز، فتلزم الرطوبة على أفخاذها ولحاهها، ومن الناس من يأخذها فيصفيه، ويعمل منه أقراصاً . ثم ذكر فوائده وأطال فيه» .

انظر: المرجع السابق ص ٤٣٩ .

(٢) السكر: يستخرج من القصب فيجمد، وحلاوته أقل من حلاوة العسل، وهو يدخل في عداد الأشياء الفاتحة للسدد، المنقية للمجاري . وهو صنفان أبيض وأحمر، وأجوده الأبيض .

انظر: المعتمد ص ٢٣٣ .

(٣) الزعفران: نبات صحراوي، وهو أنواع، وأقواه ما كان حديثاً حسن اللون، وعلى شعرته بياض يسير .

انظر: المعتمد ص ٢٠٣ .

(٤) ماء الورد: هو أنواع أجوده النصيبيني العطر، الذكي الرائحة .

انظر: المعتمد ص ٤٨١ وقد ذكر فوائده .

(٥) سقطت (من) من ك، ط .

(٦) في ط (عليه) . (٨) سقطت (هم) من ط .

(٧) سقطت (وسلم) من ك . (٩) سقطت (الإلحاد) من ك .

والضلال: الكفار^(١)، المرتدين و^(٢)المشركين، ونحوهم^(٣) كمسيلمة الكذاب، والأسود العنسي، والحارث الدمشقي، وبابا الرومي وغيرهم، ممن لهم خوارق شيطانية.

وأما أهل الحيل فيكثرون، وهؤلاء ليسوا أولياء الله، بل خوارقهم إذا كانت شيطانية من جنس خوارق الكهنة والسحرة، لم يكن لهم حال شيطاني بل محال بهتاني. فهم متعمدون للكذب^(٤) والتليس، بخلاف من تقتن^(٥) به الشياطين فإن فيهم من يلبس^(٦) عليه، فيظن أن هذا من جنس كرامات الصالحين، كما أن فيهم من يعرف أن ذلك من الشياطين، ويفعله لتحقيق أغراضه، فالمقصود أنه كثير من الخوارق، ما يكون من الشياطين، أو يكون حيلًا ومخاريق، ويظن أنها من كرامات الصالحين. فإن ما يكون شبيه^(٧) الشرك أو الفجور، إنما يكون من الشيطان^(٨)، مثل أن يشرك الرجل بالله فيدعو الكواكب أو يدعو مخلوقاً من البشر ميتاً، أو غائباً أو يعزم و^(٩)يقسم بأسماء مجهولة لا يعرف معناها، أو يعرف أنها أسماء الشياطين، أو يستعين بالفواحش والظلم، فإن ما كان هذا سببه من الخوارق فهو من الشيطان، كما قد بسط الكلام على ذلك في غير هذا الموضع.

(١) في ط (والكفار).

(٢) سقطت (الوار) من ك، ط.

(٣) في ك، ط (وغيرهم).

(٤) في ط (الكذب).

(٥) في س، ك، ط (يقتن) بالمشاة التحتية.

(٦) في ك، ط (يلبس).

(٧) في س، ك، ط (سببه).

(٨) في ط (الشياطين).

(٩) في ك، ط (أو).

والصالحون لهم كرامات، مثل كرامات صالحى هذه الأمة، ومثل كرامات الحواريين وغيرهم ممن كان على دين المسيح، لكن وجود الكرامات على أيدي الصالحين لا توجب أن يكونوا معصومين كالأنبياء، لكن^(١) يكون الرجل صالحاً ولياً لله وله كرامات، ومع هذا فقد يغلط ويخطيء فيما يظنه، أو فيما يسمعه، ويرويه، أو فيما يراه، أو فيما يفهمه من الكتب، ولهذا كان كل من سوى الأنبياء يؤخذ من قولهم ويترك، بخلاف الأنبياء - صلوات الله عليهم أجمعين -، فإنه يجب تصديقهم في كل ما أخبروا به من الغيب، وطاعتهم في كل ما أمروا به ولهذا^(٢) أوجب الله الإيمان بما أوتوه^(٣)، ولم يوجب الإيمان بجميع ما يأتي به غيرهم.

قال - تعالى - :

﴿ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾^(٤).

وقال - تعالى - :

﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ... ﴾^(٥).

ولهذا اتفق المسلمون على أن من كذب نبياً معلوم النبوة فهو كافر مرتد. ومن سب نبياً وجب قتله بل يجب الإيمان بجميع ما أوتيه النبيون

(١) في س، ك، ط (بل) بدل (لكن).

(٢) في ط (ولها).

(٣) في ك (بكل ما أوتوه) وفي ط (بكل ما أوتوه).

(٤) سورة البقرة: الآية ١٣٦.

(٥) سورة البقرة: الآية ١٧٧.

كلهم، وأن لا نفرق^(١) بين أحد منهم، فنؤمن^(٢) ببعض ونكفر^(٣) ببعض. قال - تعالى - :

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۖ﴾ (١٥) أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٦﴾.

وليس هذا لأحد غير الأنبياء، ولو كان من رسل الأنبياء، وكانوا من أعظم الصديقين المقدمين^(٥).

فضلال^(٦) الضلال من هؤلاء مبني على مقدمتين.

إحداهما^(٧): أن هذا له كرامة فيكون ولياً لله.

والثانية^(٨): أن ولي الله لا يجوز أن يخطيء، بل يجب تصديقه في كل ما أخبر، وطاعته في كل ما أمر، وليس لأحد من البشر أن يصدق في كل ما أخبر به، ويطاع في كل أمر إلا أن يكون نبياً.

والمقدمتان المذكورتان، قد تكون إحداهما باطلة، وقد يكون كلاهما باطلاً، فالرجل المعين، قد لا يكون من أولياء الله، تكون^(٩) خوارقه من الشياطين، وقد يكون من أولياء الله، ولكن ليس بمعصوم، بل يجوز عليه الخطأ، وقد لا يكون من أولياء الله، ولا يكون له خوارق، ولكن له محالات وأكاذيب.



(١) سبق إيضاح هذه المسألة.

(٢) (٣) في ك، ط جاءت الأفعال كلها بالمشناة التحتية.

(٤) سورة النساء: الآيتان ١٥٠ - ١٥١. (٥) في س (القديسين).

(٦) انفردت ط عن سائر النسخ بكتابة (فصل) قبل هذه الكلمة ولا مكان لها.

(٧) في ك (أحدهما).

(٨) في ك (والثاني). (٩) في ك، ط (وتكون).

فصل (١)

قالوا: وقال في سورة آل عمران:

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ (٢).

فأعني (٣) أيضاً بالكتاب المنير، الذي هو الإنجيل المقدس.

فيقال: قد تقدم أن الرسل تناول (٤) قطعاً الرسل الذين ذكرهم الله في القرآن، لا سيما أولو العزم كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم؛ فإن هؤلاء مع محمد - صلى الله عليه وسلم - خاتم النبيين - صلوات الله عليهم وسلامه -، خصهم الله وفضلهم بقوله - تعالى -:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى

(١) سقطت كلمة (فصل) من ك.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٨٤.

(٣) في ط (فعني) وما أثبتناه من جميع النسخ هو الموافق لما ورد في الرسالة، وقد كررت فيها كلمة (فأعني)، وجاء فيها كلمات كثيرة محرفة فمثلاً يكتبون (سورة) صورة بالصاد، ويحرفون الآيات القرآنية ففي قوله (تعالى): ﴿وقل آمنت بما أنزل الله...﴾ الآية. استبدلت كلمة قل (بقلت)، وهكذا جرياً على ما اعتادوه من التحريف والتبديل في كتبهم فتلك عادة لهم كما أخبر الله - تعالى - عنهم في كتابه العزيز بقوله - تعالى - : ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه...﴾.

(٤) في ك، ط (يتناول) بالمشاة التحتية.

أَبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِيَسْتَلَّ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١﴾ .

وفي قوله - تعالى - :

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۖ ﴾ (٢) .

فالدين، دين رسل الله، دين واحد كما بينه الله في كتابه، وكما ثبت في الصحيحين عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد وأن» (٣) أولى الناس بابن مريم لأنا: إنه (٤) ليس بيني وبينه نبي» (٥) .

ويتناول أيضاً اسم الرسل من لم يسمهم (٦) بأعيانهم في القرآن . قال - تعالى - :

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ۚ وَعِيسَى ۚ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ وَآتَيْنَا دَاوُدَ ذُبُورًا ﴿١١٣﴾ ۚ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ ۚ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿١١٤﴾ ۚ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (٧) .

(١) سورة الأحزاب: الآيتان ٧، ٨ .

(٢) سورة الشورى: الآية ١٣ .

(٣) في ك، ط (وأننا) .

(٤) في ك، ط (لأنه) وسقطت (لأننا) من ك، ط .

(٥) سبق تخريج الحديث في أول الكتاب .

(٦) في س (بسم) .

(٧) سورة النساء: الآيات ١٦٣ - ١٦٥ .

وقال - تعالى - :

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ (١).

وأما الحواريون فإن الله - تعالى - ذكرهم في القرآن، ووصفهم بالإسلام واتباع الرسول وبالإيمان بالله (٢)، كما (٣) أنزل في قوله - تعالى - :

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٤).

وقال - تعالى - :

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (٥).

وقال - تعالى - :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَتَمَنَّتِ طَلِيفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَلِيفَةٌ فَأَيْدِنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عُدُودِهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ (٦).

(١) سورة غافر: الآية ٧٨.

(٢) في ط (والإيمان بالله).

(٣) في أ (وكما) والواو زائدة هنا.

(٤) سورة آل عمران: الآيتان ٥٢، ٥٣.

(٥) سورة المائدة: الآية ١١١.

(٦) سورة الصف: الآية ١٤.

ولم يذكر الله - تعالى - في القرآن أنه أرسلهم البتة. بل ذكر أنه ألهمهم الإيمان به وبرسوله وأنهم أمروا باتباع رسوله وقوله:

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ...﴾.

لا يدل على النبوة، فإنه قال - تعالى - :

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ...﴾^(١).

وأم موسى لم تكن نبية، بل ليس في النساء نبية كما تقوله عامة النصارى والمسلمين.

وقد ذكر إجماعهم على ذلك غير واحد، مثل القاضيين: أبي بكر بن الطيب، وأبي يعلى ابن أبي^(٢) الفراء، والأستاذ أبي المعالي الجويني^(*)، وغيرهم. ويدل على ذلك قوله - تعالى - :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾^(٣).

وقوله - تعالى - :

﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ...﴾^(٤).

فجعل غاية مريم الصديقية كما جعل غاية المسيح الرسالة^(٥).

(١) سورة القصص: الآية ٧.

(٢) سقطت (أبي) من أ، س وجاءت (الفرا) وفي أ (الفرد) وهو خطأ.

(*) سبقت ترجمة هذه الأعلام.

(٣) سورة يوسف: الآية ١٠٩.

(٤) سورة المائدة: الآية ٧٥.

(٥) هذه مسألة سبق الحديث عنها وإيضاحها عند ذكر أقوال العلماء في نبوة مريم

- رضي الله عنها - .

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا»^(١): مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم»^(٢) يعني من نساء الأمم قبلنا، وهذا يدل على أن أم موسى ليست ممن كمل من النساء فكيف تكون نبية؟ وقوله - تعالى - : ﴿جَاءُوا بِالْبَيْنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾^(٣).
والكتاب اسم جنس كما تقدم يتناول كل كتاب أنزله الله^(٤)
- تعالى - . وقال^(٥) - تعالى - :

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾^(٦).
وقوله: ولا كتاب منير، نكرة في سياق المعنى فيعم^(٧) كل كتاب منير^(٨). ولو لم يكن إلا الإنجيل؛ لقليل ولا الكتاب المنير. وأيضاً

(١) في ط (إلا أربعة) وهي زيادة ليست في الحديث، ولا في سائر النسخ.
(٢) أخرجه البخاري من حديث أبي موسى الأشعري في ثلاثة مواضع، في كتاب الأنبياء، باب قول الله - تعالى - : ﴿وَضُرِبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةٌ فَرَعُونَ﴾ ١٣١/٤؛ وفي فضائل الصحابة، باب فضل عائشة ٢١٩/٤، ٢٢٠؛ وفي الأطعمة باب الثريد ٢٠٥/٦ وللحديث بقية «وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»؛ ورواه مسلم في فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة أم المؤمنين - رضي الله عنها - ١٨٨٦/٤ (٧٠)؛ والترمذي في الأطعمة، باب فضل الثريد ٢٧٥/٤ (١٨٣٤) ثم قال حسن صحيح؛ وابن ماجه في الأطعمة، باب فضل الثريد على الطعام ١٠٩١/٢ (٣٢٨٠)؛ وأحمد في المسند ٣٩٤/٤، ٤٠٩.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٨٤.
(٤) سقط لفظ الجلالة من س، ك.
(٥) في س، ك، ط (وقال الله تعالى).
(٦) سورة الحج: الآية ٨.
(٧) في س، ط (نعم).
(٨) قوله (نكره في سياق... إلخ). الجملة ساقطة من ك.

فالتوراة أعظم من الإنجيل وقد بين الله أنه لم ينزل كتاباً أهدى من التوراة والقرآن. فقال - تعالى - :

﴿... قَالُوا لَوْلَا آوَتْ مِثْلَ مَا آوَتْ مُوسَى أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا آوَتْ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ - وقرىء «ساحران»^(١) - تَظْهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَفْرٍ مِنْ قُلُوبِنَا فَاتَّوَا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبَعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٢).

وهذا تعجيز لهم أن يأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما كقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَاتَّوَا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ...﴾^(٣).

وهذا يبين أنه ليس الإنجيل ولا الزبور أهدى من التوراة والقرآن فكيف يجعل الكتاب المنير هو الإنجيل دون التوراة والزبور؟
وأيضاً فإن الله - تعالى - إنما يخص بالذكر من الكتب المتقدمة التوراة دون غيرها، فهي التي يقرنها بالقرآن كقوله - تعالى -

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِلنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبَدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعَلِمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾^(٤) وهذا

(١) قرأ الكوفيون «قالوا سحران» على أنه تشنية سحر، وقرأ الباقون ساحران، على أنه تشنية «ساحر».

انظر: كتاب التبصرة في القراءات السبع لمكي بن أبي طالب ص ٤٥٧؛ وانظر فتح القدير للشوكاني ٤/ ١٧٧؛ والتيسير في القراءات السبع لأبي عمرو السداني ص ١٧٢؛ والغاية في القراءات العشر للنيسابوري ص ٢٣١.

(٢) سورة القصص: الآيتان ٤٨، ٤٩.

(٣) سورة يونس: الآية ٣٨.

كِتَابَ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ، وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿١﴾ .

وقد وصف التوراة بأن فيها نوراً وهدى للناس، فكيف يجعل النور في الإنجيل دونها؟ وقال - تعالى - :

﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهَدًى وَرَحْمَةً لِّعَالَمِهِمْ يَلْفَاقُ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٥﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾﴾ .

فقد ذكر التوراة والقرآن، وقولهم أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا (٣) فبين أن الكتاب اسم جنس يتناول هنا التوراة والإنجيل كقوله - تعالى - : ﴿يَتَأْهَلِ الْكِتَابُ﴾ .

وقوله - تعالى - :

﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ (٤) .

فذكر الكتاب بلفظ المنفرد (٥) ، ومعلوم أنه أراد بالذين أوتوا الكتاب من قبلنا اليهود والنصارى لا يختص ذلك بالنصارى كما قال : ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ .

(١) سورة الأنعام : الآيتان ٩١ ، ٩٢ .

(٢) سورة الأنعام : الآيات ١٥٤ - ١٥٦ .

(٣) سقطت (من قبلنا) من أ، س، ك وزدناها من ط .

(٤) سورة المائدة : الآية ٥ .

(٥) في ط (المفرد) .

وقد^(١) تبين^(٢) بطلان قول هؤلاء الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، ويفسرون كلام الله ورسوله بما يعلم كل من عرف حاله من مؤمن وكافر أنه لم يرده .

وبَيَّنَّ أن الله لم يرد بالكتاب الإنجيل وحده كما لم يرد بالرسل الحواريين، بل أراد بالكتاب^(٣) المنير ما أنزله الله^(٤) من الكتب كالتوراة والإنجيل، كما أراد بالرسل من أرسله الله مطلقاً كنوح وإبراهيم وموسى والمسيح ابن مريم صلوات الله عليهم وسلامه أجمعين .



(١) في ك (فقد) .

(٢) في أ (بين) .

(٣) سقطت (بالكتاب) من ك .

(٤) سقط لفظ الجلالة من أ، وأثبتناه من سائر النسخ .

فصل

قالوا: وقال أيضاً:

﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (١).

فيقال لهم: من المعلوم بالاضطرار، أنه ليس المراد بهذا النصارى فقط كما تقدم، بل اليهود يقرؤون الكتاب من قبلنا، والنصارى يقرؤون الكتاب من قبلنا. والكتاب اسم جنس كما تقدم نظائره في قوله: (أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا)، وقوله: (وَطَعَامَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ)، وقوله: (يَا أَهْلَ الْكِتَابَ)، في غير موضع، وقوله: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ (٢).

وقوله - تعالى - :

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١٨) **إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأَسْلَمَ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ يَأْتِ اللَّهَ فَاِتِّ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ** (١٩) **فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ**

إثبات أن عند
أهل الكتاب ما
يُثبت صدق
محمد
- صلى الله
عليه وسلم -

(١) سورة يونس: الآية ٩٤.

(٢) سورة البينة: الآية ١.

لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَاسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَاللَّهُ بِصِيرِ الْعِبَادِ ﴿١﴾ .

وقد قال - تعالى - :

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٢﴾ .

وتناول لفظ أهل الكتاب هنا لليهود، أظهر^(٣) من تناوله للنصارى؛
لذكره لعنة أصحاب السبت وكذلك قوله - تعالى - :

﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكُفُّوا ءَاخِرُ لَعْلَهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤﴾ .

فهذا خبر عن^(٥) طائفة من اليهود قالوا ذلك وقال - تعالى - :

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾ .

(١) سورة آل عمران: الآيات ١٨ - ٢٠ .

(٢) سورة النساء: الآية ٤٧ . وقد ذكر السيوطي في لباب النقول ص ٦٤ سبب نزول هذه الآية: «قال: أخرج ابن إسحاق، عن ابن عباس، قال: كلم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رؤساء أحبار اليهود، منهم عبد الله بن صوريا، وكعب بن أسيد فقال لهم: «يا معشر يهود، اتقوا الله وأسلموا، فوالله إنكم لتعلمون أن الذي جئتكم به الحق، فقالوا: ما نعرف ذلك يا محمد، فأنزل الله فيهم: ﴿يا أيها الذين أوتوا الكتاب...﴾ الآية» .

(٣) في ط (وأظهر) . (٥) سقطت (عن) من أ وزدناها من سائر النسخ .

(٤) سورة آل عمران: الآية ٧٢ . (٦) سورة آل عمران: الآية ١٠٠ .

وسبب نزولها أنه^(١) أراد طائفة من اليهود إلقاء الفتنة بين المسلمين^(٢). فهم داخلون قطعاً، وإن كان الخطاب مطلقاً يتناول الطائفتين.

وأمره - تعالى - بسؤال الذين يقرؤون الكتاب من قبله على تقدير الشك، لا يقتضي أن يكون الرسول شك ولا سأل، إن قيل الخطاب له، وإن قيل لغيره فهو أولى وأحرى؛ فإن تعليق الحكم بالشرط لا يدل على تحقيق الشرط، بل قد يعلق^(٣) بشرط ممتنع لبيان حكمه.

قال - تعالى - :

﴿... وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ
وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾^(٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ^(٨٥)
وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوشَعَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ^(٨٦) ﴿٨٥﴾

فأخبر أنهم لو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون^(٥)، مع انتفاء

(١) سقطت (أنه) من س، ك، ط .

(٢) روى الواحدى في أسباب النزول بسنده عن عكرمة، قال: كان بين هذين الحيين من الأوس والخزرج قتال في الجاهلية. فلما جاء الإسلام اصطلحوا، وألف الله بين قلوبهم، وجلس يهودي في مجلس فيه نفر من الأوس والخزرج، فأنشد شعراً قاله أحد الحيين في حربهم فكانهم دخلهم من ذلك... فنزلت هذه الآية فقرأها عليهم النبي - صلى الله عليه وسلم - فألقوا السلاح. وصرح في رواية أخرى باسم اليهودي وهو شاس بن قيس، وكان شيخاً قد غبر في الجاهلية، عظيم الكفر. وعزاه السيوطي في لباب النقول ص ٤٨ - ٤٩ إلى الفريابي، وابن أبي حاتم عن ابن عباس، وإلى ابن إسحاق عن زيد بن أسلم.

وانظر: تفسير ابن جرير الطبري ١٧/٤ (مجلد ٣)؛ وتفسير ابن كثير ٣٨٩/١.

(٣) في ط (يتعلق).

(٤) سورة الأنعام: الآيات ٨٤ - ٨٦.

(٥) جملة (فأخبر أنهم لو أشركوا... إلخ) ساقطة من ك.

الشرك عنهم بل مع امتناعه لأنهم قد ماتوا؛ لأن الأنبياء معصومون من الشرك به^(١).

وقال - تعالى - :

﴿قُلْ أَفَعَيَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ ^(٦٤) وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ^(٦٥) بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ^(٦٦).

فهذا خطاب للجميع. وذكر هنا لفظ «إن» لأنه خطاب لموجود. وهناك خبر عن ميت وكذلك قوله: ﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل﴾، لا يدل على وقوع الشك، ولا السؤال. بل النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يكن شاكاً ولا سأل أحداً منهم. بل روي عنه أنه قال: «والله لا أشك ولا أسأل»^(٣).

(١) سقطت (به) من س، ك، ط.

(٢) سورة الزمر: الآيات ٦٤ - ٦٦.

(٣) أخرجه الإمام ابن جرير في تفسيره ١١٦/١١ (مجلد ٦) بسنده عن قتادة مرسلًا - قال: ذكر لنا أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «لا أشك ولا أسأل» ورد ذلك عند آية يونس: ٩٤، ورواه ابن جرير بسند آخر عن قتادة. وذكره ابن كثير في تفسيره ٤٣٢/٢ بدون ذكر السند عن قتادة ثم ذكره، وقال: وكذا قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، والحسن البصري. قال ابن كثير: وهذا فيه تثبيت للأمة، وإعلام لهم أن صفة نبيهم - صلى الله عليه وسلم - موجودة في الكتب المتقدمة التي بأيدي أهل الكتاب. اهـ.

وانظر: تفسير الشوكاني ٤٧٥/٢؛ وأحكام أهل الذمة لابن القيم ١٣/١. وقد رجح بعض المفسرين أن الخطاب ليس للنبي - صلى الله عليه وسلم - وإنما هو لمن يشك من أتباعه. وهذا واضح من قول ابن كثير - رحمه الله - : «وهذا فيه تثبيت للأمة... إلخ».

ولكن المقصود بيان أن أهل الكتاب عندهم ما يصدقك فيما
كذبك فيه الكافرون .

كما قال - تعالى - في الآية الأخرى :

﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ (١) .

وقال - تعالى - :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى
مِثْلِهِ فَأَمَنْ وَأَسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢) .

وقال - تعالى - :

﴿ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمُوا عِلْمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ (٣) .

وقال - تعالى - :

﴿ الَّذِينَ ءَايَنْتَهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا بُنِيَ عَلَيْهِمْ قَالُوا
ءَامَنَّا بِهِ ءَإِنَّ الْحَقَّ مِنْ رَبِّنَا ءَإِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾ (٤) .

وقال :

﴿ إِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ
سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ
خُشُوعًا ﴾ (٥) .

(١) سورة الرعد: الآية ٤٣ .

(٢) سورة الأحقاف: الآية ١٠ .

(٣) سورة الشعراء: الآية ١٩٧ .

(٤) سورة القصص: الآيتان ٥٢ ، ٥٣ .

(٥) سورة الإسراء: الآيات ١٠٧ - ١٠٩ .

وقال - تعالى - :

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا
مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (١).

وقال - تعالى - :

﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ...﴾ (٢).

وقال - تعالى - :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا
تَعْلَمُونَ﴾ (٣).

وقال - تعالى - :

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ...﴾ (٤).

فالمقصود: بيان أن أهل الكتاب عندهم ما يصدقك فيما كذبك فيه الكافرون وذلك من وجوه:

أحدها: أن الكتب المتقدمة تنطق بأن موسى وغيره دعوا إلى عبادة الله وحده، ونهوا عن الشرك فكان في هذا حجة على من ظن أن الشرك دين.

ومثل هذا - قوله - تعالى - :

﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ (٥).

(٤) سورة الأنعام: الآية ٢٠.

(٥) سورة الزخرف: الآية ٤٥.

(١) سورة المائدة: الآية ٨٣.

(٢) سورة النساء: الآية ١٦٢.

(٣) سورة الأنبياء: الآية ٧.

وقوله - تعالى - :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (١).

وقوله - تعالى - :

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ (٢).

الوجه الثاني: أن أهل الكتاب يعلمون أن الله إنما أرسل إلى الناس بشراً مثلهم، لم يرسل إليهم (٣) ملكاً؛ فإن من الكفار من كان يزعم أن الله لا يرسل إلا ملكاً أو بشراً معه ملك، ويتعجبون من إرسال بشر ليس معه ملك ظاهر كما قال - تعالى - :

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ (٤) قُلْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ (٥).

وقال - تعالى - :

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَنْفِقُوا عِبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (٦) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ

(١) سورة الأنبياء: الآية ٢٥.

(٢) سورة النحل: الآية ٣٦.

(٣) سقطت (إليهم) من ط.

(٤) سورة الإسراء: الآيتان ٩٤، ٩٥.

عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٦٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ يُدْعَىٰ جِنَّةً فَنَرَتَصَوَّبُهُ وَحَتَّىٰ حِينٍ ﴿٦٥﴾ (١).

وقال - تعالى - :

﴿كَذَبْتَ نُمُودُ بِالْذُّدِرِ ﴿٦٢﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٦٣﴾﴾ (٢).

وكذلك قال الذين من بعدهم :

﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٦﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ (٣).

وكذلك قال قوم (٤) فرعون لموسى وهارون :

﴿أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴿٥٠﴾﴾ (٥).

وقال فرعون :

﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥١﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جِلْدٌ مَّعَهُ أَلْمَلِكِ مَقْتَرِينَ ﴿٥٢﴾﴾ (٦).

وكذلك قالوا لمحمد - صلى الله عليه وسلم - و (٧) قال

(١) سورة المؤمنون : الآيات ٢٣ - ٢٥ .

(٢) سورة القمر : الآيتان ٢٣ ، ٢٤ .

(٣) سورة المؤمنون : الآيتان ٣٣ ، ٣٤ .

(٤) سقطت (قوم) من ط .

(٥) سورة المؤمنون : الآية ٤٧ .

(٦) سورة الزخرف : الآيتان ٥٢ ، ٥٣ .

(٧) سقطت (الوار) من ط .

— تعالى — :

﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صَدَقَ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾﴾ (١).

وقال — تعالى — :

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْآمْرُ ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلِيسُوتَ ﴿٩﴾﴾ (٢).

فبين — سبحانه — أنكم لا تطيقون التلقي عن الملك، فلو أنزلناه ملكاً لجعلناه في صورة بشر. وحينئذ كنتم تظنونونه بشراً فيحصل (٣) اللبس عليكم. فأمر الله — تعالى — بسؤال أهل الكتاب عمن أرسل إليهم أكان بشراً أم كان ملكاً ليقيم الحجة بذلك على من أنكر إرسال بشر، كما قال — تعالى — :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾﴾ (٤).

وأهل الذكر هم أهل الذكر الذي أنزله (٥) الله — تعالى — .

(١) سورة يونس: الآيتان ١، ٢.

(٢) سورة الأنعام: الآيتان ٨، ٩.

(٣) في س، ك، ط (فيجعل).

(٤) سورة الأنبياء: الآيات ٧ - ٩.

(٥) في أ (أنزل).

الوجه الثالث: أنهم يسألون أهل الكتاب عما جرى للرسول مع أممهم، وكيف كان عاقبة المؤمنين بهم، وعاقبة المكذبين لهم.

الوجه الرابع: يسألون أهل الكتاب عن الدين الذي بعث الله به رسله، وهو دين الإسلام الذي اتفقت عليه الرسل، كالأمر بالتوحيد، والصدق، والعدل، وير الوالدين، وصلة الأرحام، والنهي عن الشرك، والظلم والفواحش.

الوجه الخامس: يسألونهم^(١) عما وصفت به الرسل ربهم، هل هو موافق لما وصفه به محمد أم لا؟ وهذه الأمور المسؤول عنها متواترة عند أهل الكتاب معلومة لهم ليست مما يشكون فيه، وليس إذا كان مثل هذا معلوماً لهم بالتواتر فيسألون^(٢) عنه يجب أن يكون كل ما يقولونه معلوماً لهم بالتواتر.

وأيضاً فإنهم يسألون أيضاً عما عندهم من الشهادات والبشارات بنبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - .

وقد أخبر الله بذلك في القرآن فقال - تعالى - (٣) :

﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴿٤﴾ .

(٣) سقطت جملة (فقال تعالى) من أ.
(٤) سورة الأعراف: الآيتان ١٥٦، ١٥٧.

(١) في ط (يسألونه).

(٢) في أ (يسألون).

وقال - تعالى - :

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَتَّبِعُنِي أَتَى رَسُولُ اللَّهِ إِلَهُكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (١).

فقد أخبر عن عيسى أنه صدق بالرسول والكتاب الذي قبله وهو التوراة وبشر بالرسول الذي يأتي بعده وهو أحمد. قال - تعالى - :

﴿فَلَنُؤَيِّسَنَّكَ قِبَلَهُ تَرْضَاهَا فَوَلَّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

إلى قوله :

﴿الَّذِينَ اتَّخَذْتُمْ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (١٦) ... ﴿(٢)﴾.

وقال - تعالى - :

﴿وَلَوْ أَنَّهُ لَنَزَّلَ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٦٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٦٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُمَرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٦﴾ أَوْ لَوْ كُنْ هَاهُنَا لَيَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ (٣).

وقال - تعالى - عن من أتى عليه من النصارى :

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا ... ﴿٤﴾﴾.

(١) سورة الصف: الآية ٦. (٢) سورة الشعراء: الآيات ١٩٢ - ١٩٧.

(٣) سورة البقرة: الآيات ١٤٤ - ١٤٦. (٤) سورة المائدة: الآية ٨٣.

وقال - تعالى - :

﴿ وَقُرْءَانَا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا بِهِ ءَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَسْكُوتُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١﴾ .

وقال - تعالى - :

﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ (٢) .

وقال - تعالى - :

﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ ءَإِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ .

وقال - تعالى - في سورة الأنعام :

﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ .

(١) سورة الإسراء: الآيات ١٠٦ - ١٠٩ .

(٢) سورة الأنعام: الآية ١١٤ .

(٣) سورة القصص: الآيات ٥١ - ٥٤ .

(٤) سورة الأنعام: الآية ٢٠ .

وقال - تعالى - :

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^(١).

والأخبار بمعرفة أهل الكتاب بصفة محمد - صلى الله عليه وسلم - عندهم في الكتب المتقدمة متواترة عنهم.

وكان قبل أن يبعث النبي - صلى الله عليه وسلم - تجري حروب وقاتل بين العرب وبين أهل الكتاب فتقول^(٢) أهل الكتاب: قد قرب مبعث هذا النبي الأمي الذي يبعث بدين إبراهيم، فإذا ظهر أتبعناه، وقتلناهم معه شر قتلة، فلما بعث النبي - صلى الله عليه وسلم - ، كان منهم من آمن به، ومنهم من كفر به فقال - تعالى - :

﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ﴾.

أي: يستنصرون بمحمد - صلى الله عليه وسلم - على الذين كفروا:

﴿... فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^(٣).

ولهذا كان النبي - صلى الله عليه وسلم - في خطابه لأهل الكتاب يقول لهم: «والله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنني

(١) سورة البقرة: الآية ٨٩.

(٢) في ط (فيقول) بالمشاة التحتية.

(٣) سورة البقرة: الآية ٨٩.

رسول الله^(١)، وكذلك من أسلم منهم كعبد الله بن سلام كان^(٢) يقول لغيره من أهل الكتاب: «والله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله»، وهذا أمر معروف في الأحاديث الصحاح المخرجة^(٣) في الصحيحين وغيرهما، فظهر بما ذكرناه تحريف هؤلاء لكلام الله وأنه لا حجة لهم فيما أنزل على محمد - صلى الله عليه وسلم - كما تقدم نظائر ذلك.



(١) الحديث: ورد في صحيح البخاري (في كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي - صلى الله عليه وسلم -) ٢٦٠/٤ من حديث أنس بن مالك وهو حديث طويل وفيه قصة إسلام عبد الله بن سلام، وقوله: إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال لليهود: «يا معشر اليهود ويلكم اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنني رسول الله حقاً وإنني جئتكم بحق، فأسلموا قالوا: ما نعلمه. قال: فأبي رجل فيكم عبد الله بن سلام قالوا ذاك سيدنا، وابن سيدنا، وأعلمنا وابن أعلمنا، قال: أفرايتم إن أسلم؟ قالوا: حاشا لله، ما كان ليسلم (قالها ثلاثاً).

قال: يا ابن سلام أخرج عليهم، فخرج فقال: يا معشر اليهود اتقوا الله فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله، وإنه جاء بحق. فقالوا له: كذبت فأخرجهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم -. ورواه الإمام أحمد في مسنده ٢١١/٣، وليس فيه قول عبد الله بن سلام. وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٢٤٨/٢ [آية ١٧١ من سورة النساء] إلى ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر والبيهقي في الدلائل، وذكر القسم الأول من الحديث وأخرجه البيهقي كاملاً في دلائل النبوة ٢٤٨/٢ - ٢٥٠، وساق له طرقاً أخرى كثيرة، والله أعلم.

(٢) في ط (وكان).

(٣) في ط (والمخرجة).

فصل

قالوا: فثبت بهذا ما معنا نعم، ونفى عن إنجيلنا وكتبنا التي في أيدينا التهم والتبديل لها، والتغيير لما فيها بتصديقه^(١) إياها.

فيقال: كلامكم الذي تحتجون به في هذا الموضع وغيره، إما أن يكون باطلاً محضاً، وإما أن يكون مما لبستم فيه الحق بالباطل، فإن قولكم بتصديقه إياها، إن أردتم أنه صدق التوراة والإنجيل والزبور التي أنزلها الله على أنبيائه، فهذا لا ريب فيه، فإن هذا مذكور في القرآن في غير موضع وقد أوجب على عباده أن يؤمنوا بكل كتاب أنزله وكل نبي من الأنبياء، مع إخباره أنه أنزل هذه الكتب قبل القرآن وأنزل القرآن مصداقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه.

وقال - تعالى - :

﴿الَمْ ۝ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ۝ مِّن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ۝﴾ .^(٢)

وقال - تعالى - :

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۝﴾ .^(٣)

(١) في أ، س، ك (تصديقه) وصححناه من ط .

(٢) سورة آل عمران: الآيات ١ - ٤ .

(٣) سورة المائدة: الآية ٤٨ .

نقص دعواهم
أن القرآن
صدق كتبهم
التي بين
أيديهم

وقال - تعالى - :

﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ اٰمِنُوْا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِّنْ قَبْلِ
اَنْ نُّطَمِسَ وُجُوْهَا فَتَرُدُّهَا عَلٰى اَدْبَارِهَا اَوْ نُلْعَنُكُمْ كَمَا لَعَنَّا اَصْحٰبَ السَّبْتِ ۚ ﴾^(١).

وقال^(٢) :

﴿ وَاَنْزَلْنَا اِلَيْكَ الْكِتٰبَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتٰبِ
وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ ۚ ﴾^(٣).

وقال :

﴿ وَالَّذِيْٓ اَرْحٰنَا اِلَيْكَ مِنَ الْكِتٰبِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ اِنَّ اللّٰهَ
بِعِبَادِهِ لَخَبِيْرٌۭ بَصِيْرٌ ۝ۙ ﴾^(٤).

وقال :

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُوْلٌ مِّنْ عِنْدِ اللّٰهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ
الَّذِيْنَ أُوتُوا الْكِتٰبَ كِتٰبَ اللّٰهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَانْتَهُمۡ لَا يَعْلَمُوْنَ ۝ۙ ﴾^(٥).

وقال - تعالى -^(٦) :

﴿ . . . اٰمِنُوْا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ . . . ﴾^(٧).

وقد أوجب على عباده أن يؤمنوا بجميع كتبه ورسله، وحكم بكفر

(١) سورة النساء: الآية ٤٧ .

(٢) في س، ك، ط (وقال تعالى)، وقد ذكر في هذه النسخ آية آل عمران الأولى وبعض الثانية .

(٣) سورة المائدة: الآية ٤٨ .

(٤) سورة فاطر: الآية ٣١ .

(٥) سورة البقرة: الآية ١٠١ .

(٦) سقطت (تعالى) من س، ك، ط .

(٧) سورة النساء: الآية ٤٧ .

من آمن ببعض وكفر ببعض، فقال - تعالى - :

﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا مِنْ رَبِّهِمْ وَلَا نَسْتَعِيزُ إِلَّا بِرَبِّهِمْ لَا نُنْفِرُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنَ بِهِءُ فَقَدْ أَهْدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ .

وقال - تعالى - :

﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِءُ ۚ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِءُ وَكُتُبِهِءُ وَرُسُلِهِءُ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِءُ ﴿١٣٨﴾﴾ .

وقال - تعالى - :

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِءُ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِءُ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٤٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٤١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِءُ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ ۖ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٤٢﴾﴾ .

فلم المفرق^(٤) بينهم بأن يؤمن ببعض دون بعض، وبين أنه فضل بعضهم على بعض، فقال - تعالى - :

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ۖ... ﴿١٤٣﴾﴾ .

(١) سورة البقرة: الآيتان ١٣٦، ١٣٧ .

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٨٥ .

(٣) سورة النساء: الآيات ١٥٠ - ١٥٢ .

(٤) في أ، س، ك (التفريق)، وما أثبتناه من ط .

(٥) سورة البقرة: الآية ٢٥٣ .

فَبَيَّنَ أَنَّهُ فَضَّلَ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَقَالَ - تَعَالَى - :

﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ...﴾ (١).

وقد اتفق المسلمون على ما هو معلوم بالاضطرار من دين الإسلام وهو أنه يجب الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين ، وبجميع ما أنزله (٢) الله من الكتب ، فمن كفر بنبي واحد تعلم نبوته مثل إبراهيم ولوط وموسى وداود وسليمان ويونس وعيسى فهو كافر عند جميع المسلمين حكمه حكم الكفار ، وإن كان مرتدّاً استتيب فإن تاب وإلا قتل .

ومن سب نبياً واحداً من الأنبياء قتل أيضاً باتفاق المسلمين وما علم المسلمون أن نبياً من الأنبياء أخبر به فعلهم التصديق به كما يصدقون بما أخبر به محمد - صَلَّى الله عليه وسلّم - وهم يعلمون أن أخبار الأنبياء لا (٣) تتناقض ولا تختلف (٤) ، وما لم يعلموا أن النبي أخبر به فهو كما لم يعلموا أن محمداً أخبر به - صَلَّى الله عليهم أجمعين - (٥) ولكن لا (٦) يكذبون إلا بما علموا أنه كذب كما لا يجوز أن يصدقوا إلا بما علموا أنه صدق ، وما لم يعلموا أنه كذب ولا صدق لم يصدقوا به ولم يكذبوا به كما أمرهم نبيهم محمد - صَلَّى الله عليه وسلّم - (٧) وبهذا أمرهم (٨)

(١) سورة الإسراء : الآية ٥٥ .

(٢) في ك ، ط (أنزل) .

(٣) سقطت (لا) من س .

(٤) في ط (تخلف) .

(٥) في ط - (صلى الله عليه وسلّم - ، عليهم أجمعين) .

(٦) سقطت (لا) من ط . وهو خطأ .

(٧) في ك ، ط (عليه السلام) .

(٨) في س (أمر) .

المسيح - عليه السلام -^(١) فقال: «الأمور ثلاثة: أمر تبين رشد، فاتبعوه، وأمر تبين غيه فاجتنبوه، وأمر اشتبه عليكم فكلوه إلى عالمه»^(٢).



(١) في أ، س (- صلى الله عليه وسلم -).

(٢) الحديث: أخرجه الطبراني في الكبير ٣٨٦/١٠ - ٣٨٧ (١٠٧٧٤) بسنده قال: حدثنا علي بن عبد العزيز، ثنا محمد بن عمار الموصلي، ثنا المعافى بن عمران، ثنا موسى بن خلف العمي، عن أبي المقدام، عن محمد بن كعب القرظي، عن ابن عباس، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أن عيسى بن مريم - عليه السلام - قال: الأمور ثلاثة... وذكره.

قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/١٥٧، كتاب العلم، باب الأمور ثلاثة: رواه الطبراني في الكبير، ورجاله موثقون.

فصل (١)

وإن أرادوا بتصديقه كتبهم أنه صدق ما هم عليه من العقائد والشرائع التي ابتدعوها بغير إذن من الله وخالفوا بها ما تقدمه من (٢) شرائع المسلمين أو خالفوا بها الشرع الذي بعث به مثل القول بالتثليث والأقانيم، والقول بالحلول والاتحاد بين اللاهوت والناسوت، وقولهم أن المسيح هو الله وابن الله وما هم عليه من إنكار ما يجب الإيمان به من الإيمان بالله واليوم الآخر، ومن تحليل ما حرمه الله ورسله كالخنزير وغيره وبين أنهم لا يدينون بدين الحق الذي أنزل به كتابه وأرسل به رسوله بل بدين مبتدع ابتدعه لهم أكابرهم كما قال - تعالى - :

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ... ﴾ (٣).

(١) كلمة «فصل» هنا في غير موضعها لأنها بين كلام موصول.

(٢) في ط (مع) بدل (من).

(٣) سورة التوبة: الآية ٣١.

والأخبار: جمع خبر، وهو الذي يحسن القول، وينظمه، ويتقنه بحسن البيان عنه، ومنه ثوب مجبر أي: جمع الزينة، وقيل في واحد الأخبار: خبر. بكسر الحاء، والمفسرون على فتحها، وأهل اللغة على كسرهما. وجبر بالفتح تعني عالم، وبالكسر: مداد. والرهبان: جمع راهب مأخوذ من الرهبة، والرهبان: علماء النصارى وهم المنقطعون للعبادة، المتبتلون، الذين تركوا الزواج والعمل. والأخبار كثر إطلاقه على علماء اليهود. انظر تفسير القرطبي ١٢٠/٨ (مجلد ٤) وفتح القدير

٣٥٣/٢.

وقد بين النبي - صَلَّى الله عليه وسلّم - ذلك لعدي بن حاتم^(١) وكان نصرانياً لما جاءه ليؤمن به وقد آمن به عدي وكان من خيار الصحابة فسمعه يقرأ هذه الآية:

﴿اتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمُّرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(٢).

قال عدي: قلت يا رسول الله ما عبدوهم.

قال: «إنهم أحلوا لهم الحرام وحرّموا عليهم الحلال فأطاعوهم»^(٣) فكانت تلك عبادتهم إياهم»^(٤).

(١) عدي بن حاتم الطائي، أبو وهب ابن حاتم الجواد المشهور أمير، صحابي من الأجواد والعقلاء كان رئيس طيء في الجاهلية، والإسلام. أسلم سنة ٩هـ وكان نصرانياً وشهد فتح العراق، وموقعة صفين وفيها فقت عينه، روى ستة وستين حديثاً. ومات رضي الله عنه سنة ٦٨هـ بالكوفة وله أكثر من مئة سنة. انظر: الإصابة لابن حجر ٢/٤٦٠ (٥٤٧٧)؛ والاستيعاب هامش الإصابة ٣/١٤٠؛ وتاريخ خليفة بن خياط ص ٣٣٣؛ والأعلام ٤/٢٢٠.

(٢) سورة التوبة: الآية ٣١.

(٣) سقطت (فأطاعوهم) من ك، ط.

(٤) الحديث: رواه الترمذي - مختصراً - في التفسير، تفسير سورة التوبة ٥/٢٧٨ (٣٠٩٥) ثم قال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب وغطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث.

قلت: عبد السلام بن حرب النهدي، المالطي. بضم الميم، وتخفيف اللام، قال عنه ابن حجر في تقريب التهذيب ١/٥٠٥ «ثقة حافظ، له مناكير، مات سنة ٨٧هـ».

وأما غطيف بن أعين الشيباني الجزري. فهو ضعيف كما قال ابن حجر ٢/١٠٦ =

فإن أرادوا بتصديقهم^(١) في هذه الأمور أو أن محمداً - صلى الله عليه وسلم - صدق ما عندهم مما لم يأت به الأنبياء عن الله فقد كذبوا على محمد - صلى الله عليه وسلم^(٢) - كذباً ظاهراً معلوماً بالاضطرار من دينه وإنما صدق ما جاءت به الأنبياء قبله.

وأما ما أحدثوه وابتدعوه فلم يصدقوه كما أنه لم يشرع لهم أن يستمروا على ما هم عليه من الشرع الأول ولو لم يكن مبدلاً بل دعاهم وجميع الإنس والجن إلى الإيمان به وبما جاء به واتباع ما بعث به من الكتاب والحكمة، وحكم بكفر كل من لم يتبع كتابه المنزل عليه، وأوجب مع خلودهم في عذاب الآخرة جهادهم في الدنيا حتى يكون الدين كله لله وحتى تكون كلمة الله هي العليا.

وقد دعا أهل الكتاب من اليهود والنصارى عموماً ثم كلا من الطائفتين خصوصاً في غير موضع مع دعائه الناس كلهم: أهل الكتاب، وغيرهم كقوله - تعالى - :

﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ

تقريب التهذيب وذكره الذهبي في ميزان الاعتدال ٣/٣٣٦ بالضاد المعجمة وقال: ضعفه الدارقطني وقد أخرج الحديث الإمام أحمد في مسنده من طريقين. لكن في إحداهما رجل مجهول ٤/٣٧٨، ٢٥٧. ورواه ابن جرير الطبري من عدة طرق ١٠/١١٤ (تفسير) وانظر: سيرة ابن هشام ٤/١٦٨؛ وتفسير ابن كثير ٢/٣٤٨ - ٣٤٩؛ وتفسير القرطبي ٨/١٢٠ (مجلد ٤)؛ وفتح القدير للشوكاني ٢/٣٥٥؛ والدر المنثور للسيوطي ٣/٢٣٠ - ٢٣١ وقال محقق جامع الأصول (الأرناؤط) ٢/هامش ١٦١: «لكن في الباب عن حذيفة موقوفاً أخرجه الطبري برقم (١٦٦٣٤) ربما يتقوى به».

(١) في ط زيادة لفظ (كتبهم).

(٢) سقطت جملة (صلى الله عليه وسلم) من س.

الرَّكَوَّةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ
الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ
وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ
عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَإِذْ بَيْنَ عَيْنِهِمْ وَعَزْرُوه
وَنَصْرُوه وَأَتَّبِعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يٰٓأَيُّهَا
النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا
إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ
وَكَلِمَاتِهِ ۖ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١﴾

وقال - تعالى - يخاطب النصارى :

﴿يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ
إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ
فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ نَّالِثُهُ ۚ أَنْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ
سُبْحَنَهُ ۚ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ۚ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ
وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ
الْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ ۖ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرْهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾
فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۚ
وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ
لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢﴾

(١) سورة الأعراف: الآيات ١٥٦ - ١٥٨ .

(٢) سورة النساء: الآيات ١٧١ - ١٧٣ .

وقال - تعالى - :

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ...﴾ (١).

وقال - تعالى - :

﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرَى أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (٢).

أخبر - سبحانه - أن النصارى تركوا حظاً مما ذكرهم به، وبسبب ذلك أغرى بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة، فعلم أنه - سبحانه - بين أنهم تركوا بعض ما جاء به المسيح ومن قبله من الأنبياء، واستحقوا لذلك أن يغري بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة.

وقال - تعالى - :

﴿قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ (٣).

فنهاهم عن الغلو في دينهم وعن اتباع أهواء الذين ابتدعوا بدعاً غيروا بها شرع المسيح، فضلوا من قبل هؤلاء الأتباع وأضلوا كثيراً من هؤلاء الأتباع وغيرهم، وضلوا عن سواء السبيل وهو وسط السبيل بين الضلال وقيده بعد أن أطلقه وأجمله.

(١) سورة المائدة: الآية ١٧ وآية ٧٢ من نفس السورة.

(٢) سورة المائدة: الآية ١٤.

(٣) سورة المائدة: الآية ٧٧.

وقال - تعالى - :

﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ ^(١).

وقد خرج النبي - صلى الله عليه وسلم - لقتالهم بنفسه عام تبوك واستنفر لقتالهم جميع المؤمنين ، و ^(٢) لم يأذن لأحد من القادرين على الغزو في التخلف ، ومن تخلف لأنه لم ير قتالهم واجباً كان كافراً ، وإن أظهر الإسلام كان منافقاً ملعوناً ، بين الله أنه لا يغفر لهم ونهى نبيه عن الصلاة عليهم وأنزل في ذلك جمهور سورة براءة بالنقل المتواتر حتى بين كفر الذين استأذنوه في ترك الخروج معه لقتال النصارى :

قال - تعالى - :

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْثَقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ ^(٣٨) إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ^(٣٩) إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا نَرَى اللَّهَ مَعَنَا فَنَزَلَ اللَّهُ سَكِينَةً عَلَيْهِ وَأَيْدِيَهُمْ يَجُودُونَ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ^(٤٠)

(١) سورة التوبة : الآية ٢٩ .

(٢) سقطت الواو من أ ، س ، ك .

أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ
 لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ
 بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ
 أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ
 لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَفِذُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ
 بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا
 يَسْتَفِذُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآزَنَاتٍ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ
 يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ * وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ
 انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِئَكُم مَّا
 زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا وُضِعُوا لِكُلِّكُمْ يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونُ لَهُمْ
 وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدْ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ
 حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُونَ ﴿١﴾

• • •

فصل (١)

فتبين أن قولهم: فثبت بهذا ما معنا^(٢) نعم ونفي عن إنجيلنا وكتبنا التي في أيدينا التهم والتبديل لها والتغيير لما فيها بتصديقه إياها. إن^(٣) أرادوا^(٤) به أنه ثبت ما جاءت الأنبياء قبله عن الله، فهذا حق.

وإن أرادوا به^(٥) أنه ثبت ما هم عليه بعد مبعثه من الشرع الذي خالف شرعه أو ما ابتدعوه^(٦) مما لم يأت به الأنبياء — عليهم السلام — قبله فهذا باطل.

وإن أرادوا بذلك^(٧) أنه صدق ألفاظ الكتب التي بأيدينا: أي التوراة والإنجيل فهذا مما يسلمه لهم بعض المسلمين، وينازعهم فيه أكثر المسلمين، وإن كان أكثر ذلك مما يسلمه أكثر المسلمين. فأما تحريف معاني الكتب بالتفسير، والتأويل، وتبديل أحكامها

(١) في جميع النسخ أثبتت هذه الكلمة (فصل) وهي في غير موضعها كما سبق الإشارة إلى نظيرها.

(٢) في ط (معناه).

(٣) سقطت (إن) من س.

(٤) في ط (أراد).

(٥) سقطت (به) من س، ك، ط.

(٦) في أ (ومما).

(٧) سقطت (بذلك) من ط.

فجميع المسلمين واليهود، والنصارى يشهدون عليهم بتحريفها وتبديلها، كما يشهدون هم والمسلمون على اليهود، بتحريف كثير من معاني التوراة، وتبديل أحكامها، وإن كانوا هم واليهود يقولون: إن التوراة لم تحرف ألفاظها.

وحينئذ فلا ينفعهم بقاء حروف الكتب عندهم مع تحريف معانيها، إلا كما ينفع اليهود بقاء حروف التوراة والنبوات عندهم مع تحريف معانيها، بل جميع النبوات التي يقرون بها هي عند اليهود، وهم مع اليهود ينفون عنها التهم والتبديل لألفاظها مع أن اليهود عندهم من أعظم الخلق كفرًا، واستحقاقاً لعذاب الله في الدنيا والآخرة وهم عند النصارى الذين يكفرون المسلمين أكثر من هؤلاء وشر منهم؛ فإن النصارى متفقون على أن المسلمين خير من اليهود، وكذلك اليهود متفقون على أن المسلمين خير من النصارى بل جميع الأمم المخالفين للمسلمين يشهدون أن المسلمين خير من سائر الأمم^(١) والطوائف إلا أنفسهم، وشهادتهم لأنفسهم لا تقبل فصار هذا اتفاق أهل الأرض على تفضيل دين الإسلام.

فعلم أن بقاء حروف الكتاب مع الإعراض عن اتباع معانيها، وتحريفها لا يوجب إيمان أصحابها ولا يمنع كفرهم.

وحينئذ فليس شهادة محمد - صلى الله عليه وسلم - وأمته للمسيح - عليه السلام - ولما أنزل عليه من الإنجيل في تثبيت ما عند النصارى بأعظم من شهادة المسيح - عليه السلام - ، والحواريين، وسائر من اتبعه لموسى ولما أنزل عليه من التوراة في تثبيت ما عند

(١) سقطت (الأمم) من س، ك، ط.

اليهود، فإن المسيح أمر أتباعه باتباع التوراة إلا القدر اليسير الذي نسخه منها.

وأما محمد - صَلَّى الله عليه وسلّم - فبعث بكتاب مستقل، وشرع مستقل كامل تام لم يحتج معه إلى شرع سابق تتعلمه أمته من غيره، ولا إلى شرع لاحق يكمل شرعه، ولهذا قال النبي - صَلَّى الله عليه وسلّم - في الحديث الصحيح: «أنه^(١) قد كان في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في أمتي أحد^(٢) فعمره^(٣)».

فجزم أن^(٤) من كان قبله كان فيهم محدثون وعلق الأمر في أمته، وإن كان هذا المعلق قد تحقق لأن أمته، لا تحتاج بعده إلى نبي آخر، فلأن لا تحتاج معه إلى محدث ملهم أولى وأحرى.

(١) في أ، س، ك (أنه قال)، وقال زائدة.

(٢) سقطت (أحد) من أ.

(٣) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة في كتاب الأنبياء ١٤٩/٤ بلفظ أنه قد كان فيما مضى قبلكم من الأمم محدثون، وأنه إن كان في أمتي هذه منهم فإنه «عمر بن الخطاب»؛ ورواه في كتاب أصحاب النبي - صَلَّى الله عليه وسلّم - باب مناقب عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ٢٠٠/٤؛ ورواه مسلم في فضائل الصحابة باب من فضائل عمر - رضي الله عنه - من حديث عائشة - رضي الله عنها - ١٨٦٤/٤ (٢٣) وزاد فيه (قال ابن وهب: تفسير محدثون ملهمون)، ورواه الترمذي في المناقب، باب في مناقب عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ٦٢٢/٥ (٣٦٩٣) من حديث عائشة - رضي الله عنها - ، وأحمد في مسند أبي هريرة ٣٣٩/٢، وفي مسند عائشة ٥٥/٦. وعلق الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي على كلمة (محدثون) فقال: «اختلف تفسير العلماء للمراد بمحدثون فقال ابن وهب: ملهمون. وقيل: مصيئون، إذا ظنوا فكأنهم حدثوا بشيء فظنوه. وقيل: تكلمهم الملائكة. وقال البخاري: يجري الصواب على ألسنتهم».

انظر تعليقه في: صحيح مسلم ١٨٦٤/٤.

(٤) في س، وهامش ك، ط (بأن).

وأما من كان قبله فكانوا^(١) يحتاجون إلى نبي بعد نبي فأمكن حاجتهم إلى المحدثين الملهمين ولهذا إذا نزل^(٢) المسيح بن مريم في أمته لم يحكم فيهم إلا بشرع محمد - صلى الله عليه وسلم - ، وإذا كان مع هذا فشهادة^(٣) المسيح ، والحواريين ، وكل من آمن بالمسيح للتوراة بأنها حق ، ولموسى بأنه رسول لا يمنع كفر اليهود لكونهم بدلوا شرع التوراة ، وكذبوا بالمسيح وبالإنجيل .

فكيف تكون شهادة محمد وأمه للإنجيل بأنه منزل من عند الله ، وللمسيح بأنه رسول الله مانعة من كفر النصارى مع تبديلهم شرع الإنجيل وتكذيبهم بمحمد - صلى الله عليه وسلم - ، وشرع القرآن؟ .

وأما إيمان من يؤمن منهم بأن محمداً رسول الله إلى العرب أو بكثير مما جاء به القرآن ، فلا يمنع كفرهم إذا كفروا ببعض ما جاء به ، بل من كذب بشيء مما جاءت به الرسل عن الله فهو كافر ، وإن آمن بأكثر ما جاءت به الرسل كما قال - تعالى - :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ۝١٥١ ﴾ .

وقال - تعالى - :

﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ

(١) في ط (فإنهم كانوا).

(٢) في ط ، (أنزل).

(٣) في أ ، س (شهادة).

(٤) سورة النساء: الآيتان ١٥٠ ، ١٥١ .

يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ
الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١﴾ .

وقد صرح بكفر النصارى في غير موضع وأمر بجهادهم وقتالهم،
وحكم بكفر من لا يوجب جهادهم وقتالهم أولا يرى ذلك عبادة لله وطاعة
له كما تقدم التنبيه على ذلك، فإذا كان من لا يرى جهادهم عبادة لله،
كافراً عند محمد - صلى الله عليه وسلم - فكيف حالهم عنده
صلى الله عليه وسلم ؟ .



(١) سورة البقرة: الآية ٨٥ .

فصل

وإذا تبين للخاصة والعامة ممن آمن بمحمد - صلى الله عليه وسلم - ومن^(١) كفر به أنه كان مصدقاً لما بين يديه من الكتب، والأنبياء، مصدقاً للتوراة والإنجيل شاهداً بأن موسى - عليه السلام - ، ومن كان متبعاً له على الحق، وأن المسيح - عليه السلام - ومن اتبعه على الحق، وإن كان يكفر جميع اليهود، والنصارى، وغيرهم ممن بلغته رسالته، ولم يؤمن به، وشهد عليهم بأنهم حرفوا كثيراً من معاني التوراة والإنجيل قبل نبوته، وأن أهل الكتاب كلهم مع^(٢) المسلمين يشهدون أيضاً بأن كثيراً^(٣) من معاني التوراة، والإنجيل حرفها كثير من أهل الكتاب، لم يجز لأحد من أهل الكتاب أن يحتج بقول محمد - صلى الله عليه وسلم - على صحة دينهم الذي شهد محمد - صلى الله عليه وسلم - بأنه باطل مبدل منسوخ وأهله من أهل النار كما تقدم بسطه^(٤).

وإذا قالوا: نحن نذكر ذلك لنبين تناقضه حيث صدقها، وهي تناقض بعض ما أخبر به، أولئيين أن ما أخبرت به الأنبياء قبله يناقض خبره فيكون ذلك قدحاً فيما جاء به.

(١) سقطت (من) من أ وزدناها من سائر النسخ.

(٢) في ط (من) بدل (مع). وهو خطأ.

(٣) في أ (كثير) وصححناه من سائر النسخ.

(٤) بسط ذلك في أول الكتاب، وانظر: ٣٨/١ من ط (المديني).

أجاب المسلمون عن هذا بعدة طرق:

أحدها: أن يقولوا: أما مناقضة بعض خبره لبعض كما يزعمه هؤلاء من أن^(١) كتابه يمدح أهل الكتاب مرة ويذمهم أخرى وأنه يصدق الكتب المنزلة تارة، ويذمها أخرى، فهذا قد ظهر بطلانه، فإنه إنما مدح من اتبع موسى، والمسيح على الدين الذي لم يبدل ولم ينسخ.

وأما من اتبع الدين المبدل المنسوخ فقد كفره.

فأما دعواهم مناقضة خبره لخبر غيره فيقال: هو مصدق للأنبياء فيما أخبروا به.

وأما ما بدل^(٢) من ألفاظهم أو غيرها^(٣) بالترجمة أو فسر بغير مرادهم فلم يصدقه. ويقال أيضاً: إن نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - تثبت^(٤) بمثل ما تثبت به نبوات الأنبياء قبله وبأعظم من ذلك، كما قد بسط في موضع آخر^(٥)، ويؤين أن التكذيب بنبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - مع التصديق بنبوة غيره في^(٦) غاية التناقض والفساد، وأنه ما من طريق يعلم بها نبوة غيره إلا^(٧) ونبوته تعلم بمثل^(٨) تلك الطريق، وبأعظم منها. فلو لم تكن نبوته وطريق^(٩) ثبوتها^(١٠) إلا

(١) في س (أهل) بدل (أن).

(٢) في ط (يدل) بالمشاة التحتية وهو خطأ.

(٣) في أ، س، ك (أو غير).

(٤) في ط (ثبت).

(٥) انظر: ١/٣٣٤ من ط (المدني).

(٦) في س، ك، ط (فمن).

(٩) في س، ك، ط (بطريق).

(٧) في س، ك (والأ).

(١٠) في س، ك، ط (نبوتها).

(٨) في س (مثل).

مثل نبوة غيره وطريق ثبوتها^(١) لوجب التصديق بنبوته كما وجب التصديق بنبوة غيره؛ ولكان تكذيبه كتكذيب إبراهيم وموسى وغيرهما من الرسل. فكيف إذا كان ذلك^(٢) أعظم من وجوه متعددة؟

وحينئذٍ، فالأنبياء كلهم صادقون مصدقون معصومون فيما يخبرون به^(٣) عن الله لا يجوز أن يثبت في خبرهم عن الله خبر باطل، لا عمداً ولا خطأ، فلا يجوز أن يخبر أحدهم بخلاف ما أخبر به غيره، بل ولا يفترون في الدين الجامع كما قال - تعالى - :

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾^(٤).

وقال - تعالى - :

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾^(٥)
وَلِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلٌّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾.

ولأنما يقع النسخ في بعض الشرائع كما يقع النسخ في شريعة الرسول الواحد حينئذٍ فيعلم أن كل ما ينقل عن الأنبياء المتقدمين مما يناقض^(٦) ما علم من أخبار محمد - صلى الله عليه وسلم - فهو باطل. سواء كان اللفظ نفسه باطلاً لم يقله ذلك النبي أو قد قال لفظاً وغلط

(١) في س، ك، ط (نبوتها).

(٢) سقطت (ذلك) من ط.

(٣) سقطت (به) من س، ك، ط.

(٤) سورة الشورى: الآية ١٣.

(٥) سورة المؤمنون: الآيات ٥١ - ٥٣.

(٦) في ط (ينقض).

المترجمون له من لغة إلى لغة، أو كان اللفظ وترجمته صحيحين لكن وقع الغلط في معرفة مراد ذلك النبي^(١) بذلك الكلام.

فإن كل ما يحتاج به من الألفاظ المنقولة عن الأنبياء أنبياء بني إسرائيل وغيرهم ممن أرسل بغير اللغة العربية لا بد في الاحتجاج بألفاظه من هذه المقدمات أن يعلم اللفظ الذي قاله ويعلم ترجمته ويعلم مراده بذلك اللفظ^(٢).

والمسلمون وأهل الكتاب متفقون على وقوع^(٣) الغلط في تفسير بعض الألفاظ وبيان مراد الأنبياء بها وفي ترجمة بعضها؛ فإنك تجد بالتوراة عدة نسخ مترجمة وبينها فروق يختلف^(٤) بها المعنى المفهوم، وكذلك في الإنجيل وغيره فهذا الطريق في الجواب طريق عام لكل من آمن بمحمد - صَلَّى الله عليه وسلّم - وشهد أنه رسول الله باطناً وظاهراً يخاطب به كل يهودي ونصراني على وجه الأرض. وإن لم يكن عارفاً بما عند أهل الكتاب فإنه لا يقدر أحد من أهل الأرض يقيم^(٥) دليلاً صحيحاً على نبوة موسى وعيسى وبطلان نبوة محمد - صَلَّى الله عليه وسلّم - ، فإن هذا ممتنع لذاته. بل ولا يمكنه أن يقيم دليلاً صحيحاً على نبوة أحدهما إلا وإقامة مثل ذلك الدليل أو أعظم منه على نبوة محمد - صَلَّى الله عليه وسلّم - أولى. وحينئذٍ فلا يمكن أحداً من أهل

(١) في س (الشي) وهو تصحيف.

(٢) أشار - رحمه الله - إلى هذه المقدمات في أول الكتاب عندما بدأ مناقشته لهم في دعواهم خصوصية رسالة محمد - صَلَّى الله عليه وسلّم - ، بالعرب وحدهم.

(٣) في ط (وقع).

(٤) سيأتي توضيح لهذه المسألة فيما بعد إن شاء الله .

(٥) في ط (أن يقيم).

الكتاب أن يحتج بشيء من المنقولات عن الأنبياء المخالفة لما ثبت عن محمد - صلى الله عليه وسلم - ، سواء أقر بنبوته أو أنكرها، بل إن احتج بشيء مما نقل عن محمد - صلى الله عليه وسلم - ، بين له بطلان احتجاجه به وأنه حجة عليه، لا له.

وإن احتج بشيء من المنقول عن غيره من الأنبياء - عليهم السلام - طوب بتقدير نبوة ذلك النبي مع تكذيب محمد - صلى الله عليه وسلم - وإلا فبتقدير أن ينقل عن اثنين ادعى النبوة وأتيا بالآيات التي تثب بها النبوات خبران مناقضان لا يجوز تصديق هذا وتكذيب ذاك إن لم يتبين ما يدل على صدق هذا وكذب هذا، وكذلك إذا عارض أحدهما بجنس ما يعارض الآخر.

وهذا لا يرد على المسلمين إذا ردوا ما يحتج به أهل الكتاب مما ينقلونه عن الأنبياء مخالفاً لخبر - محمد - صلى الله عليه وسلم - ؛ فإن المسلمين لا يطعنون في نبوة^(١) أحد من الأنبياء المعروفين، وإنما يطعنون في أنهم أخبروا بما يخالف خبر محمد - صلى الله عليه وسلم - ، فإن ذلك لا يثبت. أي لم يثبت اللفظ والترجمة، وتفسير اللفظ. وهذه المقدمات يمتنع^(٢) أن تقوم على شيء يخالف خبر محمد - صلى الله عليه وسلم - لا جملة ولا تفصيلاً.

فأهل^(٣) الكتاب يطالبون فيما يعارضون به بثلاث مقدمات :

أحدها^(٤) : تقدير أن أولئك صادقون، ومحمد - صلى الله عليه وسلم - كاذب .

(١) في س (قبره) وهو تصحيف ظاهر. (٣) في س (وأهل).

(٢) في ط (تمتنع) بالمشناة الفوقية. (٤) في ط (أحدهما) وهو خطأ.

والثاني: ثبوت ما أتوا به لفظاً.

والثالث: معرفة^(١) المراد باللفظ ترجمة وتفسيراً. وإن قال الكتابي^(٢) للمسلم: أنت توافقني على نبوة هؤلاء المتقدمين. إجابة المسلم بوجوه:

منها أن يقول: إني لم أوافقك على نبوة واحد منهم مع التكذيب بمحمد - صلى الله عليه وسلم - بل دين المسلمين كلهم، أنه من آمن ببعض الأنبياء وكفر ببعض فهو كافر، فكيف بمن كفر بمن هو عند المسلمين أفضل الأنبياء وخاتمهم، بل قد يقول له أكثر المسلمين: نحن لم نعلم نبوة أولئك إلا بأخبار محمد، أنهم أنبياء، فلو قدحنا في الأصل الذي قد علمنا^(٣) به نبوتهم لزم القدح في نبوتهم، والفرع إذا قدح في أصله دل على فساده في نفسه، سواء قدر أصله صحيحاً أو فاسداً؛ فإنه إن كان أصله فاسداً فسد هو، وإن كان أصله صحيحاً وهو يناقضه بطل هو، فإنه إن كان أصله فاسداً فسد هو، وإن كان أصله صحيحاً وهو يناقضه بطل هو، فهو إذاً ناقض أصله^(٤) باطل على كل تقدير.

وكذلك إذا قال له الكتابي: قد اتفقنا على تصديق موسى والتوراة، و^(٥)المسيح والإنجيل.

قال له المسلم: إنما وافقتك على تصديق موسى وعيسى اللذين

(١) في ط (بمعرفة).

(٢) سقطت (الكتابي) من ك.

(٣) في س (علمت).

(٤) في أ (بأن أصله) وقد علق على كلمة (بأن) في الهامش فقال: «كأنها زائدة أو يكون بأن ما مضى: تبين، بمعنى ظهر ويكون (أن) ولكن سقطت والله أعلم».

(٥) في س، ك، ط (أو).

بشراً، بمحمد - صلى الله عليه وسلم - ، كما أخبرنا به محمد - صلى الله عليه وسلم - عن الله حيث قال الله - تعالى - :

﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ...﴾ (١) الآية .

وقال - تعالى - :

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَتَّبِعُوا إِسْرَءِيلَ إِلَيَّ رُسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرُسُولِي يَأْتِي مِنْ بَعْدِي أُمَّةٌ أَخَذْتُ...﴾ (٢) .

إلى أمثال ذلك .

فأما الإيمان بموسى ، الذي (٣) ذكر أن شريعته مؤيدة لا ينسخ منها شيء ، أو بمسيح ادعى أنه الله أو أن الله اتحد به أو حل فيه ، ونحو ذلك مما يدعيه أهل الكتاب في الرسولين ، والكتابين ، ويخالفهم فيه المسلمون ، فهذا من موارد النزاع ، لا من مواقع الإجماع ، فليس لأحد من أهل الكتاب أن يحتج على أحد من المسلمين بموافقة له على ذلك .

ومن تمام ذلك أن يقول المسلم : نعم أنا أقر بنبوة موسى والمسيح ، وإن التوراة والإنجيل كلام الله ، لكن يمتنع عقلاً الإقرار بنبوة واحد من هؤلاء ، دون نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - ، فإن

(١) سورة الأعراف: الآيتان ١٥٦ ، ١٥٧ .

(٢) سورة الصف: الآية ٦ .

(٣) سقطت (الذي) من ك .

البراهين، والآيات، والأدلة الدالة على صدق موسى والمسيح تدل على نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - بطريق الأولى، فلو^(١) انتقضت تلك الأدلة لزم فسادها، وأن لا أصدق بأحد من الأنبياء، وإن كانت حقاً لزم تصديقهم كلهم، فلزم^(٢) إما^(٣) أن نصدقهم^(٤) كلهم، وإما أن نكذبهم^(٥) كلهم، ولهذا كان من آمن ببعض، وكذب ببعض كافراً.

ومن الأجوبة للمسلمين أن يقولوا: نحن نصدق الأنبياء المتقدمين في كل ما أخبروا به لكن من نقل عنهم أنهم أخبروا بما يناقض خبر محمد - صلى الله عليه وسلم - فلا بد له من مقدمتين، ثبوت ذلك اللفظ عن الأنبياء، والعلم بمعناه الذي يعلم أنه مناقض للمعنى الذي علم أن محمداً - صلى الله عليه وسلم - عناه، ثم العلم باللفظ يحتاج مع الخطاب بغير ألسن الأنبياء العربية سواء كانت عربية، أو رومية، أو سريانية، أو قبطية، إلى أن يعرف أن هذا اللفظ الذي ترجم به لفظه مطابق للفظه، ويمتنع ثبوت المقدمتين، لأن في ثبوتهما تناقض الأدلة العلمية، والأدلة العلمية لا تتناقض^(٦).

الطريق^(٧) الثاني: أن يقول المسلمون: ما تذكرونه من المنقول عن الأنبياء، مناقضة لما أخبر به محمد - صلى الله عليه وسلم - أمور لم تعلم صحتها، فلا^(٨) يجوز اعتقاد ثبوتها، والجزم بها، ولو لم يعلم

(١) في ك (ولو).

(٢) سقطت (فلزم) من س.

(٣) سقطت (إما) من ك.

(٤) في ك، ط (أصدقهم) وفي س (صدقهم).

(٥) في س، ك، ط (أكذبهم). (٧) سقط (الطريق) من ك.

(٦) في ك (تناقض). (٨) في ك، ط (ولا).

أن محمداً - صَلَّى الله عليه وسلّم - ، أخبر بخلافها فكيف إذا علم أنه
أخبر بخلافها؟ وذلك أن العلم بثبوتها مبني على مقدمات :

أحدها : العلم بنبوتهم^(١) وهذا ممتنع مع تكذيب محمد
- صَلَّى الله عليه وسلّم - .

والثانية : أنهم قالوا : هذه الألفاظ ، وهذا يحتاج إلى إثبات تواتر
هذه الألفاظ عن الأنبياء ، ولم يثبت أنها تواترت عنهم .

والثالثة : أن معناها ، هو المعنى المناقض لخبر محمد - صَلَّى الله
عليه وسلّم - ، ولم يعلم ذلك .

وكل واحدة من هذه المقدمات تمنع^(٢) العلم بثبوت هذه المعاني
المناقضة لخبر محمد - صَلَّى الله عليه وسلّم - فكيف إذا اجتمعت؟

وهي تمنع العلم بصحتها ، ولو لم تناقض خبر محمد - صَلَّى الله
عليه وسلّم - فكيف إذا ناقضته؟

الطريق الثالث : طريق من يبيّن^(٣) أن ألفاظ هذه الكتب لم تتواتر ،
ويثبتون ذلك بانقطاع تواتر التوراة^(٤) ، لما خرب بيت المقدس ، وانقطاع
تواتر الإنجيل في أول الأمر .

الطريق الرابع : طريق من يبيّن أن بعض ألفاظ الكتب حرفت ،

(١) في ط (بنبوتها) .

(٢) في ك ، ط (يمنع) بالمشاة التحتية .

(٣) في ك ، ط (يتبين) .

(٤) في جميع النسخ بعد كلمة (التوراة) جملة زائدة لا مكان لها وهي (ويسط الأمر) ،
وأرى أن مكانها في آخر الجملة مع إضافة كلمة (يأتي) وسيتحدث عن ذلك بعد
قليل .

ويقيم الأدلة الشرعية، والعقلية على تبديل بعض ألفاظها.

الطريق الخامس: أن يبين أن الألفاظ التي بأيديهم لا تناقض ما أخبر به محمد - صلى الله عليه وسلم - بل تدل على صدق محمد - صلى الله عليه وسلم - ويتكلم على تفسير تلك الألفاظ بأعيانها. وهذه الطريق^(١) يسلكها من لا ينازع في ثبوت الألفاظ من المسلمين.

وأما الجمهور الذين يقولون بتبديل هذه الألفاظ فيسلكون هذه الطريق^(٢)، ويسلكون أيضاً بيان عدم تواتر الألفاظ، بل بيان التبديل في ألفاظها.



(١) في س، ط (الطرق) والصواب ما أثبتناه.

(٢) في ك، ط (الطرق).

فصل (١)

ومن حجة الجمهور الذين يمنعون أن تكون جميع ألفاظ هذه الكتب المتقدمة الموجودة عند أهل الكتاب منزلة من عند الله، لم يقع فيها تبديل، ويقولون: إنه وقع التبديل في بعض ألفاظها، و^(٢) يقولون: إنه لم يعلم أن ألفاظها منزلة من عند الله، فلا يجوز أن يحتج بما فيها من الألفاظ في معارضة ما علم ثبوته أنهم قالوا: التوراة والإنجيل الموجودة اليوم بيد أهل الكتاب لم تتواتر عن موسى، وعيسى - عليهما السلام - أما التوراة فإن نقلها انقطع لما خرب بيت المقدس أولاً، وأجلى منه بنو إسرائيل، ثم^(٣) ذكروا أن الذي أملاها عليهم بعد ذلك شخص واحد يقال له عزرا^(٤) (*)، وزعموا أنه نبي.

وقوع التبديل في
ألفاظ التوراة
والإنجيل،
وانقطاع سندهما

(١) مكانه بياض في ك.

(٢) في س، ك، ط (أو).

(٣) في س (ثم قد ذكروا).

(٤) هو عزرا بن سرايا من نسل هارون، كاتب، وكاهن ماهر في العقائد الإسرائيلية ويذكر السموأل في إفحام اليهود ص ٥٠ - وهو من اليهود الذين أسلموا - أن هذا الرجل هو الذي جمع التوراة الموجودة بعد الغزو البابلي من محفوظاته ومن الكهنة وليست التوراة الأصلية.

(*) وينبغي أن نعلم هذه الحقائق فيما يتعلق بهذه المسألة:

أولاً: التوراة الأصلية مبرأة من التحريف والزيادة والنقصان.

ثانياً: استفاض عند علماء اليهود أن موسى - عليه السلام - أعطى التوراة الأصلية للهارونيين فقط، وأما بني إسرائيل عامة فإنه لم يعطهم التوراة خشية الاختلاف والانقسام. وإنما أبدى لهم نصف سورة لتكون شاهدة عليهم ولا تنسى من أفواه أولادهم كما ورد.

ومن الناس من يقول: إنه لم يكن نبياً، وإنها قوبلت بنسخة، وجدت^(١) عتيقة.

وقد^(٢) قيل: إنه أحضرت نسخة كانت بالمغرب، وهذا كله لا يوجب تواتر جميع ألفاظها، ولا يمنع وقوع الغلط في بعضها كما يجري مثل ذلك في الكتب التي يلي نسخها ومقابلتها^(٣)، وحفظها القليل. الاثنان والثلاثة.

ثالثاً: عندما غزا بختنصر ملك بابل بني إسرائيل أحرق هيكلهم وقتل الهارونيين واستولى على بيت المقدس، وأحرق كتبهم فانقطع السند بذلك، وذهبت التوراة الأصلية.

رابعاً: لما رجع بنو إسرائيل ورأى عزرا حالتهم، وتفرقهم، قرر أن يجمع لهم كتاباً يجتمعون عليه، فكتب التوراة من محفوظاته، وجمع ما تبقى عند الكهنة، فخرجت التوراة الموجودة في صورتها المحرفة، والتي كانت من جمع هذا الرجل الذي وصفه السموال بأنه رجل فارغ، جاهل بالصفات الإلهية فلذلك نسب إلى الله تعالى ما لا يليق به، مثل الندم على ما مضى، والإقلاع عن مثله. تعالى الله علواً كبيراً وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا قَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَقَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

انظر: إفحام اليهود ص ٥٠ - ٥١؛ وهداية الحيارى ٥٨٣ - ٥٨٤ (المجموع)؛ وكتاب شفاء الغليل فيما وقع في التوراة والإنجيل من التبديل للجويني ص ٣١ فما بعدها بتحقيق الدكتور السقا؛ والتراث الإسرائيلي للدكتور صابر طعيمة ص ٧٠ - ٧٦.

أما الأناجيل: فإنها كتبت بعد المسيح - عليه السلام - لتحدث الناس عما أحاط بولادة عيسى - عليه السلام - من العجائب والغرائب، وتحكي تاريخاً، وسيرة للسيد المسيح.

(١) في ك، ط (وجدوها).

(٢) سقطت (قد) من ك، ط.

(٣) في س، ك (ومقابلها).

وأما الإنجيل الذي بأيديهم فهم^(١) معترفون بأنه لم يكتبه المسيح — عليه السلام — ولا أملاه على من كتبه، وإنما أملوه^(٢) بعد رفع المسيح «متى» و«يوحنا» — وكانا قد صحبا المسيح، ولم يحفظه خلق كثير يبلغون عدد التواتر — و«مرقس» و«لوقا»، وهما لم يريا المسيح — عليه السلام —، وقد ذكر هؤلاء أنهم ذكروا بعض ما قاله المسيح، وبعض أخباره، وأنهم لم يستوعبوا ذكر أقواله، وأفعاله.

ونقل اثنين، وثلاثة، وأربعة يجوز عليه^(٣) الغلط، لا سيما، وقد غلطوا في المسيح نفسه حتى اشتبه عليهم بالمصلوب، ولكن النصارى يزعمون أن الحواريين رسل الله مثل عيسى بن مريم^(٤)، وموسى — عليهما السلام —، وأنهم معصومون، وأنهم سلموا إليهم التوراة والإنجيل، وأن لهم معجزات، وقالوا لهم هذه التوراة وهذا الإنجيل، ويقررون مع هذا بأنهم ليسوا بأنبياء، فإذا^(٥) لم يكونوا أنبياء، فمن ليس بنبي ليس بمعصوم من الخطأ، ولو كان من^(٦) أعظم أولياء الله، ولو كان له خوارق عادات. فأبوبكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وغيرهم من أفاضل الصحابة عند المسلمين أفضل من الحواريين، ولا معصوم عندهم إلا من كان نبياً.

ودعوى أنهم رسل الله مع كونهم ليسوا بأنبياء تناقض، وكونهم رسل الله هو مبني على كون المسيح هو الله، فإنهم رسل المسيح، وهذا

(١) في س، ك، (فإنهم).

(٢) في ط (أملوه).

(٣) في ط (عليهم).

(٤) في أ، س (إبراهيم) مكان (عيسى بن مريم).

(٥) في س (وإذا).

(٦) سقطت (من) من أ وألحقناها من سائر النسخ.

الأصل باطل ولكن في طريق^(١) المناظرة، والمجادلة والتي هي أحسن
منعهم^(٢) في هذا المقام ونطالبهم بالدليل على أنهم رسل الله، وليس
لهم على ذلك دليل فإنه لا يثبت أنهم رسل الله إن لم يثبت أن المسيح
هو الله، وإثباتهم أن المسيح هو الله إما أن يكون بالعقل أو بالسمع.
والعقل لا يثبت ذلك، بل^(٣) يحيله وهم لا يدعون ثبوت ذلك بالعقل.

بل غاية ما يدعون إثبات إمكانه بالعقل لا إثبات وجوده مع أن ذلك
أيضاً باطل وإنما يدعون ثبوت وجوده بالسمع، وهو^(٤) ما ينقلونه عن
الأنبياء من ألفاظ يدعون ثبوتها عن الأنبياء، ودالاتها على أن المسيح
هو الله كسائر من يحتج بالحجة السمعية. فإن عامة بيان صحة الإسناد
دون بيان دلالة المتن، وكلا المقدمتين باطلة.

ولكن يقال لهم في هذا المقام: أنتم لا يمكنكم إثبات كون
المسيح هو الله إلا بهذه الكتب، ولا يمكنكم تصحيح هذه الكتب إلا
بإثبات أن الحواريين رسل الله معصومون، ولا يمكنكم^(٥) إثبات أنهم
رسل الله إلا بإثبات أن المسيح هو الله فصار ذلك دوراً ممتنعاً^(٦).

(١) في ك، ط (طرق).

(٢) في ك، ط (فمنعهم).

(٣) سقطت (بل) من ك وفيها (بحيلة) بالباء الموحدة وهو تصحيف.

(٤) في ك (وهم) وسقطت منها (ما).

(٥) في س، ك، ط (يمكنهم).

(٦) الدور هو توقف الشيء على ما يتوقف عليه، ويسمى الدور المضمّر كما يتوقف (أ) على

على (ب) وبالعكس أو بمراتب، ويسمى الدور المضمّر كما يتوقف (أ) على (ب)

و (ب) على (ج) و (ج) على (أ). هذا ما ورد في التعريفات للجرجاني

ص ١١٠ - ١١١، وقال في دائرة معارف القرن العشرين ٩١/٤ «الدور: عود

الشيء لأصله، جمعه أدوار».

فإنه لا تعلم إلهية المسيح إلا بثبوت هذه الكتب، ولا تثبت هذه الكتب إلا بثبوت أنهم رسل الله، ولا يثبت ذلك إلا بثبوت أنه الله، فصار ثبوت الإلهية متوقفاً على ثبوت إلهيته^(١)، وثبوت كونهم رسل الله متوقفاً على كونهم رسل الله، فصار ذلك دوراً ممتنعاً.

قد يدعون عصمة الحواريين، وعصمة أهل المجامع بعد الحواريين، كأهل المجمع الأول الذي كان بحضرة قسطنطين الذي حضره ثلاثمائة وثمانية عشر، ووضعوا لهم الأمانة التي هي عقيدة النصراني، التي لا يصح لهم قربان إلا بها^(٢) فيزعمون أن الحواريين

(١) في س (الإلهية).

(٢) هذا مجمع (نيقية) بالكسر ثم السكون، وكسر القاف، وياء خفيفة، من أعمال إستانبول (إحدى مدن تركيا اليوم). انظر مراصد الاطلاع ١٤١٢/٣.

وقد عقد هذا المجمع ٣٢٥م بأمر من الملك الروماني (قسطنطين) الذي رأى الخلاف بين النصراني في شأن المسيح - عليه السلام - شديداً. فمن قائل أنه رسول، ومن قائل أنه أعلى من رسول، وأنه بمنزلة الابن لله، ومن قائل أنه ابن الله، له صفة القدم.

فكان هذا سبباً لعقد هذا المجمع ليتحدوا على رأي واحد. وقد ذكر سبب آخر وهو أن أريوس أحد علماء النصراني، كان قد قاوم كنيسة الإسكندرية التي كانت تبث ألوهية المسيح بين المسيحيين، وقد ذكر ابن البطريق في تاريخه (نظم الجواهر) مذهبه هذا وستأتي ترجمته.

كما أشار إلى هذا صاحب كتاب تاريخ الأقباط (زكي شنودة). وقد احتدم النزاع بين أريوس، والإسكندر صاحب كنيسة الإسكندرية، فتدخل قسطنطين ودعاهما للوفاق، ثم جمع بينهما، ولكنهما لم يتفقا، فجمع مجمع نيقية، وحضره ألفان وثمانية وأربعون أسقفاً انفصل منهم ثلاثمائة وثمانية عشر، برأي اتفقوا عليه وهو: تأليه المسيح - عليه السلام - وجنح قسطنطين إلى هذا القول؛ لموافقته هوى في نفسه، فهو الأقرب إلى وثنيته، واستبعد الجمع الغفير منهم، وأمر بعقد مجمع خاص بهؤلاء النفر، وأصدروا فيه ما يسمى عندهم قانون الأمانة الذي سبق نصه. وسنشير إلى بقية المجامع الرئيسية فيما بعد إن شاء الله.

أو هؤلاء جرت على أيديهم خوارق، وقد يذكرون أن منهم من جرى إحياء الموتى^(١) على يديه، وهذا إذا كان صحيحاً — مع أن صاحبه لم يذكر أنه نبي — لا يدل على عصمته^(٢)؛ فإن أولياء الله من الصحابة، والتابعين بعدهم بإحسان وسائر أولياء الله من هذه الأمة وغيرها لهم من خوارق العادات ما يطول وصفه، وليس فيهم معصوم، يجب قبول كل ما يقول، بل يجوز الغلط على كل واحد منهم، وكل أحد يؤخذ من قوله، ويترك إلا الأنبياء عليهم السلام.

ولهذا أوجب الله الإيمان بما^(٣) أوتي^(٤) الأنبياء، ولم يجب الإيمان

= انظر: تاريخ ابن البطريق (نظم الجوهري) ص ١٣٥، ط مطبعة الآباء اليسوعية بيروت ١٩٠٥ م.

وخلاصة الأصول الإيمانية ص ٦٦؛ وحياة قسطنطين ص ٨٦، تأليف يوسابيوس القيصري.

(١) في س، ك، ط (الميت).

(٢) زعم النصارى بأن عيسى — عليه السلام — أيد بعض الحواريين بإحياء الموتى فأحيوا الموتى كمثله ما فعل عيسى، وقد وردت في الإنجيل فقرات تشير إلى هذا، ففي إنجيل متى الإصحاح العاشر ورد قوله: «وفيما أنتم ذاهبون أكرزوا (بلغوا) قائلين أنه قد اقترب ملكوت السماوات. اشفوا مرضى، طهروا برصاً، أقيموا موتى. أخرجوا شياطين».

قلت: وهذا — إن صح — أمر وليس إخباراً، ثم إنه لو حصل فإنه لا يدل على عصمة من حصل منه. كما ذكر ابن تيمية — رحمه الله — ويحتمل أن يكون المراد تطهير المرضى من دون الكفر، وشفاءهم وإحياءهم بالإيمان بالله، وقد ورد في كتاب الله — تعالى — في سورة الأنعام الآية ١٢٢: ﴿أَوْ مِنْ كَانَ مَيِّتاً فَأُحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ الآية. وانظر: كتاب أبي عبيدة الخزرجي مقامع هامات الصليبان، بتحقيق د. محمد شامة والكتاب بعنوان بين الإسلام والمسيحية ص ٧٧.

(٣) في ط (بكل ما).

(٤) في أ، ك (أوتيته).

بكل ما يقوله كل ولي لله .

قال - تعالى - :

﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا مِنْ رَبِّهِمْ وَلَا نَسْتَعِيزُ إِلَّا بِرَبِّهِمْ﴾ (١).

وقال - تعالى - :

﴿وَلَكِنَّ الْإِنْسَانَ كَذِبٌ كَذِبٌ مِّنْ ءَمَانٍ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ...﴾ (٢).

ولهذا وجب الإيمان بالأنبياء جميعهم وما أوتوه كلهم .

ومن كذب نبياً واحداً تعلم نبوته، فهو كافر باتفاق المسلمين، ومن سبه وجب قتله كذلك، بخلاف من ليس بنبي فإنه لا يكفر أحد بمخالفته، ولا يقتل بمجرد سبه إلا أن يقتل بالسب ما يكون مبيحاً للدم .

والذي عليه سلف الأمة كالصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة الدين، وجماهير المسلمين، أن أفضل هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر وليس بعد الأنبياء أفضل منهما، وهذه الأمة أفضل الأمم، وقد ثبت في الصحيحين عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «قد كان قبلكم في الأمم محدثون فإن يكن في أمتي أحد فعمر» (٣) والمحدث الملهم: المخاطب .

(١) سورة البقرة: الآية ١٣٦ .

(٢) سورة البقرة: الآية ١٧٧ .

(٣) سبق تخريج الحديث .

وكان عمر قد جعل الله الحق على قلبه ولسانه، وما كان يقول لشيء: إني لأراه كذا وكذا، إلا كان كما يقول^(١)، وكانت السكينة تنطق على لسانه، ومع هذا فلم يكن - لا هو ولا غيره ممن ليس بنبي - معصوماً^(٢) من الغلط، ولا يجب على المسلم قبول ما يقوله^(٣) إن لم يدل عليه الكتاب والسنة، ولا كان يجوز له العمل بما يلقي في قلبه إن لم يعرضه على الكتاب والسنة، فإن وافق ذلك قبله، وإن خالف ذلك رده.

وعند المسلمين أنه ليس في أتباع المسيح - عليه السلام - مثل أبي بكر وعمر - رضوان الله عليهما - فإذا قالوا عن الحواريين: أنهم ليسوا معصومين، فهم يقولون ذلك فيمن هو عندهم أفضل من الحواريين^(٤)، كما أنهم إذا قالوا عن المسيح: أنه عبد مخلوق ليس بآله، فهم يقولون ذلك فيمن هو عندهم أفضل من المسيح كمحمد وإبراهيم عليهما^(٥) أفضل الصلاة والسلام.

وفي الملاحدة المنتسبين إلى الأمة من فيه بدع من الغلو يشبه غلو النصارى كمن يدعي^(٦) الإلهية

(١) انظر: صحيح البخاري ١٩٨/٤ (مناقب عمر رضي الله عنه)؛ وصحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر وخصوصاً حديث رقم (٢٤)، (٢٥) وكيف أنه وافق ربه في أمور عدة وهي، مقام الحجاب، وأسارى بدر، وترك الصلاة على المنافقين، وتحريم الخمر، وغيرها ١٨٦٥/٤.

(٢) في أ، س، ك (معصوم) وهو خطأ.

(٣) في س (ويقول)، وفي ك سقط في هذا الموضع.

(٤) في س (من الحواريون) وهو خطأ.

(٥) في س، ك (عليهم).

(٦) في ط (لمن يدعي).

(١) الإسماعيلية: نسبة إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق الطالباني الهاشمي، سابع الأئمة. وهم إحدى فرق الباطنية، التي سبق الحديث عنها في أول الكتاب، وقد ساقوا الإمامة إلى جعفر، وزعموا أن الإمام بعده ابنه إسماعيل، وقد افترقوا إلى فرقتين:

فرقة منتطرة لإسماعيل بن جعفر، مع اتفاق أهل التواريخ على موت إسماعيل قبل أبيه كما قال الإسفراييني رحمه الله .

والفرقة الثانية: تقول كان الإمام بعد جعفر سبطه (محمد بن إسماعيل بن جعفر) حيث أن جعفرأ، نصب ابنه إسماعيل للإمامة بعده، فلما مات إسماعيل في حياة أبيه، علم أنه إنما نصب ابنه إسماعيل للدلالة على إمامة ابنه محمد بن إسماعيل، قال الإسفراييني وهذا مذهب الإسماعيلية من الباطنية .

انظر في هذه الفرقة: الملل والنحل ٥/٢؛ وتبليس إبليس ص ١٠٢؛ وفضائح الباطنية ص ٥٥؛ وقواعد عقائد آل محمد (الباطنية) للدليمي ص ٧٧؛ وسمط الحقائق لأحد دعاة الإسماعيلية علي بن حنظلة الوادعي ص ١٥ فما بعدها؛ والتبصير في الدين ص ٢٣؛ والفرق بين الفرق ص ٦٢؛ واعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص ٥٤؛ والبرهان في معرفة عقائد أهل الأديان ص ٤٩٤ (رسالة ماجستير).

(٢) بني عبيد (هم الفاطميون) أصحاب مصر وهم العبيديون، وجدهم عبيد الله بن محمد الحبيب بن جعفر الفاطمي، العلوي من ولد جعفر الصادق، أسس دولة العلويين في المغرب، وفي نسبه خلاف طويل، ولد بالكوفة سنة ٢٥٩هـ، وظهر سنة ٢٩٦هـ في المغرب (بسجلماسة) واستفحل أمره حتى بويع في القيروان سنة ٢٩٧هـ، ثم اختط مدينة (المهدية) بالمغرب سنة ٣٠٣هـ واتخذها قاعدة لملكه ومات بها سنة ٣٢٢هـ بعد حكم دام أربعاً وعشرين سنة. انظر البداية والنهاية لابن كثير ١١/١٧٩، ووفيات الأعيان ١/٢٧٢، والأعلام ١٩٧/٤.

(٣) انظر: ميمون بن داود القداح. قيل: اسم أبيه ديسان، وقيل: غيلان، وهو رأس الفرقة الميمونية من فرق الإسماعيلية، كان يظهر التشيع، ويبطن الزندقة، وقد قيل: إن الفاطميين من نسله قال الزركلي في الأعلام ولم يصح هذا. وكانت وفاته سنة ١٧٠هـ. انظر: الأعلام للزركلي ٣٤١/٧.

كالحاكم^(١) وغيره، و^(٢) يدعي الإلهية في علي بن أبي طالب أو غيره
كدعوى النصيرية^(٣)، وهؤلاء كفار عند المسلمين.

وكذلك من يدعي الإلهية في بعض المشايخ، كفلاة العدوية^(٤)،
والحلاجية^(٥) واليونسية^(٦)، وغيرهم، وكذلك من يدعي عصمة بني عبيد
أو عصمة الإثني عشر أو عصمة بعض المشايخ.

فإن النصاري يدعون عصمة الحواريين الإثني عشر، وهؤلاء
يدعون عصمة الأئمة الإثني عشر^(٧).

(١) سبقت ترجمة الحاكم في أول الكتاب.

(٢) في ك، ط (أو من)، وفي س (أو يدعى).

(٣) النصيرية سبق التعريف بها في أول الكتاب.

(٤) نسبة إلى عدي بن مسافر، وسبق التعريف به واتباعه.

(٥) نسبة إلى شيخهم أبي مغيث الحسين بن منصور الحلاج، وسبقت ترجمته.

(٦) اليونسية: هم أتباع يونس بن عون السمري وقيل: النميري. ولم أقف له على
ترجمة، وفرقته إحدى فرق المرجئة، ومن مذهبهم: أن الإيمان: هو المعرفة بالله
والخضوع له، وترك الاستكبار عليه، والمحبة له. وهو في القلب واللسان فقط.
ومن اجتمعت فيه هذه الخصال فهو مؤمن، وما سوى ذلك من الطاعة فليس من
الإيمان، ولا يضر تركه حقيقة الإيمان، ولا يعذب على ذلك.

انظر: مقالات الإسلاميين للأشعري ٢١٤/١، ٢١٥؛ والملل والنحل ١٤٠/١؛
والتبصير في الدين للإسفرائيني ص ٦٠؛ والفرق بين الفرق ص ٢٠٢؛ واعتقادات
فرق المسلمين والمشركون للرازي ص ٧٠.

(٧) هم الاثنا عشرية: وهي إحدى فرق الشيعة الإمامية، يسوقون الإمامة في اثني عشر
إماماً، ويقولون: الإمام المنتظر هو الثاني عشر وهو (محمد بن الحسن العسكري)
وهو الذي يظهر - بزعمهم - فيملاً الأرض عدلاً بعد أن ملئت ظلماً وجوراً. وقد
جعلهم الشهرستاني في اثني عشرة فرقة. ومن معتقداتهم: أن القرآن فيه نقص،
وأن (قل هو الله أحد) كانت ثمانين آية، ويزعم الشيخ المفيد - وهو أحد أئمتهم
الموثوقين عندهم - أن الأخبار مستفيضة عن أئمتهم باختلاف القرآن، وما أحدثه فيه
بعض الظالمين - في زعمهم - من الحذف والنقصان.

وهؤلاء يسندون أصل دينهم إلى قول الحواريين المعصومين عندهم ويقولون أنهم معصومون في النقل عن المسيح وفي الفتيا، وإن ما قالوه فقد قاله المسيح عليه^(١) الصلاة والسلام .

وهؤلاء يقولون عن أولئك: إنهم معصومون في النقل والفتيا، وإن ما قالوه فقد قاله الرسول - عليه الصلاة والسلام^(٢) -، وهذا مبسوط في موضع آخر^(٣) .

والمقصود هنا أنه ليس مع النصارى نقل متواتر عن المسيح بألفاظ هذه الأناجيل ولا نقل لا^(٤) متواتر ولا آحاد، بأكثر ما هم عليه من الشرائع . ولا عندهم ولا^(٥) عند اليهود نقل متواتر بألفاظ التوراة ونبوات

ويعطي مفسرهم (الطباطبائي) في تفسيره (الميزان) - الأئمة صفة ترفعهم عن مقام البشر والإمام له يقين يكشف به عالم الملكوت - كما يزعم .
انظر: أوائل المقالات في المذاهب والمختارات للشيخ المفيد العكبري ص ٩٨، ط الحيدرية رقم ٣ عام ١٣٩٣ هـ .

والميزان في تفسير القرآن للطباطبائي ٢٧٣/١ ط ١٣٩٤ هـ بيروت، وقد ذكرت هذه الفرقة في كتب الفرق التالية: مقالات الإسلاميين ٩٠/١؛ والملل والنحل ٥/٢؛ والفصل لابن الحزم ١٧٩/٤؛ والفرق بين الفرق ص ٦٤؛ واعتقادات فرق المسلمين والمشركين للرازي ص ٥٥؛ والتبصير في الدين ص ٢١؛ والبرهان في معرفة عقائد أهل الأديان رسالة ماجستير ص ٤٧٢؛ وانظر: سلسلة إحسان إلهي ظهير «الشيعية والقرآن، والشيعية وآل البيت، وكتاب (تبديد الظلام وتبيينه النيام للجبهان)» .

(١) في ك، ط (عليه أفضل).

(٢) في ك (عليه السلام).

(٣) سبق حديث المؤلف عن زعم النصارى بأن الحواريين معصومون، والرد على هذه الفرية .

(٤) سقطت (لا) من ك، ط .

(٥) سقطت (لا) من ك .

الأنبياء كما عند المسلمين نقل متواتر بالقرآن، وبالشرائع الظاهرة المعروفة للعامة والخاصة، وهذا مثل الأمانة التي هي أصل دينهم، وصلاتهم إلى المشرق، وإحلال الخنزير، وترك الختان، وتعظيم الصليب، واتخاذ الصور في الكنائس، وغير ذلك من شرائعهم، ليست منقولة عن المسيح ولا لها ذكر في الأناجيل التي ينقلونها عنه. وهم متفقون على أن الأمانة التي جعلوها أصل دينهم وأساس اعتقادهم، ليست ألفاظها موجودة في الأناجيل ولا هي مأثورة عن الحواريين، وهم متفقون على أن الذين وضعوها أهل المجمع الأول الذين كانوا عند قسطنطين الذي حضره ثلاثمائة وثمانية^(١) عشر، وخالفوا عبد الله بن أريوس^(٢) الذي جعل المسيح عبداً لله^(٣) كما يقوله المسلمون، ووضعوا هذه الأمانة.

وهذا المجمع كان بعد المسيح بمدة طويلة تزيد على ثلاثمائة سنة وبسط هذا له^(٤) موضع آخر، وإنما المقصود هنا الجواب عن قولهم: إن محمداً - صلى الله عليه وسلم - ثبت ما معهم، وأنه نفى عن إنجيلهم، وكتبهم التي بأيديهم التهم، والتبديل لها، والتغيير لما فيها بتصديقه إياها.

(١) في س، ط (وثمان).

(٢) أريوس كان قسيساً بالإسكندرية، ولد سنة ٢٥٦م، وتوفي سنة ٣٣٦م، ونشأ في عائلة مسيحية، ودرس اللاهوت في مدرسة الإنطاكية على يد المعلم لوقيانيوس. انظر: الفصل لابن حزم ٤٨/١، والملل للشهرستاني ٢٢٧/١؛ ونظم الجواهر لابن البطريق ص ١٣٥؛ وتاريخ الأقباط لزكي شنودة ١٤٩/١؛ وتاريخ الفكر المسيحي للدكتور القس حنا جرجس ٦١٧/١.

(٣) في ط (عبد الله).

(٤) في س (وبسط له) وفي ط (وبسطه له)، وسقط هذا من ك وسيحدث - رحمه الله - عن المجامع في الجزء الثالث.

وقد تبين أن محمداً - صَلَّى الله عليه وسلّم - ، لم يصدق شيئاً من دينهم المبدل، والمنسوخ، ولكن صدق الأنبياء قبله وما جاؤوا به، وأثنى على من اتبعهم لا على من خالفهم أو كذب نبياً من الأنبياء. وإن كفر النصراني من جنس كفر اليهود، فإن اليهود بدلوا معاني الكتاب الأول، وكذبوا بالكتاب الثاني، وهو الإنجيل، وكذلك النصراني بدلوا معاني الكتاب الأول التوراة، والإنجيل، وكذبوا بالكتاب الثاني، وهو القرآن، وأنهم ادعوا أن محمداً - صَلَّى الله عليه وسلّم - صدق بجميع ألفاظ الكتب التي عندهم.

فجمهور المسلمين يمنعون هذا ويقولون: إن بعض ألفاظها بدل كما قد * بدل كثير من معانيها ومن المسلمين من يقول: التبديل إنما وقع في معانيها لا في ألفاظها *^(١)، وهذا القول يقر به عامة اليهود والنصارى.

وعلى القولين فلا حجة لهم في تصديق محمد - صَلَّى الله عليه وسلّم - لما هم عليه من الدين الباطل، فإن الكتب الإلهية التي بأيديهم لا تدل على صحة ما كفرهم به محمد - صَلَّى الله عليه وسلّم - وأمته. مثل التثليث، والاتحاد، والحلول^(٢) وتغيير شريعة المسيح، وتكذيب محمد - صَلَّى الله عليه وسلّم - فليس في الكتب التي بأيديهم ما يدل لا نصاً ولا ظاهراً، على الأمانة التي هي أصل دينهم، وما في ذلك من التثليث، والاتحاد، والحلول، ولا فيها ما^(٣) يدل على أكثر شرائعهم

(١) ما بين النجمتين ساقط من س.

(٢) سقطت (والحلول) من أ، س. وسبق التعريف بهذه المصطلحات في أول الكتاب.

(٣) سقطت (ما) من ط.

كالصلاة إلى الشرق^(١) واستحلال المحرمات من الخنزير والميتة ونحو ذلك، كما قد بسط في موضع آخر^(٢).

ويقال لهم: أين ما^(٣) معكم عن محمد - صَلَّى الله عليه وسلّم - ، مما يدل على أن ألفاظ الكتب التي بأيديكم لم يغير فيها^(٤) شيء؟ ومعلوم أن المسلمين، وغيرهم إذا اختلفوا لم يكن قول فريق حجة على الفريق الآخر.

فإذا كان المسلمون^(٥) قد اختلفوا في تبديل بعض ألفاظ الكتب^(٦) المتقدمة لم يكن قول فريق حجة على الأخرى، ولا يجوز لأحد من المسلمين، ولا منكم أن يضيف إلى الرسول قولاً إلاً بدليل.

فأين في القرآن والسنة الثابتة عن محمد - صَلَّى الله عليه وسلّم - أن جميع ما بأيدي أهل الكتاب من التوراة، والإنجيل، والزبور، ونبوات الأنبياء لم تبدل بشيء من ألفاظها حتى يقولوا: إن محمداً - صَلَّى الله عليه وسلّم - نفى عن كتبهم ذلك؟

وهؤلاء بنوا كلامهم على أن ألفاظ كتبهم تدل على صحة دينهم الذي هم عليه بعد مبعث محمد - صَلَّى الله عليه وسلّم - وبعد تكذيبهم لمحمد^(٧) - صَلَّى الله عليه وسلّم - ، وأنه لم يبدل شيء من ألفاظها.

(١) في ط (المشرق).

(٢) سبق الحديث عن بعض تشريعاتهم، وسيتحدث عن ذلك أيضاً في آخر هذا الكتاب.

(٣) سقطت (ما) من س، ك.

(٤) في ط (منها).

(٥) في س، ك (المسلمين) وهو خطأ.

(٦) في ط (الكتب الإلهية). (٧) في ط (بمحمد).

وقد تبين فساد ذلك من وجوه متعددة.

ثم زعموا أن المسلمين يدعون أن ألفاظ هذه الكتب حرفت كلها بجميع لغاتها بعد مبعث محمد - صلى الله عليه وسلم - ، وهذا القول لم يقله أحد من المسلمين - فيما أعلم - وظنوا أنهم بالجواب عن هذا يكونون^(١) قد أجابوا المسلمين.



(١) في أ(يكونوا).

فصل

فقال الحاكي عنهم: فقلت لهم: إن قال قائل: إن التبديل والتغيير يجوز أن يكون بعد هذا القول فقالوا: إنا نعجب من هؤلاء القوم — على علمهم، وذكائهم، ومعرفتهم — كيف يحتجون علينا بمثل هذا القول؟ وذلك أنا أيضاً إذا احتججنا^(١) عليهم بمثل هذا القول، وقلنا: إن الكتاب الذي في أيديهم يومنا هذا قد غيروه وبدلوه وكتبوا فيه ما أرادوا واشتهوا هل كانوا يجوزون كلامنا؟ قال الحاكي عنهم: فقلت لهم: هذا مما لا يجوز ولا يمكن أحداً أن يقوله، ولا يمكن أن يتغير منه إلى آخر الفصل^(٢)، وسيأتي بالفاظ بعد هذا.

الرد على
النصارى في
دعواهم بأن
المسلمين
يقولون أن
التحريف وقع
بعد مبعث
محمد
صلى الله
عليه وسلم

والجواب أن هذا السائل النصراني الذي ذكر عن المسلمين سؤالاً لا يقولونه، وعن علماء النصارى جوابه، هو وهم بنوا كلامهم على أصليين فاسدين:

أحدهما: أن الرسول ثبت ما معهم، ونفى عن كتبهم التي بين أيديهم التهم، والتبديل، والتغيير لها. ومقصودهم بذلك لا يتم إلا إذا نفى التبديل عن لفظها، ومعناها، وهذا مما يعلم كل عاقل أن الرسول لم ينه عنها بل النقل المتواتر عنه بنقيض ذلك. وهم أيضاً، وكل عاقل

(١) في جميع النسخ عدا (ط) احتجينا، والصواب ما أثبتناه؛ لأنه فعل مضارع أسند إلى ضمير رفع متحرك فوجب فك ادغامه.

(٢) ملخص: الشبهة: أن التبديل، والتغيير يجوز أن يكون وقع بعد هذا القول.

يعلم أن الكتب التي بأيديهم في تفسيرها من الاختلاف والاضطراب بين فرق النصارى، وبين النصارى واليهود ما يوجب القطع بأن كثيراً من ذلك مبدل محرف، وكذلك وقع في تغيير شرائع هذه الكتب، فإن الكتب تضمنت أصليين: الإخبار، والأمر. والإيمان بها لا يتم إلا بتصديقها فيما أخبرت، وإيجاب طاعتها فيما أوجبه.

* وأهل الكتاب يكذبون بكثير مما أخبرت ولا يوجبون طاعتها في كثير مما أوجبه وأمرت به *^(١)، وكل فرقة منهم تشهد على الفرقة الأخرى بمثل ذلك.

والنصارى لهم سبع مجامع مشهورة عندهم^(٢)، وهم في كل

(١) سقط ما بين النجمتين من أ وزدناه من سائر النسخ.

(٢) تنقسم المجامع - عندهم بالنظر إلى عدد أربابها، ودرجاتهم، وشوكتهم - إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: مجامع عامة، ويقال لها مسكونية أي: تجمعهم من أنحاء العالم.

القسم الثاني: مجامع ملية: أي خاصة بطائفة دون غيرها.

القسم الثالث: مجامع إقليمية: أي خاصة بإقليم مخصوص دون غيره.

والمهم من هذه المجامع - عندهم - هي العامة، وقد ذكر العلماء بأنه بلغ عددها من القرون الأولى المسيحية إلى سنة ١٨٦٩م. عشرين مجعاً.

الأول: مجمع نيقية (من أعمال استانبول) وعقد سنة ٣٢٥م. وسبق الحديث عنه، وهو أعظمها.

الثاني: المجمع القسطنطيني الأول سنة ٣٨١م؛ ويسمى الأول بالنسبة إلى مجامع أخرى انعقدت في قسطنطينية، وقد قرر هذا المجمع ألوهية الروح القدس.

الثالث: مجمع أفسوس الأول سنة ٤٣١م؛ (وهي بلد بشغرتسوس) وقد قرر فيه أن المسيح اجتمع فيه الإنسان والإله، وأن مريم ولدت الاثنين معاً.

الرابع: مجمع خليكدونية سنة ٤٥١م؛ قرروا فيه أن المسيح طبيعتان منفصلتان لا طبيعة واحدة متحدة؛ (خلكدونية: صقع منه المصيصة وطرسوس) مراصد الاطلاع (١/٤٧٨).

مجمع يلعنون طائفة منهم كبيرة^(١) ويكفرونهم ويقولون عنهم: إنهم كذبوا ببعض ما في تلك الكتب، ولم يوجبوا طاعة بعض أمرها. وتلك الطائفة تشهد على الأخرى بأنها كذبت ببعض ما فيها. ثم فرقهم الثلاثة المشهورة النسطورية، والملكية، واليعقوبية^(٢)، كل طائفة تكفر الأخرى وتلعنها وتشهد عليها أنها مكذبة ببعض^(٣) ما في النبوات غير موجبة لطاعة بعض ما فيها. بل اختلافهم في نفس التوحيد والرسالة، فزعم كل فريق منهم أن المسيح جاء بما هم عليه. والمسيح — عليه السلام — وجميع الرسل بريئون من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً وبريثون ممن يقول على الله غير الحق أو يقول على الله ما لا يعلم. وبريثون من كل قول باطل يقال على الله — عز وجل — وإن كان قائله مخطئاً لم يعتمد الكذب.

وفي مقالات النصارى من هذه الأنواع ما يطول وصفه. وقد بسط في غير هذا الموضع.

الخامس: المجمع القسطنطيني الثاني سنة ٥٥٣ م.

السادس: المجمع القسطنطيني الثالث سنة ٦٨٠ م.

السابع: المجمع القسطنطيني الرابع سنة ٧٥٤ م.

ثم تلاها مجامع أخرى بلغت عشرين مجمعاً، وكان آخرها سنة ١٨٦٩ م. في رومة وفيه أثبتوا العصمة للبابا.

وستحدث المؤلف — رحمه الله — عن المجمع في الجزء الثالث.

وانظر: إغاثة اللفهان ٢/٢٧١ - ٢٨٤؛ ومحاضرات في النصرانية لأبي زهرة

ص ١٤١ - ١٧٥؛ وسلسلة مقارنة الأديان (المسيحية) ص ١٩٤ - ٢٠٠؛ وكنز

النفائس في اتحاد الكنائس ص ١٠٨؛ والتعصب والتسامح للفضالي ص ٦٩

وما بعدها.

(١) في ك، ط (كثيرة).

(٢) سبق الحديث عن هذه الفرق.

(٣) في س، ك، ط (لبعض).

وإذا عرفت^(١) أن جميع الطوائف: من المسلمين واليهود والنصارى، يشهدون أنه قد وقع في هذه الكتب تحريف وتبديل في معانيها وتفسيرها^(٢) وشرائعها فهذا القدر كاف. وهم من حين بعث محمد - صلى الله عليه وسلم - صار كل من لم يؤمن به كافراً، بخلاف حال النصارى قبل بعث محمد - صلى الله عليه وسلم - فإنه كان فيهم من هو متبع لدين المسيح. والمسلمون - وإن كان فيهم من حُرّف الدين وبدله - فجمهورهم خالفوا هؤلاء، فلا يزال فيهم طائفة ظاهرة على الحق لا يضرهم من خالفهم، وخذلهم حتى تقوم الساعة، بخلاف النصارى، فإنهم كفروا جميعهم، كما كفرت اليهود بتكذيب المسيح.

والمسلمون يثبتون بالدلائل الكثيرة أنهم بدلوا معاني التوراة، والإنجيل، والزبور، وغيرهم من نبوات الأنبياء، وابتدعوا شرعاً لم يأت به المسيح، ولا غيره، ولا يقوله عاقل، مثل زعمهم: أن جميع بني آدم من الأنبياء، والرسل، وغيرهم كانوا في الجحيم في حبس الشيطان، لأجل أن أباهم^(٣) آدم أكل من الشجرة، وأنهم إنما تخلصوا من ذلك لما صلب المسيح^(٤).

(١) في س، ك، ط (عرف).

(٢) في ط (وتفسيرها).

(٣) في أ (أبهم) وصححناه من سائر النسخ.

(٤) صلب المسيح - كما يزعم النصارى - فداء عن الخليقة، من أهم عقائدهم بعد التثليث، فقد زعموا أن العالم من عهد الخطيئة، وهبوط آدم، وبقاء بنيّه من بعده في الدنيا بسبب تلك الخطيئة، لكن الله - بزعمهم - أرسل ابنه وحيداً عيسى؛ ليقرّب آدم من ربه بصلبه فداء عن تلك الخطيئة، وليخلص العالم من ذلك جاء هذا في إنجيل مرقس الإصحاح العاشر/ فقرة ٤٥، وفي إنجيل لوقا الإصحاح التاسع عشر/ فقرة ٥٦؛ وهكذا في سائر الأناجيل، وفي رسالة بولس إلى أهل رومية الإصحاح الثالث/ فقرة ٢٣، فما بعدها.

فإن هذا الكلام لو نقله ناقل عن بعض الأنبياء لقطعنا بكذبه عليهم، فكيف وهذا الكلام ليس منقولاً عندهم عن^(١) أحد من الأنبياء؟ وإنما ينقلونه عن من ليس قوله حجة لازمة، فإن كثيراً من دينهم مأخوذ عن رؤوسهم الذين ليسوا بأنبياء.

فإذا قطعنا بكذب من ينقله عن الأنبياء فكيف إذا لم ينقله^(٢) عنهم؟ وذلك أن^(٣) الأنبياء — عليهم السلام — يخبرون الناس بما تقصر عقولهم عن معرفته، لا بما يعرفون أنه باطل ممتنع، فيخبرونهم

وقد تناول هذه العقيدة الباطلة بالرد كثير من علماء المسلمين، ومنهم من أسلم وقد كان نصرانياً بسبب هذه العقيدة الفاسدة التي لا يقرها عقل، ولا يؤيدها نقل صحيح. ومن أسلم بسببها داود عبد الأحد فقد ذكر في مقدمة كتابه (الإنجيل والصليب) ص ١٢ ط القاهرة ١٣٥١ هـ. إن هذه المسألة من المسائل التي حملته على التفكير في تغيير دينه (النصرانية) وتحوله إلى الإسلام، وتساءل مستغرباً كيف كانت الخطيئة مكتومة عن الأنبياء السابقين، ثم اكتشفتها حادثة الصلب فقال: «إن هذا السر اللاهوتي الذي كان مكتوماً عن كل الأنبياء والصالحين السابقين قد خيل أو كأنما كشف للكنيسة بواقعة صلب المسيح، وأن هوية الأقانيم الثلاثة، وأسرارها التي كان يجهلها أكابر الأنبياء كإبراهيم، وموسى، وداود، وعيسى — عليهم السلام — قد صار من مبادئ معلومات كل غلام مسيحي فضلاً عن القسيسين والرهبان... إلخ ما ذكر راداً على هذه الفرية الباطلة، وقد رد القرآن الكريم هذه القضية، وقرر أولاً أن الله قد تاب على آدم من خطيئته في سورة البقرة: الآية ٣٧، وطه: ١٢١؛ ونفى القرآن أن يكون عيسى قد صلب كما في سورة النساء: الآيتان ١٥٧، ١٥٨، وقرر القرآن أن وزر كل ذنب لا يكون إلا على مقترفه فحسب كما في سورة الأنعام، وسورة النجم: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾، ويقرر كثير من الباحثين أن فكرة الفداء وثنية قديمة تسربت إلى النصرانية مؤخراً، وحيرت هذه الفكرة كثيراً من النصارى فكيف يجمعون بين عدل الله وبين هذه الفكرة؟!.

(١) في ط (من) بدل (عن).

(٢) في ك، ط (ينقل).

(٣) في س (يبين ذلك أن) وجاءت في ك، ط (ذلك فإن الأنبياء).

بمحيرات^(١) العقول لا محالات العقول، وآدم - عليه السلام - وإن كان أكل من الشجرة - فقد تاب الله عليه واجتبه وهداه.

قال - تعالى - :

﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿١٢١﴾ ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿١٢٢﴾﴾.

وقال - تعالى - :

﴿فَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٣﴾﴾.

وليس عند أهل الكتاب في كتبهم ما ينفي توبته وإنما قد يقول قائلهم إنا لا نعلم أنه^(٤) تاب، أو ليس عندنا توبته، وعدم العلم بشيء ليس علماً بعدمه، وعدم وجود الشيء في كتاب من كتب الله لا ينفي أن يكون في كتاب آخر، ففي التوراة ما ليس في الإنجيل. وفيهما^(٥) ما ليس في الزبور، وفي الإنجيل والزبور ما ليس في التوراة، وفي سائر النبوات ما لا يوجد في هذه الكتب، والقرآن لو كان دون التوراة والإنجيل والزبور والنبوات أو كان مثلها لأمكن أن يكون فيه ما ليس فيها. فكيف إذا كان أفضل وأشرف وفيه من العلم أعظم مما في التوراة والإنجيل وقد بين الله - تعالى - فضله عليهما في غير موضع، كقوله - تعالى - :

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانٍ فِي نَفْسِهِ رُغْمًا... ﴿٦﴾﴾.

(١) في أ، س، ك (بمحارات).

(٢) سورة طه: الآيتان ١٢١، ١٢٢.

(٣) سورة البقرة: الآية ٣٧.

(٤) سقطت (أنه) من س، ك.

(٥) في أ (ومنها).

(٦) سورة الزمر: الآية ٢٣.

وقال - تعالى - :

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ (١).

وقال - تعالى - :

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ... ﴾ (٢).

وسواء تاب آدم أولم يتب فكيف يجوز أن يكون رسل الله الذين هم أفضل منه محبوسين في حبس الشيطان في جهنم بذنبه؟ وإبراهيم خليل الرحمن كان أبوه كافراً ولم يؤاخذه الله بذنبه فكيف يجعله (٣) في جهنم في حبس الشيطان بسبب ذنب أبيه الأقصى آدم، مع أنه كان نبياً؟ ونوح - عليه السلام - قد مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى عبادة الله وحده، وأغرق الله أهل الأرض بدعوته وجعل ذريته هم الباقين فكيف يكون في جهنم في حبس الشيطان لأجل ذنب آدم؟

وموسى بن عمران الذي (٤) كلمه الله تكليماً، وأظهر على يديه من البراهين، والآيات ما لم يظهر مثله على يدي المسيح، وقتل نفساً لم يؤمر بقتلها، فغفر الله له ذلك، وله من المنزلة عند الله والكرامة، ما لا يقدر قدره، فكيف يكون في جهنم في حبس الشيطان.

ثم أي مناسبة بين (٥) الصلب الذي هو من أعظم الذنوب، سواء

(١) سورة يوسف: الآية ٣.

(٢) سورة المائدة: الآية ٤٨.

(٣) في ط (يجعله الله).

(٤) سقطت (الذي) من س، ك، ط.

(٥) سقطت (بين) من س.

صليبا المسيح، أو المشبه به، وبين تخليص هؤلاء من الشيطان؟ فإن الشيطان إن فعل ذلك بالذرية كان ظالماً معتدياً والله - عز وجل - قادر على منعه من ظلمهم، بل وعلى عقوبته إذا لم ينته عن ظلمهم.

* فلماذا أخرج من ظلمهم*^(١) إلى زمن المسيح؟ وهو - سبحانه - ولي المؤمنين وناصرهم، ومؤيدهم، وهم رسله الذين نصرهم على من عاداهم، بل أهلك أعداءهم الذين هم جند الشيطان. فكيف لا يمنع الشيطان بعد موتهم أن يظلمهم، ويجعل أرواحهم في جهنم؟ هذا إن قدر أن الشيطان كان قادراً على ذلك، وكيف يجوز أن يجعل الشيطان بعد موت أنبيائه، وأوليائه، وسقوط التكليف^(٢) عنهم، واستحقاقهم كرامته، وإحسانه، وجنته بحكم وعده، ومقتضى حكمته، فجعله^(٣) مسلطاً على حبسهم في جهنم؟!.

وإن قالوا: الرب - عز وجل - ما كان يقدر على تخليصهم من الشيطان، مع علمه بأنه^(٤) ظالم معتد عليهم بعد الموت إلا بأن يحتال عليه بإخفاء^(٥) نفسه ليتمكن الشيطان^(٦) منه كما يزعمون - فهذا مع ما فيه من الكفر العظيم، وجعل الرب - سبحانه - عاجزاً. كما جعلوه أولاً ظالماً - فيه من التناقض ما يقتضي عظيم جهلهم الذي جعلوا به الرب جاهلاً، فإنهم يقولون: إنه احتال على الشيطان ليأخذه بعدل، كما احتال الشيطان على آدم بالحية، فاخفى منه لئلا يعلم أنه ناسوت الإله،

(١) سقط ما بين النجمتين من أ وزدناه من سائر النسخ.

(٢) في س، ك (التكلف).

(٣) في ط (وجعله).

(٤) في أ (أنه).

(٥) في أ (باختفاء).

(٦) سقطت كلمة (الشيطان) من ط.

وناسوت الإله لم يعمل خطيئة قط بخلاف غيره .

فلما أراد الشيطان أخذ روحه ليحبسه في جهنم كسائر من مضى ، وهو لم يعمل خطيئة . استحق الشيطان أن يأخذه الرب ، ويخلص الذرية من حبسه .

وهذا تجهيل منهم للرب - سبحانه وتعالى - عما يقولون مع تعجيزه وتظليمه . فإنه إن كان هو سلب الشيطان على بني آدم كما يقولون . فلا فرق بين ناسوت المسيح وغيره ، إذ الجميع بني آدم ، وأيضاً فإذا قدر أن الناسوت يدفع^(١) الشيطان عن نفسه بحق ، فإنهم يقولون : إنه دخل الجحيم ، وأخرج منه ذرية آدم .

فيقال : إن كان تسلط الشيطان على حبسهم في الجحيم بحق لأجل ذنوبهم مع ذنب أبيهم ، لم يجز إخراجهم لأجل سلامة ناسوت المسيح من الذنب ، وإن كانوا مظلومين مع الشيطان ، وجب تخليصهم^(٢) قبل صلب الناسوت ولم يجز تأخير ذلك فليس في مجرد سلامة المسيح من الذنوب ما يوجب سلامة غيره ، وإن قالوا أنه كان بدون تسلطه^(٣) على صلبه عاجزاً عن دفعه ، فهو مع تسلطه على صلبه أعجز وأعجز .

الأصل الثاني الفاسد : الذي بنوا عليه سؤالهم الذي جعلوه من جهة المسلمين وجوابهم ، ظنهم أن المسلمين يقولون : إن هذه الكتب حرفت ألفاظ جميع النسخ الموجودة منها بعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم .

(١) في س ، ك ، ط (دفع) .

(٢) في أ ، س (تخلصهم) .

(٣) في ك ، ط (تسلطهم) .

وهذا مما لا يقوله المسلمون، ولكن قد يقول بعضهم: إنه حرف بعد مبعث محمد - صَلَّى الله عليه وسلَّم - ، ألفاظ بعض^(١) النسخ، فإن الجمهور الذين يقولون: إن بعض ألفاظها حرفت، منهم من يقول: كان هذا قبل المبعث^(٢).

ومنهم من يقول: كان بعده، ومنهم من يثبت الأمرين أو يجوزهما، ولكن لا يقول^(٣): إنه حرفت ألفاظ جميع النسخ الموجودة في مشارق الأرض ومغاربها، كما حكاه هذا الحاكي عنهم، ولكن علماء المسلمين وعلماء أهل الكتاب متفقون على وقوع^(٤) التحريف في المعاني والتفسير.

وإن كانت كل طائفة تزعم أن الأخرى هي التي حرفت المعاني. وأما ألفاظ الكتب، فقد ذهبت طائفة من علماء المسلمين إلى أن ألفاظها لم تبدل، كما يقول ذلك من يقوله من أهل الكتاب. وذهب كثير من علماء المسلمين وأهل الكتاب إلى أنه بدل بعض ألفاظها.

وهذا مشهور عند^(٥) كثير من علماء المسلمين، وقاله أيضاً كثير من علماء أهل الكتاب.

حتى في صلب المسيح، ذهبت طائفة من النصارى إلى أنه إنما

(١) في ك ط (بعد) وهو تحريف.

(٢) في س، ك، ط (المبعث).

(٣) في س، ك، ط (لا يقولون).

(٤) سقطت (وقوع) من أ وزدناها من سائر النسخ.

(٥) في س، ك، ط (عن).

صلب الذي شبه^(١) بالمسيح، كما أخبر به القرآن^(٢)، وإن الذين أخبروا بصلبه كانوا قد^(٣) أخبروا بظاهر الأمر، فإنه لما ألقى شبهه على المصلوب ظنوا أنه هو المسيح، * أو تعمّدوا الكذب *^(٤) ثم هؤلاء منهم الذين يقولون: إن في ألفاظ الكتب ما هو مبدل.

و^(٥) فيهم من يجعل المبدل من التوراة والإنجيل كثيراً منهما. وربما جعل بعضهم المبدل أكثرهما، لا سيما الإنجيل، فإن الطعن فيه أكثر وأظهر منه في التوراة^(٦).

ومن هؤلاء من يسرف حتى يقول: أنه لا حرمة لشيء منهما، بل يجوز الاستنجاء بهما.

ومنهم من يقول: الذي بدلت ألفاظه قليل منهما، وهذا أظهر. والتبديل في الإنجيل أظهر، بل كثير من الناس يقول: هذه الأناجيل ليس فيها من كلام الله إلا القليل. والإنجيل الذي هو كلام الله ليس هو هذه الأناجيل^(٧).

(١) في س (يشبه).

(٢) في ك، ط (في القرآن).

(٣) سقطت (قد) من أ، س وزدناها من ك، ط.

(٤) سقط ما بين النجمتين من أ وزدناه من سائر النسخ.

(٥) سقطت الواو من أ، س، ك وألحقتهما من ط.

(٦) هنا جملة (أو تعمّدوا الكذب) في ط وهي زائدة في هذا الموضع.

(٧) التحريف في كتب اليهود والنصارى على ثلاثة أنواع:

١ - تحريف لفظي: بتبديل ألفاظ التوراة والإنجيل.

٢ - تحريف بالزيادة في نصوص التوراة والإنجيل.

٣ - تحريف بالنقصان فيها.

وكيفية التغيير والتحريف: أنهم يلبسون الحق بالباطل، بحيث لا يتميز عنه، وتارة =

والصحيح أن هذه التوراة الذي بأيدي أهل الكتاب، فيها^(١) ما هو دعوة أهل الكتاب
حكم الله، وإن كان قد بدل وغير بعض ألفاظهما كقوله^(٢) - تعالى - :
كتبهم من الألفاظ

﴿يَتَأْتِيهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ
قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ
لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ﴾^(٣).

يخفون الحق ويكتمونه، ولا يبينونه للناس، وتارة يلونون ألسنتهم بالكتاب ليحسبه
السامع منه وليس منه، وتارة يحرفون الكلم عن مواضعه في ألفاظه وفي معانيه،
وتارة يحرفون الكلم من بعد مواضعه، وهو إزالة الكلمة المتزلة، ووضع كلمة أخرى
مكانها تحتل معنيين: المعنى الأصلي، والمعنى الذي يريده، ومثال هذا النوع:
«أقيم لهم نبياً من بني إخوانهم» تثنية إصحاح ١٨/١٨ فأزالوا كلمة (بني) وجعلوا
مكانها (وسط) والأخيرة تحتل أن يكون النبي من بني إسماعيل لأنه أخ لإسحاق
أو من بني إسرائيل لأنهم إخوة بعضهم لبعض. وصدق الله العظيم إذ يقول في
محكم كتابه: ﴿... والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً من الذين
هادوا يحرفوا الكلم عن مواضعه...﴾ الآيةان: ٤٥، ٤٦ من سورة النساء.

وقد ساق الشيخ... رحمة الله الهندي في كتابه إظهار الحق ص ٢٠٦ فما
بعدها أمثلة كثيرة لأنواع التحريف، ويأتي في الجواب الصحيح الجزء الثاني منه
تفصيل لهذه القضية، وزيادة بيان وانظر: هداية الحيارى لابن القيم بتحقيق الدكتور
السقا ص ١٠٥؛ ومقامع هامات الصلبيان للخزرجي ص ١٠٩ (بتحقيق الدكتور
محمد شامة) حيث ساق أقوال المفسرين في هذه المسألة، ص ٢٦٠. وكتاب
المسيح في مصادر العقائد المسيحية للمهندس أحمد عبد الوهاب ص ٧٧ حديث
عن الاختلاف الكثير في الأنجيل؛ وكتاب شفاء الغليل فيما وقع في التوراة
والإنجيل من التبديل للجويني * هذا كتاب كله في هذه القضية * وهو كتاب مفيد
فيها جداً بتحقيق الدكتور السقا (ط ١ دار الشباب بمصر).

(١) ك، ط (فيه).

(٢) في ك، ط (لقوله).

(٣) سورة المائدة: الآية ٤١.

إلى قوله:

﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّورَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ...﴾^(١).

فعلم أن التوراة التي كانت موجودة بعد خراب بيت المقدس،
و^(٢) بعد مجيء بختنصر^(٣) وبعد مبعث المسيح، وبعد مبعث محمد
— صلى الله عليه وسلم —، فيها حكم الله.

والتوراة التي كانت عند يهود المدينة على عهد رسول الله
— صلى الله عليه وسلم — وإن قيل: أنه غير بعض ألفاظها بعد مبعثه،
فلا نشهد على كل نسخة في العالم بمثل ذلك، فإن هذا غير معلوم لنا،
وهو أيضاً متعذر، بل يمكن تغيير كثير من النسخ، وإشاعة ذلك عند
الأتباع حتى لا يوجد عند كثير من الناس إلا ما غير بعد ذلك، ومع هذا
فكثير^(٤) من نسخ التوراة والإنجيل متفقة في الغالب، إنما تختلف^(٥) في
اليسير من ألفاظها، فتبديل ألفاظ اليسير من النسخ بعد مبعث الرسول
ممكن لا يمكن أحد^(٦) أن يجزم بنفيه، ولا يقدر أحد من اليهود
والنصارى أن يشهد بأن كل نسخة في العالم بالكتابين متفقة الألفاظ،
إذ هذا لا سبيل لأحد إلى علمه والاختلاف اليسير في ألفاظ هذه الكتب

(١) سورة المائدة: الآية ٤٣.

(٢) سقطت الواو من ك، ط.

(٣) سبقت ترجمة بختنصر، والإشارة إلى غزوه بيت المقدس، وقد كان خراب بيت المقدس سنة عشرين من ولاية بختنصر؛ سنة ٤٥٣ مضت من عمارة بيت المقدس واستمر خراباً سبعين سنة.

(٤) في أ، س (التي) بدل (فكثير).

(٥) في ك، ط (يختلف) بالمشاة التحتية.

(٦) في ط (أحداً).

موجود في الكثير من النسخ، كما قد تختلف نسخ بعض كتب^(١) الحديث، أو تبدل بعض ألفاظ بعض النسخ، وهذا خلاف^(٢) القرآن المجيد الذي حفظت ألفاظه في الصدور، بالنقل^(٣) المتواتر لا يحتاج أن يحفظ في كتاب كما قال - تعالى - :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾^(٤).

وذلك أن اليهود قبل النبي - صلى الله عليه وسلم - وعلى عهده، وبعده منتشرون في مشارق الأرض ومغاربها، وعندهم نسخ كثيرة^(٥) من التوراة.

وكذلك النصارى عندهم نسخ كثيرة من التوراة^(٦)، ولم يتمكن أحد من جمع هذه النسخ وتبديلها، ولو كان ذلك^(٧) ممكناً لكان هذا^(٨) من الوقائع العظيمة التي تتوفر الدواعي على نقلها، وكذلك في الإنجيل قال - تعالى - :

﴿ وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ فِيهِ... ﴾^(٩).

فعلم أن في هذا الإنجيل حكماً أنزله الله - تعالى - ، لكن

(١) في أ (كتب أهل الحديث).

(٢) في س، ك، ط (بخلاف).

(٣) في س، ك، ط (بالنقل).

(٤) سورة الحجر: الآية ٩.

(٥) في أ، س (كثير).

(٦) في أ، س (بالتوراة) وصححناه من سائر النسخ.

(٧) في ك، ط (هذا).

(٨) في ك، ط (ذلك).

(٩) سورة المائدة: الآية ٤٧.

الحكم هو من باب الأمر والنهي . وذلك لا يمنع^(١) أن يكون التغيير في باب الإخبار، وهو الذي وقع فيه التبديل لفظاً، وأما الأحكام التي في التوراة، فما يكاد أحد يدعي التبديل في ألفاظها.

وقد ذكر طائفة من العلماء أن قوله - تعالى - في الإنجيل: ﴿وَلِيُخَكِّمَ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ فِيهِ﴾، هو خطاب لمن كان على دين المسيح قبل النسخ والتبديل، لا الموجودين بعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم.

وهذا القول يناسب مناسبة ظاهرة لقراءة من قرأ: ﴿وَلِيُخَكِّمَ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ﴾ بكسر اللام كقراءة حمزة^(٢) فإن هذه لام كي، فإنه - تعالى - قال^(٣):

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلِيُخَكِّمَ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ فِيهِ ۖ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

(١) في أ (يمتنع).

(٢) حمزة بن حبيب الزيات، التيمي، أحد القراء السبعة ولد سنة ٨٠هـ، كان عالماً بالقراءات، انعقد الإجماع على تلقي قراءته بالقبول والإنكار على من تكلم فيها كما قال الذهبي ونقل عن سفيان الثوري قوله: ما قرأ حمزة حرفاً إلا بأثر. مات - رحمه الله - سنة ١٥٦هـ. وقيل ١٥٨هـ.

انظر: ميزان الاعتدال للذهبي ٦٠٥/١ (٢٢٩٧)؛ وتهذيب التهذيب ٢٧/٣؛ والتبصرة في القراءات السبع ص ١٤؛ والأعلام للزركلي ٢٧٧/٢.

(٣) في س (فإنه قال تعالى).

(٤) سورة المائدة: الآيتان ٤٦، ٤٧.

فإذا قرئ^(١) «وَلِيَحْكُمَ»، كان المعنى وأتينا الإنجيل لكذا وكذا، وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه، وهذا يوجب الحكم بما أنزل الله في الإنجيل الحق، لا^(٢) يدل على أن الإنجيل الموجود في زمن الرسول هو ذلك الإنجيل.

وأما قراءة الجمهور^(٣): «وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ» فهو أمر بذلك. فمن العلماء من قال: هو أمر لمن كان الإنجيل الحق موجوداً عندهم أن يحكموا بما أنزل الله فيه، وعلى هذا يكون قوله - تعالى - : «وَلِيَحْكُمَ» أمر لهم قبل مبعث محمد - صلى الله عليه وسلم - . وقال آخرون: لا حاجة إلى هذا التكلف^(٤)، فإن القول في الإنجيل كالقول في التوراة. وقد قال - تعالى - :

﴿يَتَأَيَّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنَكَ الَّذِينَ يُسَدِّعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ

(١) في ك، ط (قرأ).

(٢) في ط (ولا).

(٣) قرأ حمزة (وليحكم) بكسر اللام، وفتح الميم، وقرأ الباقون بإسكان اللام والميم، وعلى القراءة الأولى ينصب الفعل (يحكم) على أن اللام لام كي وعلى قراءة الجمهور، اللام لام الأمر، والكلام مستأنف، والاختيار الجزم لأن الجماعة عليه، ولأن ما بعده من الوعيد والتهديد يدل على أنه إلزام من الله لأهل الإنجيل.

انظر: التبصرة في القراءات السبع لمكي بن أبي طالب ص ٣١٦؛ وتفسير ابن جرير الطبري ١٧١/٦ (مجلد ٤)؛ وفتح القدير للشوكاني ٤٧/٢؛ والتيسر في القراءات السبع لأبي عمرو الداني ص ٩٩؛ والغاية في القراءات العشر للنيسابوري ص ١٤٠.

(٤) في أ، ك، ط (التكليف)، وما أثبتناه من س هو الأصح.

مَوَاضِعُهُ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تَأْتِهِ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ
 اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ
 يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾
 سَمِعُوكَ لِلْكَذِبِ أَكْثَرُونَ لِلْحَقِّ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ
 عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ
 بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّورَةُ فِيهَا
 حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا
 أَنْزَلْنَا التَّورَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا
 وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً
 فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَآخِشُوا اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ
 بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ
 وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأَذْنَ بِالْأَذْنِ وَاللِّسْنَ بِاللِّسَنِ
 وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ
 بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَفَقِينَا عَلَى أَنْتَرِهِمْ يَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا
 لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّورَةِ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ . . . ﴿٤٦﴾

فهذا قد صرح بأن أولئك الذين تحاكموا^(٢) إلى النبي - صلى الله
 عليه وسلم - من اليهود عندهم التوراة فيها^(٣) حكم الله، ثم تولوا عن
 حكم الله وقال بعد ذلك: (. . .) وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله
 فيه. . .)، وهذه^(٤) لام الأمر، وهو أمر من الله أنزله على لسان محمد،
 وأمر من مات قبل هذا الخطاب ممتنع، وإنما يكون الأمر أمراً لمن آمن

(١) سورة المائدة: الآيات ٤١ - ٤٦ . (٣) في ك (منها) .

(٢) في س (بأن أولئك يحاكمون) . (٤) في ك (وهذا) .

به من بعد خطاب الله لعباده بالأمر، فعلم أنه أمر لمن كان موجوداً حينئذٍ أن يحكموا بما أنزل الله في الإنجيل، والله أنزل في الإنجيل الأمر باتباع محمد - صَلَّى الله عليه وسلّم -^(١)، كما أمر به في التوراة، فليحكموا^(٢) بما أنزل الله في الإنجيل مما لم ينسخه محمد - صَلَّى الله عليه وسلّم -، كما أمر أهل التوراة أن يحكموا بما أنزله مما لم ينسخه المسيح، وما نسخه فقد أمروا فيها^(٣) باتباع المسيح، وقد أمروا في الإنجيل باتباع محمد - صَلَّى الله عليه وسلّم -؛ فمن^(٤) حكم من أهل الكتاب - بعد مبعث محمد - - صَلَّى الله عليه وسلّم - بما أنزل^(٥) الله في التوراة والإنجيل لم^(٦) يحكم بما يخالف حكم محمد - صَلَّى الله عليه وسلّم -؛ إذ كانوا مأمورين في التوراة والإنجيل باتباع محمد - صَلَّى الله عليه وسلّم - كما قال - تعالى - :

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الَّذِي يَحْدُثُ لَهُمْ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّورَةِ وَالْإِنْجِيلِ...﴾^(٧).

وقال - تعالى - :

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ...﴾^(٨).

(١) سقطت جملة (- صَلَّى الله عليه وسلّم -) من أ، س، ك.

(٢) في أ، س (فيحكموا).

(٣) في ط (فيه).

(٦) في ط (ولم).

(٧) سورة الأعراف: الآية ١٥٧.

(٤) في ك، ط (لمن).

(٨) سورة المائدة: الآية ٤٨.

(٥) في ط (أنزله).

فجعل القرآن مهيمناً. والمهيمن: الشاهد الحاكم المؤتمن، فهو يحكم بما فيها مما لم ينسخه الله ويشهد بتصديق ما فيها مما لم يبدل ولهذا قال:

﴿... لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا...﴾^(١).

وقد ثبت في الصحاح والسنن والمسند^(٢) هذا. ففي الصحيحين عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - أنه قال^(٣): «إن اليهود جاءوا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فذكروا له أن امرأة منهم ورجلاً زنيا فقال لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟». قالوا: نفضحهم ويجلدون. فقال عبد الله بن سلام: كذبتُم. إن فيها الرجم. فأتوا بالتوراة، فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها. فقال له عبد الله بن سلام^(٤): ارفع يدك، فرفع يده، فإذا فيها آية الرجم. فقالوا: صدق يا محمد. فأمر بهما النبي - صلى الله عليه وسلم - ، فرجما^(٥).

(١) سورة المائدة: الآية ٤٨.

(٢) في ك، ط (والمسانيد) وهي جمع مسند وتجمع على الوجهين مساند، ومسانيد كما جاء في القاموس المحيط ٣٠٣/١ (فصل السين باب الدال).

(٣) سقطت (أنه قال) من أ وزدناها من سائر النسخ.

(٤) سقط (ابن سلام) من ط.

(٥) رواه البخاري في كتاب الحدود، باب أحكام أهل الذمة ٣٠/٨ وفيه: «فرجما فرأيت الرجل يحيي على المرأة يقيها الحجارة» * ويحيي: يكب *.

ورواه بنحوه في كتاب الحدود، باب الرجم في البلاط ٢٢/٨؛ ورواه مسلم في الحدود، باب رجم اليهود وأهل الذمة في الزنا ١٣٢٦/٣ (١٦٩٩) بنحوه.

وأبو داود في الحدود، باب في رجم اليهوديين ٥٩٣/٤ (٤٤٤٦)؛ والترمذي

— مختصراً — في الحدود، باب ما جاء في رجم أهل الكتاب ٤٣/٤ (١٤٣٦)؛ =

وأخرج البخاري عن عبد الله بن عمر أنه قال: أتى رسول الله - صَلَّى الله عليه وسلّم - يهودي ويهودية قد زنيا، فانطلق حتى جاء يهود^(١). فقال: ما تجدون في التوراة على من زنى؟ قالوا: نسود وجوههما، ويطاف بهما. قال: ﴿فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين﴾، قال: فجاءوا بها فقرأوها حتى إذا مروا بآية الرجم وضع الفتى الذي يقرأ يده على آية الرجم، وقرأ ما بين يديها وما وراءها، فقال عبد الله بن سلام وهو مع رسول الله - صَلَّى الله عليه وسلّم - : مره فليرفع يده فرفعها، فإذا تحتها آية الرجم. قالوا: صدق فيها آية الرجم، ولكننا نتكأتمه بيننا، وأن أجبارنا أحدثوا التحميم والتجبية. فأمر رسول الله - صَلَّى الله عليه وسلّم - برجمهما فرجما^(٢).

وأخرج مسلم عن البراء بن عازب - رضي الله عنه - أنه قال: «مر على رسول الله - صَلَّى الله عليه وسلّم - بيهودي محمم مجلود فدعاهم. فقال: هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟ قالوا: نعم. فدعى رجلاً من علمائهم، فقال: أنشدك الله الذي أنزل التوراة على

= وابن ماجه - مختصراً - في الحدود، باب رجم اليهودي واليهودية ٨٥٤/٢ (٢٥٥٦)؛ ومالك في الحدود، باب ما جاء في الرجم ٨١٩/٢؛ وأحمد في المسند ٥/٢، ٦٢ - مختصراً -؛ والدارمي، باب في الحكم بين أهل الكتاب... ١٧٨/٢؛ وفي مسند ابن عمر ص ٣٧ (٥٩).

(١) في ط (يهودي).

(٢) رواه البخاري بنحوه في كتاب التفسير، باب: قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ١٧٠/٥، وليس فيه (وأن أجبارنا أحدثوا التحميم والتجبية). وانظر المواضع السابقة في تخريج الحديث الذي قبله، وبين الحديثين تداخل وتقارب مع اختلاف في الألفاظ لا يضر بالمعنى. والتحميم: تسويد الوجه، والتجبية: نكس الرأس، وسيأتي زيادة بيان.

موسى، أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم^(١)؟ قال: لا، ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك، نجد الرجم، ولكنه كثر في أشرافنا، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، فقلنا: تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع، فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم. فقال: رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه، فأمر به فرجم. فأنزل الله - تعالى - :

﴿يَأْتِيهَا الرِّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ...﴾^(٢).
إلى قوله:

﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ - إِلَى - الظَّالِمُونَ - إِلَى - الْفَاسِقُونَ﴾.
قال: هي في الكفار^(٣) كلها^(٤).

وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه^(٥) أنه قال: «رجم النبي - صلى الله عليه وسلم - رجلاً من أسلم؛ ورجلاً

(١) من قوله (قالوا نعم فدعى رجلاً) إلى هذا الموضع ساقط من س.

(٢) سورة المائدة: الآية ٤١.

(٣) في ط (الكفارة) وهو خطأ.

(٤) رواه مسلم في كتاب الحدود، باب رجم اليهود وأهل الذمة في الزنا ١٣٢٧/٣

(١٧٠٠)؛ ورواه أبو داود في كتاب الحدود، باب في رجم اليهوديين ٥٩٥/٤

حديث رقم (٤٤٤٧)، (٤٤٤٨)؛ وابن ماجه ٨٥٥/٢ (٢٥٥٨) في كتاب الحدود،

باب في رجم اليهودي واليهودية؛ ورواه أحمد في المسند ٢٨٦/٤.

وانظر: لباب النقول للسيوطي ص ٨٨، ٨٩؛ وأسباب النزول للواحدي ص ١٤٥.

(٥) سقطت جملة رضي الله عنه من أ، ك، ط.

وأما السنن ففي سنن أبي داود عن زيد بن أسلم، عن ابن عمر - رضي الله عنهما - أنه قال: «أتى نفر من اليهود فدعوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى القف فأتاهم في بيت المدراس^(٢). فقالوا: يا أبا القاسم إن رجلاً منا زنى بامرأة فاحكم بينهم، فوضعوا لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وسادة فجلس عليها ثم قال: أئتوني التوراة فأتى بها فنزع الوسادة من تحته ووضع التوراة عليها، وقال: آمنت بك وبمن أنزلك. ثم قال: ائتوني بأعلمكم فأتى بشاب، ثم ذكر^(٣) قصة الرجم^(٤)».

(١) رواه مسلم في الحدود، باب رجم اليهود، أهل الذمة، في الزنا ١٣٢٨/٣ وفيه زيادة (وامراته)، والمقصود بها صاحبه التي زنا بها، ولم يرد زوجته، وفي رواية (وامرأة)؛ ورواه أبو داود في الحدود، باب في رجم اليهوديين ٦٠١/٤ (٤٤٥٥)، ولفظه «رجم النبي - صلى الله عليه وسلم - رجلاً من اليهود، وامرأة زنيا». ورواه الدارمي بنحوه في باب الاعتراف بالزنا ١٧٦/٢.

(٢) في ط (المدارس) وهو خطأ. ومدراس اليهود: كنيستهم، والجمع مداريس، مثل مفتاح ومفاتيح. انظر المصباح المنير ٢٦١/١.

والقف: بضم القاف، وتشديد الفاء: اسم وادٍ بالمدينة، قال في مراصد الاطلاع ١١٤/٣ وهو ما ارتفع من الأرض وغلظ، ولم يبلغ أن يكون جبلاً، وهو علم لوادٍ من أودية المدينة.

(٣) في س (خرج) بدل (ذكر).

(٤) رواه أبو داود في كتاب الحدود، باب في رجم اليهوديين ٥٩٧/٤ (٤٤٤٩)، قال الشيخ ناصر الدين الألباني في إرواء الغليل ٩٤/٥: (إسناده حسن، وله شاهد من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال: أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يهودي، ويهودية قد زنيا، وقد أحصنا فسألوه أن يحكم فيهما، فحكم فيهما بالرجم. فرجمهما في قبل المسجد في بني غنم... الحديث).

وأخرجه الحاكم في المستدرک ٣٦٥/٤، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم...

وأخرج أيضاً أبو داود وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : «زنى رجل من اليهود بامرأة فقال بعضهم لبعض : اذهبوا بنا إلى هذا النبي ، فإنه نبي بعث بالتخفيف فإن أفتانا بفتيا دون الرجم قبلناها واحتججنا بها عند الله ، فقلنا : نبي من أنبيائك ، قالوا : فأتوا النبي - صلى الله عليه وسلم - ، وهو جالس في المسجد في أصحابه فقالوا : يا أبا القاسم ما ترى في رجل وامرأة - منهم - زنيا ، فلم يكلمهم كلمة حتى أتى بيت مدراسهم^(١) ، فقام على الباب فقال : أنشدكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى ما تجدون في التوراة على من زنى إذا أحصن؟

قالوا : نحممه ونجبيه^(٢) ، ونجلده - والتجبية : أن يحمل الزانيان على حمار ، ويقابل أقفيتهما ، ويطاف بهما - قال : وسكت شاب منهم ، فلما رآه النبي - صلى الله عليه وسلم - * ساكتاً ، أنشده *^(٣) . فقال : اللهم إذ^(٤) نشدتنا فإننا نجد في التوراة الرجم . فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : فما أول ما ارتخصتم أمر الله؟ قال : زنى ذو قرابة ملك^(٥) من ملوكنا فأخر عنه الرجم ثم زنى رجل في أسرة من الناس

(١) في أ ، ك ، ط (مدراسهم) .

(٢) قال الخطابي : التحميم ، تسويد الوجه بالحمم . والتجبية : مفسر في الحديث ، ويشبه أن يكون أصله الهمز ، وهو يجبا من التجبة : وهو الردع والزجر . . . والتجبية أيضاً أن تنكس رأسه . . . وقد يحتمل أن يكون ذلك من الجبه وهو الاستقبال بالمكروه . وأصل الجبه إصابة الجبهة .

انظر : معالم السنن ٥٩٩/٤ ؛ وتفسير غريب الحديث لابن حجر ص ٧٦ ، ٥٢ .
(٣) مكان ما بين النجمتين بياض في أ ، وسقطت (أنشده) من س ، وفي ك زيادة (أو نحو هذا) بعد أنشده .

(٤) في ط (إذا) .

(٥) في ط (من ملك) .

فأراد رجمه فحال^(١) قومه دونه، وقالوا: لا يرحم صاحبنا حتى تجيء بصاحبك فترجمه فاصطلحوا هذه العقوبة بينهم. قال النبي - صَلَّى الله عليه وسلّم - : فإنّي أحكم بما في التوراة، فأمر بهما فرجما.

قال الزهري: فبلغنا أن هذه الآية نزلت فيهم:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا...﴾^(٢).

فكان^(٣) النبي - صَلَّى الله عليه وسلّم - منهم^(٤).

وأيضاً فقد تحاكموا إليه في القود الذي كان بين بني قريظة والنضير، وكان النضير أشرف من قريظة، فكان إذا قتل بعض إحدى القبيلتين قتيلاً من الأخرى فيقتلونه، ولم يضعفوا الدية، وإذا قتل من القبيلة الشريفة قتلوا به، وأضعفوا الدية.

قال أبو داود سليمان بن الأشعث في سننه: حدثنا محمد بن

(١) في أ (فأحال).

(٢) سورة المائدة: الآية ٤٤.

(٣) في س، ك (كان)، وفي ط (وكان).

(٤) أخرجه أبو داود في الحدود، باب في رجم اليهوديين ٥٩٨/٤ - ٥٩٩ (٤٤٥٠)؛ والبيهقي في السنن الكبرى ٢٤٦/٨، ٢٤٧ من طريق الزهري قال: سمعت رجلاً من مزينة يحدث سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة، به.

قال الخطابي في معالم السنن ٥٩٩/٤: «الحديث عن رجل لا يعرف».

وقال الشيخ الألباني في إرواء الغليل ٩٥/٥: «رجاله ثقات غير الرجل المزني فإنه لم يسم». وللحديث شاهد من حديث ابن عباس، وحديث ابن عمر، وحديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهم.

العلاء^(١)، حدثنا عبيد الله بن موسى^(٢) عن علي بن صالح^(٣)، عن سماك بن حرب^(٤)، عن عكرمة^(٥)، عن ابن عباس قال: «كان قريظة، والنضير، وكان النضير أشرف من قريظة، فكان إذا قتل رجل من قريظة رجلاً من النضير قتل به وإذا قتل رجل من النضير رجلاً من قريظة ودي مائة وسق من تمر.

فلما بعث النبي - صَلَّى الله عليه وسلّم - قتل رجل من النضير رجلاً من قريظة فقالوا: ادفعوه إلينا نقتله. فقالوا: بيننا وبينكم محمد فأتوه فنزلت.

(١) محمد بن العلاء بن كريب الهمداني، الكوفي، الحافظ أحد الأثبات، قال ابن حجر: «ثقة حافظ، مات سنة سبع وأربعين ومائتين للهجرة».

انظر: تقريب التهذيب ١٩٧/٢ (٦٠١)؛ وتهذيب التهذيب ٣٨٥/٩؛ والخلاصة للخزرجي ص ٣٥٥.

(٢) عبيد الله بن موسى بن أبي المختار الكوفي، ثقة من التاسعة مات سنة ٢١٣هـ. انظر: تقريب التهذيب ٥٣٩/١ (١٥١٢)؛ وتهذيب التهذيب ٥٠/٧؛ والخلاصة للخزرجي ص ٢٥٣.

(٣) علي بن صالح الهمداني، الكوفي. وثقه أحمد، وابن معين، والنسائي، وابن حبان، مات سنة ١٥١هـ.

انظر: تقريب التهذيب ٣٨/٢ (٣٥٦)؛ وتهذيب التهذيب ٣٣٢/٧؛ والخلاصة للخزرجي ص ٢٧٤.

(٤) سماك بن حرب بن أوس البكري، الكوفي. قال ابن حجر (سماك): بكسر أوله وتخفيف الميم، صدوق وروايته عن عكرمة خاصة مضطربة، وقد تغير بآخره. مات سنة ١٢٣.

انظر: تقريب التهذيب ٣٣٢/١ (٥١٩)؛ وتهذيب التهذيب ٢٣٢/٤؛ والخلاصة للخزرجي ص ١٥٥.

(٥) عكرمة بن عبد الله، مولى ابن عباس، ثقة ثبت مات سنة ١٠٧هـ. وسبقت ترجمته. انظر: تقريب التهذيب ٣٠/٢ (٢٧٧).

﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ...﴾^(١).

والقسط: النفس بالنفس، ثم نزلت:

﴿أَفَحُكْمَ الْجَهْلِيَّةِ يَبْغُونَ...﴾^(٢).

قال أبو داود: قريظة والنضير من ولد هارون^(٣).

وبسط هذا له موضع آخر، وعلى كل قول، فقد أخبر الله - عز وجل - أن في التوراة الموجودة بعد المسيح - عليه السلام - حكم الله، وأن أهل الكتاب اليهود تركوا حكم الله الذي في التوراة مع كفرهم بالمسيح، وهذا ذم من الله لهم على ما تركوه من حكمه الذي جاء به الكتاب الأول، ولم ينسخه الرسول الثاني.

وهذا من التبديل الثاني الذي ذموا عليه، ودل ذلك على أن في التوراة الموجودة بعد مبعث المسيح حكماً أنزله الله، أمروا أن يحكموا به، وهكذا يمكن أن يقال في الإنجيل.

(١) سورة المائدة: الآية ٤٢.

(٢) سورة المائدة: الآية ٥٠.

(٣) أخرجه أبو داود في أول كتاب الديات، باب النفس بالنفس ٦٣٤/٤ (٤٤٩٤)، بسند رجاله كلهم ثقات ما عدا سماك بن حرب فإنه صدوق.

وأخرجه النسائي في القسامة، باب تأويل قول الله - تعالى -: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ...﴾ الآية ١٨/٨؛ وأخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره عند آية: ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ...﴾ [الآية ٤٢ من سورة المائدة] ١٥٧/٦ (المجلد ٤)؛ ورواه الهيثمي في موارد الظلمات، كتاب التفسير، تفسير سورة المائدة ص ٤٣٠ (١٧٣٨).

وانظر لباب النقول للسيوطي ص ٨٨.

وقال الشوكاني - رحمه الله - في فتح القدير ٤٤/٢: «أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه عن ابن عباس: أن الآيات من المائدة التي قال الله فيها: «فاحكم بينهم...» إلى قوله: «المقسطين» إنما نزلت في الدية من بني النضير، وقريظة... وذكره».

ومعلوم أن الحكم الذي أمروا أن يحكموا به من أحكام التوراة،^(١) لم ينسخه الإنجيل ولا القرآن، فكذلك ما أمروا أن يحكموا به من أحكام الإنجيل هو مما^(٢) لم ينسخه القرآن، وذلك أن الدين الجامع أن يعبد الله وحده، ويأمر بما أمر الله به ويحكم بما أنزله الله في أي كتاب أنزله ولم ينسخه فإنه يحكم به.

ولهذا كان مذهب جماهير السلف والأئمة، أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه^(٣). ومن حكم بالشرع المنسوخ فلم يحكم

(١) سقطت (الواو) من س، ك، ط.

(٢) في أ، س، ك (ما).

(٣) هذا أحد الأصول الأربعة المختلف فيها، الثاني: قول الصحابي إذا لم يظهر له

مخالف، الثالث: الاستحسان، الرابع: الاستصلاح.

وللعلماء في هذا الأصل (شرع من قبلنا...) قولان:

الأول: أنه شرع لنا إذا لم يصرح شرعنا بنسخه، أو خلافه، ومحل ذلك إذا قطع بأنه شرع لمن قبلنا: إما بكتاب، أو بخبر الصادق - صلى الله عليه وسلم - ، أو بنقل متواتر. فأما الرجوع إليهم، أو إلى كتبهم فلا.

وقال بهذا: الشافعي، وأكثر أصحابه. واختاره الحلواني، وأبو الحسن التميمي وغيرهما، والأحناف، والمالكية، وابن عقيل، والمقدسي. وصحح هذه الرواية في المسودة. وذكروا لذلك أدلة كثيرة منها: قوله - تعالى - ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا...﴾ [الآية ٤٤ من سورة المائدة]، قالوا: والشرعية من جملة الهدى فتدخل في عموم قوله - تعالى - ﴿...﴾ فبهذاهم اقتده...، وذكروا لذلك أدلة أخرى ليس هذا موضع بسطها. وهذا هو القول الراجح.

الثاني: أنه لا يكون شرعاً لنا. وذكروا أدلة منها قوله - تعالى - ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً﴾، ويحدث غضب الرسول - صلى الله عليه وسلم - لما رأى نسخة في يد عمر. وقد أجيب عن الآية: بأن المشاركة في بعض الشريعة لا تمنع نسبتها بكمالها إلى المبعوث نظراً إلى الأكثر، والحديث يندفع بكون الشريعة الأولى لم تثبت بطريق موثوق به: بل قد أخبر الله بتحريف أهلها، وتبديلهم، فلذلك أنكر

بما أنزل الله ، كما أن الله أمر أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - أن يحكموا بما أنزل الله في القرآن ، وفيه (١) الناسخ ، والمنسوخ (٢) . فهكذا القول في جنس الكتب المنزلة .

قال - تعالى - :

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَقِمْ وَالْخَيْرَتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأِنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَهْلِیَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصِيبُكُمْ عَلَى مَا أَسْرَأْتُمْ أَنْفُسَكُمْ تَدْمِينَكُمْ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهْوَآءَ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ

النبي - صلى الله عليه وسلم - على عمر كتاب التوراة وصوب معاذاً في إعراضه عن كتبهم . . . إلخ .

انظر في هذه المسألة : روضة الناظر ، وجنة المناظر ص ٨٢ - ٨٤ ، والمدخل إلى مذهب الإمام أحمد ص ٢٨٩ ، والمسودة ص ١٩٣ ، وعلم أصول الفقه لخلاف ص ٩٣ - ٩٤ ، وفتح القدير ٤٦/٢ .

(١) في س (ومنه) .

(٢) في هامش س (وأن عليهم أن يحكموا بالناسخ دون المنسوخ) .

إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ رَبِّكَ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِمْ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٨﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٦٠﴾ .

فقد أمر نبيه محمداً - صلى الله عليه وسلم - ، أن يحكم بما أنزل الله إليه ، وحذره اتباع أهوائهم ، وبين أن المخالف لحكمه هو حكم الجاهلية ، حيث قال - تعالى - :

﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (٦١) .

وأخبره - تعالى - أنه جعل لكل من أهل التوراة ، والإنجيل ، والقرآن ، شرعة ومنهاجاً ، وأمره - تعالى - بالحكم بما أنزل الله أمر عام لأهل التوراة والإنجيل والقرآن ، ليس لأحد في وقت من الأوقات أن يحكم بغير ما أنزل الله ، والذي أنزله الله هو دين واحد اتفقت عليه الكتب والرسول ، وهم متفقون في أصول الدين وقواعد الشريعة ، وإن تنوعوا في الشرعة والمنهاج ، بين ناسخ ومنسوخ ، فهو شبيه (٦٢) بتنوع حال (٦٣) الكتاب الواحد (٦٤) ؛ فإن المسلمين كانوا أولاً مأمورين بالصلاة لبيت المقدس ، ثم أمروا أن يصلوا إلى المسجد الحرام ، وفي كلا (٦٥) الأمرين إنما اتبعوا ما أنزل الله عز وجل .

(١) سورة المائدة: الآيات ٤٨ - ٥٦ . (٦) في ط (وفي كلام) وهو تصحيف .

(٢) سورة المائدة: الآية ٥٠ .

(٣) سقطت (شبيه) من أ .

(٤) سقطت (حال) من أ .

(٥) سقطت (الواحد) من أ ، ك ، ط وأثبتها من س .

وكذلك موسى - عليه السلام - ، كان مأموراً بالسبت محرماً عليه ما حرمه الله في التوراة، وهو متبع ما أنزله الله - عز وجل - ، والمسيح - صلى الله عليه وسلم - (١) أحل بعض ما حرمه الله، في التوراة، وهو متبع ما أنزل الله - عز وجل - فليس في أمر الله لأهل التوراة والإنجيل أن يحكموا بما أنزل الله أمر بما نسخ، كما أنه ليس في أمر أهل القرآن أن يحكموا بما أنزل الله أمر بما نسخ، بل إذا كان ناسخ ومنسوخ (٢) فالذي أنزل الله هو الحكم بالناسخ دون المنسوخ. فمن حكم بالمنسوخ فقد حكم (٣) بغير ما أنزل الله - عز وجل - (٤). ومما يوضح هذا قوله - تعالى - :

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَآبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا ٱلتَّوْرَةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَافِرِينَ ﴾ (٥).

فإن هذا يبين أن هذا أمر لمحمد - صلى الله عليه وسلم - أن يقول لأهل الكتاب الذي بعث إليهم: إنهم ليسوا على شيء، حتى يقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم. فدل ذلك على أنهم (٦) عندهم ما يعلم أنه منزل من الله، وأنهم مأمورون بإقامته إذ كان ذلك مما

(١) في س (عليه السلام).

(٢) في ط (فقد حكم ومنسوخ) وهي زيادة في غير موضعها.

(٣) سقطت جملة (فقد حكم) من ط وزيدت قبل سطر في غير محلها. وهي منفردة عن سائر النسخ بذلك.

(٤) سقطت (عز وجل) من س، ك، ط.

(٥) سورة المائدة: الآية ٦٨.

(٦) في س (أن) بدل (أنهم).

قرره محمد - صلى الله عليه وسلم - ، ولم ينسخه . ومعلوم أن كل ما أمر الله به على لسان نبي ، ولم ينسخه النبي الثاني بل أقره كان الله أمراً به على لسان نبي بعد نبي ، ولم يكن في بعثة الثاني ما يسقط وجوب اتباع ما أمر به النبي الأول ، وقرره النبي الثاني .

ولا يجوز أن يقال: إن الله ينسخ بالكتاب الثاني جميع ما شرعه بالكتاب الأول، وإنما المنسوخ قليل بالنسبة إلى ما اتفقت عليه الكتب، والشرائع .

وأيضاً ففي التوراة والإنجيل ما دل على نبوة^(١) محمد - صلى الله عليه وسلم - ، فإذا حكم أهل التوراة والإنجيل بما أنزل الله فيهما، حكموا بما أوجب عليهم اتباع محمد صلى الله عليه وسلم .

وهذا يدل على أن في التوراة والإنجيل ما يعلمون أن الله أنزله، إذ لا يؤمرون أن يحكموا بما أنزل الله، ولا يعلمون ما أنزل الله، والحكم إنما يكون في الأمر والنهي . والعلم ببعض معاني الكتب لا ينافي عدم العلم ببعضها، وهذا متفق عليه في المعاني، فإن المسلمين واليهود والنصارى متفقون على أن في الكتب الإلهية الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وأنه أرسل إلى الخلق رسلاً من البشر، وأنه أوجب^(٢) العدل وحرّم الظلم والفواحش والشرك، و^(٣) أمثال ذلك من الشرائع

(١) انظر مثلاً: سفر التثنية ١٨/١٨ - ١٩؛ ٢/٣٣؛ وسفر التكوين ٢٠/١٧؛ ١٨/٢١؛ وإنجيل يوحنا ٢٦/١٥ - ٢٧؛ ٧/١٦ - ١٥؛ وانظر: كتاب هداية الحيارى لابن القيم ص ١٠٠ بتحقيق الدكتور أحمد السقا. فقد ساق فيه اثني عشر وجهاً، تدل على أنه - صلى الله عليه وسلم - مذكور في الكتب المنزلة. ثم بسط الكلام فيها، واستدل بأدلة من التوراة والأنجيل في ص ١٠٩ فما بعدها.

(٢) في ط (وجب).

(٣) في ط (أو).

الكلية وأن فيها الوعد بالثواب، والوعيد بالعقاب، بل هم متفقون على الإيمان باليوم الآخر، وقد تنازعوا في بعض معانيها، واختلفوا في تفسير ذلك كما اختلفت اليهود والنصارى في المسيح المبشر به النبوات، هل هو المسيح بن مريم — عليه السلام — أو مسيح آخر ينتظر^(١)؟

(١) سمي عيسى — عليه السلام — مسيحاً؛ لسياحته في الأرض، وقيل: مسيح فعيل من مسح الأرض لأنه كان يمسحها، أي: يقطعها، وقيل: لأنه خرج من بطن أمه ممسوحاً بالدهن، وقيل: لأنه كان أمسح الرجلين، ليس لرجله أخمص، وقيل: لأنه كان لا يمسح ذا عاهة إلا برأه، وقيل: المسيح الصديق. ويرجع الدكتور محمد مرجان — في كتابه المسيح إنسان أم إله — هذا اللقب إلى الشعائر التي درجت عليها اليهودية، منذ أبيهم الأول يعقوب — عليه السلام — حيث اعتبر المسح بالزيت المقدس من أعظم شعائر التقديس، والتكريم للناس، والأماكن... ولا يمسح بالزيت المقدس سوى الكهنة، والملوك، والأنبياء لذلك سمو هؤلاء مسحاء الله، أي: المختارين، والمباركين من الله.

والمسلمون يؤمنون بالمسيح الصادق الذي جاء من عند الله بالهدى ودين الحق، والذي بشر بمحمد — صلى الله عليه وسلم — كما ورد في سورة الصف: ﴿وَإِذ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ...﴾ الآية. وعيسى — عليه السلام — عبد الله وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء، والنصارى تؤمن بمسيح دعا إلى عبادة نفسه وأمه، وأنه ثالث ثلاثة، وأنه ابن الله، وهذا هو أخو المسيح الكذاب لو كان له وجود، فإن المسيح الكذاب يزعم أنه الله، والنصارى في الحقيقة أتباع هذا المسيح. كما أن اليهود إنما ينتظرون خروجه، وهم يزعمون أنهم ينتظرون النبي الذي بشروا به، فعوضهم الشيطان بعد مجيئه من الإيمان به انتظاراً للمسيح الدجال كما قال ابن القيم — رحمه الله —، وهكذا كل من أعرض عن الحق يعوض عنه بالباطل.

انظر: تفسير غريب القرآن العزيز مخطوط للسجستاني المتوفى سنة ٣٣٠هـ/ باب الميم مخطوط بجامعة الإمام؛ وتفسير الطبري ٢٤/٦ (مجلد ٤)؛ وتفسير ابن كثير ٣٦٣/١؛ وهداية الحيارى ص ١٣٥، ١٣٦؛ وفتح الباري، كتاب الأنبياء ٣٤٠/٦؛ وكتاب المسيح إنسان أم إله ص ٨ — ٩، للدكتور محمد مجدي مرجان؛ وكتاب سيرة المسيح للدكتور جورج فورد، إصدار كنيسة قصر الدويارة ص ١٧.

والمسلمون يعلمون أن الصواب في هذا مع النصارى، لكن لا يوافقونهم^(١) على ما أحدثوا فيه من الإفك والشرك.

وكذلك يقال إذا بدل قليل من ألفاظها الخيرية لم يمنع ذلك أن يكون أكثر ألفاظها لم يبدل، لا سيما إذا كان في نفس الكتاب ما يدل على المبدل. وقد يقال أن ما بدل من ألفاظ التوراة والإنجيل ففي نفس التوراة والإنجيل ما يدل على تبديله، فهذا يحصل الجواب عن شبهة من يقول: إنه لم يبدل شيء من ألفاظها، فإنهم يقولون: إذا كان التبديل قد وقع في ألفاظ التوراة والإنجيل قبل مبعث محمد - صلى الله عليه وسلم - لم يعلم الحق من الباطل، فسقط الاحتجاج بهما ووجوب العمل بهما على أهل الكتاب، فلا يذمون حينئذ على ترك اتباعهما.

والقرآن قد ذمهم على ترك الحكم بما فيهما^(٢)، واستشهد بهما في مواضع.

وجواب ذلك أن ما وقع من التبديل قليل والأكثر لم يبدل، والذي لم يبدل فيه ألفاظ صريحة تبين بها المقصود من^(٣) غلط ما خالفها ولها شواهد ونظائر متعددة، يصدق بعضها بعضاً، بخلاف المبدل فإنه ألفاظ قليلة، وسائر نصوص الكتب يناقضها، وصار هذا بمنزلة كتب الحديث المنقولة عن النبي - صلى الله عليه وسلم -، فإنه إذا وقع في سنن أبي داود والترمذي أو غيرهما أحاديث قليلة ضعيفة، كان في الأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - ما يبين ضعف تلك.

(١) في أ (يوافقهم).

(٢) في ط (فيها).

(٣) في س، ك، ط (صريحة بينة بالمقصود تبين غلط).

بل^(١) وكذلك صحيح مسلم فيه ألفاظ قليلة غلط، وفي نفس الأحاديث الصحيحة مع القرآن ما يبين غلطها، مثل ما رُوي أن الله خلق التربة يوم السبت وجعل خلق المخلوقات في الأيام السبعة^(٢)، فإن^(٣) هذا الحديث قد بين أئمة الحديث كيحيى بن معين^(٤) وعبد الرحمن بن

(١) شطب على (بل) في س.

(٢) رواه مسلم من حديث أبي هريرة في كتاب صفات المنافقين، وأحكامهم، باب ابتداء الخلق، وخلق آدم عليه السلام ٢١٤٩/٤ (٢٧)، ولفظه عن أبي هريرة، قال: أخذ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بيدي فقال: «خلق الله - عز وجل - التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس وخلق آدم - عليه السلام - بعد العصر من يوم الجمعة. في آخر الخلق، في آخر ساعة من ساعات الجمعة. فيما بين العصر إلى الليل».

ورواه أحمد في مسند أبي هريرة ٣٢٧/٢

وسياتي الكلام عليه بعد قليل.

(٣) في أ (فلذا) وصونه من سائر النسخ.

(٤) يحيى بن معين بن عون، أبوزكريا البغدادي. الحافظ المشهور، كان إماماً عالماً، حافظاً، متقناً. ولد بقرية (نقيا) قرب الأنبار سنة ١٥٨ هـ. وكان أبوه على خراج الري فخلف له ثروة كبيرة فأنفقها في طلب الحديث. روى عنه كبار أئمة الحديث منهم: البخاري، ومسلم، وأبو داود، وكان بينه وبين الإمام أحمد صحبة. قال الذهبي - جاء عنه أنه قال: كتبت بيدي هذه ستمائة ألف حديث، وقال أحمد: كل حديث لا يعرفه ابن معين فليس بحديث، وقال ابن حجر: إمام الجرح والتعديل. من مؤلفاته: التاريخ والعلل - مطبوع في أربعة مجلدات، ومعرفة الرجال، وغيرها مات - رحمه الله - بالمدينة سنة ٢٣٣ هـ.

انظر في ترجمته: وفيات الأعيان ١٣٩/٦ (٧٩١) ؛ والعبر ١/١٥ ؛ وتاريخ بغداد ١٧٧/١٤ - ١٨٧ (٧٤٨٤) ؛ وتذكرة الحفاظ ٢/٢٩ ؛ وشذرات الذهب ٢/٧٩ ؛ وتهذيب التهذيب ١١/٢٨٠ (٥٦١) ؛ ومرآة الجنان وعبرة اليقظان ٢/١٠٨ ؛ والأعلام ١٧٢/٨.

مهدي^(١)، والبخاري^(٢) وغيرهم أنه غلط، وأنه ليس في كلام النبي
— صلى الله عليه وسلم —، بل صرح البخاري في تاريخه الكبير أنه من
كلام كعب الأحبار^(٣)، كما قد بسط في موضعه^(٤). والقرآن يدل على

(١) عبد الرحمن بن مهدي البصري اللؤلؤي، أبو سعيد. من كبار حفاظ الحديث، ولد
بالبصرة سنة ١٣٥ هـ. قال ابن حجر: حافظ، إمام في العلم. روى عنه خلق كثير،
وثقه ابن المدني، وابن سعد، والعجلي، وابن حبان، وغيرهم.
وقال الشافعي: لا أعرف له نظيراً في الدنيا. وقال ابن كثير: من سادة العلماء في
الحديث، والفقه، وأسماء الرجال، له تصانيف في الحديث. مات — رحمه الله —
سنة ١٩٨ هـ.

انظر: تاريخ بغداد ١٠/٢٤٠؛ والبداية والنهاية ١٠/٢٤٤؛ وتهذيب التهذيب
٢٧٩/٦ — ٢٨١؛ والأعلام ٣/٢٣٩.

(٢) أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي (بالولاء) البخاري. نسبة إلى بخارى من
أعظم مدن ما وراء النهر. ولد سنة ١٩٤ هـ. ثم رحل في طلب العلم إلى بلدان
كثيرة. وسمع من نحو ألف شيخ فغدا حافظاً، إماماً، من أوعية العلم. صنف كتابه
الصحيح من ستمائة ألف حديث، وهو أصبح الكتب بعد كتاب الله — عز وجل —.
وله كتاب التاريخ الكبير، والضعفاء في رجال الحديث، وخلق أفعال العباد، والأدب
المفرد، وغيرها مات — رحمه الله — سنة ٢٥٦ هـ.

انظر: تذكرة الحفاظ ٢/٥٥٥ (٥٧٨)؛ ووفيات الأعيان ٤/١٨٨ — ١٩١؛ وتهذيب
التهذيب ٩/٤٧؛ وتهذيب الأسماء واللغات ١/٦٧ (وقد ذكر فيه أن عدد الأحاديث
المسندة في صحيح البخاري (٧٢٧٥) بالمكررة، ويحذفها (نحو أربعة آلاف)؛
وانظر تاريخ بغداد ٢/٤ — ٣٦؛ والعبر ٢/١٢ — ١٣؛ ومروءة الجنان ٢/١٦٧؛
والأعلام ٦/٢٥٩.

(٣) هو كعب بن ماتع بن ذي هجن الحميري. أبو إسحاق، تابعي من الطبقة الأولى،
كان في الجاهلية من كبار علماء اليهود في اليمن، وأسلم في زمن أبي بكر، وقدم
المدينة في زمن عمر فأخذ عنه الصحابة وغيرهم كثيراً من أخبار الأمم الغابرة. وأخذ
هو الكتاب والسنة عن الصحابة. خرج إلى الشام فسكن حمص، وتوفي بها سنة
٣٢ هـ.

انظر: تذكرة الحفاظ ١/٥٢ (٣٣)؛ والإصابة ٣/٢٩٧ (٧٤٩٨)؛ والنجوم الزاهرة
١/٩٠؛ والأعلام ٥/٢٢٨.

(٤) علله الإمام البخاري في التاريخ الكبير: القسم الأول ١/٤١٣ (١٣١٧) باب الخاء =

غلط هذا، ويبين^(١) أن الخلق^(٢) في ستة أيام، وثبت في الصحيح أن آخر الخلق كان يوم الجمعة، فيكون أول الخلق يوم الأحد.

وكذلك ما رُوي أنه - صَلَّى الله عليه وسلّم - ، صلى الكسوف

وقال: «قال بعضهم عن أبي هريرة، عن كعب الأحبار، وهو أصح». قال المناوي في فيض القدير ٤٤٧/٣ (٣٩٣٠): «قال الزركشي: أخرجه مسلم، وهو من غرائب، وقد تكلم فيه ابن المديني، والبخاري، وغيرهما من الحفاظ، وجعلوه من كلام كعب الأحبار، وأن أبا هريرة إنما سمعه منه لكن اشتبه على بعض الرواة فجعله مرفوعاً».

وانظر كلام البيهقي في: الأسماء والصفات ص ٣٧٣، ٣٨٤؛ وكلام ابن كثير في تفسيره ٢/٢٢٠ الآية ٥٤ من سورة الأعراف؛ ٣/٤٥٧ الآية ٤ من سورة السجدة؛ ٤/٩٤ الآيات ٩ - ١٢ من سورة فصلت؛ والجامع الصغير للسيوطي ١/٦٠٦ (٣٩٣٠)؛ والمقاصد الحسنة ص ٢٠٠ (٤٤١)؛ والأنوار الكاشفة للمعلمي ص ١٨٨ - ١٩٣؛ وكشف الخفاء ومزيل الإلباس ١/٤٥٤ (١٢١٤)؛ وأسنى المطالب ص ١٣٦؛ ويسط الكلام عليه شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ١٨/١٨ - ١٩ وابن القيم في المنار المنيف ص ٨٤ (١٥٣)، حيث علل بقوله: «إن الله أخبر أنه خلق السماوات والأرض، وما بينهما في ستة أيام، وهذا الحديث يقتضي أن مدة التخليق سبعة والله - تعالى - أعلم». وقد أحصى الشيخ عبد الفتاح أبو غدة المواضع التي ورد فيها التحديد بستة أيام في تعليق له في المنار المنيف ص ٨٦ وذكر أنها في سورة الأعراف الآية ٥٤؛ ويونس: ٣؛ وهود: ٧؛ والفرقان: ٥٩؛ والسجدة: ٤؛ وق: ٣٨؛ والحديد: ٤، «هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها...» الآية، ثم نقل عن الحافظ عبد القادر القرشي قوله: «اتفق الناس على أن يوم السبت لم يقع فيه خلق، وأن ابتداء الخلق يوم الأحد».

قلت: ولولا الإطالة لنقلت كلام شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ١٨/١٨ - ١٩ فهو كلام جيد، ومفيد وفيه إيضاح وبيان لعله السند، وما حصل فيه من وهم وخطأ.

(١) في أ، ك، ط ويين.

(٢) في س (الخلق كان).

بركوعين أو ثلاثة^(١).

فإن الثابت المتواتر عن النبي - صلى الله عليه وسلم - ، في الصحيحين ، وغيرهما من حديث عائشة ، وابن عباس ، وعبد الله بن عمرو ، وغيرهم أنه «صلى كل ركعة بركوعين»^(٢) ولهذا لم يخرج

(١) روى مسلم في صحيحه ، كتاب الكسوف ، باب صلاة الكسوف ٦٢٠/٢ (٩٠١) ، قال : «حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، أخبرنا محمد بن بكر ، أخبرنا ابن جريج ، قال سمعت عطاء يقول : سمعت عبيد بن عمير يقول : حدثني من أصدق (حسبته يريد عائشة) أن الشمس انكسفت على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقام مقاماً شديداً ، يقوم قائماً ثم يركع ، ثم يقوم ثم يركع ، ثم يقوم ثم يركع ، ركعتين في ثلاث ركعات ، وأربع سجادات . . . الحديث .

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوي ١٧/١٨ - ١٨ «انفرد مسلم بذلك عن البخاري ، وضعفه حذاق أهل العلم ، وقالوا أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يصل الكسوف إلا مرة واحدة ، يوم مات ابنه إبراهيم ، وفي نفس هذه الأحاديث التي فيها الصلاة بثلاث ركوعات ، وأربع ركوعات ، أنه إنما صلى ذلك يوم مات إبراهيم ، ومعلوم أن إبراهيم لم يمت مرتين ، ولا كان له إبراهيمان ، وقد تواتر عنه أنه صلى الكسوف يومئذ ركوعين في كل ركعة كما روى ذلك عنه عائشة ، وابن عباس ، وابن عمرو وغيرهم . فلهذا لم يرو البخاري إلا هذه الأحاديث ، وهو أحذق من مسلم ، ولهذا ضعف الشافعي وغيره أحاديث الثلاثة ، والأربعة ، ولم يستحبوا ذلك ، وهذا أصح الروايتين عن أحمد . وروى عنه أنه كان يجوز ذلك قبل أن يتبين له ضعف هذه الأحاديث» .

وقال النووي : «المشهور في مذهب الشافعي أنها ركعتان ، في كل ركعة قيامان ، وقرءتان ، وركوعان ، وأما السجود فسجدتان كغيرهما . . . وبهذا قال مالك ، والليث ، وأحمد ، وأبو ثور وجمهور علماء الحجاز وغيرهم . وقال الكوفيون هما ركعتان كسائر النوافل عملاً بظاهر حديث جابر ، وأبي بكرة أن النبي - صلى الله عليه وسلم - صلى ركعتين . . . إلخ كلامه في صحيح مسلم بشرح النووي ١٩٨/٦ - ١٩٩ . قلت وقد أخرج أبو عوانة في مسنده من حديث عائشة ٤٠٣/٢ (مختصراً) بلفظ (صلى ست ركعات ، وأربع سجادات) .

رواه البخاري في كتاب الكسوف ، باب خطبة الأيام في الكسوف ٢٥/٢ من حديث (٢)

البخاري إلا ذلك. وضعف الشافعي، والبخاري، وأحمد في أحد^(١) الروايتين عنه، وغيرهم حديث الثلاث^(٢)، والأربع، فإن النبي - صَلَّى الله عليه وسلّم - إنما صلى الكسوف مرة واحدة، وفي حديث الثلاث والأربع، أنه صلاها يوم مات إبراهيم ابنه، وأحاديث الركوعين كانت ذلك اليوم فمثل هذا الغلط إذا وقع كان في نفس الأحاديث الصحيحة ما يبين أنه غلط، والبخاري إذا روى الحديث بطرق^(٣) في بعضها غلط في بعض الألفاظ، ذكر معه الطرق التي تبين ذلك الغلط، كما قد بسطنا الكلام على ذلك في موضعه^(٤).

فكذلك إذا قيل: أنه وقع تبديل في بعض ألفاظ الكتب المتقدمة كان في الكتب ما يبين لك الغلط، وقد قدمنا أن المسلمين لا يدعون أن كل نسخة في العالم من زمن محمد - صَلَّى الله عليه وسلّم - بكل لسان من التوراة والإنجيل والزبور بدلت ألفاظها، فإن هذا لا أعرف

عائشة - رضي الله عنها - ؛ ورواه في بدء الخلق ٧٦/٤؛ ورواه مسلم في أول كتاب الكسوف، باب صلاة الكسوف ٦١٨/٢؛ والترمذي في الصلاة، باب ما جاء في صلاة الكسوف ٤٥٠/٢ (٥٦١). قال وبهذا الحديث يقول الشافعي، وأحمد، وإسحاق. يرون صلاة الكسوف أربع ركعات في أربع سجعات؛ ورواه أبو داود في صلاة الكسوف، باب من قال أربع ركعات ٦٩٧/١ (١١٨٠)؛ والنسائي في الكسوف، باب كيف صلاة الكسوف ١٣٠/٣؛ وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في صلاة الكسوف ٤٠١/١ (١٢٦٣).

والحديث طويل فأنثرت الاكتفاء بالإشارة إلى مواضعه.

(١) في ط (أخذ) بالخاء والذال المعجمتين، وهو تصحيف.

(٢) في س، ك، ط (الثلاثة).

(٣) سقطت كلمة (بطرق) من أ وزدناها من سائر النسخ.

(٤) للمؤلف - رحمه الله - مبحث جيد ومفصل في هذا الموضوع في مجموع الفتاوى مجلد ١٨ من أوله.

أحداً من السلف^(١) قاله ، وإن كان من المتأخرين من قد يقول ذلك ، كما في بعض المتأخرين من يجوز الاستنجاء بكل ما في العالم من نسخ التوراة والإنجيل ، فليست هذه الأقوال ونحوها من أقوال سلف الأمة وأئمتها . وعمر ابن الخطاب - رضي الله عنه - ، لما رأى بيد كعب الأخبار نسخة من التوراة قال : «يا كعب إن كنت^(٢) تعلم أن هذه هي التوراة التي أنزلها الله ، على موسى بن عمران فاقراها»^(٣) ، فعلق الأمر

(١) في أ (المسلمين) والصواب ما أثبتناه من سائر النسخ .

(٢) سقطت (كنت) من أ وزدناها من سائر النسخ .

(٣) ساق المترجمون لكعب الأخبار أثناء ترجمتهم له أخباراً ، وآثراً كثيرة جداً وخاصة أبو نعيم في حلية الأولياء ، والذهبي في سير أعلام النبلاء ، وابن سعد في الطبقات ، غير أنني لم أقف على الأثر الذي ساقه المؤلف بنصه ، وإنما ساق الإمام الذهبي في سير أعلام النبلاء ٤٩٣/٣ - ٤٩٤ قصة طويلة ذكر فيها أنه كان بيد كعب نسخة من التوراة قال عنها : «إنها التوراة كما أنزلها الله على موسى ، ما غيّرت ولا بدلت . . . » إلخ . ثم عقب الذهبي على هذه القصة بقوله : «هكذا رواه ابن أبي خيثمة ، عن هذبة ، عن همام ، وشهر - يعني ابن حوشب أحد رجال السند - لم يلحق كعباً ، ثم قال الذهبي : «وهذا القول من كعب دال على أن تيك النسخة ما غيّرت ، ولا بدلت ، وأن ما عداها بخلاف ذلك ، فمن الذي يستحل أن يورد اليوم من التوراة شيئاً على وجه الاحتجاج معتقداً أنها التوراة المنزلة ، كلا والله» . اهـ كلامه - رحمه الله - .

قلت : وقد ساق أبو نعيم في الحلية آثاراً كثيرة في ترجمة كعب في الجزئين الخامس من ص ٣٦٤ إلى ٣٩١ نهايته ، وفي الجزء السادس من أوله إلى ص ٤٨ ، وتتبعها كلها فلم أجد ما ذكره المؤلف بنصه ، وقد جاء في ٣٨٩/٥ أن كعباً مر بعمر وهو يضرب رجلاً فقال : على رسلك يا عمر فوالذي نفسي بيده إنه لمكتوب في التوراة ويل لسلطان الأرض من سلطان السماء . . . فقال عمر : إلا من حاسب نفسه ، فقال كعب : والذي نفسي بيده أنها لفي كتاب الله المنزل ما بينهما حرف إلا من حاسب نفسه . . .

وجاء في الحلية ٤٣/٦ : أن كعباً قال لعمر - رضي الله تعالى عنه - : هل ترى في

على ما يمتنع العلم به، ولم يجزم عمر - رضي الله عنه - بأن ألفاظ تلك مبدلة لما لم يتأمل كل ما فيها.

والقرآن والسنة المتواترة يدلان على أن التوراة والإنجيل الموجودين في زمن النبي - صلى الله عليه وسلم - فيهما^(١) ما أنزله الله - عز وجل - ، والجزم بتبديل ذلك في جميع النسخ التي في العالم متعذر، ولا حاجة بنا إلى ذكره، ولا علم لنا بذلك، ولا يمكن أحداً من أهل الكتاب أن يدعي أن كل نسخة في العالم بجميع الألسنة من الكتب متفقة على لفظ واحد، فإن هذا مما لا يمكن أحداً من البشر أن يعرفه باختباره^(٢) وامتحانه، وإنما يعلم مثل هذا بالوحي وإلا فلا يمكن أحداً

منامك شيئاً؟ فانتهره عمر، فقال: إني أجد رجلاً يرى في منامه ما يكون في هذه الأمة.

هذه أقرب النصوص التي وجدتھا إلى النص الذي ذكره المؤلف عن كعب، وقد تتبعت ترجمته في كتب كثيرة سأشير إليها بأجزائها وصفحاتها، ثم تتبعت كتب الآثار وخصوصاً مصنف ابن أبي شيبة، وعبد الرزاق، ومعجم الطبراني، وتهذيب الآثار للطبري، وكتب التفسير التي تعني بالآثار كتفسير ابن جرير، والسيوطي، وابن كثير، وابن أبي حاتم، وغيرها فلم أقف على النص الذي أورده المؤلف وذلك بعد جهد طويل، واستفسار عنه من طلاب العلم المشتغلين بهذا، والله تعالى أعلم.

انظر: طبقات ابن سعد له ترجمة في ٤٤٥/٧؛ وساق له آثاراً في ٣٣٢/٣، ٣٦٠/١، ٣٦٢ وغيرها؛ وحلية الأولياء ٣٦٤/٥ - ٣٩١، ١/٦ - ٤٨؛ وسير أعلام النبلاء للذهبي ٤٩٠/٣ (ترجمة رقم ١١١)؛ والتاريخ الكبير للبخاري ٢٢٣/٧؛ والعبر في خبر من غير ٣٥/١؛ وتذكرة الحفاظ ٤٩/١؛ والنجوم الزاهرة ٩٠/١؛ وتهذيب التهذيب ٤٣٨/٨؛ والإصابة ٢٩٧/٣ (٧٤٩٨)، وجمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ٤٣٤؛ والجرح والتعديل لابن أبي حاتم ١٦١/٧؛ وتهذيب الأسماء واللغات للنووي ٦٨/٢ (٩١).

(١) في أ، س، ك (فيها).

(٢) في ط (باختباره) بالياء التحتية.

من البشر أن يقابل كل نسخة موجودة في العالم بكل نسخة من جميع
الأسنة بالكتب الأربعة والعشرين، وقد رأيناها مختلفة في الألفاظ
اختلافاً بيناً، والتوراة هي أصح الكتب، وأشهرها عند اليهود،
والنصارى، ومع هذا فنسخة السامرة مخالفة لنسخة اليهود والنصارى،
حتى في نفس الكلمات العشر، ذكر^(١) في نسخة السامرة منها من أمر
استقبال الطور ما ليس في نسخة اليهود والنصارى، وهذا مما يبين أن
التبديل وقع في كثير من نسخ هذه الكتب؛ فإن عند السامرة نسخاً
متعددة^(٢).

(١) سقطت (ذكر) من أ.

(٢) نسخ العهد القديم (التوراة) ثلاث نسخ:

الأولى - العبرانية: وهي المعتبرة عند اليهود، وجمهور علماء البروتستانت.

الثانية - اليونانية: وهي المعتبرة عند الكنيسة اليونانية، وعند كنائس المشرق.

(وهاتان النسختان تشتمل على جميع أسفار العهد القديم).

الثالثة - السامرية: وهي المعتبرة عند السامريين، وتشتمل على سبعة أسفار من

العهد القديم؛ الخمسة المنسوبة إلى موسى - عليه السلام -، وسفر يشوع،

والقضاة. ولا يسلّم السامريون الأسفار الباقية.

وقد أخرج الدكتور أحمد السقا كتاباً بعنوان «من الفروق بين التوراة السامرية،

والعبرانية في الألفاظ والمعاني»، ويقع في ست وسبعين صفحة طبعة دار الأنصار.

فمن الفروق التي ذكرها على سبيل المثال:

في سفر التكوين: الإصحاح الأول فقرة ٢.

في السامرية (ورباح الله هابة على وجه الماء).

وفي العبرانية (وروح الله...).

ثم ساق الفروق في سفر التكوين كله، وانتقل بعد ذلك إلى ذكر الفروق في سفر

الخروج، ثم في بقية الأسفار. وهذا الكتاب عظيم الفائدة، وجدير بالقراءة. وقد

أورد الأستاذ موريس بوكاي، جملاً عظيمة من التناقضات الكثيرة بين الأنجيل وكتب

التوراة في كتابه (دراسة الكتب المقدسة) طبعة دار المعارف من ص ٧٥ - ١٣١.

وكذلك رأينا في الزبور نسخاً متعددة تخالف بعضها^(١) بعضاً، مخالفة كثيرة في كثير من الألفاظ والمعاني، يقطع من رآها أن كثيراً منها كذب على زبور داود - عليه السلام -^(٢)، وأما الأناجيل فالاضطراب فيها أعظم منه في التوراة.

فإن قيل: فإذا كانت الكتب المتقدمة منسوخة، فلماذا ذم أهل الكتاب على^(٣) ترك الحكم بما أنزل الله منها؟ قيل النسخ لم يقع إلا في قليل من الشرائع، وإلا فالإخبار عن الله، وعن اليوم الآخر، وغير ذلك لا نسخ فيه^(٤).

وكذلك الدين الجامع والشرائع الكلية لا نسخ فيها، وهو - سبحانه - ذمهم على ترك اتباع الكتاب الأول، لأن أهل الكتاب كفروا من وجهين^(٥): من جهة تبديلهم الكتاب الأول، وترك الإيمان، والعمل ببعضه. ومن جهة تكذيبهم بالكتاب الثاني وهو القرآن، كما قال - تعالى - :

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا تُوْمِنُ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٦).

فبين أنهم كفروا قبل مبعثه بما أنزل عليهم وقتلوا الأنبياء كما

(١) في ط (بعضهما).

(٢) في نسخة أ زيادة جملة (ليست من زبور داود عليه السلام).

(٣) في ط (عن).

(٤) في ط (فلم تنسخ).

(٥) في ط (جهتين).

(٦) سورة البقرة: الآية ٩١.

كفروا حين مبعثه^(١) بما أنزل عليه، وقال - تعالى - :

﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِينَا
بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ
قَتَلْتُمُوهُمْ إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٢).

وقال - تعالى - :

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ
وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾^(٣).

وقال - تعالى - :

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى
أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَفْرٍ
قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٤).

وإذا كان الأمر كذلك فهو - سبحانه - يذمهم * على ترك اتباع
ما أنزله في التوراة والإنجيل *^(٥) وعلى ترك اتباع ما أنزله في القرآن
وبين^(٦) كفرهم بالكتاب الأول، وبالكتاب الثاني، وليس في شيء من
ذلك أمرهم أن يحكموا بالمنسوخ من الكتاب الأول، كما ليس فيه
أمرهم أن يحكموا بالمنسوخ في الكتاب الثاني^(٧).

• • •

(١) في س، ك (مبعثك). (٣) سورة آل عمران: الآية ١٨٤.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٨٣. (٤) سورة القصص: الآيتان ٤٨، ٤٩.

(٥) سقط ما بين النجمتين من أ وزدناه من سائر النسخ.

(٦) في س، ط (مبين).

(٧) هنا ينتهي القسم الأول من الكتاب، وبه ينتهي القسم المطلوب منا تحقيقه ودراسته.

انتهى المجلد الثاني ويليه المجلد الثالث
وأوله فصل [قياس النصارى كتبهم على القرآن قياس باطل]

- ١٨١ بيان معنى الروح القدس ودفع اعتقاد النَّصَارَى ألوهيته
الردَّ على النَّصَارَى في احتجاجهم بآية سورة الحديد
- ١٨٨ على مدح الرهبانية
الردَّ على النَّصَارَى في احتجاجهم بأنَّ الله مدحهم في قوله:
- ٢٠١ ﴿مَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ...﴾ الآية
- ٢١٤ ردَّ دعواهم تعظيم الإسلام لمعابدهم
- ٢٢١ رفض دعواهم وجوب التمسُّك بدينهم بعد بعثة مُحَمَّد — عليه السَّلام —
- ٢٢٤ ردَّ دعوى النَّصَارَى أنَّ الإسلام عظم الحواريين
- ٢٦٨ الردَّ عليهم في زعمهم أنَّ الإسلام عَظُم لإنجيلهم الذي بين أيديهم
- ٢٩١ قيام الحجَّة على من بلغته دعوة الرسل
- ٣١٥ أسباب ضلال النَّصَارَى وَمَنْ على شاكلتهم
- ٣٣٨ الخوارق التي يضل بها الشياطين أبناء آدم
- ٣٥٤ إثبات أنَّ عند أهل الكتاب ما يثبت صدق محمد — صَلَّى الله عليه وسلَّم —
- ٣٦٨ رفض دعواهم أنَّ القرآن صدَّق كتبهم التي بين أيديهم
- رد دعواهم تناقض خبر الأنبياء السابقين مع ما أخبر
- ٣٨٥ به محمد — صَلَّى الله عليه وسلَّم —
- ٣٩٥ وقوع التبديل في ألفاظ التوراة والإنجيل وانقطاع سندهما
- الردَّ على النَّصَارَى في دعواهم بأنَّ المسلمين يقولون
- ٤١٠ إنَّ التحريف وقع بعد مبعث محمد — صَلَّى الله عليه وسلَّم —
- ٤٢١ دعوة أهل الكتاب إلى الحكم بما في كُتُبهم الصحيحة



فهرس الجزء الثاني

الموضوع	الصفحة
فصل	٥
الردّ على النصارى في زعمهم أنّ محمداً - عليه السّلام - لم يُبشّر به	٣٠ ✓
إبطال استدلال النصارى على صحّة دينهم بما جاء عن الأنبياء السابقين	٤٢ ✓
إبطال دعوى النصارى إلهية المسيح - عليه السّلام -	٤٦
ردّ دعوى النصارى خصوصيّة الإسلام لكون كتابه باللسان العربي	٥٢ ✓
دفع ما يوهّم الخصوصية لكون القرآن عربياً	٦٩
ردّ زعم النصارى عصمة الحواريين المترجمين للإنجيل	٨٠
الردّ على زعمهم الاستغناء برسل الله إليهم عن رسالة محمد - صلى الله عليه وسلّم -	٨٦
ردّ زعمهم بأنّ عدل الله يقتضي أن لا يطالبوا باتباع إنسان لم يأت إليهم	١٠٢
ردّ عقيدة النصارى في الصّلب والفداء	١٠٨
الردّ على النصارى في دعواهم أن (من) في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا...﴾ الآية، تقتضي العرب وحدهم	١١٧
توسّط المسلمين بين تقصير اليهود وغلوّ النصارى	١٣٣
الفرق بين ما يضاف إلى الله من صفاته وما يضاف إليه من سلوكاته	١٥٥
إبطال دعواهم اتحاد كلمة الله بجسد المسيح - عليه السّلام -	١٦٨
ردّ دعواهم الفضل لهم على المسلمين، بقوله تعالى: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ...﴾ الآية	١٧٨